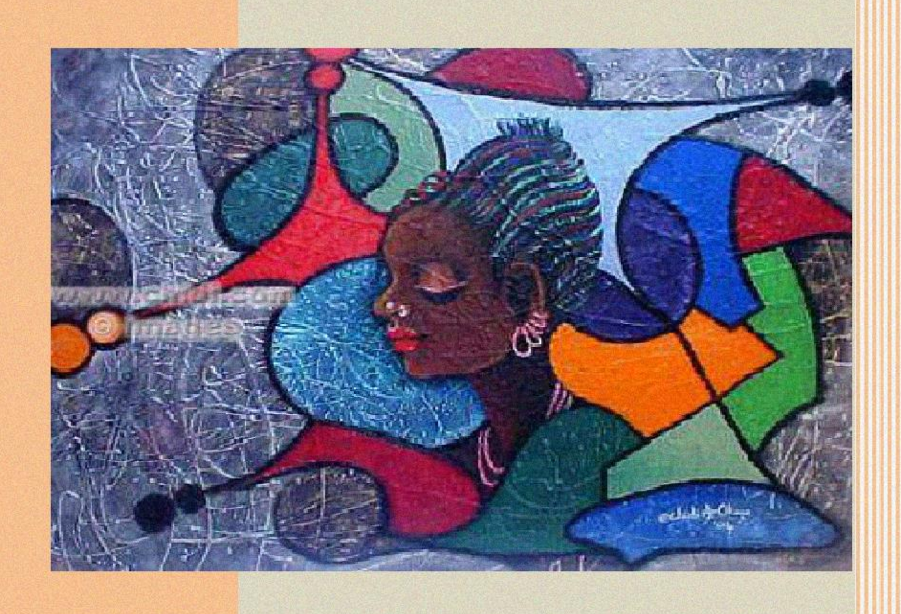
# ايزابيل الليندي

# الحب والظلال



ترجمة : صالح علماني

غلاف : علي مولا

# الفهرس


ربيع آخر ........................ ٩

الظلال ........................ ٨٧

الوطن العذب ........................ ١٩١

الأهالي
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

# الحب و الظلال

ايزابيل الليندي

ترجمة صالح علماني

ايـزابيـل الليـنـدي، التي ظهـرت في دنيا الأدب فجأة حين صدرت روايتها الأولـى «بيت الأرواح» عام ١٩٨٢، أصبحت تقف اليــوم في الصف الأول مع الروائيين الناطقين بلغة سيرفانتس، وصارت تعتبر المرأة الوحيدة في تيار الواقعية السحرية في الرواية الاميركية اللاتينية.

تقول ايزابيل الليندي (وهي من مواليد ١٩٤٢): «لقد دخلت عالم الأدب بصـورة مفـاجئـة، في سن لا تطمـح فيـه نسـاء أخـريـات بأكثر من رفو جوارب أحفـادهن. لقـد اقتحمت الأدب اقتحـاماً وفوجئت بالصدى الذي أثارته كتبي، لأني لم أكن أتوقعه».

صدر للمؤلفة ثلاث روايات: «بيت الأرواح» ١٩٨٢، «الحب والظلال» ١٩٨٤، «ايفالونا» ١٩٨٧، اضافة الى مجموعة قصص قصيرة.

الناشر

هذه قصة رجل وامرأة، أحبا بعضهما بعضاً بكل جوارحهما، لينجوا بهذا من حياة مبتــذلــة. وقــد حملت القصــة في ذاكــرتي بحـــرص كي لا يبليهـا الـزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخـــيراً. لقـد فعلت هذا من أجلهـما، ومن أجـل آخـرين أو دعـوني حيـواتهم قائلين: خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح.

إ. أ.

# القسم الأول

# ربيع آخر

الحب وحده بِعِلمه
يعيدنا أبرياء

فيوليتا بارا

اليوم المشمس الأول بخر الرطوبة التي تراكمت في الأرض خلال شهور الشتاء، ودفأ العظام الهشة للمسنين الذين استطاعوا الخروج للتنزه في ممرات الحديقة. السوداوي وحده بقي في فراشه، لانه لا جدوى من اخراجه إلى الهواء الطلق إذا كانت عيناه لا تريان شيئاً سوى كوابيسه الذاتية، ومسامعه صماء عن تغريد العصافير. كانت الممثلة خوسيفينا بيانتشي ترتدي فستاناً سابغاً من الحرير استخدمته قبل نصف قرن لتمثل تشيخوف، وتحمل مظلة تحمي بها بشرتها التي من بورسلان مفتت، وتتقدم على مهل بين الأصص التي ستمتلىء عما قريب بالأزهار واليعاسيب.

ـ يا للفتية المساكين ـ ابتسمت الثمانينية لدى احساسها برعشة خفيفة بين أزهار اللاتنسيني، واعتقادها بوجود المعجبين بها، أولئك الذين كانوا يعشقونها سراً ويختبئون بين النباتات ليترصدوا مرورها.

تحرك الكولونيل بضعة سنتيمرات متكئاً على عكاز الألمنيوم التي يستخدمها في اسناد ساقيه الواهنتين كالقطن. فاحتفاء بالربيع الوليد، ولتحية العلم الوطني التي لا بد من ادائها كل صباح، علق على صدره ميداليات الكرتون والصفيح التي صنعتها له ايرين. وحين كان اضطراب رئتيه يسمح له، كان يصرخ مصدراً التعليمات للفرقة وآمراً الأجداد المرتعشين بالابتعاد عن ميدان التدريب، حيث يمكن لجنود المشاة ان يسحقوهم بخطواتهم الاستعراضية النشيطة وبأحذيتهم

العسكرية المصقولة . خفقت الراية في الهواء كطير رخمة غير مرئي قريباً من اسلاك الهاتف، واتخذ جنوده وضعية التأهب بصرامة : النظر إلى الأمام . . قرع طبول . . أصوات رجولية تترنم بالنشيد الوطني المقدس الذي لا تسمعه إلا اذناه . قاطعته ممرضة ترتدي زي الميدان، وكما هي عادة هؤلاء النساء، كانت صامتة ومنافقة، وتحمل منديلاً لتمسح به اللعاب الذي سال على جانبي شفتيه وبلل قميصه . أراد أن يقدم لها وساماً أو أن يرفّعها رتبة، لكنها دارت على أعقابها وتركته واقفاً مع نواياه المعلقة في الفراغ بعد أن حذرته من أنها ستضربه ثلاث ضربات على قفاه إن هو عاد لتلويث سرواله الداخلي، لأنها سئمت من تنظيف براز الآخرين . عمن تتحدث هذه المعتوهة؟ تساءل الكولونيل، واستنتج انها تشير بكلامها دون شك إلى الأرملة الأكثر ثراء في المملكة، فهي الوحيدة التي تستخدم الحفاضات في المعسكر بسبب جرح من قذيفة مدفع فتتت جهازها الهضمي وأقعدتها إلى الأبد على كرسي ذي عجلات، ولكنها لم تكن تلقى التوقير اللازم رغم كل هذا، فلدى أدنى سهو منها يسلبونها دبابيس شعرها وشرائطها . ان العالم مليء بالأوغاد والسفلة .

- لصوص! لقد سرقوا خفيّ! - صرخت الأرملة .

فأمرتها المشرفة التي كانت تقود المقعد ذا العجلات لتضعها في الشمس :

- اصمتي أيتها الجدة، فقد يسمعك الجيران .

واصلت المقعدة توجيه الاتهامات إلى أن فقدت أنفاسها واضطرت إلى السكوت كي لا تموت، إنما بقيت لديها القدرة لتشير باصبع مصاب بالتهاب المفاصل إلى الماجن الذي يفتح سرواله ليعرض عضوه المحزن على السيدات . لم تكن أي منهن لتهتم به، باستثناء سيدة ضئيلة ترتدي ملابس الحداد، كانت تراقب حبة التين اليابسة تلك بشيء من الحنان . فهي مغرمة بصاحبها وتترك باب غرفتها مفتوحاً في الليل لتحثه على الدخول .

تمتمت الأرملة المثرية :

- قحبة!

لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام، لأنها تذكرت فجأة الأزمنة القديمة، عندما كان ما يزال لديها زوج، وكان يدفع لها ذهباً مقابل امتياز احتضانه بين فخذيها الثخينين، وكان يفعل ذلك بكثرة، حتى إنها توصلت إلى امتلاك كيس مليء بالذهب، بلغ من الثقل وزناً لا يمكن لأي بحار أن يحمله على كتفه.

- أين هي نقودي الذهبية؟

وردت عليها الموظفة التي كانت ساهية وراء الكرسي ذي العجلات:

- عم تتحدثين أيتها الجدة؟

- أنت سرقتها! سأستدعي الشرطة!

فردت الأخرى دون أن تضطرب:

- كفى ازعاجاً أيتها العجوز.

كانوا قد أجلسوا المفلوج على مقعد ودثروا ساقيه بشال، كان يبدو جديا ووقوراً رغم تشوه نصف وجهه، وكانت يده العاجزة مدسوسة في جيبه بينما تحمل يده الأخرى غليوناً فارغاً. وبأناقته البريطانية، كان يرتدي سترة على مرفقيها رقعتان جلديتان. انه ينتظر البريد، ولهذا طلب أن يجلسوه قبالة البوابة، ليرى ايرين حين تدخل ويعرف من النظرة الأولى ان كانت تحمل رسالة اليه. وإلى جانبه كان يتشمس شيخ حزين لا يبادله الحديث لأنهما متخاصمان، رغم أن كليهما قد نسي سبب الخصام. وقد يحدث أن يتوجه أحدهما بالكلام الى الآخر، في لحظة نسيان، فلا يتلقى جواباً، وذلك بسبب الصمم أكثر مما هو بسبب حالة العداء القائمة بينهما.

من شرفة الطابق الثاني، حيث البنفسجة لم تُنبت أوراقاً ولا أزهاراً بعد، أطلت بياتريس الكانترا دي بيلتران. كانت ترتدي بنطالاً من جلد الغزال خروبي اللون وبلوزة فرنسية مماثلة، تنسجم مع ظل حاجبيها وخاتمها الذي من الذهب، متبرجة بمكياج الصباح، طازجة وهادئة بعد جلسة التمارين الشرقية التي تمارسها للاسترخاء من التوترات ونسيان أحلام الليل، وتحمل في يدها كأساً

من عصير الفاكهة لتسهيل الهضم وتنقية البشرة. تنفست بعمق ملاحظة الدفء الجديد في الهواء، وحسبت الأيام المتبقية لرحلة اجازتها. لقد كان الشتاء قاسياً جداً، وقد فقدت خلاله لونها البرونزي. تأملت بصرامة الحديقة التي تحت قدميها، المتجملة بحلول الربيع، ولكنها لم تنتبه إلى البريق الذي في حجارة الجدران ولا إلى شذى الأرض الرطبة. لقد تمكن العشب الدائم من اجتياز أيام الصقيع الأخيرة، وما زال القرميد يتلألأ بندى الليل، وجناح النزلاء، بسقوفه ونوافذه الخشبية، كان يلمع كئيباً وباهتاً. قررت انه لا بد لها من تجديد طلاء البيت. كانت عيناها تحصيان المسنين وتتفحصان أدق التفاصيل لتتأكد من أن تعليماتها تنفذ. لم يكن ينقص أحد من النزلاء، باستثناء ذلك المغموم التعيس الذي يبقى في سريره وهو أقرب إلى الموت كآبة منه إلى الحياة. تفحصت كذلك المشرفات، ممعنة النظر في مرايلهن النظيفة والمكوية، وشعورهن المربوطة وخفافهن المطاطية. ابتسمت راضية، فكل شيء يسير على ما يرام وها قد انقضى خطر الأمطار وما يرافقها من أوبئة، دون أن تسلبها أياً من زبائنها. وبقليل من الحظ ستضمن انتظام الايراد لبضعة شهور أخرى، لأن المريض المنهوك سيستمر في الحياة خلال الصيف كله.

ومن مرقبها، رأت بياتريس ابنتها ايرين وهي تدخل حديقة ملجأ «مشيئة الرب». وتأكدت ساخطة من أنها لم تستخدم الباب الجانبي المؤدي إلى البهو الخاص وإلى درج المنزل الذي في الطابق الثاني، حيث تقيمان. لقد أعدّت مدخلاً خصوصياً منفصلاً لتتحاشى المرور من مأوى العجزة عند قدومها إلى بيتها أو خروجها منه، لأن الشيخوخة تبعث فيها الكآبة، وهي تفضل مراقبتها من بعيد. أما ابنتها فلا تضيع فرصة لزيارة النزلاء وكأنها تشعر بالسعادة في صحبتهم. يبدو انها اكتشفت لغة للتغلب على الصمم وفقدان الذاكرة. انها تتجول الآن بينهم لتوزع عليهم نوعاً من الحلوى الطرية، آخذة في اعتبارها أسنانهم الاصطناعية. رأتها تدنو من المفلوج، فتعطيه رسالة، وتساعده على فتحها لأنه لا يستطيع عمل ذلك بيده السليمة الواحدة، وتبقى إلى جانبه متمتمة. بعد ذلك

قامت الفتـاة بجـولـة قصيرة مع الرجل المسن الأخر، ورغم أن الأم لم تكن تسمع من الشرفة ما يقولانه، إلا أنها خمنت بانهما يتكلمان عن ابنه وكنته وعن الطفل، وهو الموضوع الوحيد الذي يهمه. لقد منحت ايرين كلاً منهم ابتسامة، أومداعبة، أو بضع لحظات من وقتها، فيما بياتريس في الشرفة تفكر انها لن تفهم أبداً هذه الشابة الغـريبـة الطبـاع والتي لا تشبهها إلا قليـلاً. وفجأة، دنا الجد الشهواني من ايرين ووضـع كلتـا يديه على نهديها، ضاغطاً إياهما بحركة أقرب إلى الفضول منها إلى الشبق. وقفت جامـدة لبضـع لحظـات بدت لأمهـا زمناً لا نهائياً، إلى أن انتبهت إحدى المشرفات للأمر فهرعت لتتدخل. لكن ايرين أوقفتها بايماءة، وقالت مبتسمة:

- دعيه. إنه لا يؤذي أحداً بهذا.

غادرت بيـاتـريس موقـع مراقبتها وهي تعض شفتيها. مضت إلى المطبخ، حيث كانت الخـادمـة روسـا تقطـع الخضار للغداء وتتناوم مع المسلسل الاذاعي. كانت مستـديـرة الـوجـه، سمراء، مبهمة السن، واسعة الحضن، لدنة الكرش، ضخمـة الفخـذين. فهي بدينـة لدرجة انها لم تكن قادرة على مقاطعة ساقيها ولا على حك ظهرها بنفسها. كيف تنظفين مؤخرتك يا روسا؟ كانت إيرين تسألها في صغـرهـا وهي مذهـولـة من هذه الكتلة المريحة التي تزداد كيلوغراماً كل عام. فترد عليهـا روسـا دومـاً، وفية لعادتها في الاستشهاد بالأمثال: أية أفكار تخطر لك أيتها الصغيرة! ان في السمنة لجمالاً.

قالت ربة اليت وهي تجلس على كرسي بلا مسند وترشف عصير الفاكهة ببطء:

- انني قلقة بشأن ايرين.

لم تجب روسـا بشيء، لكنهـا أطفأت المذياع داعية إياها بذلك للبوح لها بما تكنـه، فتنهـدت السيـدة: عليّ أن أكلم ابنتي، لست أدري في أيـة شيـاطين تزج نفسهـا، ولا أعـرف من هم هؤلاء المخنثـون الذين يرافقونها. لماذا لا تذهب إلى النـادي لتلعب التنس وتتعـرف هنـاك على شبان من طبقتها؟ إنها تفعل ما يحلو لها

متذرعة بعملها، لقد بدت لي الصحافة شيئاً مريباً على الدوام، مهنة أناس غير محترمين. لو أن خطيب ايرين يعرف مايجري لما احتمل ذلك، لأنه لايمكن لخطيبة ضابط في الجيش أن تسمح لنفسها بهذا الترف. كم من المرات قلت لها هذا؟ ولا تقولوا لي أن الحفاظ على السمعة هو أمر عفا عليه الزمن. الزمن يتبدل، ولكن ليس إلى هذا الحد. ثم ان العسكريين يا روسا ينتمون الآن إلى المجتمع الراقي، وليسوا كما كانوا في السابق. لقد تعبت من شذوذات ايرين. لدي مشاكل كثيرة، حياتي ليست سهلة، وأنت تعرفين الكفاية. منذ اختفى اوسيبيو تاركاً الحسابات المصرفية مجمدة ومخلفاً لي قطاراً من النفقات جديراً بسفارة، صار عليّ أن آتي بالمعجزات كي أبقى في مستوى لائق؛ لكن كل شيء صعب، المسنون عبء، وأظن انهم يكلفون في نهاية المطاف من النفقات والجهد أكثر مما يعودون به من فائدة، ومن الصعب الحصول منهم على الايراد، خصوصاً هذه الأرملة اللعينة، فهي تتخلف دوماً في دفع شهريتها. ليست هذه التجارة بالرابحة على كل حال. ولم تعد لدي القوة الكافية لملاحقة ابنتي كي تضع أصبغة على وجهها وتلبس كما يشاء الرب حتى لا تُخيف خطيبها. لقد أصبحت في سن تستطيع معها الاعتناء بنفسها وحدها. ألا ترين ذلك؟ انظري إليّ، كيف ستكون حالتي لولا عنادي واصراري؟ لولا ذلك لكنت مثل كثيرات من صديقاتي، ولكان وجهي خريطة من التجاعيد وأقدام الدجاج، ولكانت جميع أجزاء جسدي مليئة بالكتل والدرنات. لكنني أحتفظ بقوام بنات العشرين وببشرة ناعمة. لا، لا يمكن لأحد القول ان حياتي خالية من الهموم، بل على العكس، ان القلق يفتك بي.

ـ انك تملكين وجهاً في المجد ومؤخرة في الغم يا سيدتي.

ـ لماذا لاتكلمين ابنتي يا روسا؟ أظن انها تستمع اليك خيراً من استماعها إلي.

وضعت روسا السكين على الطاولة ونظرت إلى سيدة البيت بلا تعاطف. فهي على خلاف مبدئي ودائم معها، وخصوصاً فيما يتعلق بايرين. لم تكن تقبل بتوجيه النقد إلى البنية، إلا انها رأت أن الأم محقة في هذه الحالة. فهي تحب أيضاً

أن تراهـا مزينـة بطـرحـة شفـافـة وأزهار عذرية، وخارجة من بوابة الكنيسة برفقة الكابتن غوستافو مورانتي تحت صفين من السيوف المرفوعة، لكن معرفتها بالعالم ـ التي احـرزتهـا من خلال مسلسـلات الاذاعة والتلفزيون ـ تشير إلى القدر الكبير من المعاناة وإلى الصروف التي لا بد من احتمالها قبل الوصول إلى النهاية السعيدة.

ـ من الأفضل تركها على هواها يا سيدتي. فمن يولد زيزاً يموت مغنياً. ثم أن ايرين لن تعيش حياة طويلة، هذا باد في عينيها الساهيتين.

ـ بالله عليك يا امرأة! أية حماقات تقولين!

دخلت ايـرين المطبـخ مرتـديـة تنـورة قطنيـة فضفـاضـة وبشعرها القصير المشعث. قبلت المـرأتـين من وجنتيها وفتحت الثلاجة لتشم ما في داخلها. كانت أمها توشك أن تفلت لها خطبة مرتجلة، لكنها أدركت في لحظة صفاء أن أي كلام سيكون بلا جدوى. فهذه الفتاة التي تحمل آثار بصمات على نهدها الأيسر كانت بعيدة عنها بعداً فلكياً.

ـ ها قد حل الربيع يا روسا. قريباً ستتفتح أزهار اللاتنسيني ـ قالت ايرين وهي تغمـز بتـواطؤ استطاعت الأخرى فهمه، لأنهما كانتا تفكران بالطفل حديث الولادة الذي سقط من طاقة النور.

سألت بياتريس:

ـ ماذا هنالك من جديد؟

ـ عليّ أن أكتب تحقيقاً يا أماه. سأقابل نوعاً من القديسة. يقولون انها تحقق معجزات.

ـ أي نوع من المعجزات؟

فقالت:

ـ تزيل الثآليل، تشفي الأرق والفؤاق، تسكن اليأس وتجلب المطر.

تنهـدت بيـاتريس دون ان تبدي الرضا عن مزاج ابنتها. وعادت روسا إلى تقطيـع الجـزر وإلى المعـانـاة مع المسلسل الاذاعي، وهي تدمدم انه عندما يوجد

القديسون الأحياء فالقديسون الأموات لا يحققون المعجزات. ذهبت ايرين لاستبدال ثيابها واحضار آلة تسجيلها بانتظار مجيء فرانثيسكو ليال، الذي يرافقها دوماً لالتقاط الصور أثناء عملها.



تأملت ديغنا رانكيليو الحقل ولمحت العلائم المبشرة بتبدل الفصل. فتمتمت ما بين دعاءين:

ـ قريباً سيحل موسم تناسل الحيوانات وسيمضي هيبوليتو مع السيرك.

كان من عادتها مخاطبة الرب. وفي هذا الصباح، وبينما هي مشغولة باعداد الفطور، تاهت في صلوات واعترافات مطولة. لقد قال لها ابناؤها مرات ومرات ان هذه العادة الانجليكانية تثير سخرية جميع الناس. ألا يمكنك عمل ذلك بصمت ودون تحريك شفتيك؟ لكنها لم تكن توليهم اهتماماً. كانت تشعر بالرب كحضور جسدي في حياتها، واكثر قرباً ونفعاً من زوجها الذي لا تراه إلا في الشتاء. ولم تكن تطلب من الرب سوى بعض المساعدات الضئيلة، لأنها عرفت أن كثرة المطالب تثير في نهاية الأمر سخط الكائنات السماوية. فكانت تقتصر على طلب نصيحة حول شكوكها الكثيرة ومغفرة لآثامها وآثام الآخرين، شاكرة اثناء ذلك أي حدث صغير مؤات: توقفْ المطر، فارقت الحمى خاثينتو، نضجت البندورة في البستان. ومع ذلك، فإنها تلح على المُخلِّص منذ أسابيع مطالبة بشفاء ايفانخيلينا.

ـ اشفها ـ كانت تتوسل هذا الصباح وهي تضرم نار المطبخ وتضع أربع طوبات لتسند إليها الشبكة الحديدية فوق الحطب المتقد: ـ اشفها يارب، قبل أن يأخذوها إلى مشفى المجاذيب.

لم تفكر مطلقاً، حتى ولا أمام موكب المتضرعين المتوسلين حدوث معجزة، ان النوبات التي تصيب ابنتها هي من علائم القداسة. وأقل من ذلك كان ايمانها بالعفاريت المهيجة، رغم ما تؤكده الفضوليات الثرثارات بعد رؤيتهن فلماً عن الرقى السحرية في سينما القرية، حيث اللعاب في الفم والعيون الزائغة هما اشارة

إلى وجود الشيطان. ان بديهتها وعلاقتها بالطبيعة وتجربتها الطويلة كأم لعدد كبير من الأولاد، أتاح لها أن تقدر أن مرض ابنتها هو مرض جسدي وذهني، لا وجود فيه لما هو شيطاني أو إلهي. فكان تعزوه إلى لقاحات الطفولة أو للعادة الشهرية. لقد عارضت دوماً جماعة الخدمة الصحية، الذين يتنقلون من بيت إلى بيت لاقتناص الأطفال المختبئين بين أشجار البستان وتحت الأسرة. ورغم ان الأولاد كانوا يرفسون بأقدامهم مقاومين، ورغم أنها كانت تقسم انهم قد عولجوا، إلا أنهم كانوا يصطادونهم ويحقنونهم دون رحمة. كانت موقنة ان هذه السوائل تتجمع في الدم مسببة اختلالاً في الجسم. ومن جهة اخرى، فإن الحيض الذي يعتبر حدثاً طبيعياً في حياة أي امرأة، قد يؤدي إلى احتدام اهواء بعضهن والى تسليط أفكار آثمة على اذهانهن. ويمكن لأي واحد من هذين الأمرين - اللقاحات أو الحيض - أن يكون سبب الداء الرهيب. انما هناك شيء ثابت ومؤكد: فابنتها تنحل وتضعف، كما يحدث للمصابين بأخبث الأمراض، وان هي لم تشف خلال فترة معينة، فستنتهي إلى الانهيار أو إلى القبر. لقد مات لها أبناء آخرون في طفولتهم بسبب الأوبئة أو في حوادث لا رد لها. ومثل هذا يحدث لكل الأسر. فإذا كان الطفل صغيراً جداً لم يبكوه، لأنه يصعد مباشرة إلى السماء مع الملائكة، ليشفع للمؤجلين على الأرض. لكن فقدان ايفانخيلينا بدا لها مؤلماً، لأنها ستكون مسؤولة أمام أمها الحقيقية. وهي لا تريد أن تبدو على أنها أهملت الفتاة، لأن الناس سيتهامسون عندئذ من وراء ظهرها.

كانت ديغنا هي أول من يستيقظ في بيتها واخر من يأوي إلى الفراش. فمع صياح الديك تكون في المطبخ لتضع الحطب فوق الجمر الذي ما زال ساخناً من الليلة الفائتة. ومنذ ان تبدأ بغلي الماء للفطور، لا تعود إلى الجلوس. فهي مشغولة دوماً بالأطفال والغسيل والطعام والبستان والبهائم. ومهماتها اليومية متشابهة لا تتبدل، مثل سبحة محدودة الحبات تحصر وجودها. كانت لا تعرف الراحة ولا تنعم بها إلا عندما تضع مولوداً آخر. فحياتها عبارة عن طقوس متتالية لا تغيير فيها، اللهم إلا تلك التي تشير إلى تبدل الفصول. ماكانت تعرف سوى العمل والتعب،

وكـانت أهـدأ ساعات النهار بالنسبة لها هي ساعة الأصيل، حينَ تتناول أشغالَ الإبرة ومـذيـاعـاً يعمـل بالبطـارية، فتنتقل الى عالم ناء لا تفقه منه إلا القليل. ولم يكن قدرهـا بأفضـل أو أسـوأ من قدر النساء الأخريات. بل انها تجد نفسها أحياناً امرأة محظـوظـة، لأن هيبـوليتو لا يتصرف معها كفلاح جلف على الأقل، فهو يعمل في السـيرك، فنـان، يجوب الدروب، ويرى الدنيا ويروي لدى عودته أموراً عجاباً. انـه يتنـاول كؤوسـه من النبيـذ، وهـذا ما لا أنكره، لكنه طبيب في أعماقه. هكذا كانت تفكر ديغنا. صحيح ان الفراغ الذي يسببه غيابه كان عظيماً في موسم اعداد الأرض، وفي موسم البـذار، ومـوسم الحصـاد، ولكن كانت لهذا الـزوج الجـوال خصـال معـوضـة، فهـو لا يقـدم على ضربهـا إلا إذا كان مخمـوراً وحين لا يكون براديليـو، الابن الاكـبر، موجـوداً. لأن هيبـوليتـو رانكيليو لا يرفع يده عليها أمام الفتى. ثم انهـا تنعم بحـرية اكبر من حرية النساء الأخريات، وتزور الصديقات دون أن تطلب إذنـاً من أحـد، ويمكنهـا حضـور الطقـوس الـدينيـة في الكنيسـة الانجليكـانيـة الحقيقية، وقد ربت أبناءها على اخلاقيات هذه الكنيسة. وكانت معتادة على اتخاذ القرارات بنفسها دوماً، اللهم إلا في الشتاء، حين يرجع زوجها إلى بيتـه. عنـدئذ تحني رأسها، وتخفض صوتها وتستشيره قبل ان تتصرف. ولكن كان لهذه الفـترة محاسنهـا أيضـاً، رغم أن المطر والفقر كثيراً ما يبدوان أبديين على الأرض. فهي فترة راحـة، تسـتر يـح خلالها الحقول، وتبدو الأيام أقصر، ويتأخر الفجـر في البـزوغ، فينـامـون منذ الساعة الخامسة كي يوفروا الشموع. وعندئذ، وفيما هي تحت دفء الأغطية، تتمكن من تقدير قيمة الرجل.

ولعمله كفنـان، لم يشـارك هيبـوليتـو في النقابات الفلاحية ولا في غيرها من بدع الحكومة السابقة، ولهذا تركوه بسلام ولم يلحق به أي سوء يأسفون عليه حين انقلب كل شيء ليعـود كما كان في زمن الأجـداد. لقـد كانت ديغنـا، وهي ابنـة وحفيـدة فلاحـين، شديـدة الحـذر والحيطـة. فلم تؤمن يوماً بكلمات المستشارين وعـرفت منـذ البـدء ان الاصـلاح الزراعي سينتهي نهاية سيئة. وقد أعلنت ذلك دوماً، لكن أحداً لم يولها اهتماماً. فكانت اسرتها أوفر حظاً من آل فلوريس، ذوي

ابفـانخيلينـا الحقيقيـين، ومن كثـير ين من المشتغلين في الأرض ممن وضعوا آمالهم وحياتهم في مغامرة الوعود والقلاقل تلك.

كان هيبـوليتـو رانكيليـو يتمتـع بسجايا الزوج الصالح، فهو هادىء، ليس بالمتقلب أو العنيف، ولم تُعرف له علاقـة بنسـاء اخـريـات ولا رذائل كبر ى. وهو يأتي إلى البيت في كل سنـة ببعض المـال، اضـافـة إلى هديـة تكـون بلا فائدة في معظم الأحيـان، لكنهـا تقـابـل بالترحاب دوماً، لأن المهم هو النوايا. كان وسيم المظهـر، لكنـه لم يتخـل عن الفضيلة أبداً مثلما يفعل غيره من الرجال الذين ما أن يتزوجوا حتى يبدأوا بمعاملة زوجاتهم كالبهائم، كما تقول ديغنا، ولهذا فقد منحته ابناء بسعادة، بل وبشيء من المتعة. وعندما تفكر بمداعباته تتورد خجلاً. فهي لم تسمـح لزوجهـا بأن يراهـا عاريـة أبداً، لأن الحشمة قبل كل شيء. لكن ذلك لم يقلل من سحـر مخدعهـا. كانت مولعة بالأشياء الجميلة التي يحسن قولها، فقررت ان تكـون زوجـة له أمـام الله والسجل المدني، ولم تسمح له بملامستها لتصل إلى ليلة الزفاف عذراء، تماماً مثلما تتمنى لبناتها ان يفعلن، فهكذا يفرضن احترامهن ولا يجرؤ أحد على اتهامهن بالخفة. لكن ذلك كان زمناً آخر، والحفاظ على عفة البنات يصبح أصعب فأصعب الآن. فما أن ترفع احدانا نظرها عنهن حتى يذهبن إلى النهـر. أبعثهن إلى القـريـة لشـراء السكـر فيغبن لسـاعات. أصر على ان يرتـدين ملابس محتشمـة، لكنهن يرفعن تنـانـيرهن، ويفتحن أزرار بلوزاتهن ويصبغن وجـوههن. آه، يا ربـاه! ساعـدني على تربيتهن حتى الـزواج وحينئـذ أستطيـع أن أستـريح. لا أريد أن تتكرر المصيبة التي حلت بكبراهن، اغفر لها يا رب، لقد كانت صغيرة ولم تكن تدرك ما الذي تفعله، وقد جرى ذلك بسرعة مع المسكينة، حتى أنها لم تضطجع كما البشر، بل فعلت ما فعلته وهي واقفة، مستندة إلى جذع شجـرة الفنـاء كالكـلاب؛ احفـظ الاخـريـات يارب كي لايأتي تافه ليلهو بهن، لأن براديليـو سيقتله في هذه المرة وستقـع البليـة على هذا البيت؛ لقد نلت حصتي من العار والألم بخاثينتو؛ الطفل المسكين، انه غير مسؤول عن عاره.

خاثينتـو، أصغـر أفـراد الأسـرة، هو في الحقيقـة حفيـدهـا، ثمرة زنا ابنتها

الكبرى مع رجل غريب جاء في الخريف وطلب ان يسمحوا له بقضاء الليل في المطبخ. كان بارعاً بالمجيء بينما هيبوليتو يجوب القرى مع السيرك وبراديليو يؤدي الخدمة العسكرية. هكذا هي الأمور، لم يكن يوجد في البيت رجل لأخذ الثأر، كما يقتضي الواجب. وعرفت ديغنا ما يجب عليها عمله: دثرت الوليد، وغذته بحليب فرس وبعثت بأمه إلى المدينة لتعمل كخادمة. وعند عودة الرجال إلى البيت، واجهتهم بالأمر الواقع وكان عليهم أن يقبلوا به. بعد ذلك اعتادوا على وجود الطفل بينهم وانتهوا إلى اعتباره ابناً آخر من أبنائهم. ولم يكن هو الابن الغريب الوحيد الذي نشأ في منزل آل رانكيليو، فقبل خاثينتو التقطوا أبناء آخرين: أيتاماً تائهين طرقوا باب البيت يوماً، ثم نسوا مع مرور السنين انعدام آصرة القرابة ولم يبق لديهم إلا العادة والحنان.

ملأت ديغنا الكأس بعشبة المتة لزوجها مثلما تفعل كل يوم مع اطلالة الفجر من وراء الجبال، ووضعت له كرسيه في الركن القريب من الباب، حيث الهواء أنقى. وأحرقت بضعة قوالب من السكر ووزعت اثنين منها في كل فنجان صفيحي لتحضر شراب البوليو[1] للأبناء الكبار. ثم بللت خبز اليوم السابق ووضعته على الجمر، وصفت الحليب للأطفال، ومزجت في مقلاة سوداء من كثرة الاستعمال، خليطاً من البيض والبصل.



خمسة عشر عاماً مضت على اليوم الذي ولدت فيه ايفانخيلينا في مستشفى لوس ريسكوس، لكن ديغنا تستطيع أن تتذكره كما لو أنه حدث منذ وقت قريب. فبما انها كانت قد انجبت مرات عديدة، فقد وضعت مولودها بسرعة، ورفعت نفسها مستندة إلى مرفقيها، كما كانت تفعل دوماً، لترى الوليد وهو يخرج من أحشائها، متحققة من شبهه بأولادها الآخرين: الشعر الخشن القاتم كشعر الأب

---

١ ـ شراب أوراق النباتات تشبه النعناع

والبشرة البيضاء التي تفخر بها. لهذا، حين حملوا اليها طفلة ملفوفة بخرق ولمحت زغباً أشقر يغطي جمجمتها شبه الصلعاء، عرفت دون أدنى شك أنها ليست ابنتها. وكانت ردة فعلها الأولى ان انكرتها واحتجت، لكن الممرضة كانت على عجلة من أمرها، فرفضت الاستماع إلى حججها، ووضعت لها اللفافة بين ذراعيها وانصرفت. بدأت الطفلة بالبكاء، ففتحت ديغنا قميص نومها بحركة قديمة قدم التاريخ، ووضعتها على ثديها، فيما هي تتداول مع جارتها في صالة الأمومة المشتركة بأن هناك خطأ دون ريب: فهذه ليست ابنتها. عندما انتهت من ارضاعها، نهضت ببعض الصعوبة وذهبت لمقابلة القابلة المسؤولة عن الجناح، لكن هذه ردت عليها إنها مخطئة، وانه لم يحدث شيء كهذا أبداً في المستشفى، ونددت بنظام استبدال الأطفال. وقالت لها أن أعصابها متعبة بالتأكيد وحقنتها دون أي كلام آخر بسائل في ذراعها، وأعادتها إلى سريرها. بعد ساعات من ذلك استيقظت ديغنا رانكيليو على صخب نفساء أخرى تصرخ في الجهة المقابلة من الصالة:

ـ لقد استبدلوا ابنتي.

هرع عدد من الممرضات والأطباء الذين استنفرتهم الضجة، وجاء مدير المستشفى بنفسه. فانتهزت ديغنا الفرصة لتطرح مشكلتها بأشد الأساليب لباقة، لأنها لم تكن راغبة في استفزاز أحد. أوضحت أنها أخرجت إلى الدنيا طفلة سمراء وانهم جاؤوا بطفلة اخرى ذات شعر أشقر لا تشبه ابنتها في شيء. ماذا سيظن بها زوجها حين يراها.

استشاط مدير المستشفى غضباً: جاهلات، جاحدات. بدلاً من تقديم الشكر لأننا نساعدهن يثرن لي الفوضى. واختارت المرأتان السكوت وانتظار فرصة اخرى مواتية. كانت ديغنا نادمة لأنها ذهبت إلى المستشفى، وحمّلت نفسها مسؤولية ما حدث. فجميع أولادها حتى ذلك الحين ولدوا في البيت، بمساعدة ماميتا انكارناثيون، التي كانت تراقب الحمل منذ شهوره الأولى، ثم تأتي قبل الولادة بيوم، فتبقى في البيت إلى أن تتمكن الأم من العودة إلى مزاولة أعمالها.

كانت تأتي بأعشابها التي تساعد على ولادة سريعة وسهلة، وبمقصاتها التي باركها القس، وخرقها النظيفة المغلية، وضماداتها الموصَّلة، وبلاسمها من أجل حلمات الأثداء، وأدواتها التي تستخدمها للقص والشق، وخيوطها، وخبرتها المُسلَّم بها. وفيما هي تهيء الأجواء للوليد القادم، كانت تتكلم دون توقف لتسلي النفساء، فتسرد الأخبار المحلية المتداولة وقصصاً أخرى من اختراعها، وهدفها من ذلك جعل الوقت قصيراً والآلام خفيفة. تلك المرأة الضئيلة والرشيقة، العابقة بشذى دائم من البخور والخزامى، ساعدت في ولادة جميع أطفال المنطقة تقريباً منذ أكثر من عشرين سنة. ولم تكن تطلب شيئاً مقابل خدماتها، لكنها كانت تعيش من عملها ذاك، لأن الشاكرين فضلها كانوا يمرون من أمام بيتها تاركين هناك البيض أو الفاكهة أو الحطب أو الطيور، أو أرنباً برياً أو طير حجل من الصيد الأخير. وحتى في أسوأ أزمنة البؤس، حين كانت المحاصيل تتلف وضروع البهائم تجف، لم تكن الضروريات تحجب عن بيت ماميتا انكارناثيون. كانت تعرف كل أسرار الطبيعة المرتبطة بعملية الولادة، وكذلك بعض الأساليب المضمونة للإجهاض بالأعشاب أو بعقب شمعة، لكنها لم تكن تلجأ إليها إلا في حالات مبررة. وإذا ما قصرت معارفها لجأت إلى بديهتها. وحين يخرج الوليد إلى النور اخيراً، تقطع حبل الخلاص بمقصها العجيب لتمنحه القوة والعافية، ثم تتفحصه للحال من رأسه إلى أخمص قدميه لتتأكد من عدم وجود شيء غريب في تكوينه. فإذا ما اكتشفت فيه نقصاً أو بادرة تشير إلى أنه سيحيا حياة معذبة أو أنه سيكون عبئاً على الآخرين، فإنها تتخلى عن الوليد وتتركه لمصيره، أما إذا كان كل شيء فيه كما أقره الله، فإنها تحمد السماء وتبادر إلى ادخاله في حركة الحياة بضربتين من كفها. ثم تقدم إلى الأم أوراق نبات لسان الثور لتطرد الدم الأسود وتخلصها من تعكر المزاج، وزيت الخروع لتنظيف الأحشاء، والبيرة مع صفار البيض النيء لتضمن لها حليباً وافراً. وتتولى شؤون البيت لثلاثة أو أربعة أيام، فتطبخ، وتكنس، وتقدم الطعام لأفراد الأسرة وتهتم بقطيع الأطفال. هكذا جرت جميع ولادات ديغنا رانكيليو، لكنها حين أنجبت ايفانخيلينا، كانت القابلة في السجن

بتهمة مزاولة الطب بشكل غير شرعي، ولم تستطع مساعدتها. لهذا السبب وليس لأي سبب سواه، لجأت ديغنا إلى مستشفى لوس ريسكوس، حيث لاقت معاملة أسوأ مما يُعامل به المحكومون. فلدى دخولها وضعوا في معصمها لوحة تحمل رقماً، وحلقوا لها الشعر في منطقة العورة، وحمموها بماء بارد ومعقم، دون أن يأخذوا في الاعتبار امكانية جفاف حليبها إلى الأبد، ثم وضعوها في سرير بلا شراشف مع امرأة اخرى في مثل حالتها. وبعد أن نظروا، دون أن يتنازلوا بالاستئذان منها، في جميع ثقوب جسدها، جعلوها تلد تحت مصباح وعلى مرأى من كل من شاء التطفل. تحملت كل ذلك دون تنهيدة تذمر واحدة، ولكنها حين خرجت من هناك حاملة بين ذراعيها طفلة ليست هي طفلتها، ومكللة بالحياء الذي صبغها بالأحمر مثل راية، أقسمت ألا تضع قدميها ثانية في مستشفى ما دامت على قيد الحياة.

انتهت ديغنا من قلي خليط البيض والبصل واستدعت افراد الأسرة إلى المطبخ، وجاء كل واحد منهم يحمل كرسيه. فقد كان من عادتها، حين يبدأ الطفل بالمشي، ان تكرس له كرسياً خاصاً، لا يمكن لأحد سواه استخدامه، وهو الملكية الخاصة الوحيدة في فقر آل رانكيليو المشترك. فهم يتقاسمون حتى الأسرة. والملابس تحفظ في سلال ضخمة من الخيزران ليأخذ أفراد الأسرة منها ما يحتاجونه كل صباح، لأنه ليس هناك من مالك لشيء.

كان هيبوليتو رانكيليو يرشف شراب متته بصخب ويمضغ الخبز ببطء، بسبب أسنانه المفقودة وتلك التي ترقص في لثته. كان يبدو سليماً، رغم أن بنيته لم تكن قوية مطلقاً. أما الآن، فقد بدأ يشيخ بعد أن حطت السنون عليه فجأة. وتعزو زوجته ذلك الوضع الذي وصل اليه إلى حياة السيرك التشردية، وتجواله الدائم دون هدف معين، وإلى الأكل السيء، وصباغ وجهه بتلك الأصبغة المستهترة التي أباحها الله للتائهات في الشوارع، وجعلها شديدة الضرر على شخص وقور. وفي سنوات قليلة، تحول الشاب الوسيم الذي قبلته خطيباً لها إلى رجل ضئيل ذي وجه جاف لكثرة ما مارس عليه من حيل التنكر، حتى أصبح الأنف يبدو كابريق. وصار يسعل كثيراً ويغفو أثناء تبادل الحديث معه. وقد اعتاد

خلال شهور الشتاء والبطالة الاضطرارية على تسلية الأطفال بارتداء ملابس المهرج. وتحت قناع الأصبغة الأبيض والفم الأحمر الضخم المنفرج عن قهقهة دائمة، كانت ترى اخاديد الإجهاد. ولأنه صار كهلاً إلى حد ما، فقد كان يجد صعوبة متزايدة في الحصول على عمل، فأخذت تبني الآمال على رؤيته مستقراً في الريف ليساعدها في أعمالها. فالتقدم يُفرض الآن بالقوة، والمراسيم الجديدة تجثم كأحمال ثقيلة على كاهل ديغنا. فعلى الفلاحين الآن أن يتكيفوا مع اقتصاد السوق. فالأرض ومنتجاتها تخضع للمنافسة الحرة، وازدهار كل فلاح يعتمد على انتاجه ومبادرته وكفاءته الادارية. وحتى الهنود الأميون كانوا يعانون المصير ذاته، بعد أن اتيحت فرص عظيمة لمن يملكون المال، لأنهم قادرون ـ ببضعة سنتات ـ على شراء أملاك الفلاحين الفقراء من أمثال آل رانكيليو، أو استئجارها لمدة تسع وتسعين سنة. ولم تكن ديغنا ترغب في بيع أرضها وهجر المكان الذي أنجبت فيه أولادها وربتهم، لتسكن في بلدة ريفية بائسة، يسعى إليها الملاكون كل صباح لاستئجار ما يحتاجونه من أيد عاملة موفرين على أنفسهم بذلك الخوض في مشاكل مع المستأجرين. وكانت تقول ان هذا الوضع ليس إلا الفقر في الفقر، وتسعى لجعل اسرتها تقوم بزراعة الكوادرات الست التي ورثتها. لكن صعوبة الصمود أمام المؤسسات الضخمة كانت تتزايد، خصوصاً وإنها تفتقر إلى مساندة رجل يمد لها يد العون في هذه المشقات الكثيرة.

كانت ديغنا رانكيليو تشعر بالشفقة على زوجها، فتحتفظ له بأفضل جزء من الطعام، وبأكبر البيوض حجماً، وبأنعم الصوف لتحوك له الكنزة والجوارب. كانت تحضر له الأعشاب لآلام الكليتين، ولصفاء الذهن، ولتنقية الدم والمساعدة على النوم، انما لم يكن أمام هيبوليتو، رغم عنايتها به، مفر من الهرم. في هذه اللحظة تشاجر اثنان من الأطفال على بقايا مزيج البيض والبصل وكان يتأملهما دون مبالاة. لقد كان يتدخل في الأحوال الطبيعية ليفصل بينهما بالصفعات، أما الآن فعيناه لا تريان إلا ايفانخيلينا، يلاحقها بعينيه كما لو كان يخشى تحولها إلى مسخ مثل تلك المرأة التي في السيرك. كانت الفتاة لحظتئذ كائناً آخر بين الأولاد

المقـرورين والمشعثـين. ولم يكن في مظهـرها ما يشير إلى ما سيحدث خلال بضع ساعات، وبالتحديد عند انتصاف النهار.

- اشفهـا يا رب - كررت ديغنـا وهي تغطي وجههـا بمـريلتهـا كي لا يراها الآخرون تتكلم بمفردها.

★ ★ ★

بدا الصبـاح رائقـاً، مما جعـل هيلدا تقـترح تنـاول الفطور في المطبخ المدفأ بحـرارة المـوقـد فقـط، لكن زوجها ذكرها أنه لا يمكنها التهاون بأمر الرشوحات، لأنها تعاني من رئتيها مذ كانت طفلة، فالوقت حسب التقويم ما يزال شتاء، رغم أن لون الصبـاحـات وصـداح القنـبرات كانـا ينبئـان بقـدوم الربيع. كان عليهم الاقتصاد بالوقود، فالوقت غلاء. لكن البوفسور ليال، ونظراً لضعف بنية زوجته، كان يصـر على اشعـال مدفأة الكـيروسـين، فكان جهاز التدفئة القديم يتنقل في غرف البيت في الليل والنهار مرافقاً تنقلات من يعيشون هناك.

فيـما كانت هيلدا ترتب الأواني، أطـل الـبر وفسور ليال على الفناء، مرتدياً معطفـاً ولفحـة وخفـاً، ليضع بذوراً في المعالف وماء في الاصص لا حظ البراعم. الـدقيقـة في الشجـرة وقدّر أن الأغصان ستمتلىء بالأوراق عما قريب لتتحول إلى معقـل أخضـر يؤ وي العصـافـير المهـاجـرة. كان يحب رؤ ية العصافير وهي تطير طليقة بقدر كراهيته للأقفاص، فهويرى أن حبسها لمجرد ترف امتلاكها أمام النظر هو جريمة لا تغتفر. كما انه كان مخلصاً لمبادئه الفوضوية حتى في التفاصيل: فإذا كانت الحـريـة هي الحق الأول للإنسـان، فلا بد لها، وبجـدارة أكـبر، ان تكون كذلك بالنسبة لتلك الكائنات التي ولدت في جانبيها أجنحة.

ناداه ابنه فرانثيسكو من المطبخ معلناً ان الشاي جاهز، وان خوسيه قد جاء لزيـارتهم. غذ البـوفسـور الخطى، لأنـه لم يكن معتـاداً على استقباله في مثل هذا الـوقت المبكـر من أيـام السبت، وهـو المشغـول دومـاً بمهـامـه الكثـيرة في غوث الآخرين. رآه يجلس إلى المائدة ولاحظ لأول مرة أنه قد بدأ يفقد شعراً من مؤ خرة راسه.

سأله وهو يربت على كتفه:

ـ ماذا هنالك يا بني؟ هل حدث شيء؟

ـ لا يا أبتاه. رغبت في تناول فطور محترم أعدته أمي فقط.

كان أمتن أفراد العائلة بنية وأكثرهم خشونة، والوحيد الذي ليست عظامه طويلة وليس له أنف معقوف كأنوف آل ليال. كان يبدو كصياد جنوبي ولا شيء في مظهره يشي برقة روحه. دخل مدرسة اللاهوت فور انتهائه من الليسيه دون ان يفاجيء هذا القرار أحداً باستثناء أبيه، فمنذ طفولته كانت له مواقف يسوعية، فكان في صغره يرتدي ملابس اسقف مستخدماً في ذلك مناشف الحمام، وكان يلعب محاكياً أداء القداس. لم يكن هناك من تفسير لهذه الميول، لأن أحداً في بيته لم يكن يمارس الشعائر الدينية بشكل مكشوف، وأمه التي تدين بالكاثوليكية، لم تكن تذهب إلى القداس مذ تزوجت. وكان عزاء البر وفسور ليال حيال قرار ابنه هو انه لا يلبس مسوحاً كهنوتية وانما سروال عمال، كما انه لم يذهب للعيش في دير بل في حي بروليتاري، وكان أقرب إلى هموم هذا العالم منه إلى أسرار الكنيسة. كان خوسيه يرتدي سروالاً ورثه عن أخيه الكبير، وقميصاً حائل اللون وكنزة من صوف سميك حاكتها له أمه. وكانت يداه خشنتان من استخدام أدوات الدباك التي يؤمن بها نفقات عيشه.

قال بلهجة ماكرة:

ـ إنني أنظم دورات في المسيحية.

ـ أرى ذلك ـ رد عليه فرانثيسكو وهو يعرف ما يعنيه، إذ أنهما يعملان معاً في عيادة مجانية تابعة للخورانية، وكان مطلعاً على نشاطات اخيه.

وتنهدت هيلدا:

ـ أي خوسيه، لا تتدخل في السياسة. أتريدهم أن يسجنوك ثانية يا بني؟

آخر اهتمامات خوسيه ليال كان أمنه الشخصي. فنفسه لا تتسع إلا لحالات بؤس الآخرين. انه يحمل على كاهله حملاً لا يطاق من الآلام والمظالم. وكثيراً ما كان يعاتب الخالق الذي يختبر ايمانه بهذه القسوة: إذا كان الحب الإلهي موجوداً؛

فإن كل هذا الألم البشري لا يعدو أن يكون اكثر من سخرية. وفي خضم تلك المهمة الشاقة لاطعام الفقراء وايواء اليتامى فقد بريقه الكهنوتي الذي اكتسبه في المدرسة الاكليريكية، ليتحول نهائياً إلى كائن متجهم وجاف، موزعاً ما بين القنوط والشفقة. لقد ميزه أبوه من بين أبنائه لأنه استطاع رؤية التشابه بين أفكاره الفلسفية وأفكار ابنه التي يعتبرها خرافات مسيحية فجة. وهذا ما خفف من أساه، ووصل به الأمر لأن يصفح عن ميول خوسيه الدينية ويتخلى عن التحسر في الليل ورأسه غارقة في الوسادة كي لا يثير قلق زوجته، مفرجاً عن نفسه عار وجود خوري في العائلة.

قال خوسيه متوجهاً إلى فرانثيسكو:

- الحقيقة إنني جئت في طلب أخي. عليك أن تأتي لمساعدة طفلة في الحي. لقد اغتصبوها قبل اسبوع، فأصيبت بالبكم منذ ذلك الحين. استخدم معارفك السيكولوجية، لأن الله وحده لم يعد كافياً لكل هذه المشاكل الكثيرة كما يبدو.

- اليوم لا أستطيع، فعلي أن أرافق ايرين لالتقاط بعض الصور، لكنني سأرى الفتاة غداً. كم عمرها؟

- عشر سنوات.

فهتفت هيلدا:

- يا الله! أي مسخ استطاع عمل ذلك بتلك المسكينة البريئة؟

- أبوها.

فأمر البروفسور ليال:

- كفى من فضلك! أم أنك تريد المرض لأمك؟

سكب فرانثيسكو الشاي للجميع ولبثوا برهة صامتين، يبحثون عن موضوع للحديث كي يمحوا كآبة هيلدا، المرأة الوحيدة في عائلة من الذكور، والتي استطاعت أن تفرض رقتها ورصانتها عليهم. فهم لا يذكرون أنهم رأوها يوماً ساخطة. ولا مجال بحضورها لمشاحنات الصبيان، ولا للنكات اللاذعة أو

البـذاءات . لقـد كان الغم يستـولي على فرانثيسكو في طفولته لاحساسه بأن أمه ، التي عاشت بها خشونة الحياة ، قد تضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن تتلاشى نهائياً ، كأنها ضبـاب . فكـان يهرع عنـدئـذ إلى جوارهـا ، يعانقها ويتشبث بملابسها في محاولة يائسـة للابقـاء على حضـورها ، على دفئها ، على راحة مريلتها ، وايقاع صوتها . لقـد انقضى زمن طويـل على ذلـك العهـد ، إلا أن الحنـو عليها كان هو احساسه الأكثر رسوخاً .

فرانثيسكـو هو الـوحيـد الـذي بقي في بيت أبـويه بعد زواج خابيير وذهاب خوسيـه إلى المـدرسـة الاكليريكيـة . كان يشغـل الغـرفـة ذاتهـا التي كانت له في طفـولتـه ، والتي تضم اثاثاً من خشب الصنوبر ورفوفاً تغص بالكتب . لقد نوى في احدى المرات أن يستأجر بيتاً مستقلاً ، ولكنه في أعماقه كان يحب رفقة اسرته ، كما أنـه لم يكن يرغب من جهـة اخـرى في ان يسبب ألمـاً لا مبرر له لأبـويه اللذين لا يريـان سوى ثلاثـة مبررات تسمـح للأبنـاء بالخـروج من البيت : الحـرب ، أو الزواج ، أو الرهبنة . ثم أضافا إليها سبباً آخر فيما بعد : الهرب من مطاردة الشرطة .

كان بيت آل ليال صغيراً ، قديماً ، متواضعاً ، وبحاجة للطلاء والترميم . في الليـل يئن بنعـومـة ، مثـل عجـوز منهكـة ومصـابـة بداء المفـاصـل . لقد صممه البروفسور ليال قبل سنوات طويلة ، واضعاً نصب عينيه ان الشيء الوحيد الذي لا غنى عنـه هو مطبـخ فسيـح تدور الحيـاة فيـه ويتسـع لمطبعـة سرية ، وفناء لنشر المـلابس والجلوس لتأمـل العصـافـير ، وعـدد كاف من الغـرف توضـع فيها أسرة الأولاد . ومـا خلا ذلـك يعتمـد على اتسـاع الروح وسعة المخيلة ، وهكذا ما كان يقـولـه كلما ادعى أحـدهم ضيق البيت أو تواضعه . استقروا فيه ، وكان ثمة متسع ورحابة صدر لاحتضان الأصدقاء المنكوبين والأقرباء القادمين من أوروبا هرباً من الحـرب . كانـوا اسـرة متـآلفة ، فإلى أن بلغ الأولاد سن المراهقة ، وصاروا يحلقون شواربهم ، كانـوا يدسـون أنفسهم في سريـر أبـويهم ليقـرأوا الجـريـدة في الصبـاح وليطلبوا من هيلدا أن تحك لهم ظهورهم . وعند ذهاب الابنين الكبيرين ، أحس آل ليـال أن البيت صار واسعاً ، وصاروا يرون ظلالاً في الاركان ويسمعون أصداء

في الممرات، ولكن الأحفاد ولدوا فيها بعد وعاد الصخب المعتاد إلى البيت.

كانت هيلدا تقول كلما نزل المطر أو ظهر ثقب يقطر منه الماء:

ـ لا بد من اصلاح السقوف واستبدال أنابيب التمديدات.

فيرد زوجها:

ـ لماذا؟ فما زال لنا بيت في تيرويل[1]، وعندما يموت فرانكو سنرجع إلى اسبانيا.

كان البر وفسور ليال يحلم بالعودة إلى وطنه منذ اليوم الذي حملته فيه السفينة بعيداً عن شواطىء اوروبا. وقد أقسم وهو ساخط على الزعيم[2]، ألا يستخدم الجوارب إلى أن يأتيه خبر دفنه، دون ان يتصور ان تحقيق رغبته سيتأخر عشرات السنين. وقد سبب له عهده هذا ظهور حراشف في قدميه وحمل له المضايقات في حياته المهنية. فقد كان يجتمع في بعض الأحيان بشخصيات رفيعة أو يُنتدب لاجراء امتحانات في المعاهد والأكاديميات، فكانت قدماه العاريتان في حذائه الواسع ذي النعل المطاطي تثيران تقولات الآخرين. لكنه لشدة اعتداده بنفسه، كان يفضل أن ينظروا إليه كأجنبي غريب الأطوار أو كبائس لا يكفي دخله لشراء الجوارب على أن يقدم أية تفسيرات. وفي المناسبة الوحيدة التي استطاع فيها الذهاب مع اسرته إلى الجبال للاستمتاع بالثلج عن قرب، بقي في الفندق وقدماه زرقاوان ومتجمدتان كسمك الرَنكة.

قالت له هيلدا متوسلة:

ـ البس جورباً يا رجل. ألا ترى أن فرانكو لا يعرف شيئاً عن عهدك.

فألهبها بنظرة ملؤها الوقار وبقي وحيداً إلى جانب المدفأة. وعندما مات

---

١ ـ تيرويل: مدينة اسبانية. ويبدو واضحاً ان البر وفسور ليال وزوجته هما من المهاجرين الاسبان الذين لجأوا الى بلدان امريكا اللاتينية بعد الحرب الأهلية الاسبانية وسقوط الجمهورية سنة ١٩٣٩.

٢ ـ الزعيم Caukillo : من ألقاب الجنرال فرانكو، قائد التمرد ضد الجمهورية الاسبانية.

عدوه اللدود، لبس زوجاً من الجوارب الحمراء اللامعة التي تعبر بحد ذاتها عن كل فلسفته في الوجود، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى نزع الجوربين من قدميه قبل مضي نصف ساعة على لبسهما، فقد أمضى زمناً طويلاً دون أن يستخدمها، ولم يعد بامكانه احتمال الجوارب بعد كل ذلك الزمن. حينئذ، ولكي يداري عجزه، أقسم على مواصلة عدم استخدام الجوارب إلى ان يسقط الجنرال الذي يحكم بيد من حديد وطنه بالتبني.

كان يقول:

ـ ألبسوني جوارب عندما أموت، اللعنة. أريد الذهاب إلى الجحيم بجوارب حمراء.

لم يكن يؤمن باستمرار الحياة بعد الموت، لكن كل احتياط في هذا المجال كان غير ذي قيمة بالنسبة لجبلته النبيلة. لم تجعله عودة الديمقراطية في اسبانيا يستخدم الجوارب كما أنها لم تُرجعه إلى وطنه، لأن أبناءه وأحفاده وجذوره الاميركية اقعدته. كما ان البيت لم يرمم كما يجب، لأن العائلة شُغلت باهتمامات اخرى بعد الانقلاب العسكري. فبسبب أفكاره السياسية، أُدرج اسم البروفسور ليال في لائحة غير المرغوب فيهم وأُجبر على التقاعد. لم يفقد تفاؤله وهو يجد نفسه بلا عمل وبراتب تقاعدي ضئيل، بل انه طبع في المطبخ بطاقات يعرض فيها اعطاء دروس في الأدب ووزعها حيث استطاع. وقد تمكن بتلاميذه القليلين من تحقيق تعديل طفيف على الميزانية، فاستطاعت الأسرة ان تعيش حياة بسيطة وتقدم المساعدة إلى خابيير، حين وجد الابن الأكبر نفسه في ضائقة مادية جدية لا يستطيع معها القيام بأود زوجته وأطفاله الثلاثة. انحدر مستوى معيشة آل ليال، كما حدث لكثيرين من وسطهم، فاستغنوا عن نفقات حضور الحفلات الموسيقية، والمسرح، والكتب، والاسطوانات وبعض وسائل الترفيه الأخرى التي كانت تبعث السعادة في أيامهم. وفيما بعد، حين أصبح مؤكداً أن خابيير لن يجد عملاً، قرر والده بناء غرفتين وحمام في الفناء ليضمه اليهم مع اسرته. كان الإخوة الثلاثة يجتمعون في نهاية كل اسبوع ليبنوا الآجر تحت اشراف البروفسور ليال،

الذي كان يحصل على معلوماته من كتاب في تعليم البناء اشتراه من تصفية كتب قديمة. وحيث أنه لم تكن لأي منهم أدنى خبرة في هذه المهنة، ولأن الكتاب كان ناقصاً عدة صفحات، فقد كانت نتيجة عملهم متوقعة. فحين ينتهي البناء، سيكون عبارة عن جدران متموجة يفكرون باخفائها بلبلاب يغطيها. لقد عارض خابيير حتى النهاية فكرة العيش عالة على والديه. فقد اكتسب بالوراثة طبع الاعتداد بنفسه.

- حيث يأكل ثلاثة، يأكل ثمانية - قالت له هيلدا دون أن تبدل من رصانتها المعهودة. فهي حين تتخذ قراراً يكون قرارها غير قابل للاستئناف في الغالب.

وأضاف البروفسور ليال:

- إنها أزمنة رديئة يا بني، وعلينا أن نتعاون.

وعلى الرغم من المصاعب، فقد كان يشعر بالرضا عن حياته، وكان سيشعر بالسعادة التامة لو لم تقلقه منذ سنوات شبابه العاطفة الثورية العاصفة التي حددت مسار حياته وطباعه. فقد كرس جزءاً كبيرا من نشاطه ووقته وماله لنشر مبادئه الايديولوجية. ربى ابناءه الثلاثة على عقيدته، وعلمهم منذ نعومة أظفارهم على كيفية تشغيل آلة الطباعة السرية التي في المطبخ، ورافقهم لتوزيع المنشورات عند أبواب المصانع من وراء ظهر الشرطة. وكانت هيلدا إلى جانبه دوماً في الاجتماعات النقابية، حاملة سنانير الحياكة التي لا تكل في يديها والصوف في كيس على ركبتيها. وفيما زوجها يخطب في الرفاق، تسرح هي في عالم سري، متذوقة ذكرياتها وحائكة العواطف، ومعيدة بناء أجمل ما لديها من أشواق، ساهية تماماً عن صخب المناقشات السياسية. وعبر عملية اصطفاء طويلة وهادئة، تمكنت من محو الجزء الأعظم من نكباتها السابقة ولم تحتفظ إلا بالذكريات السعيدة. فهي لم تتحدث يوماً عن الحرب، ولا عن القتلى الذين دفنتهم، ولا عن الحادث الذي وقع لها ولا عن مسيرتها الطويلة الى المنفى. الذين يعرفونها يعزون هذه الذاكرة الاصطفائية الى الضربة التي شقت رأسها في

شبابها، لكن البروفسور ليال، القادر على فهم مدلول أدنى الايماءات، كان يشك انها لم تنس شيئاً. كل ما في الأمر إنها لا تريد حمل أحزان قديمة، ولذا فإنها لا تأتي على ذكرها، وتلغيها بالصمت. لقد رافقته زوجته عبر كل الدروب خلال زمن طويل، حتى إنه لا يستطيع أن يتذكر الحياة بدونها. فقد سارت إلى جانبه بخطوات واثقة في مظاهرات الشوارع. وربيا أولادهما في تعاون حميم. ومدت يد العون معه لآخرين أكثر بؤساً منهم، وعسكرت في العراء في ليالي الاضرابات، وكانت تستيقظ منذ الفجر لتخيط ملابس للآخرين حين لايكفي راتبه للقيام بأود الاسرة، وقد رافقته بالحماس نفسه إلى الحرب وإلى المنفى، وحملت له الطعام الساخن إلى السجن عندما اعتقل، ولم تفقد اتزانها يوم حجزوا على اثاث بيتها، كما لم تفقد طيب مزاجها حين ناما مرتعشين من البرد على سطح الدرجة الثالثة في سفينة اللاجئين. كانت هيلدا تتقبل كل شذوذات زوجها - وهي ليست بالقليلة - دون ان تعكر صفوها، لأنها لم تفعل شيئاً خلال حياتها المشتركة الطويلة إلا مراكمة الحب نحوه.

قبل زمن بعيد، وفي ضيعة اسبانية صغيرة، بين جبال وعرة وكروم عنب، طلبها للزواج. فردت عليه إنها كاثوليكية وتفكر بالبقاء كذلك، وانه لايوجد لديها شيء شخصي ضد ماركس، لكنها لا تطيق وجود صورته فوق السرير، وإنها ستعمد أولادها لتحول دون المجازفة بموتهم مسلمين وانتهائهم إلى الليمبوس[1]. كان بروفسور المنطق والأدب شيوعياً مندفعاً وملحداً، لكنه لم يكن يخلو من بعد نظر، وأدرك أنه لا شيء سيبدل من رأي الصبية المتوردة الهشة ذات العينين البراقتين، والتي أحبها حباً مؤكداً. وكان من الخير له بالتالي أن يفاوضها للتوصل معها إلى اتفاق. فاتفقا على الزواج من خلال الكنيسة، وهي الطريقة القانونية الوحيدة للزواج في ذلك الزمان، وأن يتلقى الأولاد أسرار الكنيسة على أن يتلقوا

---

١ - الليمبوس Limbo : موطن الأرواح المنسية أو المهملة، المحرومة من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير غير المعمدين.

علومهم في مدارس علمانية، وأن يختار هو أسماء الأبناء الذكور بينما تختار هي أسماء الاناث، وأن يُدفنا في قبر بلا صليب، توضع عليه لوحة يختار هو مضمون الكتابة التي ستنقش عليها. وقد وافقت هيلدا لأن هذا الرجل الضامر ذا اليدين الشبيهتين بيدي عازف بيانو، والذي في عزوقه نار متقدة هو من كانت تريده زوجاً لها. وقد نفذ البر وفسور الجزء الخاص به من الاتفاق بالاستقامة الصارمة التي يتصف بها، لكن هيلدا لم تكن بمثل استقامته. فيوم ولادة الابن البكر، كان زوجها غارقاً في غمرة الحرب، وعندما استطاع الذهاب لرؤيتها، كان الابن قد تعمد باسم خابيير، مثل جده. وكانت المرأة في حالة يرثى لها والوقت غير مناسب للبدء في خصام، لكنه قرر أن يلقبه فلاديمير، الأسم الأول للينين. غير أنه لم يستطع فرض ذلك أبداً، فحين كان يناديه بهذا الأسم، كانت زوجته تسأله أية شياطين يعني، وكان الصغير من جهته ينظر إليه مذهولاً ولا يرد عليه. وقبيل الولادة الثانية، استيقظت هيلدا في صباح أحد الأيام لتروي حلماً رأته: ستلد طفلاً ذكراً، ولا بد من تسميته خوسيه. تجادلا بعصبية لبضعة أسابيع، إلى أن توصلا إلى حل مناسب: خوسيه ايلتش. ثم قذفا قطعة عملة معدنية في الهواء ليقررا أي الاسمين يستخدمان فكسبت هيلدا، إلا أن الذنب في هذه المرة لم يكن ذنبها، وانما ذنب الحظ الذي لم يرقه الاسم الثاني للقائد الثوري. بعد عدة سنوات ولد الابن الأخير، وكان البر وفسور ليال قد فقد شيئاً من حماسه تجاه السوفييت، فنجا الوليد من تسميته أوليانوف. وأطلقت عليه هيلدا اسم فرانثيسكو، تكريماً للقديس دي اسيس، شاعر الفقراء والحيوانات. وربما لهذا السبب، ولكونه الأصغر سناً والأكثر شبهاً بأبيه، أولته حناناً خاصاً. وقد كافأ الطفل حب أمه الشامل بعقدة أوديب مكتملة دامت حتى بلوغه سن الرشد حين جعله التبدل الذي طرأ على حياة أخويه يدرك أنه توجد نساء اخريات في هذا العالم.

في صباح يوم السبت هذا، أنهى فرانثيسكو تناول الشاي، وألقى على كتفه الحقيبة التي تضم معدات التصوير وودع الاسرة.

قالت أمه :

ـ تدثر جيداً ، فهواء الدراجة النارية مؤذ .

فقال زوجها :

ـ دعيه يا امرأة ، فهو لم يعد طفلاً .

وضحك الابنان .

★ ★ ★

في الشهور الأولى التي تلت ميلاد ايفانخيلينا ، ندبت ديغنا رانيكليوسوء طالعها وفكرت بان السماء تعاقبها لذهابها إلى المستشفى بدلاً من البقاء في البيت . فالكتاب المقدس يقول : بالألم ستلدين ، وهذا ما ذكرها به القس الموقر كذلك . لكنها أدركت فيما بعد كم هي نوايا الرب بعيدة الغور . فربما كانت هذه المخلوقة الشقراء ذات العينين الزرقاوين تعني شيئاً في قدرها . وبمساعدة روحية من جانب الكنيسة الانجليكانية الحقيقية ، قبلت الاختبار وأبدت استعدادها لحب هذه الطفلة ، رغم نزواتها . كثيراً ما كانت تتذكر الطفلة الأخرى ، التي أخذتها الاشبينة فلوريس والتي هي ابنتها الحقيقية . وكان زوجها يواسيها بالقول إنها تبدو أكثر عافية وقوة ولا بد أنها ستعيش حياة أفضل في بيت الأسرة الاخرى .

ـ آل فلوريس يملكون قطعة أرض جيدة . ويشاع أنهم سيشترون جراراً . وهم ذووخبرة ، وينتمون إلى النقابة الفلاحية ـ هكذا كان هيبوليتويبر ر الأمر بعد عدة سنوات ، وقبل أن تنقض الكارثة على بيت آل فلوريس .

بعد الولادة ، حاولت المرأتان المطالبة بابنتيهما ، مؤكدتين انهما رأتاهما تولدان وانهما انتبهتا إلى وقوع الخطأ من لون شعرهما ، لكن مدير المستشفى رفض الاستماع إلى أي كلام في هذا الموضوع وهدد بارسالهما الى السجن بتهمة بث الافتراءات ضد المؤسسة الصحية . واقترح الابوان استبدال الابنتين ببساطة وحل القضية ، لكن المرأتين لم ترضيا بعمل ذلك دون سند قانوني . وقررتا أن تبقي كل منهما مؤقتاً على الطفلة التي تحملها بين يديها إلى أن تتضح المشكلة أمام السلطات . ولكن بعد اضراب في جهاز الخدمات الصحية ونشوب حريق في

السجـل المـدني، حيث استبـدل المـوظفـون واختفى الأرشيـف، انتهت آمـالهـا بالـوصـول إلى نتيجـة مرضيـة. فاختـارتـا أن تربي كل منهـما ابنة الأخرى وكأنها ابنتها. وعلى الرغم من أنهما كانتا تعيشان على مسافة ليست بالبعيدة، فقليلاً ما كانت الفرصة تسنح لهما للقاء، لأن حياتيهما كانتا منعزلتين. لقد اتفقتا منذ البدء على أن تدعو كل منهما الأخرى بلقب اشبينة، وان تعمدا المولودتين بالاسم ذاته، حتى إذا ما استعـادتـا كنيتيهـما الشـرعيتـين يومـاً لا تضطران إلى التآلف مع اسم جديـد. كما أطلعتـا الصغيـرتـين على الحقيقة مذ وصلتا إلى سن الادراك، لأنهما ستعرفان ذلك عاجلاً أو آجلاً. فجميع أهل المنطقة يعرفون قصة الايفانخيلينتين المستبدلتين، ولن يعدم من ينقل القصة إلى الفتاتين.

أصبحت ايفانخيلينا فلوريس فلاحة تقليدية سمراء، ذات عينين ثاقبتين، ووركـين ضخمـين ونهـدين مكـورين، ومستقـرة تمامـاً فوق ساقيهـا المتينتـين والمنحـوتتـين. كانت متينـة وذات مزاج مرح. أما آل رانكيليو فكانت من نصيبهم ابنـة بكّاءة، ممسوسـة، هشـة ومحتـاجـة لعناية دقيقة. كان هيبوليتويوليها اهتماماً خاصـاً، تقـديـراً منه واحتراماً لبشرتها الوردية وشعرها الأشقر، الغريبين تماماً عن الأسرة. فهـو يراقب ابنـاءه الـذكـور مراقبـة صارمة حين يكون في البيت، كي لا يتجاوزوا الحدود مع هذه الطفلة التي لا تحمل دماءهم. وقد فاجأ ابنه براديليو في منـاسبتـين وهـو يداعبهـا ويـلامسها بخبث، ويبوّسها، ولكي يضع حداً لميوله في ملامستهـا ضربـه ضرباً كاد يودي به الى الحياة الأخرى، لأن ايفانخيلينا ستكون أمـام الله والبشـر مثـل اخته. لكن هيبوليتو لم يكن يقيم في البيت إلا لبضعة شهور وغير قادر على فرض احترام أوامره في بقية شهور السنة.

فمنـذ أن هرب للعمـل في سيرك وهـو في الثـالثـة عشـرة من عمره، مارس هيبـوليتـو رانكيليـو هذه المهنـة ولم يعـد يهتم بسـواها مطلقاً. كانت زوجته وأولاده يودعـونـه عنـدما تبدأ الأجواء الطيبة الدافئة وتزهر الخيام المرقعة. يمضي من قرية الى قرية ذارعاً البلاد لعرض مهاراته في جولات كرنفالية بائسة ومرهقة. كان يؤدي اعـمالاً متعـددة تحت الخيمـة. ففي أول الأمـر كان يقفـز على الارجـوحة ويؤدي

الحـركـات البهلوانية، لكنه فقد القدرة على التوازن والمهارة مع مرور السنين، ثم عمل لوقت قصير في ترويض ضوارٍ تبعث على الرثاء، فكانت تثير شفقته وتحطم أعصابه. ثم قنع أخيراً بالعمل كمهرج. لقد كانت حياته، مثل حياة أي فلاح، محكومة بحالة الأمطار وضوء الشمس. وخلال شهور البرد والرطوبة، لم يكن الحظ يتبسم للسيركات الفقيرة، فكان يركن للبيات الشتوي في بيته، ولكنه مع تنفس الـربيـع، يقول لأهل بيته وداعاً وينطلق دون تردد، تاركاً لزوجته مسؤولية الأولاد وأعمال الحقل. فهي تحسن ادارة هذه الأمور خيراً منه، لأنها تحمل في عروقها خبرة أجيـال عديـدة. والمـرة الـوحيـدة التي ذهب فيهـا إلى القرية ومعه نقود المحصول ليشتري ملابس ومؤونة للسنة، شرب حتى سكر وسرقوا منه كل شيء فافتقدت مائدة آل رانكيليو السكر لعدة شهور، ولم يحصل أي منهم على حذاء جديد، ومن هنـا جاءت ثقتـه بتفـويض زوجتـه مسؤوليـة المهمات التجارية. وكانت هي أيضاً تفضـل ان تكـون الأمـور على هذا الحـال. فمنـذ بدء حياتها الزوجية ألقت على عاتقهـا مسؤوليـة الاسـرة والـزراعة. وكان من الأمور الطبيعية رؤيتها منكبة على المعجن أو على المحـراث، أو محاطـة بحشـد صبيـة من مختلف الأعـمار يتعلقـون بأذيالها. ثم كبر براديليو وظنت انه سيساعدها في أعمالها الكثيرة، ولكن ابنها كان منذ بلوغه الخامسة عشرة أقوى وأطول فتى عرفته تلك الانحاء، لهذا أدرك الجميع انه بعد انتهائه من الخدمة العسكرية سيلتحق دون ريب بسلك الشرطة.

عنـدمـا تهطـل أول الأمطـار، كانت ديغنـا رانكيليو تنقل كرسيها إلى الممر وتجلس هنـاك لمراقبـة منعطف الطـريق. وفيما يداها مشغولتان دوماً في صنع سلال من القش أو في تقييف ملابس الأطفـال، كانت عينـاهـا المتيقظتـان ترنـوان إلى الطـريق بين الفينـة والفينـة. وفجأة، في يوم لا على التعيـين، يظهر شبح هيبوليتو الضئيـل حامـلاً حقيبتـه الكـرتـونية. ها هو ذا محط اشواقها يتجسد في آخر الأمر، مقتـربـاً بخطوات تصبح أكثر تثاقلاً عاماً بعد عام، لكنه رقيق ومرح كما كان على الدوام. فيدوخ قلب ديغنا، تماماً مثلما حدث لها في المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، حين تعـرفت عليـه عنـد شباك التـذاكـر في سيرك جوال، ببدلته البالية المخططة

بالأخضر والذهبي وتعابير عينيه السوداوين الهائجة، محرضاً الجمهور على الدخول لمشاهدة الاستعراض. كان له حينئذ وجه مريح، لأنه لم يكن قد وضع قناع المهرج على بشرته بعد. لم تكن زوجته قادرة على استقباله استقبالاً طبيعياً أبداً. فقد كانت تضغط على صدرها لتداري انفعالات مراهقة تدفعها للقفز نحوه والتعلق بعنقه لتخفي دموعها. لكن شهور الفراق كانت تولد فيها الخفر وتجعلها تحييه بتحية متحفظة، خافضة عينيها، ومتوردة الوجنتين خجلاً. هاهوذا رجلها هنا. لقد رجع. كل شيء سيتبدل لبعض الوقت، لأنه يتقن التعويض عن غيابه. وفي الشهور التالية تبتهل إلى جميع الأرواح الخيرة التي في كتابها المقدس كي يستمر هطول المطر دون توقف ويتجمد التقويم على شتاء بلا نهاية.

أما بالنسبة للأبناء، فقد كانت عودة الأب حدثاً لا أهمية له. فلدى رجوعهم في أحد الأيام من المدرسة أو من العمل في الحقول، يجدونه جالساً إلى جانب الباب على كرسيه القش، وكأس المتة في يده، منسجماً مع لون الخريف، وكأنه لم يبتعد يوماً عن هذه الأرياف، وعن هذا البيت، وعن هذه الدوالي التي تجف عناقيدها المعلقة في الكلابات، وعن الكلاب المستقلية في الفناء. ويلمح الأولاد عيني أمهم المعكرتين، وحيوية حركاتها في خدمة زوجها، ومراقبتها القلقة لهذه اللقاءات بين الأبناء وأبيهم لتحول دون اقدام الأولاد على أية سفاهة. فاحترام الأب هو دعامة الأسرة، كما يقول العهد القديم، ولهذا فإنه ممنوع على الأولاد أن يدعونه باسم «طوني تشالوبا»، كما لا يمكنهم الحديث عن عمله كمهرج، ولا أن يوجهوا اليه اسئلة، وان ينتظروا إلى أن يحدثهم عندما يرغب في ذلك. في سنوات شبابه، عندما كان هيبوليتو يُقذف بواسطة مدفع من أحد طرفي خيمة السيرك إلى الطرف الآخر، ويهوي على الشبكة وهو يعبق برائحة البارود ويبتسم ابتسامة قلقة، كان يمكن للأولاد أن يشعروا بالفخر به بعد أن يزايلهم الخوف عليه، لأنه كان يطير مثل باشق. لكن ديغنا لم تعد تسمح لهم بالذهاب إلى السيرك فيما بعد ليروا أباهم وهو ينحدر ليقتصر على اداء القفزات التهريجية، لأنها كانت تفضل ان يحتفظوا في ذاكرتهم بتلك الصورة الناجحة وألا يخجلوا من

ملابسه كمهرج عجوز، ذليل ومهان، يطلق الريح، ويتكلم بصوت مصطنع ويضحك بلا سبب. وعندما مر السيرك من لوس ريسكوس وهو يجر دباً منتوف الفرو ونودي على الأهالي بالمزمار ليشهدوا الاستعراض الدولي العظيم الذي ينشده الجمهور في كل مكان، رفضت أخذ الأولاد خوفاً من رؤية المهرجين، لأنهم جميعهم متشابهون في الهيئة وكلهم مثل هيبوليتو. ومع ذلك، وفي حميمية المنزل، كان يتنكر ويطلي وجهه، ولكن ليس لأداء قفزات تهريجية لا وقار فيها أو لرواية نكات بذيئة، وانما ليمتعهم بقصصه عن الغرائب: المرأة الملحية، والرجل الغوريلا الذي تصل قوته حد القدرة على سحب شاحنة بسلك مثبت بين أسنانه، وآكل النار القادر على ابتلاع شعلة متقدة بالنفط لكنه يعجز عن اطفاء شمعة باصابعه، والقزمة بيضاء الشعر والوجه التي تمتطي ردف عنزة، والبهلوان الذي سقط على رأسه من الارجوحة العليا ولطخ الجمهور الموقر بفتات دماغه.

ولدى الانتهاء من رواية هذه الحكاية المأساوية، كان هيبوليتو يعلق موضحاً:

ـ ان دماغ المسيحيين مشابه لأدمغة البقر.

ولم يكن أولاده يملون الاستماع إلى القصص ذاتها مرة بعد اخرى وهم متحلقون حول أبيهم. وأمام عيون أفراد الأسرة المشدوهين الذين يستمعون إلى كلماته المتوقفة في الزمن، كان هيبوليتو رانكيليو يسترد كل الوقار المسفوح في الاستعراضات المبتذلة، حيث يكون محطاً للسخريات.

في بعض ليالي الشتاء، وبعد أن يكون الأطفال قد ناموا، كانت ديغنا تخرج الحقيبة الكرتونية المخبأة تحت السرير وتصلح على ضوء شمعة ملابس عمل زوجها، فتعيد تثبيت الأزرار الضخمة الحمراء، وترفو ما تمزق هنا وتضع رقعة استراتيجية هناك، وتلمع بشمع النحل الحذاء الأصفر العجيب، وتحيك سراً جوارب التنكر المخططة. وكانت تستغرق في هذا العمل كاستغراقها الحاني في لقاءاتهما الغرامية القصيرة. ففي الصمت الليلي تتعاظم الأصوات الخافتة، ويصفع المطر قرميد السطح وتسمع بوضوح أنفاس أولادها النائمين في الأسرة

المجاورة، حتى أنه يمكن للأم أن تحزر أحلامهم. في ذلك الصمت. كان الزوجان يتعانقان تحت الغطاء، حابسين أنفاسهما، يلفهما دفء مؤامرتهما الغرامية السرية. وعلى خلاف غيرهما من الفلاحين، فقد تزوجا بعد أن أحب كل منهما الآخر، وبالحب أنجبا أولاداً. ولهذا فإنهما لم يندما على مجيء طفل جديد حتى في أقسى أزمنة الجفاف أو الزلازل أو الفيضانات، حين تكون القدور فارغة، لأن الأطفال مثل الورد والخبز، كما تقول احدى مباركات الرب.

كان هيبوليتو رانكيليو يغتنم فرصة وجوده في البيت لينصب الأسيجة، ويجمع الحطب، ويصلح أدوات العمل، ويرقع السقف عندما يهدأ المطر. ومن مدخرات جولاته السيركية، ومن بيع العسل والخنازير، كان يقوم بأود اسرته بفضل تدابير اقتصادية متشددة. لم يكن الطعام يفتقد في سنوات الرخاء، ولكن المال كان شحيحاً حتى في أحسن الأوقات. ما كانوا يرمون أو يهدرون شيئاً. فالصغار يأخذون ملابس من هم أكبر منهم سناً ويستخدمونها إلى أن لا تعود الأنسجة المهترئة تحتمل مزيداً من الترقيع وتتفتت مثل قشور جافة. والكنزات الصوفية كانت تُفك حتى آخر خيط منها، فيغسل الصوف ثم تعاد حياكته. كان الأب يصنع نعالاً للجميع، وكانت الأم لا تريح سنانير حياكة الصوف وماكينة الخياطة. ما كانوا يشعرون بالفاقة مثل بعض الفلاحين الآخرين، لأنهم كانوا يملكون الأرض الموروثة عن الأجداد، ولديهم بهائمهم وأدوات عملهم الزراعية. لقد تلقوا مرة فيما مضى قرضاً زراعياً وأحسوا بالازدهار لبعض الوقت، لكن الأمور ما لبثت أن عادت إلى وتيرتها القديمة. كانوا يعيشون على هامش سراب التقدم الذي يُنزل النكبات ببقية ارجاء البلاد.

همست ديغنا لزوجها:

ـ هيبوليتو، كفاك نظراً إلى ايفانخيلينا.

فقال:

ـ قد لا تأتيها النوبة اليوم.

ـ ستأتيها دوماً. لا نستطيع عمل شيء.

انتهت الأسـرة من تنـاول الفطور، وتفرق أفرادها، ساحباً كل منهم كرسيه الخـاص. كان الصغـار يسـير ون يوميـاً، من الأثنـين وحتى يوم الجمعة، نحو نصف ساعة من المشي السريع للذهاب إلى المدرسة. وفي الأيام الباردة، تعطي الأم لكـل واحـد منهم حصـاة مسخنـة في النـار ليضعها في جيبه، وبهذا تبقى يداه دافئتان. كما كانت تعطيهم قطعة من الخبز وقالبين من السكر. ففي السابق، حين كانـوا يقـدمـون لهم حليبـاً في المدرسة، كانوا يستخدمون السكر لتحليته، ولكنهم منـذ سنـوات صاروا يمصـون قطـع السكـر في الفسحة وكأنها حلوى. ان نصف ساعـة المسـير هذه كانت رحمـة إلهيـة، لأنهم حين يصلون إلى البيت تكـون نوبـة اختهم قد انقضت ويكـون الـزائـرون قد انصـرفـوا. لكن اليوم هو السبت، وسيكـونـون حاضـرين في الغـالب، وسيبلل خاثينتـو فراشـه من هول كوابيسـه. ايفانخيلينا لم تعد تذهب إلى المدرسة مذ ظهرت أول علائم تغيّرها. إن أمها تذكر بدقـة كيف بدأت المصيبـة. كان ذلـك يوم مؤتمر الضفادع بالذات. لكنها متأكدة من أن هذا الحادث لا علاقة له بمرض الطفلة.

في صبـاح أحـد الأيـام الباكر، اكتشفوا وجود ضفدعتين متكبرتين تتأملان المشهـد الطبيعي قريبـاً من تقـاطع السكة الحديدية. وبعد ذلك بقليل جاءت ضفادع أخرى كثيرة قادمة من كل الاتجاهات، ضفادع مستنقعات صغيرة، وضفادع آبار متوسطة الحجم، وضفادع بيضاء من السواقي، وضفادع رمادية من الأنهار. أطلق أحدهم صوت الانذار، فهرع الجميع لرؤ يتها. وفي اثناء ذلك انتظمت الضفادع في صفـوف متـلاحمـة وانطلقت في مسـيرة منتظمـة. وأثنـاء الطريق انضمت اليها ضفـادع اخـرى حتى صار هنـاك حشـد أخضـر يتجـه نحو الطريق العام. انتشر الخـبر، وجـاء الفضـوليـون سيراً على الأقـدام، وعلى الخيول، وفي الحافلات، متـداولـين حول هذه الأعجـوبـة التي لم يسبق لها مثيـل. واحتـل ذلـك الموازييك النـابض بالحيـاة اسفلت الشـارع الـرئيسي المؤدي إلى لوس ريسكـوس، مجبراً السيـارات التي كانت تذرع الطـريق في تلك السـاعـة على التوقف. وقد حاولت شاحنة متهورة التقدم، فانزلقت فوق جثث الضفادع الممزقة وانقلبت عن الطريق

وسط حماس الأطفال الذين سارعوا للاستيلاء على البضائع التي تناثرت في الحرش. طارت الشرطة فوق المنطقة في طائرة هليوكبتر للتأكد من أن هناك مئتان وسبعون متراً من الطريق مغطاة بضفادع متراصة حتى لتبدو وكأنها سجادة براقة من الطحالب. اذيع الخبر من الاذاعة، وبعد وقت قصير حضر الصحفيون يرافقهم خبير صيني من الأمم المتحدة، أكد أنه قد رأى ظاهرة مشابهة في طفولته في بكين. نزل الأجنبي من سيارة سوداء ذات لوحات رسمية، حيّا إلى اليسار وإلى اليمين وصفق الحشد له، خالطين طبعاً بينه وبين رئيس جمعية المغنين الهواة. وبعد أن تفحص الشرقي تلك الحشود الهلامية لبضع دقائق، استنتج انه لا مبرر للذعر، فالأمر لا يعدو أن يكون مؤتمراً للضفادع. واستخدمت الصحافة تلك التسمية. ولأن الزمن كان زمن فقر وندرة، فقد سخرت الصحف قائلة انه نظراً لافتقاد المن، أرسل الرب الضفادع من السماء كي يطبخها شعبه المختار مع الثوم والكزبرة.

عندما أصابت النوبة ايفانخيلينا، كانت الضفادع المشاركة في المؤتمر قد تفرقت، وكان مصورو التلفزيون يُنزلون معداتهم عن الأشجار، والساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، وكان الهواء يتلألأ نقياً، وقد غسله المطر. بقيت ايفانخيلينا وحدها في البيت يومئذ، وكانت ديغنا وحفيدها خائيمتو يطعمان الخنازير فضلات المطبخ. فبعد أن ألقيا نظرة على استعراض الضفادع، أدركا أنه لا وجود لما هو أكثر من ذلك، فالأمر ليس إلا اجتماع دويبات مقرف، فرجعا إلى عملهما. ونبهتهما صرخة حادة وجلبة تحطم آوان خزفية إلى ان شيئاً يحدث في البيت. هرعا إلى هناك، فوجدا ايفانخيلينا مستلقية على الأرض، مستندة على عقبيها ومؤخرة رأسها، ومنحنية إلى الوراء مثل قوس، وهي تقذف الزبد من فمها، ومحاطة بالفناجين والأطباق المهشمة.

لجأت الأم المذعورة إلى الوسيلة الأولى التي خطرت لها: أفرغت عليها سطلاً من الماء البارد، لكن هذا لم يهدئها، وإنما ضاعف من حالتها المرعبة، لتحوّل الزبد إلى لعاب وردي عندما عضت الصبية لسانها، وانقلبت عيناها

لتضيعا في اللانهاية، وانتفضت مرتعشة وعبقت الحجرة بالكآبة ورائحة البراز. كان التوتر عنيفاً، حتى ان جدران الطين السميكة بدت وكأنها تهتز بزلزال في داخلها. فاحتضنت ديغنا خاثينتو مغطية عينيه كي لا يرى ذلك السحر المشؤوم.

استمرت النوبة لبضع دقائق، مخلفة الانهاك لايفانخيلينا والذعر للأم والأخ، وانقلاب البيت رأساً على عقب. عندما جاء هيبوليتو والأولاد الآخرون الذين كانوا يتفرجون على مؤتمر الضفادع، كان كل شيء قد انقضى، وكانت الفتاة تستريح على كرسيها والأم تجمع فتات الأطباق المهشمة.

قال الأب مشخصاً الداء عندما اخبرته بما حدث:

ـ لقد لدغها عقرب أحمر.

ـ فحصتها من رأسها حتى أخمص قدميها. ليست لدغة.

ـ لا بد أن يكون الصرع إذن.

لكن ديغنا كانت تعرف أعراض هذا الداء وتعلم انه لا يؤدي إلى تخريب الأثاث. وفي مساء ذلك اليوم بالذات قررت أخذ ايفانخيلينا إلى سيمون المداوي. فنصحها هيبوليتو قائلاً:

ـ من الأفضل أن تأخذيها إلى طبيب.

ـ أنت تعرف رأيي بالمشافي والأطباء ـ ردت امرأته وهي موقنة أنه إذا كان للصبية من علاج، فإن دون سيمون سيعرفه.

لقد انقضت حتى يوم السبت هذا خمسة أسابيع على النوبة الأولى دون أن يتمكنوا من عمل شيء للتخفيف عنها. وهاهي ايفانخيلينا تساعد أمها في غسل الأدوات، فيما الصباح يمضي، وتقترب الظهيرة المرهوبة.

قالت ديغنا آمرة:

ـ أعدي الأباريق للماء والدقيق يا بنيتي.

بدأت ايفانخيلينا بالغناء وهي تصف أواني الألمنيوم والحديد المطلي فوق الطاولة. وكانت تسكب في كل اناء ملعقة من الدقيق المحمص وقليلاً من

العسل. وستضيف الماء فيما بعد لتقدمها إلى الزائرين الذين يأتون في لحظة غيبوبتها، آملين ان يستفيدوا من وقوع معجزة بائسة.

همهمت ديغنا:

ـ لن أقدم لهم شيئاً ابتداء من يوم غد. سنخرب بيتنا.

ـ لا تقولي هذا يا امرأة. ألا ترين أن الناس يأتون بدافع المحبة. ولن يجعلنا تقديم قليل من الدقيق اكثر فقراً ـ رد عليها هيبوليتو، فأطرقت رأسها. لأنه هو الرجل وهو دائماً على صواب.

كانت ديغنا توشك على البكاء، وأدركت أنها بدأت تفقد أعصابها، فمضت بحثاً عن بعض أزهار الزيزفون لتغلي منها شراباً مهدئاً. لقد كانت الأسابيع الأخيرة عذاباً لا يطاق. فهذه المرأة القوية الصابرة، التي راكمت الآلام وتحملت الفاقة المدقعة، ومهام الأمومة ومشاقها دون أية شكوى، أحست انها على حافة الغرق حيال هذا السحر الذي يجثم على بيتها. كانت متأكدة من أنها فعلت كل ما تستطيعه من أجل شفاء ابنتها، حتى انها أخذتها إلى المستشفى حانثة بقسمها الذي أقسمته بألا تطأ ذلك المكان أبداً. لكن كل جهودها كانت بلا جدوى.



حين قرع فرانثيسكو جرس الباب، تمنى ألا تظهر له بياتريس الكانترا. فهو يشعر بالحياء في وجودها.

ـ هذا هو فرانثيسكو ليال يا ماما، أحد رفاقي ـ هكذا قدمته ايرين لأمها للمرة الأولى، منذ عدة شهور.

وردت السيدة التي لم تستطع احتمال ما تضمره كلمة رفيق من معنى ثوري:

ـ زميلك، أليس كذلك؟

منذ ذلك اللقاء عرف كل منهما مايمكن أن ينتظره من الآخر، ومع ذلك فلقد سعيا لإظهار المودة، ليس لمسرة نفسيهما وإنما لعاداتهما في حسن المعاملة

والكياسة. استقصت بياتريس دون تأخير وعلمت ان فرانثيسكو ينحدر من ابوين اسبانيين مهاجرين بلا ثروة، ينتميان إلى تلك الفئة من المثقفين المأجورين الذين يعيشون في أحياء الطبقة الوسطى. وراودتها الشكوك في الحال من أن مهنته كمصور، وأخلاقه، ودراجته النارية ليست مؤشرات على حياة بوهيمية. فقد كانت للشاب أفكاره الواضحة التي لا تلتقي مع أفكارها. ان ابنتها ايرين تنسج علاقات مع أناس غريبين وهي لا تعارضها في ذلك، لأن معارضتها ستكون دون جدوى على كل حال، ومع ذلك فقد مانعت بكل مااستطاعت صداقتها مع فرانثيسكو. ولم تكن تروقها رؤية ايرين سعيدة بعلاقتها به، ورؤيتهما متحدين بروابط العمل المشترك المتينة، كما لم يكن يروقها أبداً تخيل نتائج مثل هذه الصداقة على خطوبتها من الكابتن. لقد اعتبرته شخصاً خطيراً، لأنها هي نفسها كانت تشعر بالميل إلى عيني المصور السوداوين، ويديه الطويلتين وصوته الهادىء.

ومن جهته، أدرك فرانثيسكو منذ الوهلة الأولى كنه عقيدة بياتريس وأوهامها الطبقية. فوقف عند حدّ معاملتها معاملة مهذبة ومتحفظة، متأسفاً لكونها أم أفضل صديقة له.

وحين رأى البيت، فتن ثانية بالجدار السميك الذي يحيط بالعقار، والمبني من أحجار نهرية مدورة، تحف بها نباتات قزمة ظهرت بفعل رطوبة الشتاء. كانت هناك لوحة معدنية وقورة كتب عليها «مأوى عجزة» وتحت هذه العبارة اسم للمأوى ينسجم مع مزاج ايرين الساخر: «مشيئة الرب». لقد فتنه دوماً ذلك التباين القائم بين الحديقة المشذبة، حيث ستتفتح عما قريب أزهار الداليا والورد والدلبوث في انفجار شذى ولون، وشيخوخة نزلاء الطابق الأول من المبنى المتحول إلى مسكن للمسنين. أما في الطابق العلوي فكان كل شيء متناسقاً وينم عن ذوق رفيع. فهناك السجاد الشرقي، والأثاث الفخم، واللوحات الفنية التي اقتناها اوسيبيو بيلتران قبل ان يختفي. كان البيت مماثلاً لبيوت الحي الأخرى، لكن بياتريس، وبدافع الحاجة، أدخلت عليه بعض التعديلات، محتفظة قدر الامكان بواجهة المدخل على حالها كي يبدو البيت من الشارع فخماً مثل البيوت

المجاورة. فقد كانت شديدة الحساسية في هذا الأمر، فهي لا تود الظهور كمن تتاجر بالمسنين، وانما كما لو كانت تقوم بعمل خيري. يا للمساكين.. أين ستنتهي بهم الأحوال إذا نحن لم نعتن بهم؟

وكانت تستخدم مثل هذا الحذر عندما تتحدث عن زوجها. فهي تفضل اتهامه بالذهاب إلى مكان مجهول برفقة امرأة سيئة السمعة، على ان تبدي شكوكاً في اتجاه آخر. والحقيقة انها كانت ترتاب في أن غيابه ليس مرتبطاً بمغامرة عاطفية، بل ان الاحتمال الأرجح هو أن قوى الأمن قد صفّته سهواً أو أنها تعتقله نتيجة خطأ ما في أحد المعتقلات، مثل معتقلين كثيرين يدور الهمس حول مصيرهم في السنوات الأخيرة. ولم تكن هي وحدها من يفكر بمثل هذه الأفكار السوداء. فقد كانت صديقاتها يراقبنها بريبة في أول الأمر، ويهمسن فيما بينهن من وراء ظهرها أن اوسيبيو بيلتران قد وقع في قبضة السلطة، وانه اقترف والامر كذلك ذنباً دون شك: فقد يكون شيوعياً اختلط بالناس المحترمين مثل أولئك الموجودين في كل مكان. ولم تكن بياتريس ترغب في تذكر التهديدات والسخريات الهاتفية، ولا الرسائل المغفلة التي كانت تنزلق من تحت الباب، ولا تلك المناسبة التي لا سبيل إلى نسيانها حين أفرغوا أكواماً من القمامة على سريرها. ففي تلك الليلة لم يكن في البيت أحد، لأن روسا كانت قد خرجت كذلك، وحين رجعت بياتريس مع ابنتها من المسرح، كان كل شيء مرتباً ولم تستغربا سوى صمت الكلبة. بدأت ايرين بمناداتها والبحث عنها في الغرف وبياتريس وراءها تشعل الأنوار. وصعقتا وهما تريان على الأسرة حينئذ ركاماً من الفضلات والعلب الفارغة وقشور البيض القذرة وأوراقاً ملطخة بالبراز. ووجدتا كليو محبوسة في احدى الخزائن وهي كالميتة، وبقيت الكلبة على هذا الحال خمس عشرة ساعة إلى ان استعادت وعيها من تأثير المنوِّم. جلست بياتريس في تلك الليلة تتأمل القذارة والبراز على سريرها دون أن تدرك معنى هذا الاستفزاز. لم تستطع ان تخمن من هو الذي حمل أكياس القمامة إلى البيت، وفتح الباب بفتاحة لصوص، وخدّر الكلبة وحقّر كل شيء

بهذه الطريقة. لم يكن مسكن العجزة الذي في الطابق الأول موجوداً في ذلك الحين، كما لم يكن لديهم خدم سوى روسا والجنائني.

بكت بياتريس:

ـ لا تحدثي أحداً بهذا الذي جرى يا بنيتي. انها اهانة، عار.

ـ لا تفكري بالأمر كثيراً يا أماه. ألا ترين انه عمل شخص معتوه؟ لا تقلقي.

لكن بياتريس الكانترا كانت تعلم أن لهذه الاهانة علاقة ما بزوجها، فشتمته مرة اخرى. تذكرت تفاصيل ذلك المساء الذي هجرها فيه اوسيبيو بيلتران. كان يهجس في تلك الأيام بصفقة الخراف المخصصة للمسلمين وبالجزارة الخيرية التي اوصلته إلى الافلاس. كان قد مضى على زواجهما أكثر من عشرين سنة وكان صبر بياتريس قد نفد. ما كانت قادرة على احتمال لا مبالاته وخياناته الزوجية الكثيرة، واساليبه المستنكرة في انفاق النقود على الطائرات الصغيرة المفضضة، وخيول السباق، والتماثيل الجنسية، وولائمه في المطاعم، وموائد القمار، والهدايا الثمينة التي يقدمها لنساء أخريات. ولم يهدأ زوجها بعد بلوغه سن النضج، بل على العكس، فقد تفاقمت عيوبه وازداد ولعه بالمغامرة مع ظهور الشيب في فوديه والتجاعيد حول عينيه. فصار يغامر برأس ماله في صفقات جنونية، ويهيم على وجهه لأسابيع في رحلات غريبة، ابتداء من الطواف مع عالمة آثار اسكندينافية حول القارة وحتى الابحار في رحلة فريدة لعبور المحيط في طوف تدفعه الرياح غير المواتية. وكانت جاذبيته تفتن جميع الناس إلا زوجته. وفي واحدة من مجادلاتهما العنيفة، فقدت السيطرة على نفسها وانهالت عليه بوابل من الشتائم والتأنيب. كان اوسيبيو بيلتران رجلاً مؤدباً يمل أي شكل من أشكال العنف. فرفع يده طالباً هدنة وقال مبتسماً أنه سيخرج لشراء سجائر. خرج بهدوء ولم تعد تعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

ـ لقد هرب من ديونه ـ هكذا كانت تفكر بياتريس حين لا تجد المبررات الكافية لتعلقه بامرأة اخرى.

لم يترك أي أثـر يدل على مكـانـه. كما لم يُعثر على جثته. وقد اعتادت هي في السنـوات التـاليـة وضعهـا الجديد، محاولة بجهود حثيثة الظهور أمام صديقاتها على أنهـا تعيش حيـاة طبيعيـة. جابت وحـدهـا وبصمت المشـافي، والسجون، والقنصليات الأجنبية مستقصية، وبدأت تحريات سرية بالتعاون مع وكالة مخبرين خصوصيين، لكن أحداً لم يستطع العثور عليه. واخيراً، وبعد أن انهكها التجوال على عدة مكـاتب، قررت اللجـوء إلى مقـر النـائب الـرسـولي. لقد كان وسطها الاجتماعي ينظر بازدراء إلى مثل هذا التصرف، لذلك لم تتجرأ على الاقدام عليه علانيـة حتى ولا أمـام ايـرين. فقد كان يُنظر إلى مقر المطرانية على انه وكر رهبان ماركسيـين وعلمانيـين خطـرين متفـرغين لمساعدة أعداء النظام. وكانت تلك هي المؤسسـة الـوحيدة التي تخوض الحرب ضد الحكومة، ويقودها الكردينال، واضعاً سلطـة الكنيسـة التي لا تُهزم في خدمـة المطارَدين دون أن يهتم بسؤالهم عن لونهم السيـاسي. وحتى اليـوم الـذي احتـاجت فيـه للمساعدة، كانت بياتريس تعلن بعجـرفـة انـه على السلطـات أن تمحـوعن الخـريطـة هذه المؤسسـة وان تعتقـل الكـردينـال وأتبـاعـه العصـاة. لكن مساعيها في البحث عن زوجها ذهبت أدراج الرياح، لأنهم لم يستطيعوا كذلك في مقر النائب الرسولي من التوصل إلى أية أخبار عن غائبها. حتى بدا وكأن ريح النسيان هي التي اختطفت زوجها.

أفسـدت الشكـوك أعصاب بياتريس. فنصحتها صديقاتها بممارسة تمارين اليوغا والتأمل الشرقي لتهدىء من قلقها الدائم. وحين صارت تقف على رأسها بمشقة، فيما قدماها متجهتان إلى أعلى، متنفسة من سرتها، ومركزة تفكيرها في النيرفـانـا[1]، كانت تتمكن من نسيـان مشـاكلها، لكنها لم تكن قادرة على البقاء هكـذا طوال النهار. وفي اللحظـات التي كانت تفكـر فيهـا بحـالتها التي صارت اليها، كانت تصاب بالذهول لسخرية قدرها. فقد تحولت إلى زوجة مفقود، هي التي طالما قالت أن أحداً لا يُفقد في البلاد وأن هذه الدعاوي ليست إلا افتراءات معـاديـة للوطن. وحـين كانت ترى النسـاء القلقـات يتظـاهرن كل يوم خميس في السـاحـة، وهن يعلقن على صدورهن صور أفراد أسرهن المفقودين، كانت تقول

أنهن مأجورات بذهب موسكو. ولم يخطر ببالها أبداً أنها قد تجد نفسها في مثل وضع هاتيك الأمهات والزوجات اللاتي يبحثن عن ذويهن. لم تكن أرملة في العرف الشرعي، ولن تصير كذلك قبل انقضاء عشر سنوات، حين سيمنحها القانون وثيقة وفاة لزوجها. ولم تستطع التصرف بالأملاك التي خلفها اوسيبيو بيلتران ولا أن تضع يدها على شركاء زوجها الزئبقيين الذين تحولوا إلى دخان حاملين معهم أسهم شركاتهم. بقيت في بيتها متكلفة مزاج الدوقة، انما دون أن يكون لديها المال اللازم للحفاظ على نمط حياتها كسيدة من سيدات الحي الراقي. ولضيقها من النفقات، كانت على وشك رش البيت بالبنزين واحراقه لقبض قيمة التأمين، حين خطرت لايرين الفكرة الملهمة باستثمار الطابق الأرضي.

اقترحت ايرين يومها قائلة:

- الآن، حيث عائلات كثيرة تهاجر إلى الخارج ولا تستطيع حمل الأجداد معها، اظن اننا نقدم لهم خدمة عظيمة بتولينا مسؤولية هؤلاء المسنين. كما يمكننا بهذا الحصول على دخل بسيط.

وهذا ما فعلتاه. تم تقسيم الطابق الأول إلى مقصورات، وأقامتا حمامات جديدة ومساند في الممرات لاسناد الشيخوخة وتثبيت الأرجل الواهنة، وغطتا الدرج بأرضية خشبية مستوية لتسهيل انزلاق مقاعد المقعدين ذات العجلات ووزعتا في كل مكان مكبرات صوت تبث موسيقى هادئة تطفىء الحزن وتسكّن القنوط، دون أن يدور بخلديهما أن هذه الموسيقى ستقع على آذان صماء.

استقرت بياتريس وابنتها في الطابق العلوي، ومعهما روسا التي تعمل في خدمتهم منذ أزمنة لا تطالها الذاكرة. وزينت الأم المنزل بأفضل مقتنياتها مستبعدة أي ابتذال، وبدأت تعيش من الايراد الذي يدفعه نزلاء «مشيئة الرب». فإذا ما طرقت الحاجة بابها بالحاح أشد، كانت تتحرك ضمن أقصى حدود الحذر لتبيع لوحة، أو حلية فضية أو احدى المجوهرات الكثيرة التي اقتنتها كتعويض عن الهدايا التي كان زوجها يقدمها لعيشقاته.

★ ★ ★

كانت ايرين تأسف لاكتئاب أمها من هذه المشاكل التافهة. وكانت تفضل العيش في مكان أكثر تواضعاً وتحويل البيت كله لايواء مزيد من النزلاء المسنين، وبذلك تستطيعان تغطية نفقاتها ببحبوحة، لكن بياتريس كانت تفضل قتل نفسها في العمل واللجوء إلى كل البهلوانيات كي لا ينكشف أمر انحدارها المادي. فترك البيت سيعني اعترافاً علنياً بالفقر. لقد كانت الأم وابنتها مختلفتين اختلافاً كبيراً في نظرتها للحياة. كما أنهما لم تكونا على اتفاق فيما يتعلق باوسيبيو بيلتران. فبياتريس تعتبره رجلاً خبيثاً قادراً على الاحتيال، ومتعدد الزوجات، اضافة إلى ارتكابه أعمال نصب اخرى اضطرته إلى الفرار وذيله بين ساقيه، ولكنها حين تعلن عن هذه الآراء تتصدى لها ايرين بضراوة. فالفتاة تعبد أباها، وتأبى التصديق انه قد مات، وترفض الاعتراف بعيوبه. ولم تكن لتهتم بالاسباب التي حملته على الاختفاء من عالمه المعروف. فعاطفتها نحوه كانت غير مشروطة. فهي تحتفظ له في ذاكرتها بصورة الرجل الأنيق، ذي الوجه النبيل، والطباع المصوغة من مزيج المشاعر الطيبة والعواطف الجياشة التي تجعله بعيداً عن تخوم السفالة. لقد كانت تلك الصورة الغريبة تثير هلع بياتريس، ولكنها الملامح التي تذكرها ايرين بحنان شديد.

كان اوسيبيو بيلتران هو الابن الأصغر لأسرة من المزارعين الأثرياء، وقد عامله اخوته على انه متلاف لا علاج له، وذلك لتبذيره واقباله على الحياة، على عكس بخل ذويه وسوداويتهم. وما أن توفي ابواه، حتى اقتسم اخوته التركه، فأعطوه حصته وما عادوا يريدون معرفة أي شيء عنه. باع اوسيبيو أراضيه وسافر إلى الخارج حيث بدد في بضع سنوات أمواله حتى آخر قرش منها في ملاهٍ تليق بالأمراء، حسب تعابيره الطائشة. ثم رجع إلى الوطن في سفينة شحن، وكان ذلك كافياً لتجريده نهائياً من كل قيمة في عيني أي فتاة تسعى إلى الزواج. لكن بياتريس الكانترا أغرمت بأساليبه الارستقراطية في التعامل، وبلقبه وبالجو الذي يحيط به. كانت تنتمي إلى اسرة من الطبقة الوسطى، وكان طموحها منذ الطفولة هو ارتقاء السلم الاجتماعي. أما رأس مالها فكان جمال تقاطيعها، وتكلف

أساليبها وبعض العبارات غير المتقنة بالانكليزية والفرنسية كانت تنطقها بطلاقة توحي معها وكأنها تتقن هاتين اللغتين. وكان الورنيش الثقافي يتيح لها لعب دور مهم في الصالونات، كما منحتها مهارتها في الاعتناء بشخصيتها سمعة واسعة كامرأة أنيقة. كان اوسيبيو بيلتران مفلساً عملياً، وقد لامس القاع في عدة جوانب من حياته، إلا أنه كان واثقاً من أن تلك الحال ليست سوى أزمة عابرة، لقناعته بأنه لا بد لذوي الحسب النجيب من أن يعوموا ثانية. ثم انه كان راديكالياً. ويمكن ايجاز العقيدة الراديكالية في ذلك الحين بكلمات قليلة: مساعدة الأصدقاء، وسحق الأعداء، وتحقيق العدالة فيما عدا ذلك من الحالات. فساعده أصدقاؤه، ومن خلال لعب الغولف أحياناً في النادي الأكثر خصوصية، وامتلاك شرفة خاصة في ميدان سباق الخيل واشتراك في المسرح البلدي، ثم بدعم من جاذبيته ومزاجه الذي هو أشبه بمزاج نبيل بريطاني، توصل إلى جذب شركاء له في كل أصناف الأعمال التجارية. وبدأ يعيش حياة بذخ، لأنه رأى أن العيش بطريقة اخرى ليس إلا حماقة، وتزوج من بياتريس الكانترا لضعفه حيال النساء الفاتنات. ففي المرة الثانية التي دعاها فيها إلى الخروج معه، سألته هي نفسها دون أية مقدمات عن نواياه تجاهها، لأنها لم تكن ترغب في تبديد الوقت. كانت قد أتمت خمساً وعشرين سنة من عمرها ولم يعد بامكانها اضاعة شهور اخرى في مغازلات لا فائدة منها، وكل ما كان يهمها هو الحصول على زوج وحسب. وقد أضحكت صراحتها هذه اوسيبيو كثيراً، ولكنها حين رفضت الخروج برفقته ثانية، أدرك ان حديثها كان جدياً. ولم يستغرق منه التراجع عن موقفه منها وتهوره في طلب يدها للزواج سوى لحظة واحدة، لكن حياته كلها لم تكفه للندم على ذلك التصرف. أنجبا ابنة واحدة، ايرين، التي ورثت شرود جدتها لأبيها الملائكي وطيب مزاج أبيها الدائم. وفيما الطفلة تكبر، عقد اوسيبيو بيلتران صفقات كثيرة، عاد عليه بعضها بالربح الوفير، وكان بعضها الآخر جنوناً واضحاً. كان رجلاً واسع المخيلة، وخير برهان على ذلك ماكينة قطاف جوز الهند. فقد قرأ يوماً في احدى المجلات أن جني محصول جوز الهند يدوياً يرفع كثيراً من كلفة هذه

الثمار، لأنه على الوطنيين أن يتسلقوا النخلة بالتناوب، فيقطف أحدهم جوز الهند ثم يعود للنزول كي يصعد غيره. وبهذا يضيع وقت كثير في الصعود والنزول، كما ان العامل قد يهوي من أعلى الشجرة أحياناً متسبباً بذلك في نفقات اضافية غير متوقعة. فقرر التوصل إلى حل. أمضى ثلاثة أيام معتكفاً في مكتبه ومعذباً نفسه بمشكلة ثمار جوز الهند، التي يمكننا القول انه لم يكن يعرفها عن قرب، لأنه كان قد استبعد السفر إلى المنطقة المدارية من برامج رحلاته، كما انهم في بيته ما كانوا يستهلكون مأكولات دخيلة. لكنه استقصى، ودرس حجم الثمرة ووزنها، والمناخ والتربة المناسبين لزراعتها، وموسم القطاف، ومدة النضوج وتفاصيل أخرى. بعد ذلك صاروا يرونه وهو مستغرق في رسم التصاميم طوال ساعات، وكانت نتيجة هذا السهر الطويل آلة قادرة على جني كمية هائلة من ثمار جوز الهند في الساعة. ذهب إلى السجل وحصل على براءة اختراع ذلك البرج الزاحف المزود بذراع قابلة للانقباض والانفتاح، وسط قهقهة ذويه واصدقائه الذين ما كانوا يعرفون جوز الهند أيضاً وهو في حالته الأولية كثمار، ولم يروه إلا متوجاً قبعات راقصات المامبو أو مبشوراً فوق حلوى حفلات الزفاف. تنبأ اوسيبيو بيلتران أن آلته لجني جوز الهند ستنفع في شيء يوماً ما، وقد أثبت الزمن انه كان على صواب.

كانت تلك المرحلة عذاباً دائماً لبياتريس ولزوجها. أراد أوسيبيو أن يبتر العلاقة قبل استفحال الداء بانفصال أبدي عن هذه الزوجة التي تعاديه وتلاحقه بتراتيل ساخطة، لكنها رفضت دون أن يكون لديها أي سبب آخر سوى الرغبة في تعذيبه ومنعه من إقامة علاقة جديدة مع أي واحدة من منافساتها. وكانت تتذرع بتأمين حياة اسرية مستقرة لايرين، وتقول له: قبل ان تسبب لابنتي ألماً كهذا، عليك أن تمر فوق جثتي. وكان زوجها على وشك أن يفعل ذلك، لكنه فضل شراء حريته. فقد عرض عليها في ثلاث مناسبات مبالغ طائلة كي تسمح له بالانفصال عنها بسلام، ووافقت في المرات الثلاث، ولكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة، بعد أن يكون المحامون قد أعدوا كل الاوراق اللازمة ولم يعد

ينقص سوى التوقيع المُلزم. وكانت معاركها الكثيرة معه تعزز الكراهية في نفسها. لهذه الأسباب وألف سبب عاطفي آخر، لم تكن ايرين تبكي والدها. فلا شك انه قد فر ليتحرر من قيوده، ومن ديونه، ومن امرأته.

عندما قرع فرانثيسكو ليال باب البيت، خرجت ايرين لاستقباله ترافقها كليو التي كانت تنبح عند قدميها. كانت الشابة قد استعدت للرحلة واضعة الكنزة على كتفيها ومنديلاً على رأسها، وحاملة آلة التسجيل.

سألها:

- أتعرفين أين تعيش هذه القديسة؟

- في لوس ريسكوس، على بعد ساعة من هنا.

تركا الكلبة في البيت، وركبا الدراجة النارية وانطلقا. كان الصباح منيراً ودافئاً وبلا غيوم.



اجتازا المدينة كلها: الشوارع المُظلَّلة بالأشجار الوارفة بين منازل الحي الراقي الفخمة، فمنطقة الطبقة الوسطى الرمادية والصاخبة ثم أحزمة البؤس العريضة. وفيما الدراجة تطير، كان فرانثيسكو ليال يشعر بايرين المستندة إلى ظهره ويفكر بها. المرة الأولى التي رآها فيها، قبل أحد عشر شهراً من هذا الربيع المشؤوم، ظن انها صبية هاربة من احدى حكايا القراصنة والأمراء، وانها تتبدى له كأعجوبة لا يدركها أحد سواه. كان يبحث في تلك الأيام عن عمل خارج نطاق مهنته. فعيادته الخاصة أضحت خاوية من الزبائن، ومثقلة كاهله بنفقات باهظة دون أية أرباح. كما أنهم أقالوه من عمله في الجامعة بعد أن أغلقوا كلية علم النفس التي اعتبرت مزرعة خصبة للأفكار الضارة. أمضى شهوراً وهو يجوب المعاهد والمشافي والمصانع دون أية نتيجة سوى القنوط المتزايد، إلى أن اقتنع أن سنوات دراسته ودرجة الدكتوراة التي نالها في الخارج لن تنفعه شيئاً في المجتمع الجديد، وليس ذلك لأن الحاجة الانسانية لمهنته قد حُلّت فجأة وأصبحت البلاد

مأهولة بأناس سعداء، وانما لأن الأغنياء ما كانوا يعانون من مشاكل وجودية، والآخرون ما كانوا بقادرين على تغطية نفقات ترف العلاج السيكولوجي، رغم حاجتهم اليه، فكانوا يضغطون على اسنانهم ويتحملون بصمت.

صارت حياة فرانثيسكو ليال، المترعة بالمصادفات الطيبة في سنوات مراهقته، تبدو لدى انتهاء العشرينات منها فشلاً ذريعاً لعيني أي مراقب محايد، واكثر من ذلك لعيني ذويه. لقد أحس بالعزاء والتماسك لفترة بمزاولته لمهنته سراً، ولكن سرعان ما توجب عليه أن يساهم في ميزانية الاسرة. فالعسر في بيت آل ليال كان يتحول إلى فقر. وقد احتفظ بتماسكه إلى أن أيقن أن جميع الابواب موصدة أمامه؛ ففقد زمام نفسه في أحد الأيام، وانهار في المطبخ حيث كانت أمه تعد العشاء. وحين رأته على هذه الحال، مسحت يديها بالمريلة، ورفعت الصلصة عن الموقد وعانقته كما كانت تفعل وهو صبي، وقالت له:

- ليس الطب النفسي هو مجال العمل الوحيد يا بني. امسح أنفك وابحث في جهة اخرى.

لم يكن فرانثيسكو قد فكر باستبدال مهنته حتى ذلك الحين، لكن كلمات هيلدا ألهمته دروباً جديدة. فأسرع إلى استبعاد الرأفة بنفسه واستعرض مهاراته ليختار من بينها واحدة منتجة وتتيح له قدراً من المتعة كذلك. فاختار التصوير كبداية، حيث المنافسة ضئيلة. كان قد اشترى منذ سنوات آلة تصوير يابانية مع كل معداتها، ورأى أن الوقت قد حان لنفض الغبار عنها واستخدامها. وضع في محفظته بعض أعماله الفوتوغرافية، وقلب دليل الهاتف ليرى أين يعرض نفسه، وهكذا وصل إلى مجلة نسائية.

كانت مكاتب المجلة تشغل الطابق الأخير من مبنى قديم يحمل اسم مؤسس دار النشر مكتوباً على البوابة بحروف مذهبة. ففي حقبة الإزدهار الثقافي، حين جرت محاولة زج الجميع في حفلة المعرفة ورذيلة الاعلام، وصار الورق المطبوع يباع بكميات أكبر من كميات أرغفة الخبز، قرر أصحاب المؤسسة ترميم البناء ليتلاءم مع اندفاعة الإعلام الجنونية التي تعصف بالبلاد. بدأوا

باصلاح الطابق السفلي، ففرشوا الأرض بالسجاد، وغطوا الجدران بخشب فاخر، واستبدلوا الأثاث غير المتناسق بمناضد من الألمنيوم والزجاج، ونزعوا النوافذ ليفتحوا كوى انارة، وأغلقوا السلالم ليشقوا ثغرات يدخلوا فيها صناديق المصاعد الحديدية، ووضعوا عيوناً الكترونية تفتح الأبواب وتغلقها بعملية أشبه بالسحر. كانت طبقات المبنى قد تحولت إلى متاهة حين توقف العمل فجأة. ولم تصل أعمال الترميم مطلقاً إلى الطابق الخامس، الذي احتفظ باثاثه ذي اللون غير المحدد، وآلاته الخرافية، وصناديق ارشيفه وثقوب سقفه التي تقطر دون عزاء. ولم تكن لهذه المعدات المتواضعة علاقة كبيرة بالمجلة الفاخرة التي كانت تصدر هناك، والتي كانوا يستخدمون في طباعتها جميع ألوان قوس قزح على ورق مصقول، وأغلفة تبتسم عليها ملكات جمال متخففات من الملابس، وريبورتاجات نسائية جريئة. رغم أنهم في السنوات الأخيرة، وبسبب الرقابة، صاروا يضعون لطخات سوداء في الصدور العارية، ويستخدمون عبارات ملطفة للإشارة إلى كلمات ممنوعة مثل: اجهاض وطيز وحرية.

كان فرانثيسكو ليال يعرف المجلة لأنه كان يشتريها أحياناً لأمه. ولم يكن يذكر من اسماء محرريها سوى اسم ايرين بيلتران، الصحفية التي تكتب بجرأة بالغة، وهي مزية نادرة في تلك الأيام. لذلك، ولدى وصوله إلى استعلامات المجلة، طلب مقابلتها. قادوه إلى صالة فسيحة مضاءة بنافذة عريضة تظهر من خلالها في البعيد كتلة الجبل المهيبة، الضاحية الحامية للمدينة. رأى أربع طاولات عمل، تعمل فوقها أربع آلات كاتبة. وفي طرف الصالة، كان مشجب عليه ملابس من أقمشة زاهية. وكان هناك مخنث يرتدي ثياباً بيضاء ويسرح شعر احدى الفتيات، بينما فتاة اخرى تنتظر دورها، جالسة دون حراك مثل صنم، وغارقة في تأمل جمالها. أشاروا له إلى ايرين بيلتران، وما أن رآها من بعيد حتى أحس بانجذاب إلى تقاطيع وجهها وشعرها الغريب المنفوش على كتفيها. استدعته بابتسامة متغنجة كانت هي الشرط الأخير للاقتناع بأن هذه الفتاة قادرة على سلبه حتى أفكاره، لأنه رأى فيها تجسيداً لقراءاته الطفولية ولاحلام مراهقته. حين تقدم

منهـا كان قد فقـد اتـزانـه، ووقف أمـامهـا مضطرباً، غير قادر على رفع نظره عن هاتيك العينين اللتين يبرزهما المكياج. واخيراً استخرج صوته وقدم نفسه.

ـ انني أبحث عن عمل ـ قال ذلك فجأة وهو يضع على الطاولة محفظته التي تضم نماذجه الفوتوغرافية.

فسألته بصراحة، ودون أن تخفض صوتها:

ـ هل أنت في القائمة السوداء؟

ـ لا.

ـ يمكننا الكلام إذن. انتظرني خارجاً وحين أنتهي هنا سأجتمع بك.

خرج فرانثيسكـو متفـادياً الطالاوت والحقائب المفتوحة على الأرض، والتي تحتوي على شالات ومعاطف فراء تبدو وكأنها غنائم رحلة صيد حديثة. اصطدم بماريـو، مصفف الشعـر الـذي انـزلق بمحـاذاتـه وهـو يسـرح باروكـة ذات شعر شاحب، واخـبره وهـو يمـر ان الشقـراوات هن تقليعة هذه السنة. انتظر في ردهة الاستعـلامـات لوقت بدا له قصيراً جداً، لأنه تشاغل بالنظر إلى حركة عارضات الأزيـاء غير الاعتيـادية بملابسهن الداخلية، وإلى أطفال يحملون حكايا لمسابقة طفـوليـة؛ وإلى مخترع يصـر على نشـر اعـلان عن جهـازه الذي اخترعه لقياس التـدفق البـولي، وهـو جهـاز مستحدث لقياس اتجاه تدفق البول وغزارته؛ ومحبين مغمـومـين بمنغصـات الهوى يبحثان عن عيادة الحب؛ وسيدة ذات شعر كهرماني أسود قدمت نفسها على أنها براجة وبصارة، وعندما رأته توقفت مشدوهة، كما لو أنها تراه في نبوءة، وهتفت:

ـ ستعيش حباً عظيماً. . إنني أقرأ ذلك في جبينك.

كان فرانثيسكو قد قطع علاقته بخطيبته الأخيرة قبل عدة شهور وقرر البقاء بمنأى عن أية شبهات غرامية. بقي جالساً هناك كتلميذ معاقب، دون أن يدري ما يقـول وهـو يشعـر أنـه في وضع مضحك. داعبت شعره بأصابع يدها الخبيرة، وتفحصت راحتي يديـه وقـالت انـه من مواليد برج القوس، رغم ان له أسلافاً من برج العقرب، لأنه موسوم بعلائم الجنس والموت. . والموت على وجه التحديد.

أخيراً انصرفت العرافة، فاستراح فرانثيسكو الذي لم يكن يفهم شيئاً من دائرة البروج ولا يؤمن بقراءة الكف والتنجيم وغيرها من الخرافات. بعد ذلك بقليل ظهرت ايرين بيلتران واستطاع رؤيتها بكامل قامتها. فبدت كما تخيلها تماماً. كانت ترتدي تنورة طويلة جداً من قماش مطرز يدوياً، وبلوزة من القطن الخام، وحزاماً مجدولاً من عدة ألوان يشد على خصرها، وحقيبة جلدية منتفخة مثل حقيبة ساعي البريد. مدت له يداً صغيرة ذات أظافر قصيرة، وفي جميع أصابعها خواتم ومجموعة أساور برونزية وفضية في معصمها.

سألته:

ـ أيعجبك الطعام النباتي؟ ـ ثم أمسكته من ذراعه دون أن تنتظر الاجابة، وقادته نزولاً على السلم، لأن المصاعد معطلة، مثل اشياء كثيرة أخرى في مبنى المجلة.

لدى خروجهما إلى الشارع، انعكست الشمس بقوة على شعر ايرين، وفكر فرانثيسكو انه لم ير في حياته شيئاً بمثل هذه الروعة. ولم يستطع كبح دافع دفعه لتحريك أصابعه وملامسته. فابتسمت لأنها كانت معتادة على اثارة الدهشة في مجال جغرافي لم يكن مألوفاً فيه رؤية شعر بهذا اللون. وعند وصولهما إلى الناصية توقفت، وأخرجت مظروفاً ملصقة عليه الطوابع ووضعته في صندوق البريد قائلة بغموض:

ـ إنها رسالة لشخص ليس لديه من يكاتبه.

على بعد كوادرتين وجدا مطعماً صغيراً، مكاناً يرتاده نباتيون، وروحانيون، وبوهيميون، وطلاب، ومرضى قرحة معدية. كان المحل مزدحماً في تلك الساعة، ولكنها كانت زبونة دائمة. حياها صاحب المطعم باسمها، وقادهما إلى أحد الأركان وأجلسهما إلى طاولة خشبية مغطاة بشرشف مخطط وملطخ بالزبيب والجوز. استمتع فرانثيسكو وايرين بمضغ الأطعمة ببطء، فيما كل منهما يدرس الآخر بعينيه. وسرعان ما أحسا بالثقة وتحدثت هي عن عملها في المجلة، حيث تكتب عن هرمونات عجيبة تحقن في الاذرع لمنع الحمل، وعن كمادات

طحالب بحرية لمحو آثار التقدم في السن عن البشرة، وعن غراميات أمراء وأميرات البيوت الملكية الأوروبية، وعن عروض أزياء فضائية أو رعوية، حسب تقليعات باريس الموسمية، وموضوعات أخرى مختلفة الأهمية. وعن نفسها قالت إنها تعيش مع أمها، وخادمة قديمة وكلبتها كليو. وأضافت إن أباها خرج منذ أربع سنوات ليشتري سجائر، واختفى نهائياً من حياتهم. أما خطيبها، الكابتن في الجيش، غوستافو مورانتي، فلم تأت على ذكره. وسيعلم فرانثيسكو بوجوده فيما بعد.

قدموا لهما كحلوى بعد الطعام قطعاً من ثمار البابابية مع القطر، وهي الثمار التي تنمو في المناطق الشمالية الدافئة. فداعبتها ايرين بعينيها وبالملعقة، مستمتعة بالانتظار. وأدرك فرانثيسكو أن الفتاة تحترم، مثله، بعض المتع الدنيوية. ولم تأكل ايرين كل الحلوى، بل أبقت قطعة منها في الطبق، وقالت موضحة:

ـ سأستمتع بمذاقها مع الذكرى بعد قليل. أما الآن، فلنتحدث عنك. .

بكلمات قليلة، لأن ميوله الطبيعية وظروف مهنته كانت تدفعه إلى الايجاز، وإلى الاستماع باهتمام في المقابل، روى لها انه منذ زمن لا يجد عملاً في مجال الطب النفسي، وانه بحاجة للعمل في أي مهنة شريفة. ويخيل إليه أن التصوير مجال مناسب، لكنه لا يرغب في التحول إلى واحد من هؤلاء الهواة المتسولين الذين يعرضون خدماتهم في حفلات الزفاف والعماد وأعياد الميلاد، ولهذا لجأ إلى المجلة.

سألته ايرين:

ـ سأقابل غداً بعض المومسات، هل تريد خوض التجربة معي؟

ولفق فرانثيسكو على الفور، مبعداً شبحاً من الكآبة عن روحه لدى رؤيته مدى سهولة كسب العيش بالضغط على زر، وصعوبة ذلك بالمقابل من خلال وضع خبرته ومعارفه التي حصّلها طوال سنوات من الدراسة في خدمة الغير.

حين جيء لهما بالحساب، فتحت حقيبتها لتخرج نقوداً، لكن فرانثيسكو كان قد تلقى تربية يدعوها أبوه تربية الرجولة الصارمة، لأن التهذيب ليس نقيضاً للثورية. فسارع لتناول فاتورة الحساب متجاوزاً الخطوات التي خطتها الداعيات

إلى التحرر في حملاتهن من أجل المساواة، ومفاجئاً الصحفية الشابة مفاجأة غير منتظرة.

قالت له محتجة:

ـ أنت بلا عمل، دعني أدفع.

وسيكون هذا أحد الأسباب القليلة لمجادلاتها خلال الشهور التالية.

سرعان ما حصل فرانثيسكو ليال على المؤشر الأول من مؤشرات عدم ملاءمة عمله الجديد. ففي اليوم التالي رافق ايرين إلى المنطقة الحمراء من المدينة، معتقداً أنها قد قامت باتصالات سابقة. لكن الأمر لم يكن كذلك فقد وصلا إلى حي المواخير عند الغروب وراحا يذرعان الشوارع تائهين، حتى ان بعض الزبائن الأقوياء تصدوا للفتاة ليسألوها عن تسعيرتها. وبعد مراقبة قصيرة، اقتربت ايرين من امرأة سمراء تقف على ناصية أحد الشوارع، تحت أنوار الإعلانات المضيئة بعدة ألوان.

ـ عفواً يا آنسة، هل أنت قحبة؟

اسرع فرانثيسكو بالاستعداد لحمايتها إذا ما قامت الأخرى بتوجيه ضربة من حقيبتها اليها، وهو أمر له ما يبرره. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل ان ما حدث هو العكس تماماً. إذ نفخت السمراء نهديها كبالونين محبوسين في بلوزتها التي توشك ان تتمزق وابتسمت مضيئة الليل ببريق سن ذهبي في فمها، وردت:

ـ في خدمتك يا ابنتي.

وضحت لها ايرين الأسباب التي استدعت وجودها هناك، فأبدت الأخرى استعدادها للتعاون مبدية تلك النوايا الطيبة التي يُظهرها الناس نحو الصحافة. أثار ذلك فضول زميلاتها وبعض العابرين، فالتفت هناك خلال دقائق مجموعة بشرية عرقلت السير في الشارع، فاقترح فرانثيسكو اخلاء الطريق قبل أن تأتي دورية، كما يحدث كلما اجتمع أكثر من ثلاثة أشخاص دون تصريح مسبق من القيادة. قادتهما السمراء إلى مقهى المندرين الصيني، حيث واصلوا الحوار الممتع

مع القـوادة ونسـاء المحـل الأخريات، فيما الزبائن ينتظرون بصبر، بل انهم أبدوا استعدادهم للمشاركة في الحوار إذا تعهدت باغفال ذكر اسمائهم.

لم يكن من عادة فرانثيسكـو توجيـه الأسئلة الحميمـة خارج عيـادتـه ولغـير أهـداف علاجيـة، ولهـذا السبب أحس بالخجـل حين استجـوبت ايـرين المـرأة استجـوابـاً مكثفـاً: كم رجـلاً تستقبـل كل ليلة، ما هو مجموع دخلها، التسعيرة الخاصة بالتلاميذ والمسنين، أمراضها، أحزانها وشكاواها، سن الاعتزال، ما هي نسبـة العمـوم والشـرطـة. وكان التحقيق يكتسب على شفتيها سحر براءة باهرة. ولـدى انتهـائها من عملها كانت قد نسجت علاقة طيبة مع سيدات الليل، حتى أن صديقها خشي ان تقرر الانتقال للعيش في المندرين الصيني. ثم عرف فيما بعد أنهـا تعمـل دومـاً بهذه الطريقة، مضيفة شيئاً من روحها على كل ما تقوم به. فقد رآهـا في الشهـور التـاليـة وهي توشـك أن تتبنى طفـلاً حديث الولادة حين قامت باجـراء ريبـورتـاج عن اليتـامى، وتلقي بنفسها من طائرة لمجاراة بعض المظليين، ويغمى عليهـا من الـرعب في منـزل لاستحضـار الأرواح بعـد تعـرضها لساعات طويلة من الفزع.

لقد رافقها منذ تلك الليلة في معظم خطواتها كصحفية. وساهمت الصور في ميـزانيـة آل ليـال وأحـدثت تحولاً في حيـاة فرانثيسكـو الـذي اغتنى بمغـامـرات جديدة. وعلى النقيض من تفاهة المجلة وبريقها الزائف، كان هناك واقع العيادة القـاسي في حي أخيـه خوسيه، حيث كان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لعلاج أشد الحالات يأساً، رغبة منه في المساعدة، لأنه لم يكن هناك من عزاء لكل ذلك البؤس. لم تخامر الشكوك أحداً في المجلة بالمصور الجديد. كان يبدو رجلاً هادئاً، حتى أن ايرين نفسها لم تعرف شيئاً عن حياته السرية، رغم أن بعض المؤشرات الغـامضـة كانت تستثـير فضولها. وبعد زمن طويل، عند اجتيازها تخوم الظلال، ستكتشف الـوجـه الآخـر لهذا الصـديق الوديع قليل الكلام. لقد تمتنت علاقتهما خلال الشهـور التـاليـة، ولم يعـد أحـدهما يستغني عن الآخـر، فقـد اعتادا قضاء وقت العمـل وسـاعات الفراغ معاً، مخترعين الذرائع المختلفة كي لا يفترقا. كانا

يتقاسمان الأيام ويصيبهما الذهول لكثرة الاشياء التي يشتركان في حبها : فهما مغرمان بالموسيقى ذاتها، ويقرأان للشعراء أنفسهم، ويفضلان النبيذ الأبيض المز، ويضحكان في ايقاع متطابق، وتثير حفيظتهما المظالم ذاتها، ويخجلان من المخجلات نفسها . وكانت ايرين تستغرب اختفاء فرانثيسكو أحياناً ليوم أو يومين، لكنه كان يتجنب تقديم التفسيرات، وكان عليها قبول ذلك دون توجيه أسئلة . فكان شعورها هذا مشابهاً لشعور فرانثيسكو حين تذهب مع خطيبها . لكن أياً منهما لم يعرف الاعتراف بالغيرة .



ذهبت ديغنا رانكيليو لاستشارة دون سيمون، المعروف في كل أرجاء المنطقة باستطباباته الصائبة، والتي تفوق شهرتها استطبابات المستشفى . كان يقول أن الأمراض نوعان : أما إنها تشفى وحدها وإما أنها لا علاج لها . وفي الحالة الأولى يمكنه تخفيف آلام المريض واختصار الزمن اللازم للشفاء . أما إذا جاءه مريض لا رجاء في شفائه، فإنه يرسله إلى طبيب لوس ريسكوس، منقذاً بذلك سمعته وملطخاً في طريقة بالشكوك سمعة الطب القليدي . وجدته الأم جالساً على كرسي من القش أمام باب بيته، على بعد ثلاث كوادرات من ساحة القرية . كان يهرش كرشه بلطف ويتحدث بصوت عال إلى ببغاء تتوازن متأرجحة على مسند الكرسي .

قالت له ديغنا مبتسمة :

ـ ها أنذا قد جئتك بابنتي .

فرد المداوي باعتداد :

ـ أليست هذه هي ايفانخيلينا المستبدلة؟

ردت ديغنا بالايجاب . ونهض الرجل متمهلاً ودعاهما للدخول إلى منزله . دخلتا غرفة فسيحة معتمة، تغص بالقوارير والأغصان الجافة والأعشاب المتدلية من السقف والأدعية المطبوعة المعلقة في أطر على الجدران ؛ كانت تبدو أشبه

بكهف يقطنه ناج من الغرق منها بعيادة عالم، كما كان يحب أن يسموه. فهو يؤكد انه طبيب مجاز من البرازيل، ومن يرتاب في ذلك يعرض عليه شهادة متسخة ممهورة بتواقيع مزركشة ومحاطة باطار من رسوم ملائكة مذهبة. كانت هناك ستارة من المشمع تفصل ركناً من الحجرة. وفيما الأم تروي تفاصيل نكبتها، كان يستمع وعيناه مغمضتان في تركيز ساهم، ويصوب بعض النظرات العرضية إلى ايفانخيلينا، متقصياً آثار الخدوش على بشرتها، وشحوب وجهها، ورغم الوجنتين الملتين يشققهما البرد والظلال البنفسجية تحت العينين، فقد كان يعرف هذه الأعراض. ولكن ليتأكد تماماً، أمرها بالدخول إلى ما وراء الستارة ونزع كل ملابسها.

قال وهو يضع الببغاء على الطاولة ويلحق بايفانخيلينا:

- سأفحص هذه الصغيرة يا سيدة رانكيليو.

وبعد أن فحصها بدقة، وجعلها تبول في مبولة ليدرس طبيعة بولها، عزز دون سيمون شكوكه:

- لقد أصابتها عين.

فسألت ديغنا رانكيليو مذعورة:

- وهل لهذا شفاء يا دون؟

- نعم، له شفاء. ولكن علينا اكتشاف المسبب لنتمكن من معالجة الداء. أتفهمين؟

- لا.

- تقصي عمن يكره الصبيةَ وأخبريني لأتمكَّن من تحسين حالتها.

- لا أحد يكره ايفانخيلينا يا دون سيمون. انها طفلة بريئة. من ذا الذي يستطيع الضرر بها هكذا؟

- رجل مغتاظ بعد الصد أو امرأة غيورة - أشار المداوي وهو ينظر إلى نهدي المريضة الصغيرين.

انفجرت ايفانخيلينا بالبكاء يائسة، وانتابت أمها ارتعاشة غضب، فهي

تراقب ابنتها عن قرب، وكانت متأكدة من انها ليست على علاقة غرامية بأحد، بل انها لا تستطيع أن تصدق أن هناك من يمكنه الحاق الضرر بها. كما أن ديغنا فقدت بعض ثقتها بدون سيمون مذ علمت كيف تخونه زوجته، واستنتجت، وهي محقة في استنتاجها، انه لا يمكن لحكمته ان تكون واسعة كما يدعي ما دام هو الشخص الوحيد في القرية الذي لا يعرف شيئاً عن قرونه. ارتابت في تشخيصه للمرض، ولكنها لم تشأ ان تظهر بمظهر عدم اللياقة، فطلبت بكثير من المواربة أن يصف لها دواء ما كي لا تنصرف من عنده صفر اليدين.

ـ صف للصغيرة بعض الفيتامينات يا دون، لنرى ان كانت تشفى. فربما هي مصابة إلى جانب ضربة العين بالطاعون الانكليزي..

أعطاها دون سيمون حفنة أقراص من صنع بيتي وبعض الأوراق المطحونة في هاون والمتحولة إلى غبار.

ـ اذيبي هذا في نبيذ وأعطها منه مرتين في اليوم. وعليك أن تضعي لها كذلك كمادات خردل وتغطسيها في ماء بارد. ولا تنسي مغلي أوراق البلوط، فهو ينفع دوماً في مثل هذه الحالات.

ـ وهل ستشفى بهذا من النوبات؟

ـ ستنخفض سخونة بطنها. ولكنها لن تتحسن ما دامت مصابة بالعين. وإذا ما جاءتها نوبة اخرى فأحضريها كي أرقيها.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، رجعت الأم وابنتها لتكثيف العلاج، لأن ايفانخيلينا صارت تعاني نوبة يومية عند الظهيرة. وفي هذه المرة تصرف المداوي بحزم. قاد المريضة إلى ما وراء ستارة المشمع، وعراها بيديه وحممها من رأسها إلى أخمص قدميها بمزيج مؤلف من الكافور والكحول الأزرق والماء المقدس في نسب متساوية، وذلك باهتمام خاص الأجزاء المتأثرة بالداء: الكعبين، والنهدين، والظهر، والسرة. لقد صبغ التدليك والفزع واحتكاك هاتيك اليدين الغليظتين بشرة الصبية بلون سماوي خفيف وسبب لها هيجاناً عصبياً كاد يؤدي بها إلى الاغماء ولحسن الحظ. فقد كان لديه نوع من شراب الورد لتهدئة المريضة، لكنه

أفقدها الوعي وجعلها ترتعش. بعد تعزيم الاستشفاء أعطى الأم قائمة طويلة من الـوصـايـا وعـدة أنواع من الأعشاب الطبية: أوراق صوز لمعالجة الضيق والجزع، والهنـدبـاء من أجـل كبـح العواطف، وكف الذئب لمنع خمود الهمة، وأوراق الرتم للحيلولـة دور الانتحـاب والبكـاء، وأوراق البهشيـة للوقـايـة من العين والحسد، والصنوبـر لإشفاء وخز الضمير والهلع. وأشار عليها أن تملأ طشتاً بماء من النبع، وتلقي فيـه الأوراق والأزهـار وتـتركهـا تترنخ في ضوء النهار لأربع ساعات قبل أن تغليها على نار هادئة. وذكرها انه لإشفاء القلق الغرامي لدى البريئين، لا بد من وضـع حجـر قدح في طعـامهم والحيلولـة دون تقـاسمهم السـرير مع أفراد الأسرة الآخرين، لأن سخونة الشبق معدية، مثلها مثل الحصبة. وأعطاها اخيراً زجاجة تحتوي على أقراص كالسيوم، وصابون معقم لحمامها اليومي.

بعـد مرور اسبـوع نحلت الصبيـة وزاغ بصرها، وصارت يداها ترتعشان، ومعـدتهـا تتقلب، وتـواصلت النـوبـات اليومية دون انقطاع. عندئذ حملتها ديغنا رانكيليـو، قاهـرة مقـاومتهـا الطبيعيـة، إلى مستشفى لوس ريسكـوس، حيث فحصهـا طبيب شاب قدم حديثـاً من العاصمة، يتكلم بمصطلحات علمية، ولم يسمع في حياته من قبل بأمراض مثل ضربة العين. فأكد لها ان ايفانخيلينا مصابة بالهستـيريـا. ونصحهـا بتجـاهل الأمر وانتظار أن يهدىء انقضاء سنوات المراهقة أعصـابهـا. ووصف لها مسكنـاً قادراً على طرح ثور أرضاً، ونبهها الى وجوب ارسالها إلى مستشفى الطب النفسي في العاصمة إذا لم تفارقها نوبات الجنون هذه، وقال انهم سيعيـدونهـا هناك إلى رشدها بالصدمات الكهربائية. أرادت ديغنا أن تعرف إن كانت الهستـيريـا تسبب اهتـزاز الفنـاجـين على رفوف الخزانة، واكتئاب نباح الكـلاب، وسقـوط وابـل حجـارة لامـرئيـة وصاخبة على السطح وارتعاش اثاث البيت، لكن الدكتور فضل عدم الخوض في هذه الأعماق واكتفى بتوصيتها بوضع أواني المطبخ في مكان آمن وتقييد الحيوانات في الفناء.

أغـرق الـدوار ايفانخيلينا أول الأمر في سبات عميق، أشبه بالموت. فكانوا يفتحـون لها عينيهـا بصعـوبـة كبـيرة لتأكـل. إذ أنهم صاروا يدسون لقمة الطعام بين

شفتيها ثم يرشون وجهها بماء بارد لتتذكر مضغها وابتلاعها. وكان عليهم أن يرافقوها إلى المرحاض، لخشيتهم من سقوطها هناك وهي نائمة. ولم يكن هذا السبات يتوقف إلا عند الظهيرة، وفي موعد نوبة غيبوبتها المعتادة، وهي اللحظة الوحيدة التي تبدي فيها شيئاً من الحيوية. وقبل مضي أسبوع، لم تعد الأقراص التي وصفت لها في المستشفى تؤثر فيها، ودخلت مرحلة شرود وكآبة ألزمتها السكون والأرق في الليل والنهار. حينئذ بادرت الأم إلى دفن الأقراص في حفرة عميقة في البستان، حيث لا يمكن لأي كان حي أن يجدها.



لجأت ديغنا رانيكليو اليائسة إلى ماميتا انكارناثيون، التي وافقت على فحص الصبية بعد أن أوضحت بشكل قاطع أن اختصاصها هو عمليات الولادة والحبل، وليس النوبات الناجمة عن مسببات اخرى. وجاءت إلى البيت في صباح أحد الأيام واستطاعت مشاهدة غيبوبة الجنون والتأكد بعينيها من ان ارتعاش الاثاث وهياج الحيوانات ليست مجرد تقولات، وانما هي الحقيقة المرئية.

قالت مبينة رأيها:

ـ هذه الصبية يلزمها رجل.

أغضب كلامها آل رانكيليو الذين ما كانوا قادرين ان يصدقوا بأن صبية محترمة، ربوها كابنة لهم، وأولوها عناية خاصة وصانوها من الاحتكاك حتى باخوتها، يمكن لها ان تتهيج مثل كلبة. هزت القابلة رأسها متجاهلة هذه الحجج وأصرت على تشخيصها، وأوصت بأن يوكلوا اليها القيام بأعمال متواصلة، ليحولوا بذلك دون ازدياد شرودها.

ـ البطالة والعفة يوصلان إلى الكآبة. وعليكم في جميع الأحوال ان تزوجوها، لأن هذه الزوبعة لن تنتهي دون فحل.

لم تتقيد الأم المستنكرة بهذه النصيحة الأخيرة. لكنها نفذت وصية الابقاء

على الفتاة مشغولة دوماً ، فأعادت اليها بذلك البهجة والنوم ، انما لم تتمكن من تخفيف حدة النوبات التي تصيبها.

وسرعان ما علم الجيران بهذه الشذوذات وبدأوا يتجولون حول البيت. وكان أكثرهم جرأة يطوفون منذ الصباح الباكر ليروا الظاهرة عن قرب. وحاولوا أن يجدوا لهذه الحالة فائدة عملية ، فاقترح بعضهم على ايفانخيلينا التواصل مع الأرواح التي في المطهر أثناء نوبتها ، وان تتنبأ لهم عن المستقبل وتهدىء المطر: وأدركت ديغنا أن انتقال المسألة إلى يد العامة سيجعل الناس يفدون من كل مكان ليجوسوا في بستانها ، ويدنسوا فناء بيتها ويسخروا من ابنتها. وبهذا لن تجد ايفانخيلينا إلى الأبد رجلاً محترماً يقترن بها ويمنحها أطفالاً هي في أمس الحاجة إليهم. ولأنها فقدت الأمل في العلم ، فقد ذهبت لزيارة راعيها الانجليكاني في الحوش المطلي بالنيلة ، والمستخدم كمعبد لأتباع يهوه. لقد كانت عضواً فعالاً في الأخوية البروتستانتية الصغيرة ، فاستقبلها الراعي بمودة. روت له دون اخفاء أي تفصيل عن النكبة التي تجثم على بيتها ، موضحة انها قد أبعدت ابنتها عن أية علاقات آثمة ، بما في ذلك نظرات اخوتها وأبيها بالتبني.

استمع الموقر إلى الحكاية باهتمام بالغ. ووضع ركبتيه على الأرض لبضع دقائق ، وغرق في التأمل طالباً ايحاء من الرب. ثم فتح الكتاب المقدس كيفما اتفق له وقرأ أول عبارة وقعت عليها عيناه : «وكان هولوفيزيس سعيداً جداً بها فشرب الخمر دون حساب ، شرب اكثر مما شربه في حياته كلها». ففسّر سعيداً رد الرب على مشكلة خادمته رانكيليو:

ـ هل ترك زوجك شرب الكحول يا أختاه؟

ـ حضرتك تعلم ان هذا مستحيل.

ـ كم من السنوات مرت وأنا أعظه بالامتناع عنه؟

ـ لا يستطيع تركه ، فالخمر متغلغل في دمه.

ـ قولي له ان يقترب من الكنيسة الانجليكانية الحقيقية ، ونحن قادرون على مساعدته. أرأيت سكيراً بيننا؟

أيـدت ديغنـا أقواله عدة مرات متتالية لتبر ر ضعف زوجها. فالقضية ترجع إلى يوم ميـلاد ابنهـا الثـالث الـذي مات فور ولادته. ولم يكن هيبوليتو يملك نقوداً لشـراء تابـوت، فوضـع الملاك الصغير في علبة حذاء، وحمله تحت ابطه ومضى به نحـو المقـبرة. وفي الطـريق، حاول اخمـاد احـزانـه ببضع رشفات من الخمر، ثم واصـل الشـرب إلى ان نسي نفسـه. وعندما استعاد وعيه وهو ملقى على برميل، كانت العلبـة قد اختفت. ورغم انـه جال المنطقـة كلهـا للبحث عنهـا، إلا أنـه لم يجدها أبداً.

ـ تصور الكوابيس التي تنتابه أيها الموقر. ما زال مسكيني هيبوليتو يحلم بهذا الأمـر. يستيقـظ صارخـاً لأن ابنـه ينـاديه من الليمبوس. وكلما تذكر ذلك لجأ إلى الزجاجة. هذا هو سبب سكره، وليس الفجور أو الاثم.

ـ لدى المـدمن على الكحـول عذر جاهـز دومـاً. ان ايفـانخيلينـا هي بوق الرب، وبمرضها يدعو الرب زوجك للصلاح قبل فوات الأوان.

ـ مع كل تقديري أيها الموقر، إلا أنني أفضل، إذا ما أتاح لي الرب الخيار، رؤ ية هيبـوليتـو مخموراً بوقار بدلاً من رؤ ية ابنتي تعوي مثل كلبة وتتكلم بصوت رجولي.

ـ هذه غطـرسـة آثمـة يا اختاه! من أنت حتى تشير ي على يهوه كيف يقود مصائرنا البائسة؟

وبدافع الغيرة صار الراعي الانجليكاني يتردد منذ ذلك اليوم على بيت آل رانكيليـو بكثـرة، يرافقـه بعض أعضاء جمعيته الورعين، لمساعدة الفتاة بصلواتهم الجماعية. لكن أسبوعاً آخر مضى دون ان تظهر على ايفانخيلينا علائم التحسن. وفيـما أحـد المتطفلين يطوف متر صداً حول البيت في موعد النوبة، اكتشف طريقة للإفـادة من هذا الـوضـع. فقد اصطدم بكرسي، وليتفادى السقوط استند عرضاً على السـريـر الذي تتلوّى الفتاة فوقه. وفي اليوم التالي اختفت الثآليل التي كانت تملأ يده. فانتشر خبر المعجزة في الحال وازداد عدد الزائرين بشكل مفزع، وكان هؤ لاء الـزائـرون على يقين من انهم سينالون الشفاء في لحظة النوبة. وقد نفض أحدهم الغبـار عن قصـة الايفـانخيليتـين المستبـدلتين في المستشفى وأضيفت القصة إلى

نسيج المعجزة التي وقعت. حينئذ قدر الموقر أن المسألة خارج نطاق معارفه واقترح أخذ المريضة إلى الخوري الكاثوليكي، فكنيسته، نظراً لكونها أقدم عهداً، تمتلك خبرة أكبر في شؤون القديسين ومآثرهم.

استمع الأب ثير يلو في الكنيسة إلى القصة من شفاه الابوين رانكيليو وتذكر ان ايفانخيلينا هي الوحيدة بين أبناء جيلها التي لم تشارك في المناولة الأولى في المدرسة لأن أمها تنتمي إلى جماعة الهرطقة البر وتستانتية. انها احدى نعاج قطيعه المفتونة ببهرجة طبل الانجليكانيين وصنجهم، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يحجب نصيحته عنها.

ـ سأصلي من أجل الصبية. فرحمة الرب واسعة وقد يساعدنا، رغم ابتعادك عن الكنيسة المقدسة.

ـ شكراً يا أبتاه. ولكن إضافة للصلوات، ألا يمكنك أن ترقيها لطرد الشيطان منها؟

رسم الكاهن اشارة الصليب مستنكراً. لا بد أن مصدر هذه الفكرة هو خصمه البر وتستانتي، لأنه لا يمكن لتلك الفلاحة أن تخوض في مثل هذه الأمور. فالفاتيكان ما عادت تنظر، في الأزمنة الأخيرة، بعين الرضى الى هذه الطقوس، بل إنها كانت تحول دون ذكر الشيطان، وكأنها وجدت انه من الأفضل تجاهله. لقد كانت لديه هو بالذات دلائل لا تدحض حول وجود الشيطان، مفترس الأرواح، ولهذا لم يكن يميل إلى المواجهة معه في طقوس مرتجلة. ثم أن وصول أخبار مثل هذه الممارسات إلى مسامع رؤسائه، سيلف شيخوخته برداء الفضيحة السوداء نهائياً. ومع ذلك، فإن الحس العام كان ينبهه إلى أن الايحاء كثيراً ما يؤدي إلى مآثر لا تفسير لها، ولربما أدى ترديده لصلاة أبانا الذي في السموات بضع مرات، وبعض رشات من الماء المقدس إلى تهدئة المريضة. وقال للأم أن هذا يكفي، مستبعداً احتمال الاصابة بمس شيطاني. فطرد الأرواح لا يمكن تطبيقه على مثل هذه الحالات، لأن ذلك يعني ضرورة الانتصار على الشيطان بالذات، وكاهن هرم ووحيد مثله، منسي في قرية ريفية، لا يمثل نداً مهيئاً

لمواجهة قوى الخبث، إذا ما افترض أن سبب آلام ايفانخيلينا هو هذه القوى. وأمرها بالمصالحة مع الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، لأن هذه النكبات تحل بمن يرتابون بربنا في مذاهب الزندقة. لكن ديغنا كانت قد رأت مالكي الأراضي وهم يتهامسون مع الخوري في حجرة الاعتراف في الكنيسة، وما بين تمتمات «أنا الخاطىء» والهمس، كان يتجسس على الفلاحين ويشي بهم، ويبلغ عن بساتينهم الصغيرة، لهذا السبب فقدت ثقتها بالكاثوليكية، واعتبرتها حليفة الأغنياء ومعادية للفقراء في عصيان مكشوف لوصايا يسوع الذي بشر بعكس ذلك.

أصبح الأب ثير يلو يتردد منذ ذلك الحين على منزل آل رانكيليو كلما سمحت له مشاغله الكثيرة وساقاه المتعبتان. في المرة الأولى التي جاء بها، اهتزت قناعاته الراسخة أمام مشهد الفتاة المعذبة بهذا الداء الغريب. ولم يُجدِ الماء المقدس والصلوات نفعاً في التخفيف من أعراض المرض، كما أنها لم تزد من تفاقمه، فاستنتج ان الشيطان بعيد عن هذه المسألة. والتقى مع الموقر البر وتستانتي في المسعى الروحي ذاته. إذ اتفقا على التعامل مع الداء على أنه مرض عقلي وليس كتجلٍ الهي في جميع الأحوال، لأن المعجزات التافهة المنسوبة إلى الصبية تبدو غير جديرة بالاهتمام عند التمعن بها. وقد قاوما معاً الخرافة بعد أن درسا الحالة واستخلصا ان اختفاء بعض الثآليل التي غالباً ما تشفى وحدها، وتحسن المناخ، وهو أمر طبيعي في هذه الفترة من السنة؛ ومواتاة الحظ المريبة في بعض ألعاب البخت، ليست كافية لتبرير هذه الهالة من القداسة. لكن حجج الكاهن الكاثوليكي والراعي البر وتستانتي القوية هذه لم توقف مواكب الحج الى بيت آل رانكيليو. وقد انقسم رأي الزوار الذين كانوا يأتون طلباً للأفضال. ففيما كان بعضهم يؤكد المنشأ الرباني للأزمة، كان آخرون يعزونها إلى سحر شيطاني خبيث. وكان البر وتستانتي والخوري والقابلة وطبيب مستشفى لوس ريسكوس يشكلون جوقة تزعم انها الهستيريا، لكن أحداً لم يشأ الاصغاء اليهم في حماس مهرجان المعجزات التافهة ذاك.

★★★

تخيلت ايرين انها تطير فوق ظهر تنين مجنح وهي تحتضن خصر فرانثيسكو، وتلصق وجهها بنسيج سترته الخشن فيما شعرها يتطاير مع الهواء. خلفا آخر بيوت المدينة وراءهما، وصار الطريق يمتد وسط حقول محفوفة بأشجار حور لامعة. وبعيداً كانت تظهر الجبال المحاطة بضباب البعد الأزرق. كانت ايرين تركب مدلية ساقيها على جانبي القسم الخلفي من المقعد، تائهة في تخيلات مستحضرة من طفولتها، وكأنها تعدو على فرس عبر الكثبان في حكاية شرقية. كانت تستمتع بالسرعة وبالارتعاشة المزلزلة بين ساقيها، وبالزمجرة الرهيبة التي تخترق جلدها، مفكرة بالقديسة التي ستقابلها، وبعنوان لتحقيقها الصحفي، وبمخطط هذا التحقيق الذي سينشر على أربع صفحات مع صور بالألوان. فمنذ ظهور المُلهَم، قبل عدة سنوات، الذي كان يمضي من الشمال إلى الجنوب شافياً القروح وباعثاً الأموات، لم تُسمع أية أحاديث عن المعجزات. كان هناك مشعوذون، ومحضرو أرواح، وذوو مفاصل مطاوعة بالعشرات، كالفتاة التي تبصق الضفادع، والشيخ الذي يتنبأ بحدوث الزلازل، والأصم الابكم الذي يشل الآلات بمجرد التحديق بها، وقد تأكدت من ذلك حين أجرت معه مقابلة بالاشارات ثم لم تجد بعد ذلك من وسيلة لتشغيل ساعتها التي توقفت. ولكن باستثناء هذا الشخص الشهير، لم يكن هناك من يهتم منذ زمن بعيد بمعجزات ذات نفع للإنسانية. وكانت المصاعب تزداد يوماً بعد يوم في العثور على أخبار جذابة للمجلة. حتى صار يبدو وكأن لا شيء مهماً يحدث في البلاد، وإذا ما حدث شيء من هذا فالرقابة تمنع نشره. دست ايرين يديها تحت سترة فرانثيسكو لتدفىء أصابعها الخدرة. داعبت صدره النحيل، انه مجموعة أعصاب وعظام، وهو مختلف تمام الاختلاف عن غوستافو، كتلة العضلات المتماسكة المتشكلة في ألعاب المبارزة والجودو والتمارين الرياضية وخصوصاً تمرين الاستلقاء وحني الجذع الذي كان يمارسه خمسين مرة يومياً مع عناصر وحدته، لأنه لا يطلب من رجاله عمل شيء لا يكون هو نفسه قادراً على عمله، فهو يقول: انني مثل أب لهم، أب قاس، إنما عادل. وعند ممارسة الحب في عتمة الفنادق، كان ينزع ملابسه متباهياً بمظهره ويستعرض نفسه

في الحجـرة وهـو عارٍ. لقـد كانت تحب ذلـك الجسـد المحمص بالملح والـريـح، والمـدبـوغ بالجهـد البـدني، والمـرن، الصلب، المتناسق. فتتأمله ملاطفة وتداعبه وهي شبـه ساهيـة، ولكن باعجـاب. أين هو الآن؟ ربـما يكـون بين ذراعي امرأة اخـرى. فرغم أنـه يقسم في رسائله على الوفاء، إلا أن ايرين تعرف ضيق طباعه وتستطيـع أن تلمـح خلاسيات وسوداوات يستمتعن بصحبته. عندما كان في مهمة في المنطقة القطبية كان الوضع مختلفاً، ففي وسط ذلك البرد الجليدي، حيث لا رفاق سوى طيـور البطـريق وستـة رجـال مدربـين على نسيـان الحب، كان العفـة أمراً اضطرارياً. لكن الفتاة متأكدة من أن حياة الكابتن في المنطقة المدارية تسير بشكل مختلف. وابتسمت حين رأت ان ذلـك كله لا يهمهـا كثـيراً وحاولت أن تتذكر آخر مرة شعرت فيها بالغيرة على خطيبها، لكنها لم تتمكن من ذلك.

وحمـل ضجيـج المحـرك إلى ذهنهـا أغنيـة من أغنيـات وحـدات الصـاعقة الاسبانية، كان غوستافو مورانتي يدندن بها بكثرة:

أنا رجل جرحه الحظ

بمخلب ضارٍ،

أنا عريس المنية

أمسكت بها بساعد قوي

وجعلت حبها رايتي.

كان ترديدها هذه الأغنية على مسمع من فرانثيسكو فكرة سيئة، لأنه أطلق على غوستـافـو منـذ ذلـك الحـين لقب «عـريس المنيـة». ولم تغضب ايرين لهذا. الحقيقـة أنهـا قليـلاً ماكـانت تفكـر بالحب، ولم تكن تجادل في أمر علاقتها الطويلة مع الضـابـط. كانت تتقبلهـا كشيء طبيعي مكتـوب في قدرهـا منـذ الطفولة. فطالما سمعت انهـا تشكـل مع غوستـافـو مورانتي الثنـائي النموذجي، حتى أنها اقتنعت بذلـك دون ان تتـوقف للتأكـد من مشـاعـرهـا. كان شخصاً متماسكاً، راسخاً، رجـوليـاً، ومغـروسـاً بثبـات في واقعهـا. كانت تعتبر نفسها كوكباً يبحر في الريح، ولخـوفهـا من تمردهـا الـداخلي، كانت تستسلم أحياناً لاغراء التفكير بحاجتها لمن

يكبح اندفاعاتها؛ لكن هذه الحالات المعنوية لم تكن تدوم إلا لوقت قصير. وحين تتأمل في أمر مستقبلها تصاب بالكآبة. لذلك كانت تفضل العيش متجاوزة حدود المألوف ما دام ذلك متاحاً لها.

أما فرانثيسكو فلم يكن يرى في علاقة ايرين بخطيبها اكثر من محصلة عزلتين وفراقات طويلة. وكان يقول انه حين ستتاح لهما فرصة البقاء معاً لبعض الوقت، فسيدركان كلاهما أن ما يجمعهما هو حكم العادة وحسب. ولم تكن هنالك أي اندفاعات في هذا الحب، فقد كانت لقاءاتهما هادئة وفراقاتهما شديدة الطول. وكان يعتقد ان ايرين تتمنى في أعماقها اطالة أمد هذه الخطوبة حتى نهاية حياتها، كي تعيش في حرية مشروطة وتجتمع مع خطيبها بين الحين والآخر ليتداعبا كالجراء. كان واضحاً ان الزواج يخيفها، ولهذا كانت تختلق الاعذار لتأخيره، وكأنها تتنبأ بانها ما إن تتزوج من ذلك الأمير المهيأ للوصول إلى رتبة الجنرالية، حتى يتوجب عليها ان تتخلى عن ملابسها التي كالخرق المتنافرة، وعن اساورها الصاخبة وحياتها الهائجة.

في هذا الصباح، وبينما الدراجة النارية تنهب الحقول والتلال نحو لوس ريسكوس، كان فرانثيسكو يحسب الوقت القليل المتبقي لعودة عريس المنية، فبمجيئه سيتغير كل شيء. ستختفي سعادة الشهور الأخيرة التي أمضاها إلى جانب ايرين، وسيودع الأحلام، والمفاجآت اليومية وشوق انتظارها والضحك لرؤيتها تبادر إلى مهمات غير معقولة. سيكون عليه توخي الحذر، والتحدث في الأمور العادية فقط، وتفادي كل شيء مريب، لقد تقاسما حتى ذلك الحين تواطؤاً ساكناً. كان يبدو على صديقته انها تجول في العالم ببراءة، وانها لم تكتشف العلائم الضئيلة لحياته المزدوجة، فهي لا توجه أسئلة على الأقل. ولم يكن عليه اتخاذ اجراءات احتياطية في حضورها، لكن مجيء غوستافو مورانتي سيضطره إلى ان يكون اكثر حذراً. كان يرى أن علاقته بايرين ثمينة جداً، فيرغب في الحفاظ عليها دون المساس بها. ولم يكن راغباً في غرس الرياء والكذب في صداقته معها، لكنه كان يدرك انه لن يجد مفراً من ذلك بعد وقت قصير. وفيما هو يقود الدراجة

أحس برغبة في إطالة أمد هذا المشوار حتى حدود الأفق، حيث لا يصلهما ظل الكابتن، وان يجتاز حدود البلاد، ثم حدود القارة وينطلق إلى بحار اخرى مع ايرين التي تحتضن خاصرته. بدت له الرحلة قصيرة جداً. ولدى انحرافه إلى درب ضيق، ظهرت حقول قمح فسيحة كانت تلمع في هذه الفترة من السنة مثل زغب أخضر فوق السهول. تنهد بشيء من الأسى لأنهما وصلا إلى هدفهما.
اهتديا دون صعوبة إلى المكان الذي تعيش فيه القديسة، مستغربين تلك العزلة وذلك الصمت المطبق، لأنهما كانا ينتظران على الأقل وجود مهرجان من الفضوليين الراغبين في رؤية الظاهرة:

ـ أأنت متأكدة من أنها هنا؟

ـ متأكدة.

ـ لا بد أنها قديسة قليلة الشأن إذن، لأنه لا وجود لأحد.

برز أمام أعينهما مسكن فلاحين فقراء، جدرانه من الطين المطلي بالكلس، وسقفه مغطى بقرميد باهت اللون، وكان هناك ممر أمام الباب ونافذة واحدة في البناء كله. ومقابله يمتد فناء فسيح تحيط به عريشة بلا أوراق تبدو وكأنها فسيفساء أغصان جافة وملتوية، تطل منها أول البراعم منبئة ببوادر الصيف. انتبها إلى وجود بئر، وحجيرة من ألواح خشبية يبدو إنها المرحاض، ووراءها بقليل بناء صغير مربع يستخدم كمطبخ.

هرعت عدة كلاب مختلفة الأحجام والفراء لاستقبال الزائرين وهي تنبح هائجة. كانت ايرين، المعتادة على التعامل مع الحيوانات، تسير وسط مجموعة الكلاب وتتحدث إليها وكأنها تعرفها منذ الأزل. أما فرانثيسكو فقد فوجىء بنفسه وهو يكرر في دخيلته بيت الشعر السحري الذي تعلمه في طفولته ليدرأ عن نفسه هذه الأخطار: «توقف ايها الحيوان الضاري، واجث بذيلك إلى الأرض، فقبل ان يوجد الكلب العظيم، في البدء كان الرب». لكن اسلوب صديقته كان اكثر جدوى دون ريب، ففي حين كانت هي تتقدم مطمئنة، راحت الكلاب تحيط به مكشرة عن أنيابها، كان يتأهب للبدء بتوزيع الركلات على انوف الكلاب الدافئة

عندما ظهر طفل صغير يحمل قضيباً، وأفزع كلاب الحراسة بصرخاته التي أطلقها. وعلى الجلبة، خرج من البيت أشخاص آخرون: امرأة بدينة ذات مظهر خشن وقانط، ورجل له وجه مليء بالأخاديد حتى ليبدو أشبه بحبة كستناء شتوية، وعدة أطفال من مختلف الأعمار.

سألت ايرين:

- هل تعيش هنا ايفانخيلينا رانكيليو؟

- أجل، لكن المعجزات عند الظهيرة.

فأوضحت انهما صحفيان جذبهما حجم الشائعات. فدعتهما الأسرة، التي تغلبت على الاحساس بالارتباك، للدخول الى البيت انسجاماً مع التقليد الراسخ لساكني هذه الأرض.

★ ★ ★

بعد قليل جاء الزائرون الأوائل واستقروا في فناء آل رانكيليو. وعلى ضوء الصباح صوّر فرانثيسكو ايرين وهي تتحدث إلى أفراد الأسرة، والتقط لها صوراً وهي ساهية، لأنها لم تكن تحب الوقوف أمام الكاميرا. فقد كانت تقول ان الصور ليست إلا تحايل على الزمن باسقاطه على قطعة ورق مقوى حيث تبقى الروح جامدة. كان الهواء النقي والحماس يمنحان الشابة مظهر مخلوقة من مخلوقات الغاب، فهي تتنقل في ارجاء بيت آل رانكيليو بحرية وثقة وكأنها ولدت هناك، متحدثة وضاحكة ومشاركة في توزيع المرطبات، متفادية الكلاب التي كانت تهز ذيولها بين ساقيها. وكان الأطفال يلاحقونها بسبب شعرها الغريب، وثيابها الشاذة، وضحكتها الدائمة، وسحر حركاتها الصغيرة.

جاء عدد من الانجليكانيين ومعهم جيتاراتهم، ونـاياتهم وطبولهم وبدأوا بترتيل المزامير تحت قيادة الراعي الموقر الذي بدا ضئيلاً بسترته اللامعة وقبعته الجنائزية. كان في صوت الجوقة وفي موسيقاها نشاز، لكن أحداً، باستثناء ايرين وفرانثيسكو، لم يكن يلحظ ذلك على ما يبدو. فهم يسمعون هذه التراتيل منذ عدة أسابيع، حتى أن آذانهم اعتادتها.

جاء كذلـك الأب ثير يلو وهو يلهث للجهد الذي بذله في قيادة الدراجة من الكنيسـة وحتى بيت آل رانكيليـو. كان يجلس تحت العـريشـة ساهماً في شرودات كئيبـة أو في ترديـد صلوات يحفظهـا عن ظهـر قلب، ويهز لحيته البيضاء التي كانت تبـدو من بعيـد وكأنهـا باقـة سوسن متدلية من صدره. ربما كان قد أدرك أن سبحة سانتـا خيميتـا التي باركتها يد البـابا ليست مجدية في هذه الحالة، مثلها مثل تراتيل زميله الـبر وتستـانتي أو أقـراص طبيب لوس ريسكوس الملونة. وبين الحين والآخر كان ينظـر إلى ساعتـه ليتحقق من دقـة موعـد النـوبـة. وكـان أشخـاص آخرون جذبتهم امكانية حدوث معجزة يحتفظون بالصمت تحت افريز سطح البيت، على كراس منتشـرة في الظـل. كان بعضهم يتبـادلون حديثاً متقطعاً عن زراعة الموسم القادم أو عن مباراة في كرة القدم جرت في مكان ناء وسمعوا عنها في المذياع، دون أن يأتـوا ولـو بشكـل عابر على ذكر الدافع الذي قادهم إلى هذا المكان، احتراماً لأصحاب البيت أو خجلاً من أنفسهم.

كانت ايفانخيلينا وأمها تقدمان للزائرين ماء بارداً مع دقيق محمص وعسل. ولم يكن يبـدو على الفتـاة شيء يشـير إلى أنهـا في حالة غير طبيعية؛ فهي هادئة، متـوردة الـوجنتين، وعلى وجهها الذي يبدو كبرتقالة ترتسم ابتسامة بلهاء. كانت سعيدة لأنها محط اهتمام هذا الملتقى الصغير.

تأخـر هيبـوليتـو رانكيليو طويلاً في جمع الكلاب ليقيدها إلى الأشجار. فقد كانت تنبح بقوة. ثم اقترب بعد ذلك من فرانثيسكو ليشرح له ضرورة قتل واحدة من الكـلاب، لأنهـا ولـدت في اليـوم السـابق والتهمت أولادهـا، وهو أمر لا يقل خطـورة عن صياح دجـاجـة بصوت ديك. ان بعض عيوب الطبيعة تفرض علينا اجتثاثها من جذورها للحيلولة دون انتقال العدوى إلى مخلوقات اخرى. وهيبوليتو دقيق جداً في مثل هذه الأمور.

كان يتحـدث في هذا الشأن، حين وقف المـوقـر في وسـط الفناء وبدأ بالقاء خطبـة حماسيـة من أعـماق رئتيـه. وأصغى الحاضرون اليه خجلاً من الانفضاض عنـه، رغم انهم جميعـاً، باستثنـاء الانجليكـانيين، كانوا يشعرون بحيرة لا ريب

فيها. «ارتفاع في الأسعار! غلاء في المعيشة! هذه مشكلة معروفة. ولوقفها توجد وسائل عديدة: السجن، الضرائب، الاضراب، الخ. ولكن ما هوجوهر المشكلة؟ ما هوالسبب؟ كيف يلتهب جشع الانسان مثل كرة النار؟ هناك ميل خطير إلى الرذيلة، واندفاع فاسد نحو الملذات الدنيوية. وهذا هو ما يُبعد الانسان عن الرب المقدس، ويؤدي إلى خلل انساني، وأخلاقي، واقتصادي وروحي، ويطلق العنان لغضب الرب القادر على كل شيء. ان زمننا هذا هو مثل زمن سادوم وعمورة، فقد هوى الانسان في غياهب الرذيلة والاثم وهوينال عقابه الآن لأنه أدار ظهره للخالق. ان يهوه يرسل الينا التحذيرات لنتروى ونتوب عن خطايانا القدرة...»

ـ عفوك أيها الموقر، هل أقدم لك مرطباً بارداً؟ ـ قاطعته ايفانخيلينا تاركة اياه معلقاً في خيط الالهام لتعداد آثام جديدة.

دنت واحدة من أتباع البر وتستانتية، وهي حولاء وقصيرة الساقين، من ايرين لتوضح لها نظريتها حول ابنة آل رانكيليو: «لقد دخل بيلسيبو، أمير الشياطين، في جسدها. اكتبي هذا في مجلتك يا آنسة. انه يحب الحاق الاذى بالمسيحيين، لكن جيش الخلاص أقوى منه وسيهزمه. اذكري هذا في مجلتك، لا تنسي».

سمع الأب ثيريلو الكلمات الأخيرة، فأمسك بذراع ايرين وقادها جانباً.

ـ لا تهتمي لما تقوله. فهؤلاء الانجليكانيون جهلة تماماً يا بنيتي. ليسوا على الايمان الصحيح، ولكن لديهم بعض المزايا الطيبة، وهذا لا يمكن نكرانه. أتعلمين أنهم لا يقربون المسكرات؟ وحتى المدمنين يتخلون عن الشراب في هذه الطائفة، ولهذا أحترمهم. لكن الشيطان لا شأن له في هذه القضية. الفتاة معتوهة، وهذا هو كل شيء.

ـ والمعجزات؟

ـ عن أية معجزات تتكلمين؟ لا تصدقي هذه الترهات!

قبل انتصاف النهار بدقائق غادرت ايفانخيلينا رانكيليو الفناء لتدخل إلى

البيت. خلعت كنزتها، وحلت ضفيرة شعرها وجلست على أحد الأسرة الثلاثة التي في الغرفة. خيم الصمت على الجميع في الخارج، وراحوا يقتربون من الممر لينظروا من خلال الباب والنافذة. لحقت ايرين وفرانثيسكو بالفتاة إلى داخل البيت، وفيما هو يعد آلة التصوير للعمل، كانت هي تجهز آلة التسجيل.

كانت أرضية بيت آل رانكيليو الترابية، الموطوءة والمبللة بالماء والموطوءة من جديد، قد اكتسبت تماسك الاسمنت. وكان الأثاث القليل مصنوعاً من خشب عادي دون مسح، وكانت هناك بعض المقاعد وكراسي القش التي بلا مسند، وطاولة خشنة من صنع بيتي. والزينة الوحيدة هي لوحة تمثل المسيح وقلبه يشتعل. كانت هناك ستارة تفصل حجرة نوم البنات، أما فراش الصبيان فكان ممدوداً على الأرض في حجرة ملحقة بالبيت لها مدخل مستقل، وبهذا كانت تتم الحيلولة دون اختلاط الاخوة. كل شيء كان نظيفاً تماماً، وتنبعث منه رائحة النعنع والزعتر، وكانت توجد باقة زهور حمراء في قارورة تمنح النافذة مظهراً مفرحاً، وعلى الطاولة يمتد شرشف أخضر مزين بمربعات. وجد فرانثيسكو في هذه الأشياء البسيطة موضوعاً جمالياً عميقاً فقرر التقاط بعض الصور لمشاهد من البيت فيما بعد ليضمها إلى مجموعته الخاصة. لكنه لم يستطع عمل ذلك مطلقاً.



في الساعة الثانية عشرة ظهراً هوت ايفانخيلينا على السرير. ارتعش جسدها وصدرت عنها آهة عميقة وطويلة ورهيبة، بدت وكأنها نداء حب. وراحت تنتفض مرتجفة وتقوست إلى الوراء في جهد يفوق طاقة البشر. وامحت من وجهها المشوه ملامح الطفلة البسيطة التي كانتها قبل قليل، وكبرت فجأة عدة سنوات، وارتسمت على وجهها تكشيرة غيبوبة وألم وشبق. اهتز السرير، ورأت ايرين الواجمة ان الطاولة التي تبعد عنها مسافة مترين تتحرك هي الأخرى وحدها دون وساطة شيء معروف. تغلب الذعر على فضولها فدنت من فرانثيسكو بحثاً عن حماية. أمسكت بذراعه والتصقت به دون أن ترفع بصرها عن المشهد الجنوني

الذي يجري فوق الفراش، لكن صديقها أبعدها عنه بلطف ليتمكن من استخدام آلة التصوير. وفي الخارج كانت الكلاب تنبح في عويل كارثي متواصل، مشاركة في جوقة أصوات الغناء والترتيل. وكانت اباريق الصفيح تتراقص فوق رفوف الخزانة، وضربات غريبة تطرق السقف مثل وابل من الحصى، وزلزلة متواصلة تهز لوحاً من الخشب فوق دعامة افريز السطح، حيث تخزن الاسرة المؤونة والبذور وأدوات الفلاحة. وسقط من هناك مطر ذرة تسربت من الأكياس ليفاقم من حدة الاحاسيس الكابوسية. وعلى السرير، كانت ايفانخيلينا رانكيليو تتلوى، ضحية هذيانات مبهمة واضطرابات خفية. الأب المكفهر والمنزوع الاسنان، بملامحه المؤثرة كمهرج كئيب، كان يراقب المشهد بأسى من عتبة الباب، دون ان يقترب. بقيت الأم إلى جوار السرير وعيناها مغمضتان، وكأنها تحاول سماع صمت الرب. وانبعثت آمال الزائرين الذين كانوا داخل البيت وخارجه، فراحوا يتقربون من ايفانخيلينا واحداً واحداً طالبين منها تحقيق معجزاتهم الصغيرة البائسة.

- اشفي لي هذه الدمامل أيتها القديسة.
- اجعليهم لا يأخذوا ابني خوان إلى الجندية.
- لينجك الله يا ايفانخيلينا، أيتها المليئة بالكرامات، اشفي زوجي من البواسير.
- أعطني اشارة، على أي رقم ألعب في اليانصيب؟
- اوقفي المطر يا خادمة الرب، قبل أن يذهب البذار هباء.

الذين جاؤوا بدافع الايمان أو لمجرد اللجوء إلى ملاذ يائس، كانوا يمرون بانتظام، متوقفين للحظة إلى جانب الفتاة ليتقدموا برغبتهم ثم يبتعدون وقد تبدلت ملامحهم لثقتهم من ان العناية الإلهية ستنعم عليهم بواسطتها.

لم يلحظ أي منهم وصول شاحنة رجال الشرطة.

سمعوا الأوامر، وقبل أن يتمكنوا من الاتيان بأي رد فعل، هاجم العسكريون الحشد، محتلين الفناء ومندفعين إلى داخل البيت وأسلحتهم في

أيـديهم . أزاحـوا النـاس جانبـاً، وجعلوا الأطفـال يركضـون صارخين، وضربوا بأعقاب بنادقهم كل من وجدوه أمامهم، وملؤوا الهواء بأصواتهم الآمرة.

صرخ الرجل المتين ذو الرقبة الشبيهة برقبة ثور، والذي كان يقود المجموعة:

ـ وجوهكم إلى الجدار! وأيديكم على الرقبة!

أذعن الجميـع للأمـر، ما عدا ايفـانخيلينـا رانكيليـو السـادرة في غيبـوبتها وايرين بيلتران المتجمدة في مكانها، والتي لم تستطع الحركة من هول المفاجأة.

جار رقيب له ملامح سكان المنطقة:

ـ أوراقك!

فقالت ايرين بصوت متماسك وهي تشير إلى رفيقها:

ـ أنا صحفية وهو مصور.

فتشـوا فرانثيسكـو بفظاظة مارين بأيديهم على خاصرته وتحت ابطيه ومابين ساقيه في حذائه. وأمروه:

ـ استدر!

دنـا منـه الضـابـط، الذي سيعرفانه فيما بعد باسم الملازم خوان دي ديوس راميريث، ووضع سبطانة مسدسه الرشاش على خاصرته:

ـ اسمك!

ـ فرانثيسكو ليال.

ـ أي خراء تفعله هنا؟

فقاطعته ايرين:

ـ ليس خراء، ولكنه تحقيق صحفي.

ـ لم أكلمك أنتِ!

فابتسمت وهي ترفع من رتبته العسكرية ساخرة:

ـ أما أنا فأكلمك يا سيدي النقيب.

ارتبك الرجل، غير المعتاد على وقاحة المدنيين، ونادى:

ـ رانكيليو!

وللحال برز من بين أفراد الوحدة العسكرية مارد أسمر، ذو ملامح فلاحية، مسلح ببندية ووقف متأهباً أمام رئيسه.

أشار الملازم إلى ايفانخيلينا التي كانت في عالم آخر، هائمة في تواصل مضطرب مع الأرواح:

ـ أهذه هي شقيقتك؟

أجاب الآخر وهو ثابت، كعباه ملتصقان ببعضهما البعض، وصدره مندفع، ونظره الى الأمام، ووجهه كالصوان:

ـ أجل يا سيدي الملازم.

في هذه اللحظة هز السطح وابل جديد واكثر عنفاً من الحجارة اللا مرئية، فانبطح الملازم أرضاً، وحذا رجاله حذوه. ورآهم الآخرون بذهول وهم يزحفون على مرافقهم وركبهم إلى الفناء، حيث نهضوا مسرعين وراحوا يركضون بشكل متعرج ليحتلوا مواقعهم. ومن وراء حوض المغسلة، بدأ الملازم اطلاق النار باتجاه البيت. كانت تلك هي الاشارة المنتظرة.

فضغط الحراس الذين أصابهم مس وثار فيهم عنف لا كابح له، على ازندة بنادقهم، وامتلأ الفضاء خلال لحظات بالصخب، والصراخ، والنحيب، والنباح، والعويل، والبارود. جميع من كانوا في الفناء انبطحوا على الأرض، وبحث بعضهم عن مخبأ في الساقية ووراء الأشجار. وحاول الانجليكانيون انقاذ ادواتهم الموسيقية وحشر الأب ثير يلو نفسه تحت الطاولة وهو يضغط على سبحة سانتا خيميتا ويتوسل بصوت عال الحماية من رب الجيوش.

أحس فرانثيسكو ليال أن الطلقات تمر قريباً من النافذة وأن بعضها يصطدم بجدران الطين السميكة مثل وابل من نبوءات مظلمة. أمسك ايرين من خاصرتها وطرحها أرضاً ليحميها بجسده. أحس بها ترتعش بين ذراعيه ولم يدر ان كانت تختنق تحت ثقله أم أنها مذعورة. وما أن توقف الصراخ والذعر حتى نهض واقفاً وركض نحو الباب، موقناً من انه سيجد نصف دزينة من القتلى الذين صرعهم الرصاص، لكن الجثة الوحيدة التي رأتها عيناه كانت جثة دجاجة مزقت الطلقات

أحشـاءهـا. كان الحـراس مهـورين، كمن أصـابهم مس من الجنون، ومفعمين بالشعـور بالسلطـة. وكـان الجيران الفضوليون يجثمون على الأرض وقد غطاهم الغبار والوحل، فيما الأطفال يبكون والكلاب تشدّ سلاسلها وتعوي بيأس. أحس فرانثيسكـو بايـرين تمر إلى جانبـه مثـل غمامـة بخـار، وقبل أن يتمكن من ايقافها وصلت إلى حيث الملازم ويداها على خاصرتها، وصرخت بصوت بدا وكأنه ليس صوتها:

ـ متوحشون! بهائم! ألا تحترمون الناس؟ ألا ترون انكم قد تقتلون أحداً؟

ركض فرانثيسكـو نحـوها وقد أيقن أنهم سيطلقون رصاصة ما بين عينيها، ولكنه صعق حين رأى الملازم يضحك.

ـ لا تفقـدي أعصـابك يا جميلتي، لقد أطلقنا النار في الهواء. فزجرته ايرين دون أن تتمكن من التحكم بأعصابها:

ـ ولماذا تكلمني دون كلفة؟ ثم ما الذي تفعله حضرتك هنا أولاً؟

ـ حدثني رانكيليـو عن مشكلة اختـه، فقلت له: حيث يفشـل الـرهبـان والأطباء تنجح القوات المسلحة. هذا ما قلته له. ولهذا السبب نحن هنا. سنرى الآن هذه الصبية ان كانت ستواصل الرفس عندما أعتقلها.

سار بخطوات واسعة نحو البيت. ولحق به كل من ايرين وفرانثيسكو وكأنهما تمثـالان متحـركـان. ان ما حدث بعد ذلك سيبقى محفوراً في ذاكرتيهما إلى الأبد، وسيذكرانه كحادث مركب من صور عاصفة ومتقطعة.

دنـا المـلازم خوان دي ديـوس راميريث من سرير ايفانخيلينا. تحركت الأم لتـوقفـه، لكنه أبعدها جانباً. لا تلمسها! كان هذا هو ما استطاعت المرأة أن تقوله صارخـة، لكن صرختهـا جاءت بعـد فوات الأوان، لأن الضـابط كان قد مد يده وأمسك المريضة من ذراعها.

وقبـل أن يتمكن أحـد من استيعـاب الأمـر، انطلقت قبضـة ايفـانخيلينـا لتصطـدم بوجـه العسكـري الأشقـر، ضاربـة أنفـه بقـوة طرحته على ظهره فوق الأرض. وتـدحـرجت خوذتـه تحت الطـاولـة مثـل كرة غير نافعـة. فقدت الشابة

تشنجها في الحال، ولم تعد عيناها تبدوان تائهتين كما لم تعد تقذف الزبد من فمها. ان من أمسكت الملازم راميريث من سترته العسكرية دون أية مشقة، ورفعته عن الأرض لتخرجه من البيت وتهزه كما لو كان ممسحة، هي الصبية الرقيقة ذات الخمسة عشر عاماً والعظام الهشة التي كانت تقدم قبل قليل الدقيق المحمص مع العسل تحت العريشة. ان قوتها الهائلة وحدها هي التي كانت تشي بحالتها غير الطبيعية وقتئذ. وكانت استجابة ايرين للموقف سريعة جداً، فقد انتزعت آلة التصوير من بين يدي فرانثيسكو وراحت تلتقط الصور دون أن تولي اهتماماً لضبط العدسة، على أمل أن تخرج بعض الصور المناسبة، رغم التبدل الكبير في شدة الضوء بين الظلال التي في داخل البيت وتلألؤ نور الظهيرة خارجه.

ومن خلال عدسة الكاميرا، رأت ايرين ايفانخيلينا وهي تسحب الملازم إلى وسط الفناء وتلقي به بإهمال على بعد أمتار قليلة من البر وتستانتيين الذين ما زالوا يقبعون على الأرض مرتعشين. حاول الضابط الوقوف على قدميه، لكنها عاجلته بعدة ضربات محكمة على رقبته وتركته ملقى على الأرض، ثم أتبعت ذلك ببعض الركلات دون غضب، متجاهلة وجود الحراس الذين كانوا يحيطون بها مصوبين أسلحتهم نحوها، ولكن دون أن يتجرؤوا على اطلاق النار، وقد شلهم الذهول. شدت الصبية البندقية الرشاشة التي كان راميريث ما يزال يحتضنها إلى صدره وطوحت بها بعيداً، فسقطت في الوحل وغاصت فيه تحت أنف خنزير غير مبال، تشممها قبل ان يراها تختفي ويبتلعها الوحل.

في هذه اللحظة وعى فرانثيسكو ليال الوضع وتذكر دراسته السيكولوجية. فاقترب من ايفانخيلينا رانكيليو وربت على كتفها برقة، ولكن بحزم في الوقت ذاته، منادياً إياها باسمها. وبدت الشابة كأنها ترجع من رحلة حلم طويلة. فأطرقت رأسها، وابتسمت بخفر ومضت لتجلس تحت العريشة، فيما كان العسكريون يركضون لاستعادة البندقية الرشاشة وتنظيفها من الوحل، والبحث عن الخوذة، ونجدة قائدهم بمساعدته على الوقوف ونفض ثيابه، وكيف تشعر يا سيدي الملازم؟ والضابط الشاحب المرتعش يزيحهم بضربات من يده، ثم يضع

خوذته على رأسه ويمسك سلاحه، دون أن يجد في معجمه الواسع من العنف ما هو لائق بهذه الواقعة.

كان الجميع جامدين ومرتعبين ينتظرون وقوع أمر فظيع. . نوبة جنون ظلامية أو ضربة أخيرة تقضي عليهم، كأن يصفوهم إلى الجدار ويطلقون عليهم النار دون أي اجراء آخر، أو أن يحملوهم على الأقل إلى الشاحنة بأخماص بنادقهم ويخفون اثرهم في وهدة من وهاد الجبل. ولكن بعد تردد طويل، دار الملازم خوان دي ديوس رامير يث على عقبيه واتجه نحو المخرج، وصرخ.

ـ انسحبوا أيها الخصيان!

فتبعه رجاله. وكان آخر من انصاع للأمر هو براديليو رانكيليو، الأخ الأكبر لايفانخيلينا، المشوش والذي غطت وجهه الأسمر امارات الذهول. فلم يتحرك من مكانه إلاّ بعد أن سمع صوت محرك الشاحنة، فركض ليتعلق بمؤخرتها ويلتحق ببقية رفاقه. حينئذ تذكر الضابط الصور، فأصدر أمراً عاد الرقيب على أثره مهرولاً نحو ايرين، وانتزع منها آلة التصوير، وأخرج شريط الفلم وعرضه للنور. ثم ألقى بالكاميرا من فوق كتفها كما لو كانت علبة بيرة فارغة.

انصرف الحراس وخيم صمت شامل في فناء بيت آل رانكيليو. كان الجميع مشغولين بأفكارهم، كما يحدث في الأحلام الخبيثة. وفجأة حطم صوت ايفانخيلينا صمت السحر:

ـ هل أقدم لك مرطباً آخر أيها الموقر؟

حينئذ تنفسوا الصعداء، وتمكنوا من الحركة، والتقاط أشيائهم المبعثرة باحساس من الخجل.

تنهد الأب ثير يلو وهو ينفض مسوحه المعفرة:

ـ فليحمنا الرب!

ـ وليحفظنا! ـ أضاف الراعي البر وتستانتي الشاحب مثل أرنب.

استعادت ايرين آلة التصوير. كانت الوحيدة التي تبتسم بين الجميع. فبعد

ان انزاح الرعب، لم تعد تتذكر سوى ما حدث، وتفكر بعنوان للتحقيق وتتساءل إذا كانت الرقابة ستسمح بذكر اسم الضابط الذي تلقى الاهانة والضرب.

قال هيبوليتو رانكيليوا معرباً عن رأيه بما جرى:

ـ فكرة سيئة هذه التي خطرت لابني باحضار الحرس.

وأضافت زوجته:

ـ سيئة جداً.

بعد ذلك بقليل، عادت ايرين مع فرانثيسكو إلى المدينة. كانت الشابة تشد إلى صدرها باقة كبيرة من الأزهار، هدية من أطفال رانكيليو. كانت رائقة المزاج ويبدو عليها وكأنها قد نسيت ما حدث، وليس لديها ادنى قدر من الوعي للخطر الذي تعرضت له. الشيء الوحيد الذي كان يزعجها على ما يبدو هو فقدان الفلم، والذي لا سبيل بدونه إلى نشر الخبر، لأن أحداً لن يصدق مثل هذه الواقعة. وكانت تعزي نفسها بالتفكير انه بامكانها العودة يوم الأحد القادم لالتقاط صور اخرى لايفانخيلينا أثناء نوبتها. فقد دعتها الاسرة للعودة، لأنهم يعدون العدة لذبح خنزير يوم الأحد، وذلك في حفلة سنوية يجتمع فيها عدد من الجيران ويقيمون وليمة مشتركة مهيبة. أما فرانثيسكو، فقد أمضى الرحلة كلها وهو يراكم الغضب في نفسه، وحين أوصل ايرين أمام بيتها لم يكن قادراً على التوقف. فضحكت وهي تودعه:

ـ لماذا تغضب كثيراً يا فرانثيسكو؟ لم يحدث أي شيء. بضع رصاصات في الهواء فقط ودجاجة ميتة. هذا هو كل شيء.

كان قد قرر حتى ذلك الحين ابعادها عن البؤس المستحكم، وعن الظلم والقمع الذي يراه يومياً، وهي موضوعات الحديث السائدة بين آل ليال. كان يرى في ابحار ايرين ببراءة وسط بحر القلق الذي يغمر البلاد أمراً عجيباً، وكذلك في عدم اهتمامها إلا بما هو حالم وبهي. وكان يفاجأ برؤيتها تطفو مطهرة في هواء نواياها الطيبة. ان تفاؤل صديقته غير المبرر، وحيويتها العارمة والنظيفة، كانت لها نتائج بلسمية لعذاباته التي يعانيها بسبب عجزه عن تغيير الأحوال. ومع ذلك،

فقد راودته في ذلك اليوم رغبة في امساكها من كتفيها وهزها إلى أن يضع لها قدميها على الأرض ويفتح عينيها على الحقيقة. ولكنه حين تأملها إلى جوار سور بيتها الحجري، ويداها محملتان بالزهور البرية التي ستقدمها للمسنين، وشعرها المشعث بعد الرحلة على الدراجة النارية، أحس أن هذه الفتاة لم تولد لتعيش قذارات الواقع. قبلها من وجنتها، أقرب ما يكون من الفم، وهو يشعر برغبة جامحة في البقاء إلى جانبها إلى الأبد ليحميها من الظلال. كانت تنبعث منها رائحة أعشاب، وكانت بشرتها باردة. وعرف أن حبها هو قدره المحتم.

# القسم الثاني

# الظـــلال

ما زالت الأرض الدافئة
تحفظ آخر الأسرار
فيثنتي هويدوبرو

مذ بدأ فرانثيسكو العمل في المجلة وهو يشعر أن حياته تجري في قلق دائم . فقد كانت المدينة مقسمة بحدود غير مرئية عليه اجتيازها بكثرة . فهو يصور في اليوم ذاته فساتين متقنة من الموسلين والدانتيلا ، ويعالج طفلة اغتصبها أبوها في حي أخيه خوسيه ، أو يحمل إلى المطار القائمة الأخيرة لأسماء الضحايا كي يسلمها إلى رسول مجهول بعد أن يردد كلمة السر . كانت احدى قدميه في الحلم المفروض عليه والقدم الأخرى في الواقع السري . وكان عليه في كل مناسبة ان يلائم حالته المعنوية مع مقتضيات اللحظة الراهنة . وحين ينتهي يوم عمله ، كان يستعرض في سكون غرفته الأحداث فيستخلص أن خير ما يفعله في خضم ذلك التحدي اليومي هو عدم التفكير كثيراً كي يحول دون أن يصيبه الخوف أو الغضب بالشلل . وفي هذا الوقت كانت صورة ايرين تكبر في الظل إلى أن أصبحت تحتل كل الفضاء المحيط به .

حلم ليلة الأربعاء بحقل أقحوان . ولم يكن من عادته أن يتذكر الأحلام ، لكن الأزهار كانت طازجة وندية في ذلك الحلم لدرجة أنه استيقظ موقناً من انه قد نُقل وهو نائم إلى الخلاء . وعند الضحى التقى في مكاتب المجلة بالمنجمة ، تلك السيدة ذات الشعر الداكن والمصرة على قراءة حظه . ما إن رأته على سلم الطابق الخامس حتى بادرته بالقول :

ـ أستطيع قراءة الأمر في عينيك : انك آت من ليلة حب .

دعاها فرانثيسكو لتناول البيرة ، ولعدم وجود امارات فلكية اخرى تساعدها في استخلاص نبوءتها ، روى لها حلمه . فأخبرته أن زهور الأقحوان هي فأل خير ، ولا بد بالتالي ان يقع له حدث سعيد خلال الساعات التالية .

ثم أضافت :

ـ هذا مجرد عزاء يا بني ، لأن يد الموت تشير إليك .

لكنها كانت قد قالت له ذلك مراراً وتكراراً من قبل ، حتى ان سوء الطالع استنفد ما يحمله من فاجعة تخيفه .

أحس فرانثيسكو باحترام كبير نحو العرافة حين تحققت نبوءتها الطيبة بعد

قليل، عندما اتصلت به ايرين في البيت طالبة منه أن يدعوها للعشاء، لأنها كانت راغبة في لقاء آل ليال. لقد أمضيا ذلك الأسبوع دون أن يلتقيا تقريباً. فمحررة قسم الأزياء أرادت التقاط مجموعة من الصور في الكلية الحربية مما شغل وقت فرانثيسكو تماماً. كانت الملابس الرائجة في ذلك الحين هي الملابس الرومنطيقية ذات العقد والفضفاضة، ورغبت محررة قسم الأزياء في مواجهة هذا الزي واظهاره من خلال خلفية تضم الآلة الحربية الثقيلة والجنود. وفكر القومندان، قائد الكلية، من جانبه بانتهاز هذه الفرصة لاظهار القوات المسلحة في مظهر أكثر لطفاً، ففتح لهم أبواب ثكنته بعد اتخاذ تدابير أمنية مضاعفة. فأمضى فرانثيسكو وبقية أفراد فريق العمل عدة أيام في المعقل العسكري، لم يعد يعرف بعدها ان كان يشمئز أكثر من الأناشيد الوطنية الحماسية والمراسم الحربية أم من ملكات الجمال الثلاث اللواتي يتحركن من خلال عدسات آلة تصويره. كانوا جميعهم يخضعون لدى دخولهم وخروجهم لتفتيش دقيق، وكان الجنود يقلبون لهم محتويات حقائبهم وسط فوضى مزلزلة ليفتشوا بين الفساتين والأحذية وباروكات الشعر، ويدسوا أيديهم في كل مكان ويبحثوا بواسطة آلات الكترونية عن أي شيء مثير للشبهة. العارضات كن يبدأن عملهن بوجوه ساخطة ويقضين الساعات وهن يتمتمن متذمرات. وكانت مهمة ماريو، الماكيير الأنيق والرصين الذي يرتدي الملابس البيضاء دوماً، ان يغير ملامحهن لكل صورة، يساعده في ذلك معاونان حديثا العهد في التخنث، يحوّمان مثل يراعتين من حوله. كان فرانثيسكو يتولى مسؤولية آلات التصوير والأفلام، محاولاً الاحتفاظ بهدوئه دوماً، حتى ولو عرّضوا الفلم للضوء أثناء تفتيشهم ودمروا عمل اليوم كله.

كانت هذه المجموعة الجوالة تسبب شيئاً من الخلل في نظام الكلية، وتشوش من هم غير معتادين على مثل هذه المشاهد. والجنود الذين لم تستثرهم ملكات الجمال، هيجهم المساعدان اللذان ما كانا ينفكان عن دغدغتهم أمام ناظري معلم التجميل المستاء. لم يكن مزاج ماريو لينسجم مع الابتذال، كما انه كان قد تجاوز منذ سنوات أية ميول إلى الحياة الإباحية المشتركة. فهو ينتمي إلى

اسرة عامل في مناجم الفحم لديه أحد عشر ابنا. وقد ولد وترعرع في قرية رمادية حيث غبار المنجم يغطي كل شيء بطبقة من البشاعة الدائمة التي لا يمكن لمسها، ويلتصق برئات الأهالي، محولاً الجميع إلى ظلال شخوصهم. كان مقرراً له أن يسير على الطريق التي سارها أبوه، وجده واخوته، لكنه لم يكن يشعر بالقدرة على الزحف في باطن الأرض والحفر في الصخر الصلد، ولا على مواجهة قسوة العمل في المناجم. كانت له أصابع رقيقة وروح ميالة إلى الخيال، فعالجوه بضربه بالسوط. لكن هذه الأساليب القاسية لم تشف اخلاقه الانثوية ولم تلوِ ميل طبيعته. فكان الطفل ينتهز أية غفلة لينعم بمتع فريدة تثير سخرية وسطه القاسي؛ كأن يجمع حجارة من النهر ويجلوها ليستمتع برؤ ية بريق ألوانها؛ ويجوب المشهد الكئيب باحثاً عن أوراق جافة لينسقها في أوضاع فنية؛ وكان يتأثر حتى الدموع أمام مشهد غروب الشمس، راغباً في تثبيتها إلى الأبد في جملة شعرية أو في رسم يستطيع تخيله، لكنه يعجز عن تحقيق ذلك. أمه وحدها هي التي كانت تتقبل تلك التصرفات الغريبة دون أن ترى فيها امارات شذوذ، وانما اليقين بانه روح مختلفة. ولانقاذه من عقوبات ابيه القاسية، أخذته إلى الكنيسة ليكون مساعداً لخادمها، آملة بان يتوارى نعومته الانثوية وسط تراتيل القداس وقرابين البخور. لكن الطفل كان ينسى الرطانة اللاتينية، وينسى نفسه وهو ساهم ـ بمنظر الذرات المذهبة الطافية في حزم الضوء الداخلة من الكوى. غض الكاهن النظر عن هذا الشرود، وعلمه الحساب والقراءة والكتابة وبعض المبادىء الثقافية التي لا غنى عنها. ولدى بلوغه الخامسة عشرة، كان يحفظ عن ظهر قلب الكتب القليلة الموجودة في الكنيسة وبعض الكتب الأخرى التي كان يستعيرها من التركي صاحب المتجر، حيث كان هذا الأخير يسعى لاجتذابه إلى الحجرة الخلفية الملحقة بالمتجر ليلقنه آلية اللذة بين الذكور. وحين علم أبوه بأمر تلك الزيارات، قاده بالقوة إلى ماخور المخيم برفقة شقيقيه الكبيرين، فانتظروا هناك دورهم مع مجموعة من الرجال المتحرقين لانفاق أجرهم ليوم الجمعة. وكان ماريو هو الوحيد الذي انتبه إلى الستائر المتسخة والحائلة اللون، وإلى رائحة البول، ونفحة

الخذلان اللانهائي التي تلف ذلك المكان. وهو الوحيد الذي تأثر لكآبة أولئك النسوة المنهوكات من استخدام الحب ومداعباته. وحاول، بعد ان هدده أخواه، أن يترف كذكر مع المومس التي كانت من نصيبه، ولكنها بمجرد أن ألقت نظرة واحدة إليه أدركت ان هذا الفتى تنتظره حياة عزلة وتوحد. أحست بالشفقة عليه وهي تراه يرتجف اشمئزازاً من منظر لحومهن العارية، فطلبت ان يتركوها معه على انفراد لتؤدي عملها بسلام. وعندما خرج الآخرون، أقفلت الباب بالمزلاج، وجلست إلى جانبه على السرير، وأمسكت يده، ثم قالت لماريو الذي كان ينتحب ملتاعاً:

- لا يمكن عمل هذا بالقوة. اذهب بعيداً عن هنا يا بني، اذهب إلى حيث لا يعرفك أحد، لأنهم سينتهون هنا إلى قتلك.

لم يتلق في حياته كلها نصيحة أثمن من تلك. مسح دموعه ووعد بألا يعود إلى ذرفها في سبيل رجولة لا يرغب في أعماقه بها.

- قالت له المرأة مودعة:

- إذا أنت لم تبتل بالعشق، فسوف تصل بعيداً.

ثم طمأنت الأب، لتنقذ بذلك الفتى من عقوبة الضرب.

في تلك الليلة حدّث ماريو أمه بما جرى. فبحثت في أعمق أعماق خزانتها، وأخرجت حزمة صغيرة من أوراق نقدية مجعدة وضعتها في يد ابنها. بهذا المال ركب قطاراً إلى العاصمة، حيث توصل إلى العمل كصبي تنظيف وكنس صالون للحلاقة النسائية مقابل طعامه وفرشة قاسية يقضي عليها الليل في المحل ذاته. كان مفتوناً. لم يكن يتصور وجود عالم كهذا: نبرات واضحة في الكلام، عطورات ناعمة، أصوات باسمة، طيش، دفء، استرخاء. كان يراقب من خلال المرايا أيدي الحلاقات المحترفات فوق الشعور فيصيبه ذهول الاعجاب. تمرس في معرفة الروح الانثوية عبر رؤيته للنساء دون حجاب. وفي الليل، حين يبقى وحيداً في الصالون، كان يجرب بعض التسريحات على الشعور المستعارة ويجرب استخدام الظلال، والبودرة، وأقلام المكياج على وجهه بالذات ليتدرب على فن التجميل،

وراح يكتشف كيف يمكن تجميل وجه عادي بواسطة الألوان والأقلام. وسرعان ما سمحوا له أن يتدرب ببعض الزبونات الجديدات، وبعد عدة شهور كان خير من يقص الشعور وصارت السيدات المتشددات يطالبن بخدماته. كان قادراً على تغيير امرأة ذات مظهر تافه، مستفيداً من إطار شعر مهلهل وخدع أصبغة التجميل التي أتقن استخدامها بمهارة. ولكنه كان قادراً قبل كل شيء على اظهار نقطة الجاذبية في كل امرأة، لأن الجمال في نهاية المطاف ليس سوى موقف. بدأ يدرس دون توقف ويمارس عمله بجرأة، تساعده غريزة صائبة توصله دوماً إلى أفضل النتائج. الجميع كن يسعين للحصول على خدماته: العرائس وعارضات الأزياء والممثلات وسفيرات ما وراء البحار. وفتحت بعض السيدات الثريات وذوات النفوذ في المدينة بيوتهن له، وهكذا وضع ابن عامل المناجم قدمه لأول مرة فوق السجاد الفارسي، وشرب الشاي في فناجين الخزف الشفاف واستمتع ببريق الفضة المزخرفة، والأخشاب المصقولة، وأصناف الكريستال الفاخرة. وسرعان ما اتقن تمييز الأشياء الثمينة حقاً وقرر ألا يقبل بما هو أقل منها، لأن روحه كانت تعاف أي شكل من أشكال الابتذال. وحين ولج أوساط الفن والثقافة، أدرك انه صار عاجزاً عن التراجع، فأطلق العنان لتيار ابداعه ولرؤياه للصفقات التجارية. وخلال بضع سنوات صار صاحب أشهر صالون للتجميل في العاصمة، ومالك محل صغير لبيع الأثريات، وعدة تجارات غامضة. وأصبح خبيراً باللوحات الفنية، وبالاثاث الفاخر، والأشياء الثمينة،يستشيره في شأنها أناس في أعلى المواقع. كان مشغولاً ومتعجلاً على الدوام، لكنه لم ينس مطلقاً أن فرصته الأولى للنجاح قدمتها له المجلة التي تعمل فيها ايرين بيلتران، لذلك كان يترك جميع مشاغله إذا استدعوه هناك إلى عرض أزياء أو اجراء ريبورتاج حول الموضة والجمال، فيحضر حاملاً حقيبة تبديل شكل الوجوه الشهيرة، التي تضم أدوات عمله. وصار واسع النفوذ، حتى ان السيدات الجريئات اللواتي كان يجملهن قبل ذهابهن إلى حفلات المجتمع الكبرى، كن يفاخرن بابراز توقيعه على خدهن الأيسر مثلما تبرز البدويات وشمهن.

حين تعرف على فرانثيسكو ليال، كان ماريو رجلاً متوسط العمر، ذا أنف دقيق ومستقيم نتيجة جراحة تجميلية، نحيلاً ومنتصب القامة بفضل الريجيم والتمارين والمساجات، ولبشرته لون برونزي اكتسبه من الأشعة ما فوق البنفسجية، ويرتدي بأناقة أفضل انواع الملابس الانكليزية والايطالية. وكان مثقفاً ومهذباً ومشهوراً، يتجول في أجواء النخبة، ويسافر إلى أماكن نائية بحجة السعي لاقتناء الاثريات. كان يعيش كارستقراطي، لكنه لم يكن يتنكر لأصوله المتواضعة، وكلما سنحت له الفرصة للحديث عن ماضيه في القرية المنجمية، فعل ذلك بشموخ وبمزاج طيب. فكانت بساطته هذه تقتنص تعاطف من لم يغفروا له تكلفة أصلاً نبيلاً لا وجود له. وفي وسط الصفوة الأكثر انغلاقاً، الذي لا تلجه إلا الألقاب العريقة أو المال الوفير، فرض نفسه بذوقه الرفيع وقدرته على نسج العلاقات مع الناس المناسبين. ولم يرجع مطلقاً إلى بيت اسرته، كما لم يعد لرؤ ية أبيه أو اخوته، لكنه كان يبعث كل شهر شيكاً إلى أمه ليضمن لها بعض الرفاهية ولمساعدة شقيقاته في دراسة مهنة أو في اقامة تجارة لهن أو في اقتناء مهر للزواج. كانت ميوله العاطفية غامضة، دون شذوذ، مثل كل شيء في حياته. وحين قدمته ايرين إلى فرانثيسكو ليال لم يشِ بتأثره سوى بريق خفيف في حدقتيه. وقد لاحظت هي ذلك، فكانت تمازح صديقها فيما بعد قائلة له ان يحذر من تقرب الحلاق منه إذا كان لا يريد ان ينتهي به الأمر إلى وضع قرط في اذنه والتحدث بصوت غنج. بعد اسبوعين من ذلك، كانوا في الاستوديو يعملون في التسريحات الجديدة للموسم، حين ظهر الكابتن غوستافو مورانتي بحثاً عن ايرين. ولدى رؤ يته ماريو تبدلت ملامحه وجهه. كان الكابتن يشعر بنفور شديد من المخنثين وكان يسيؤه ان تكون خطيبته في مكان تحتك فيه مع من يعتبرهم منحلين. كان ماريو مستغرقاً في إلصاق ندف مذهبة على وجنتي عارضة ازياء باهرة الجمال، ولم تسعفه غريزته في الانتباه إلى رفض الآخر له، فمد يده إلى الكابتن مبتسماً. قاطع غوستافو ذراعيه فوق صدره وهو ينظر إليه بازدراء بالغ وقال له انه لا يتعامل مع مماحين. ساد الاستوديو صمت جليدي، وخيم الذهول على ايرين والمساعدين

والعارضات وجميع من كانوا هناك. شحب لون ماريو وبدا كما لو ان غمامة من الكآبة تنسدل على عينيه. حينئذ ترك فرانثيسكو ليال آلة تصويره، وتقدم ببطء ليضع احدى يديه على كتف مصفف الشعر. وقال بصوته الواضح واللطيف المعهود:

- اتعرف لماذا لا تريد ملامسته يا كابتن؟ لأنك تخشى من مشاعرك. ربما هناك بين رفاقك في الثكنة عدد كبير من الشاذين جنسياً.

وقبل أن يعي غوستافو مورانتي خطورة هذا الكلام، ويقوم برد الفعل المناسب، تدخلت ايرين لتمسك بذراع خطيبها وتقوده خارج الصالة. لم ينس ماريو أبداً هذا الحادث. وبعد بضعة أيام دعا فرانثيسكو إلى العشاء. كان يقطن في الطابق الأخير من مبنى فخم. وكان ديكور شقته يعتمد على اللونين الأبيض والأسود، باسلوب جذاب، يجمع الحداثة والأصالة. وبين خطوط الفولاذ والزجاج الهندسية، كانت توجد ثلاث أو أربع قطع اثاث باروكية عتيقة جداً وسجاد حريري صيني. وعلى السجادة الوثيرة التي تغطي الأرضية كان يخرخر هران، وقريباً من المدفأة التي يشتعل فيها حطب شذي الرائحة كان يغفو كلب أسود لامع. قال ماريو وهو يرحب به: انني أعبد الحيوانات. ورأى فرانثيسكو سطلاً فضياً مليئاً بالثلج وضعت فيه زجاجة شمبانيا لتبرد، وإلى جواره كأسين. لاحظ العتمة الخفيفة التي تسود البيت، وشم شذى الخشب والصمغ الذي يحترق في مبخرة من البرونز، وسمع موسيقى الجاز المنبعثة من مكبرات الصوت وأدرك أنه المدعو الوحيد. راودته للحظة الرغبة في العودة على أعقابه والخروج، كي لا يبعث أي بارقة أمل في نفس مُضِيفه، لكنه ما لبث أن أحس بالرغبة في عدم احراجه وكسب وده. نظر كل منهما إلى عيني الآخر وسيطر على فرانثيسكو شعور هو مزيج من العطف والتعاطف، فبحث بين أفضل مشاعره عن أكثرها ملاءمة لتقديمها إلى هذا الرجل الذي يعرض عليه حبه بحياء. جلس إلى جانبه على الأريكة المغطاة بالحرير وتناول منه كأس الشمبانيا مستعيناً بتجربته المهنية للإبحار في هذه المياه المجهولة دون اقتراف أية حماقة. وكانت تلك ليلة لا تنسى بالنسبة لكليهما.

روى له ماريـو قصـة حيـاتـه وألمح له بأشد الأساليب كياسة إلى العاطفة التي كان يبنيهـا في روحـه. أحس بسلبيتـه، لكنـه كان منفعلاً إلى حد لا يستطيع معه كبح عواطفه، إذ لم يلتق أبداً من قبل برجل فتنه إلى هذا الحد. كان فرانثيسكو يقارن قوة الـرجـولـة وأمنها بتلك الرقة الغريبة. لم يكن الحب بالنسبة لماريو بالأمر السهل وكـان يخشى نوبـات الهيجـان التي سببت له في المـاضي كدراً كثيـراً، لكنـه كان مستعداً في هذه المناسبة لتسليم نفسه كاملاً للعبة. وتحدث فرانثيسكو كذلك عن نفسـه وأفهمـه، دون أن يعبر عن ذلك مباشرة، امكانية قيام صداقة متينة وعميقة بينهما، ولكن ليس الحب بأي شكل من الأشكال. واكتشفا في تلك الليلة أن لهما اهتـمامـات مشـتركـة، وضحكـا، واستمعا إلى الموسيقى وشربا زجاجة الشمبانيا كلهـا. وفي لحظـة ثقـة محرمـة في أبسـط قواعد الحيطة، تحدث ماريو عن رعبه من الـدكتـاتـوريـة وعن رغبته في مقاومتها. فكشف له حينئذ صديقه الجديد، القادر على اكتشـاف الحقيقـة في عيون الآخرين، عن سره. وعندما ودعا بعضهما، قبل بدء حظر التجول بقليل، شدّ كل منهما على يد الآخر بحزم، وكأنهما يوقعان بذلك عقداً تضامنياً.

منـذ ذلـك العشـاء، لم يعـد ما يجمع ماريو وفرانثيسكو هو العمل في المجلة وحسب، وانما العمل السري كذلك. ولم يعد مصفف الشعر إلى التلميح إلى أية هواجس قد تسيء للعلاقة الرفاقية. كان موقفه شفافاً ووصل الأمر بفرانثيسكو إلى الشـك بأنـه قد يتكلم كما فعـل في تلك الليلة المشهـودة. وانضمت ايـرين إلى المجمـوعـة، رغم أنهـما أبعـداها عن أي عمل سري، لكنها تنتمي بحكم ولادتها وتـربيتهـا إلى الفئـة المقـابلة. كما انها لم تبد أي ميل إلى السياسة على الاطلاق، فضلاً عن كونها خطيبة أحد العسكريين.

في هذا اليـوم، وفي الاكـاديميـة الحـربيـة، أنهـك ماريـو التراخي. ففوق الاجراءات الأمنية، والحر وتعكر المزاج الجماعي، تأتي تصرفات مساعديه الشاذة أمام الوحدة العسكرية لتزيد من ضيقه.

ـ سأطـردهما من العمـل يافـرانثيسكـو. فهـذان الاحمقان تافهان ولن يحققا

لنفسيهما أيـة مكـانة على الاطلاق. كان عليّ أن أطردهما إلى الشارع مذ فاجأتهما متعانقين في حمام المجلة.

كان السأم قد نال من فرانثيسكو ليال أيضاً، لأنه لم ير ايرين منذ عدة أيام. فهـو لم يكـد يلتقي بها طوال الاسبـوع، وكـان قانطـاً من لقـائها عندما اتصلت به لتخبره انها ستزوره لتناول العشاء معه.

أعـدت العـدة في بيت آل ليـال لاسـتقبـالهـا. طبخت هيلدا أحـد أطباقها المفضلة واشـترى الـبر وفسـور زجـاجة بيذ وباقة من أول أزهار الموسم، لأنه كان يكن تقـديـراً للفتـاة ويشعر كأن حضورها هو نفحة نظيفة تكنس الضجر والقلق. دعوا كذلك إلى العشاء ابنيهما الآخرين، خوسيه وخابيير مع اسرته، لرغبتهم في جمعهم معاً ولو لمرة واحدة في الأسبوع على الأقل.

كان فرانثيسكو قد انتهى من تحميض شريط فلم في الحمام الذي يستخدمه كمختـبر، عنـدمـا أحس بوصـول ايرين. علق أشرطة النيجاتيف، وجفف يديه وخرج مقفلاً الباب بالمفتاح كي يحمي بذلك عمله من فضول أبناء أخيه ثم أسرع لاستقبـالهـا. داهمته رائحة المطبخ بمداعبة لذيذة، ووصلت إلى مسامعه أصوات طفولية واضحة، ووجد الجميع في صالة الطعام. حينئذ رأى صديقته. وأحس ان الحـظ يحالفـه، لأن قماش فستـانهـا كان مزيناً بأزهار أقحوان، وكانت الأزهار ذاتها تتـدلى من شعـرهـا المضفور في جديلة.. تلك هي صفوة حلمه وخلاصة نبوءات المنجمة الطيبة.



دخلت هيلدا إلى صالـة الطعـام حاملة بين يديها اناء يتصاعد منه البخار، فانطلقت جوقة من صيحات الترحيب بها.

ـ مونـدونغـو! ـ تنهـد فرانثيسكـو دون تردد، فقـد كان قادراً على تمييـز شذى البندورة وأوراق الغار حتى ولو كانت في أعماق البحر.

وصاح أحد الأطفال:

ـ اكره الموندونغو! انه كالمنشفة!

تناول فرانثيسكو قطعة خبز وغمسها في الصلصة الشهية ورفعها إلى فمه، فيما الأم تسكب الطعام في الأطباق بمساعدة كنتها. كان خابيير هو الوحيد الذي يبدو غير عابىء بالضجة من حوله. فقد كان الأخ الأكبر صامتاً وساهماً يلهو بقطعة من حبل بين يديه. ففي الأزمنة الأخيرة، صار تفكيره يشرد وهو يربط انواعاً من العقد المتنوعة: عقدة البحار، وعقدة صياد الاسماك، وانشوطة راعي البقر، وعقدة الدليل، وعقدة الخيط، وعقدة الركاب، وعقدة الخطاف، والمفتاح، والصاري. وكان يربط هذه العقد ويحلها بإصرار غامض. كان أولاده يراقبونه مفتونين أول الأمر، لكنهم تعلموا تقليده فيما بعد وفقد الحبل جاذبيته بالنسبة لهم. لقد اعتادوا رؤية أبيهم مشغولاً بهوسه.. عادة هادئة لا تزعج الآخرين في شيء. التذمر الوحيد كان يأتيه من زوجته التي تحتمل يديه المتصلبتين من كثرة احتكاكهما بالحبل الملفوف إلى جانب السرير في الليل وكأنه أفعى أليفة.

كرر الطفل:

ـ لا أحب الموندونغو!

فاقترحت جدته:

ـ كل سمك السردين اذن

ـ لا، له عيون!

ضرب الكاهن الطاولة بقبضته مزعزعاً الأطباق. فتجمد الجميع حين صرخ:

ـ كفى! ستأكل مما يقدم اليك. أتعرف كم هم الناس الذين لا يملكون سوى فنجان شاي وكسرة خبز يابسة في اليوم؟ الأطفال في حيي يسقطون مغمى عليهم بسبب الجوع!

لمست هيلدا ذراعه بحركة متوسلة كي يستكين ويمتنع عن ذكر الجائعين في حيه، لأنه يخاطر بذلك في تقويض الوجبة العائلية وفي تعريض كبد أبيه للخطر.

احنى خوسيه رأسه، خجلاً من غضبه. ان سنوات عديدة من التجربة لم تهدىء من احتدام انفعالاته ولا من هواجسه للمساواة بين أمثاله من بني البشر. حطمت ايرين الصمت مطرية على الطعام واحتفى الجميع معها برائحته وقوامه ومذاقه، وبأصله البروليتاري قبل كل شيء.

قال فرانثيسكو ملاحظاً:

ـ من المؤسف أن نيرودا لم يكتب أغنية للموندونغو.

فقال أبوه بحماس:

ـ ولكنه كتب واحدة لحساء الصِلَّور، أتريد سماعها..

لكن صفيراً مكتوماً اسكته.

لم يكن البر وفسور ليال ليغضب من هذه المداعبات. فقد كبر أولاده وهم يسمعونه يلقي من ذاكرته أو يقرأ بصوت عال أشعار الكلاسيكيين، لكن أصغرهم وحده هو الذي أصيب بعدوى حماسه الأدبي. كان مزاج فرانثيسكو أقل اندفاعاً، وكان يفضل صقل ذوقه من خلال القراءة المنهجية ونظم الأشعار سراً، تاركاً لأبيه امتياز الانشاد كلما رغب في ذلك. أما أولاده الآخرون وأحفاده فلم يعودوا يصبرون على هذا الأمر. وهيلدا وحدها هي التي كانت تطلب منه أن ينشد لها الأشعار حين يخلوان وحدهما في بعض الأمسيات. وفي تلك المناسبات، كانت تترك الحياكة لتصغي باهتمام إلى الكلمات وترتسم على وجهها ملامح الافتتان التي بدت عليها عند لقائهما الأول، وتحسب سنوات الحب الطويلة التي تقاسمتها مع هذا الرجل. فعندما اندلعت الحرب الأهلية في اسبانيا كانا شابين متيمين. ورغم ان البروفسور ليال كان يرى في الحرب أمراً قذراً، إلا انه انطلق إلى الجبهة مع الجمهوريين. وحملت زوجته صرة ملابس وأوصدت باب منزلها دون أن تنظر إلى الوراء وراحت تنتقل من ضيعة إلى ضيعة مقتفية آثاره. كانا يرغبان في أن يكونا معاً حين يفاجئهما النصر، أو الهزيمة، أو الموت. بعد خريفين من ذلك ولد ابنهما الأكبر في ملجأ مرتجل بين أنقاض دير. ولم يستطع أبوه حمله بين ذراعيه إلا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ولادته. وفي شهر كانون الأول من السنة نفسها،

قبيل أعياد الميلاد، دمرت قنبلة المكان الذي كانت تنزل فيه هيلدا والطفل. حين سمعت الضجة التي سبقت الكارثة، تمكنت من تأمين الوليد في حضنها، وانحنت عليه مثل كتاب مغلق لتحمي حياة الطفل، فيما كان السقف ينهار ليسحقها. أخرجوا الصغير من بين الأنقاض سليماً تماماً، أما أمه فقد أصيبت بكسر عميق في الجمجمة وتهشم أحد ذراعيها. فقد زوجها أثرها لبعض الوقت، ولكنه وجدها بعد بحث طويل في مستشفى ميداني، حيث كانت تقبع منهكة لا تذكر حتى اسمها، مصابة بفقدان الذاكرة، بلا ماض ولا مستقبل، والطفل معلق على صدرها. عندما انتهت الحرب، قرر البر وفسور ليال الانطلاق نحو فرنسا، لكنهم لم يسمحوا له باخراج المريضة من المأوى الذي كانت تعالج فيه، فكان عليه ان يخطفها ليلاً. حملها فوق عارضتين خشبيتين لهما أربع عجلات، ووضع الوليد في ذراعها السليمة، وربطهما ببطانية وسار بهما يجر نفسه متثاقلاً في دروب الكآبة تلك التي تقود إلى المنفى. اجتاز الحدود مع امرأة لا تعرفه، وعلامة ادراكها الوحيدة هي غناؤ ها للطفل. لم يكن لديه مال، ولا أصدقاء. وكان يعرج بسبب جرح أحدثته رصاصة في فخذه،لكن ذلك لم يبطيء من خطواته وهو يرى أن الأمر متعلق بانقاذ اسرته. الشيء الوحيد الذي كان يحمله معه هو مسطرة حساب قديمة ورثها عن ابيه، وقد أفادته في اعادة تعمير أبنية وفي وضع مخطط للخنادق في أرض المعركة. في الجانب الآخر من الحدود، كانت الشرطة الفرنسية تنتظر قافلة المهزومين اللانهائية. فصلوا الرجال جانباً واعتقلوهم. وجادل البر وفسور ليال كمخبول محاولاً أن يشرح الوضع مما جعلهم يقتادونه بأعقاب البنادق مع الآخرين إلى معسكر التجميع.

عثر ساعي بريد فرنسي على العربة في الطريق. فدنا منها مرتاباً حين سمع بكاء الطفل. نزع البطانية فرأى شابة معصوبة الرأس، أحد ذراعيها مربوط إلى عنقها بحمالة، وتحمل في ذراعها الآخر طفلاً لا يتجاوز عمره بضعة أسابيع يبكي من البرد. حملها إلى بيته وجهد مع زوجته في تقديم المساعدة لهما. ومن خلال منظمة دينية بروتستانتية انكليزية مخصصة لغوث وحماية اللاجئين، عثر على

الـزوج على شاطىء مسيـج بأسـلاك شائكة، حيث كان الرجال يقضون نهارهم بخمـول يراقبـون الأفق وينـامـون في الليل بدفن انفسهم في الرمال بانتظار أوقات أفضل. كان ليال على وشك الجنون يأساً وهو يفكر بهيلدا وابنه، ولهذا بكى حين سمـع من ساعي الـبر يـد انهما بخير، أحنى رأسه وبكى طويلاً لأول مرة في حياته منذ بلوغه سن الرشد. ووقف الفرنسي يتأمل البحر، دون أن يجد كلمة أو حركة منـاسبـة لتقـديم السلوى له. وحين ودعه رآه يرتجف، فخلع معطفه، وألقاه عليه لتبـدأ بينهـما صداقة ستدوم نصف قرن. ساعده في الحصول على جواز سفر، وفي تنظيم وضعـه القـانـوني وفي الخـروج من معسكـر الـلاجئين. وأثناء ذلك قدمت زوجتـه لهيلدا كل انـواع الـرعـايـة. كانت امـرأة عمليـة كافحت فقـدان الذاكرة باسلوب من ابتـداعهـا، ولأنهـا لم تكن تعـرف اللغـة الاسبـانية، فقد استخدمت قامـوسـاً لتلقنهـا أسـماء الأشيـاء والمشـاعر واحداً واحداً. كانت تجلس إلى جانبها ساعات وساعات لتجوب معها المعجم كله من الألف إلى الياء، مكررة كل كلمة إلى ان ترى بريق الفهم في عيني المـريضـة. وشيئـاً فشيئاً استعادت هيلدا ذاكرتها المفقودة. وكان أول وجه استعادت تشكيله في ضبابية ذاكرتها هو وجه زوجها، ثم تذكرت اسم ابنها وأخيراً، ومثل سيل جارف تواردت إلى ذهنها أحداث الماضي، والجـمال، والشجـاعـة، والحب، والفـرح. وربـما اتخـذت في تلك اللحظـة قرار اصطفاء ذكرياتها ومحو كل المنغصات من المرحلة الجديدة التي بدأتها، لأنها عرفت بالبـداهـة ضرورة استخدام كل قواها لبناء مصيرها كمهاجرة. فكان من الأفضل نسيان مشاعر الحنين المؤلمة، والوطن، والأقارب والاصدقاء الذين بقوا هناك، فلم تعد للحديث عنهم منذ ذلك الحين. بدت وكأنها قد نسيت بيتها الحجري ولم تجدِ محاولات زوجها في تذكيرها به خلال السنوات التالية. كانت تعطي انطباعاً بأنها قد نسيتـه تمامـاً مع ذكـريـات اخرى، ولكنها بالمقابل لم تكن في يوم من الأيام اكثر توقداً في ادراك الحاضر والتخطيط للمستقبل، وفي مواجهة حياتها الجديدة بحماس كامل.

يوم أبحـر آل ليـال نحـو أطـراف اخـرى من الأرض، حضر ساعي البر يد

وزوجته إلى الميناء لوداعهم، وقد ارتديا ملابس الأحد. وكانت قامتاهما الضئيلتين هما آخر ما أمكن تمييزه حين ابتعدت السفينة في عرض البحر. وإلى أن تلاشت شواطىء اوروبا في البعيد، بقي جميع المسافرين في مقدمة السفينة ينشدون أغنيات الجمهورية بأصوات يقطعها النحيب، ما عدا هيلدا، التي كانت تقف في مقدمة السفينة بحزم، والطفل في حضنها، ممعنة النظر إلى المستقبل.

ذرع الزوجان ليال دروب المنفى، واعتادا على الفقر، وبحثا عن عمل، وأقاما صداقات واستقرا في الجهة الأخرى من العالم منتصرين على الشلل الأولي الذي يصيب من فقدوا جذورهم. وأخرجا إلى النور حصناً جديداً ولد من الآلام والفاقة. ولكي يتماسكا في النكبات استندا إلى حب صمد أمام جميع الاختبارات، حب أكبر من أي حب آخر. وما زالا، بعد اربعين سنة من ذلك، يراسلان ساعي البريد الفرنسي وزوجته، لأن الأربعة حافظوا على قلوبهم النبيلة واذهانهم الصافية.

وفي هذه الليلة، وبينما هم جالسون إلى المائدة، كان البروفسور في ذروة البهجة. فوجود ايرين بيلتران أطلق لسانه. كانت الشابة تصغي اليه وهو يتحدث عن التضامن بانبهار طفلة أمام مسرح للدمى، لأن تلك الخطابات الحماسية كانت بعيدة بعداً شاسعاً عن عالمها. وفيما كان البروفسور يراهن على اسمى القيم الانسانية، متجاهلاً آلافاً من سنوات التاريخ التي تثبت العكس، واثقاً من أن جيلاً واحداً يكفي لخلق وعي أرقى ومجتمع أفضل إذا ما توفرت الظروف اللازمة، كانت هي، في ذهولها، تنسى الطعام ليبرد في طبقها. كان البروفسور يؤكد ان السلطة شر مطلق، وان من يضعون يدهم عليها ويمسكون زمامها هم حثالة البشرية، لأن من يفوز بالهبات عادة هم العنيفون والدمويون. لذلك لا بد من مقارعة كل أشكال السلطة وترك البشر يعيشون أحراراً في نظام من المساواة. وكان يخطب أمام ايرين المبهورة قائلاً:

ـ الحكومات فاسدة في جوهرها، ولا بد من الغائها. انها تكفل حرية الأغنياء المستندة إلى الملكية واستعباد الآخرين في البؤس.

فعلق خوسيه بشيء من الضجر، وهو الذي لم يسمع هذه النبرة الخطابية المدوية منذ سنوات:

ـ إن كراهية السلطة هي داء مستحكم فيمن هرب من دكتاتورية ويعيش الآن في ظل دكتاتورية اخرى.

فمع مرور الزمن، لم يعد أولاد البر وفسور ليال يأخذون أباهم على محمل الجد، وكان اهتمامهم يقتصر على الحيلولة دون اقترافه للحماقات. لا بد أنهم قدموا له المساعدة أكثر من مرة في طفولتهم، ولكنهم ما ان بلغوا سن الرشد حتى هجروه وهجروا خطاباته ولم يعودوا إلى استخدام آلة الطباعة التي في المطبخ ولا إلى الذهاب إلى الاجتماعات السياسية. وبعد الغزو السوفييتي لهنغاريا عام ١٩٥٦، لم يعد الأب نفسه إلى الحزب أيضاً، لأن خيبة الأمل كادت أن تودي بحياته. ووقع خلال بضعة أيام ضحية كآبة مرعبة، لكن الثقة بقدر الانسانية ما لبثت أن عادت لتملأ روحه، وحملته إلى تجاوز خيبة الأمل والشكوك التي عذبته. ودون أن يتخلى عن مبادئه في العدالة والمساواة، قرر أن الحرية هي الحق الأول للإنسان، فنزع صورتي لينين وماركس من الصالة وعلق صورة لميخائيل باكونين. وأعلن قائلاً: اعتباراً من الآن، أنا فوضوي. لم يعرف أي من أولاده ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك، واعتقدوا لبعض الوقت انها فئة دينية أو فريق من المخبولين. إذ لم يكن هناك من يهتم بهذه الايديولوجية التي أفل نجم رواجها وكنستها رياح ما بعد الحرب. واتهموه بانه الفوضوي الوحيد في البلاد، وربما كانوا محقين في ذلك. بعد وقوع الانقلاب العسكري، ولحمايته من تهوره، نزع فرانثيسكو قطعة أساسية من آلة الطباعة. كان لا بد من منعه بأية طريقة من مواصلة نشر أفكاره وتوزيعها في أرجاء المدينة، كما فعل في مناسبات سابقة. وأقنعه خوسيه فيما بعد انه من الخير التخلص من تلك الآلة القديمة عديمة الجدوى وحملها إلى حيه، حيث أفادت بعد اصلاحها وتنظيفها وتشحيمها في نسخ الأمالي المدرسية للتلاميذ في النهار ومنشورات التضامن في الليل .لقد أنقذ هذا الاحتياط الموفق البر وفسور ليال حين قامت الشرطة السرية في احدى حملات المداهمة بتفتيش الحي بيتاً بيتاً، ولا بد انه

كان سيعجز عن تقديم تفسير لوجود آلة الطباعة في المطبخ. حاول الأولاد أن يبينوا لأبيهم كيف أن الأعمال المعزولة والعبثية تلحق ضرراً بقضية الديمقراطية يفوق النفع الذي قد تعود به، لكنه كان ينتهز أي سهو منهم ليعود إلى زج نفسه في المخاطر، تدفعه إلى ذلك مبادئه الملتهبة.

حين علموا بأمر المنشورات المعادية للمجلس العسكري التي ألقيت من فوق مبنى البريد، توسلوا اليه:

ـ حذار يا أبتاه!

فرد البروفسور بتصميم:

ـ لقد أصبحت شيخاً عجوزاً، وكبرت على اخفاء ذيلي بين ساقيّ.

ـ إذا أصابك شيء، فأضع رأسي في الفرن وأموت مختنقة. ـ كانت هيلدا تحذره دون أن ترفع صوتها ودون أن تفلت من يدها مغرفة الحساء. وكان زوجها مقتنعاً من أنها ستنفذ ما تقوله، فيتخذ بعض الاحتياطات، ولكنها لم تكن بالاحتياطات الكافية على الاطلاق.

وكانت هيلدا من جانبها تقاوم الدكتاتورية باسلوب فريد. فكان جهدها يتركز مباشرة على الجنرال، الذي به مس من الشيطان على حد زعمها، وهو تجسيد للشر ذاته. كانت تفكر انه بالامكان هزيمته بواسطة الصلاة والابتهالات الدينية التأملية التي تجري مرتين في الاسبوع. وفي تلك الاجتماعات للصلاة كانت تلتقي بمجموعة من ذوي الأرواح الورعة المصممين في دخيلتهم على القضاء على الطاغية، وكان عدد تلك الجماعة يزداد يوماً بعد يوم، حتى تحولت إلى حركة على المستوى الوطني للصلاة في حلقات. ففي اليوم المحدد، وفي ساعة معلومة، يجتمع المؤمنون في جميع مدن البلاد، وفي القرى النائية، والضياع التي نسيها التقدم، وفي المعتقلات والسجون، وحتى في المراكب التي في عرض البحر، ليقوموا جميعهم معاً بمجهود روحي رهيب، ليتوصلوا من خلال هذا النشاط المنظم إلى سحق الجنرال وحاشيته سحقاً لا قيامة منه. لم يكن خوسيه يقبل بمثل هذه الخرافات ويرى انها خاطئة من وجهة النظر اللاهوتية، أما فرانثيسكو فلم يكن

يستبعد احتمال ان يؤدي هذا الاسلوب المبتكر إلى نتائج مرضية، لأن الايحاء يصنع المعجزات، وإذا ما علم الجنرال بهذا السلاح المهيب للقضاء عليه، فقد يصاب بالذهول وتصبح حياته في أسوأ حال. وكان يقارن نشاط أمه بالاحداث الغريبة التي تقع في بيت آل رانكيليو ويستخلص أنه في ازمنة القمع تبرز حلول خيالية لأكثر المشاكل تعقيداً.

كان البروفسور ليال يمزح قائلاً:

- دعك من الصلوات يا هيلدا، والتفتي إلى الجودو فإن له اساساً علمياً أكبر.

لقد سخر منها أفراد اسرتها كثيراً، إلى أن أصبحت تذهب إلى تلك الاجتماعات بحذاء مطاطي وملابس رياضية، مخفية كتاب الصلوات بين ملابسها. وكانت تقول لهم انها ذاهبة للجري في الحديقة، فيما هي مصممة في الحقيقة على مواصلة مهمتها الشاقة في مقاومة السلطة بضربات المسبحة.

في بيت آل ليال، كانت ايرين تصغي باهتمام إلى كلمات رب البيت، مفتونة برنة لهجته الاسبانية التي لم تخفف منها سنوات طويلة من الحياة الاميركية. حين كانت تراه يومىء منفعلاً، بعينيه اللامعتين ورعشة قناعاته الراسخة، تشعر انها تنتقل إلى القرن الماضي، إلى قبو مظلم للفوضويين، حيث يجري تحضير قنبلة بدائية لالقائها لدى مرور عربة ملكية. أثناء ذلك كان فرانثيسكو وخوسيه يتبادلان حديثاً جانبياً عن قضية الطفلة المغتصبة التي أصبحت بكماء، فيما هيلدا وكنتها تتوليان شؤون العشاء والأولاد. أما خابيير فكان يأكل قليلاً ولا يشارك في الحديث. لقد وجد نفسه عاطلاً عن العمل منذ اكثر من سنة، وخلال تلك الشهور كانت طباعه تتبدل ويتحول إلى شخص متجهم، أسير كآباته. وقد اعتادت الأسرة على صمته الطويل وعينيه الخاويتين من أي فضول، وعلى ذقنه سيئة الحلاقة، فما عادوا يرهقونه باظهار تعاطفهم واهتمامهم الذي كان يرفضه. هيلدا وحدها هي التي كانت تصر على ايماءات التودد وعلى سؤاله في كل لحظة أين تمضي أفكارك يا بني.

اخيراً استطاع فرانثيسكو مقاطعة منولوج ابيه، وروى لأفراد الأسرة مشهد لوس ريسكوس، وكيف طوحت ايفانخيلينا بالضابط كما لو كان منفضة ريش. وأعربت هيلدا عن رأيها بالقول انه للقيام بعمل كهذا لا بد ان تكون محمية من الرب أو الشيطان، لكن البر وفسور ليال أكد على أن الفتاة ليست إلا نتاجاً غير طبيعي لهذا المجتمع القلق. فالفقر، ومفهوم الخطيئة، والرغبة الجنسية المقموعة والعزلة هي سبب دائها. ضحكت ايرين، مقتنعة من أن الوحيدة التي اصابت في تشخيصها للداء هي ماميتا انكارناثيون وأن الحل العلمي هو في البحث عن رفيق يتزوجها واطلاقهما معاً في الجبل ليفعلا كما الأرانب البرية. ووافق خوسيه على ذلك. وحين سأل الأطفال بشيء من التفصيل عما تفعله الأرانب البرية، شدت هيلدا انتباههم إلى الفاكهة: بواكير مشمش الداماسكو، مؤكدة أنه لا وجود لبلد على الأرض ينتج ثماراً بمثل هذه اللذة. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للإعراب عن المشاعر القومية التي يتساهل بها آل ليال، لكن البر وفسور لم يفوت الفرصة لاظهار ذلك:

ـ على البشرية أن تعيش في عالم موحد، تختلط فيه أجناس ولغات وعادات وأحلام جميع البشر.

فسألت ايرين التي فقدت تماماً اتجاه الحديث:

ـ وما علاقة هذا بالمشمش؟

ضحك الجميع، فآل ليال القادرون على تحويل أي موضوع إلى منشور سياسي، لم يفقدوا لحسن الحظ القدرة على السخرية من انفسهم. بعد الحلوى، شربوا قهوة فاخرة ذات رائحة شذية أحضرتها ايرين معها. وعند الانتهاء من العشاء ذكرت الشابة فرانثيسكو بالخنزير الذي سيُذبح في بيت آل رانكيليو في اليوم التالي. ثم ودعتهم مخلفة وراءها أثراً من خفة الظل التي لفتهم جميعاً، باستثناء خابيير الصامت، والذي لم يكد يشعر بوجودها لشدة استغراقه في يأسه وفي عقده.

ـ تزوج منها يا فرانثيسكو.

ـ لديها خطيب يا أماه.

فردت هيلدا، وهي عاجزة عن اصدار حكم محايد في أمر يتعلق بابنها:

ـ أنت أفضل منه بكثير دون شك.



عندما تعرف فرانثيسكو على الكابتن غوستافو مورانتي، كان قد أحب ايرين حباً جعله لايكاد يداري استياءه منه. في تلك الفترة لم يكن هو ذاته ليعترف بان هذه العاطفة التي تفتنه هي الحب، وحين كان يفكر بها كان يفعل ذلك بمصطلحات الصداقة المحضة. منذ لقائه الأول مع مورانتي كره كل منهما الآخر بمجاملة، أحدهما فعل ذلك بدافع الاحتقار الذي يشعر به المثقف تجاه العسكريين، وفعله الآخر للشعور ذاته معكوساً. حياه الضابط بانحناءة خفيفة دون ان يمد يده اليه، ولاحظ فرانثيسكو نبرة الغطرسة التي باعدت بينهما منذ البداية، والتي كانت تتحول رغم ذلك إلى عذوبة حين يتوجه بالحديث إلى خطيبته. لم تكن توجد امرأة اخرى بالنسبة للكابتن. لقد اختارها منذ زمن مبكر لتكون شريكة حياته، وكان يعبدها ويحبها بكل جوارحه. ولم تكن الغراميات العابرة ولا مغامرات اليوم الواحد تستحق الذكر لديه، فهي أمور لا بد منها خلال فترات فراقهما الطويلة التي تفرضها ظروف مهنته. ولم تكن أية علاقة أخرى لتترك أثراً في روحه أو ذكرى في جسده. كان يحب ايرين منذ الأزل، مذ كانا طفلين يلعبان في بيت الجدين موقظين معاً أول قلق البلوغ. وكان فرانثيسكو ليال يرتعش عند تفكيره بمداعبات ابناء العمومة هذه.

كان من عادة مورانتي الاشارة إلى النساء على انهن سيدات، مؤشراً بذلك إلى الفرق بين هذه الكائنات الاثيرية وبين عالم الذكر الخشن. وكان يستخدم في سلوكه الاجتماعي آداباً احتفالية إلى حد التحذلق، مناقضاً بذلك شكل تعامله الخشن والحميمي مع رفاقه في السلاح. وكان مظهره كبطل في السباحة جذاباً. والمرة الوحيدة التي صمتت فيها الآلات الكاتبة في الطابق

الخامس من مبنى المجلة، كانت يوم ظهوره في صالة المحررين بحثاً عن ايرين. كان برونزياً، شامخاً، وبارز العضلات، كأنه تجسيد لجوهر المحارب. رفعت الصحفيات والمخرجات وعارضات الأزياء المتأنفات عيونهن عن أعمالهن، وكذلك فعل المخنثون، ووقف الجميع مشدوهين وهم يتأملونه، تقدم دون أن يبتسم، ومعه مشى عظماء الجنود في كل الأزمنة: الاسكندر، ويوليوس قيصر، ونابليون، وجيوش الأفلام السينمائية الحربية. وتوتر الجو في تنهيدة عميقة ودسمة وحارة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها فرانثيسكو، فأحس رغماً عنه بالانبهار لصورته المتسلطة. لكن حالة من الكآبة هيمنت عليه فور ذلك، عزاها إلى نفوره من العسكريين، لأنه لم يكن ليقبل الاعتراف بانها مجرد غيرة عادية. لقد كان يواري تلك الأحاسيس في الأحوال الطبيعية، لأنه يخجل من المشاعر التافهة، لكنه لم يستطع مقاومة الاغراء بزرع القلق في روح ايرين، فكان يعرب لها، وبكثرة، في الشهور التالية عن رأيه في الحالة الكارثية التي تعيشها البلاد منذ ان هجرت القوات المسلحة ثكناتها لتغتصب السلطة. فكانت صديقته تبرر الانقلاب بالذرائع التي لقنها إياها خطيبها؛ لكن فرانثيسكو كان يفند تلك الحجج مبيناً ان الدكتاتورية لم تحل أية مشكلة، وانما هي فاقمت فقط من المشاكل القائمة وخلقت مشاكل اخرى جديدة، لكن القمع يحول دون معرفة الحقائق. لقد وضعوا غطاء محكماً فوق الواقع وتركوا حساء فظيعاً يتعفن في القاع، مراكمين بذلك ضغطاً كبيراً لن يجدوا عندما يحين موعد انفجاره ما يكفي من آلة الحرب والجنود للسيطرة عليه. كانت ايرين تستمع ساهية، فمصاعبها مع غوستافو هي مصاعب من نوع آخر. فهي لا تتطابق مع مواصفات الزوجة النموذجية للضابط عالي الرتبة، كما انها واثقة من انها لن تكون كذلك أبداً، حتى ولو قلبت نفسها مثل جورب. وكانت تعتقد انها ما كانت ستحبه، وربما لم تكن ستتاح لها فرصة اللقاء به لو انهما لم يعرفا بعضهما منذ الطفولة، ذلك لأن العسكريين يعيشون في حلقات مغلقة ويفضلون الزواج من بنات قادتهم أو شقيقات رفاقهم اللواتي يتلقين تربيتهن كخطيبات بريئات وزوجات مخلصات، رغم أن الأمور لا تسير

على هذا الحال دوماً. لذلك فهم يقسمون على تحذير رفيقهم إذا ماكانت زوجته تخدعه، ويجبرونه على اتخاذ اجراءات مناسبة قبل أن يبلغوا القيادة العليا ويقوضون مستقبله لكونه ذا قرون. وكانت هي ترى في هذه العادة شيئاً مشيناً. كان غوستافو يؤكد أول الأمر انه يستحيل قياس الرجال والنساء في المقاس ذاته، ليس ضمن أخلاقيات الجيش وحسب، وانما في أخلاقيات أي عائلة محترمة أيضاً، لأن هناك فروقاً بيولوجية لا يمكن انكارها وتراثاً تاريخياً ودينياً لا يمكن لأية حركة تحرر نسائية ان تمحوه. وكان يقول ان اغفال ذلك قد يؤدي إلى إلحاق اضرار بالمجتمع. لكن غوستافو كان يفاخر بانه ليس مغتراً برجولته، كما هم معظم أصدقائه. إلا أن معايشته لها وقضاءه سنة في القطب الجنوبي لتركيز أفكاره وصقل ما في تكوينه من نتوءات أوصله إلى ادراك ظلم هذه النظرة الاخلاقية المزدوجة، فعرض على ايرين المبادرة المهذبة بان يكون مخلصاً لها بدوره، حيث ان حرية الحب لكليهما كانت تبدو له بدعة جنونية اخترعتها الشعوب الاسكندنافية. وبقسوته على نفسه كقسوته على الآخرين، وبتصميمه على العهد الذي قطعه، ولأنه مغرم، ومرهق في أغلب الأحيان من التمارين البدنية، وفى بعهده في الظروف العادية. فخلال فترات الفراق الطويلة كان يقاوم ضيق طبعه مستعيناً على ذلك بقوة روحه أسيرة الوعد. وكان يتألم معنوياً حين يستسلم لاغراء مغامرة عابرة، ولم يكن قادراً على العيش في العفة لزمن طويل، لكن قلبه كان على وفائه، كضريبة لخطيبته الأبدية.

كان الجيش بالنسبة لغوستافو مورانتي خياراً طاغياً. دخله مبهوراً بالحياة القاسية، ورغبة في ضمان مستقبل مستقر، وحباً بالقيادة واستمراراً لتقليد عائلي. فأبوه وجده كانا جنرالين. وفي الحادية والعشرين من عمره برز كواحد من أفضل تلاميذ دفعته، وكان بطلاً في المبارزة والسباحة. تخصص في سلاح المدفعية وحقق رغبته في قيادة وحدة عسكرية وتدريب المجندين الجدد. حين تعرف فرانثيسكو ليال عليه، كان عائداً لتوه من آنتاركتيكا، حيث أمضى اثني عشر شهراً وهو معزول تحت سماء متقلبة، يحد بصره أفق قبة سماوية زئبقية، تضيؤها شمس باهتة

طوال ستة شهور متواصلة لا ليل فيها، ثم يليها نصف عام آخر عاشه في ظلام دائم. كان قادراً على الاتصال بايرين بواسطة اللاسلكي مرة في الاسبوع ولمدة ربع ساعة فقط، يستغلها ليطلب منها كشفاً بكل أعمالها؛ وقد أمضته الغيرة والعزلة. لقد اختارته القيادة العليا من بين مرشحين كثيرين لصلابة طبعه ولياقته البدنية، فعاش في هذه الأرض الفسيحة المقفرة مع سبعة رجال اخرين، معانين من عواصف ترفع الماء أمواجاً سوداء عالية كأنها الجبال، مدافعين عن أثمن كنوزهم: الكلاب الاسكيمالية ومستودعات الوقود، في درجة حرارة تصل إلى الثلاثين تحت الصفر، متحركين كآلة لمقاومة البرد القطبي والحنين الذي لا علاج له، كل ذلك من أجل المهمة الوحيدة والمقدسة في ابقاء راية الوطن خفاقة وسط ذلك الموضع المنسي. كان يحاول ألا يفكر بايرين، لكن الارهاق والجليد والأقراص المخففة للشبق التي كان الممرض يقدمها اليه، لم تستطع محو ذكراها الدافئة من قلبه. كان يتسلى باصطياد الفقمات في شهور الصيف لتخزينها في الثلج للشتاء، ويخدع الساعات باجراء تجارب في الارصاد الجوية، فيقوم بقياس ارتفاع المد، وسرعة الريح، وكثافة الغيوم، ودرجة الحرارة والرطوبة، متنبئاً بالعواصف، ومطلقاً بالونات اختبار ليتعرف على نوايا الطبيعة من خلال حسابات مثلثية. مر بلحظات بهجة ولحظات كآبة، لكنه لم يسقط أبداً في مهاوي الفزع واليأس. وقد بدلت هذه العزلة وهذا التواصل مع الأرض الجليدية الهائلة من مزاجه وروحه، وجعلته ميالاً إلى التأمل. فانغمس في المطالعة ودراسة التاريخ، مانحاً تفكيره بذلك بعداً جديداً. وكان حين يثقل الحب عليه، يكتب رسائل إلى ايرين باسلوب صاف مثل المشهد الأبيض الذي يحيط به، لكنه لم يكن يستطيع ارسالها لأن وسيلة النقل الوحيدة هي السفينة التي ستأتي لالتقاطهم بعد انقضاء السنة. وحين رجع أخيراً، كان اكثر نحولاً، تكاد بشرته أن تكون سوداء بفعل انعكاس الثلج، ويداه قاسيتان، ومجنوناً من الشوق. أحضر معه مئتين وتسعين رسالة في مغلفات مغلقة ومرقمة في تسلسل تاريخي دقيق، وضعها فوق ركبتي خطيبته التي وجدها ساهمة ومتقلبة، ومهتمة بعملها الصحفي أكثر من اهتمامها

بتخفيف أشواقها الغرامية، وليس لديها أي ميل إلى قراءة ذلك الكيس من الرسائل المتأخرة. ومع ذلك فقد سافرا لبضعة أيام إلى شاطىء ناء، حيث عاشا عاطفة مندفعة وعوض الكابتن عن الزمن الضائع خلال شهور العفة الاضطرارية. كان هدفه من كل هذا الغياب الطويل هو جمع المال الكافي للزواج منها. فأثناء وجوده في تلك الأصقاع المهجورة كان يكسب ستة أضعاف الراتب العادي لرتبته. لقد كان يرغب في ان يقدم لايرين بيتاً مستقلاً، واثاثاً حديثاً، وادوات منزلية كهربائية، وسيارة وموردأ مضموناً. ولم تكن هناك من جدوى في ابدائها عدم الاكتراث واقتراحها بعقد اتحاد طوعي بينهما بدلاً من الزواج، ليريا ان كانت الأمور التي تجمع بينهما اكبر من الاختلافات. لم تكن لديه نوايا في اجراء اختبارات قد تلحق الضرر بمكانته العسكرية، فالحياة الاسرية المستقرة ستكون عاملاً مهماً عند تقويمه لترفيعه إلى رتبة ميجر. ثم ان العزوبية في القوات المسلحة تصبح مثيرة للريبة بعد سن معينة. في أثناء ذلك، كانت بياتريس الكانترا، غير المكترثة بتردد ابنتها، تعد العدة للزفاف بحماس. فهي تجوب المحلات التجارية لاقتناص أطباق الخزف الانكليزية المزخرفة يدوياً برسوم عصافير، والشراشف الهولندية المطرزة، والملابس الداخلية الحريرية الفرنسية وأشياء اخرى فاخرة لجهاز عرس ابنتها الوحيدة. ومن سيكوي كل هذه الأشياء عندما أتزوج يا أماه؟ بهذا كانت ايرين تتذمر وهي ترى المخرمات البلجيكية والحرائر اليابانية، والأقطان الايرلندية، والاصواف الاسكتلندية وأصناف المنسوجات الاخرى المجلوبة من مناطق نائية.

لقد أمضى غوستافو خدمته كلها في حاميات في الأقاليم، لكنه كان يأتي إلى العاصمة للقاء ايرين كلما سنحت له الفرصة. ولم تكن هي تتصل بفرانثيسكو فى هذه المناسبات حتى ولو كان لديها عمل مستعجل في المجلة. فقد كانت تضيع مع خطيبها في عتمة صالات الرقص، أو يأخذان بيدي بعضهما بعضاً للذهاب الى المسرح أو للنزهة، أو لتبادل الحب في فنادق سرية، حيث يعوضان عن أشواقهما الطويلة. وكان هذا يؤثر على مزاج فرانثيسكو ويجعله متقلباً، فيحبس نفسه في

غرفته ليستمع إلى موسيقاه السيمفونية المفضلة ويتلذذ باحزانه . وفي أحد الأيام ، ودون أن يتمكن من منع نفسه عن الكلام ، اقترف حماقة سؤ ال الفتاة الشابة عن حدود علاقتها مع عريس المنية . فضحكت بكل حيويتها ، وردت عليه نازعة منه نعمة الشك : لا تحسبني ما أزال عذراء بعد هذه السن . بعد ذلك بقليل ، أوفد غوستافو مورانتي إلى بنما لقضاء عدة شهور في مدرسة للضباط . وكان اتصاله بايرين يقتصر على رسائل عاطفية ملتهبة ومكالمات هاتفية وهدايا يبعثها في الطائرات العسكرية . ان شبح هذا العاشق العنيد كان السبب في ان فرانثيسكو نام مع ايرين كأخ . وبقي يضرب جبهته بكفه كلما تذكر تلك الليلة ، مذهولاً لتصرفه ذاك .

ففي احدى المناسبات بقيا في مكاتب المجلة لانجاز تحقيق صحفي . كانت المادة الأولية جاهزة لديهما ويعملان على اعدادها للنشر في اليوم التالي . وطارت الساعات دون أن ينتبها إلى أن بقية الموظفين قد انصرفوا وأن الأضواء قد أطفئت في جميع المكاتب . خرجا لشراء زجاجة نبيذ وشيء يأكلانه . وبما انهما كانا يحبان العمل وهما يستمعان إلى الموسيقى ، فقد وضعا موسيقى كونشيرتو في آلة التسجيل ، وبين أنغام النايات والكمانات مر الوقت دون ان يفطنا إلى النظر في الساعة . أنهيا العمل في وقت متأخر جداً ، وعندئذ فقط وصل اليهما من خلال النافذة صمت الليل وظلمته . لم تكن هناك ادنى علامة من علائم الحياة ، وكانت المدينة تبدو كأنها مقفرة ومهجورة بسبب كارثة محت كل أثر بشري منها ، كما في قصص الخيال العلمي . حتى الهواء كان يبدو كئيباً وجامداً . حظر التجول ، همسا في ايقاع متطابق وهما يشعران بانهما وقعا في المصيدة ، لأن التجول في الشوارع كان مستحيلاً في مثل هذا الوقت . حمد فرانثيسكو حسن طالعه الذي أتاح له البقاء معها مزيداً من الوقت . وفكرت ايرين بقلق أمها وروسا فهرعت الى الهاتف لتوضح لهما الوضع . وبعد أن شربا بقية النبيذ ، واستمعا مرتين إلى الكونشيرتو وتحدثا في ألف موضوع ، نال منهما الارهاق ، فاقترحت ان يستريحا على الأريكة .

كان حمام الطابق الخامس في مبنى المجلة عبارة عن غرفة فسيحة ، فهي

تستخـدم كمكـان تستبدل فيه عارضات الأزياء ملابسهن ، وكصالة مكياج لوجود مرآة كبـيرة فيهـا مضـاءة بشكل جيد، بل انها كانت تستخدم كبوفيه وذلك بفضل الموقد الصغير الذي يغلون عليه الماء . لقد كان الحمام هو المكان الخاص والحميمي الوحيد في المجلة . وفي أحد أركانه كانت توجد اركية منسية منذ أزمنة بعيدة . انها قطعـة اثـاث ضخمـة ، مغطـاة ببر وكـار أحمـر، مليء بشقـوق تبر زمنهـا النوابض الصدئة التي لا تناسب وقارها المنتمي إلى أواخر القرن الماضي . كانوا يستخدمون تلك الأريكـة في حالات الصـداع ، ولبكاء آلام الحب وأحزان صغيرة اخرى، أو بكـل بسـاطـة للراحـة إذا ما ازدادت وتـيرة العمـل . وعليهـا أوشكت احـدى السكـرتـيرات أن تنـزف دمهـا بسبب حالة اجهاض مفاجئة، وهناك باح مساعدا ماريو بعواطفهما لبعضهما، وهناك بالذات فاجأهما هذا الأخير وقد خلعا سرواليهما وهما فوق السجادة الاسقفية حائلة اللون . على هذه الأريكة اضطجع فرانثيسكو وايـرين مدثـرين بمعطفيهـما. لقـد أغفت هي على الفور، أما هو فبقي مستيقظاً حتى الصباح ، معذباً بانفعالات متناقضة . لم يكن يود المغامرة في علاقة ستزعزع دون شك ركائز حياته مع امرأة تجد نفسها في الجانب الآخر من السور. كان يشعر بميـل جامـح نحوها، ففي حضورها تتهيج جميع حواسه وتمتلىء روحه بالسعادة .
ان ايرين تسعده وتفتنه ، فوراء مظهرها المتقلب وغير الواعي ، بل والساذج ، كان يوجـد جوهـر لا تشـوبـه شائبـة ، مثـل فاكهـة تنتظـر موسم نضجها . فكر كذلك بغـوستـافو مورانتي وبدوره في قدر ايرين . وخشي أن تصده الشابة ولم يشأ المجازفة بصداقتها . فالكلمات التي تقال لا يمكن محوها بعد النطق بها . وعندما كان يتذكر فيما بعد مشاعره في تلك الليلة التي لا تُنسى ، وصل إلى نتيجة مؤداها انه لم يتجرأ على الافصـاح عن حبـه لأن ايـرين لم تكن تشاركه قلقه . لقد نامت بهدوء بين ذراعيه ولم يدر في خلدها انها قد أثرت في فرانثيسكو تأثيراً عميقاً . كانت تعيش صداقتها بنـداوة ، دون أي بادرة تشـير إلى ميـول غرامية ، وفضل هو ألا يُكرِهها وان ينتظر إلى أن يملأهـا الحب شيئـاً فشيئـاً ، مثلما حدث له . كان يحس بها منكمشـة على الأريكـة ، تتنفس بهدوء في نومهـا ، وشعـرهـا الطـويـل يغطي وجهها وكتفيها مثل

زخرفة قائمة، بقي جامداً يراقب حتى الهواء الذي يستنشقه كي يخفي عنها هيجانه النابض الرهيب. كان يأسف من جهة لأنه ارتضى بعهد الأخوة المضمر الذي يكبل يديه منذ شهور، ويود الانقضاض بيأس لغزو جسدها، ولكنه يعترف من جهة اخرى بضرورة الوصول إلى عاطفة قادرة على اقصائه عن الرغبات التي تتحكم بهذه المرحلة من حياته. بقي إلى جوارها، متشنجاً بالتوتر والقلق، لكنه مستعد في الوقت ذاته لاطالة هذه اللحظة إلى الأبد، حتى سمع أول جلبة الشارع ورأى ضوء الفجر من النافذة. استيقظت ايرين مبهوتة ولم تتذكر لأول وهلة أين هي، لكنها مالبثت ان نهضت ومسحت وجهها بالماء البارد وخرجت مسرعة إلى بيتها، تاركة فرانثيسكو منسياً في يتمه. منذ ذلك اليوم روت لكل من يود السماع انهما ناما معاً، وهذا ـ حسب رأي فرانثيسكو ـ لم يكن صحيحاً للأسف بالمعنى المجازي للتعبير.



انشق فجر يوم الأحد عن سماء مفعمة بالضوء وعن هواء حار وثقيل، فبدا وكأنه يوم متقدم من الصيف. في ذلك اليوم، أدركت ايرين ان اساليب العنف لم تحرز تطوراً يذكر، فلقتل خنزير ما زال يستخدم الاسلوب ذاته الذي كان شائعاً منذ الأزمنة البربرية. لقد اعتبرت ايرين الأمر احتفالاً طريفاً، لأنها لم تكن قد رأت من قبل عملية ذبح دجاجة، وبالكاد كانت تعرف الخنازير في حالتها الطبيعية. ذهبت وهي مستعدة لاجراء تحقيق صحفي للمجلة، وكانت متحمسة لمشروعها، حتى انها لم تذكر ايفانخيلينا ونوباتها الصاخبة، وبدت كأنها قد نسيتها. أحس فرانثيسكو لدى مروره في المكان انه يجتاز موقعاً غير معروف، فقد انفلت الربيع خلال هذا الاسبوع من عقاله، مرسخاً خضرة الحقول، ومزهراً أشجار الأرومو، تلك الأشجار الأخاذة التي تبدو من بعيد وكأنها مكسوة بالنحل، ويبعث الاقتراب منها على الدوار بسبب الشذى المستحيل الذي يفوح من عناقيدها الصفراء، وكانت الأشواك ونباتات العليق قد تحولت إلى مسكر

للعصافير فيها الهواء يتذبذب مع طنين الحشرات. حين وصلا الى بيت آل رانكيليو كان العمـل قد بدأ لتـوه، وكان أصحاب البيت والمدعوون يتحركون بنشاط حول موقـد في الفنـاء، والأطفـال يركضون صارخين ومرحين وسط الدخان الذي يلوح بشـرتهم، أمـا الكلاب فكانت تترصد بصبر وسعادة إلى جوار القدور، موقنة انها ستنال فضلات الحفلة: استقبل آل رانكيليو الضيفين باحترام، لكن ايرين لمحت في الحـال نفحـة حزن في وجـوههم. فوراء المظهر الحميم المرحب، أحست بوجود الأسى، انما لم يتح لها الوقت للتقصي عن السبب أو لمناقشة الأمر مع فرانثيسكو، لأنهم جاؤوا بالخنزير في هذه اللحظة وهم يجرونه جراً. كان حيواناً ضخماً رُبي من أجـل استهـلاك الاسرة، بينما بيعت جميع الخنازير الاخرى في السوق. فقد انتقاه خبـير بعـد أيـام من ولادتـه، مدخـلاً يده في حلقـه ليتأكـد من خلوه من البثـور، وليضمن جودة لحمـه. وغُـذي طوال شهـور بالحبـوب والخضـار، خلافاً للخنازير الأخـرى التي تغـذى بالفضـلات. وعُـزل عن رفـاقـه، وبقي حبيساً لا يسمح له بالحـركـة في انتظـار مصيـره، بينـما شحمه يتكاثر وقوائمه الطرية تنمو. لقد مشى الحيـوان في هذا اليـوم لأول مرة مجتـازاً المئتي متر التي تفصـل حظـيرتـه عن مذبح تضحيتـه، متـمايـلاً فوق قوائمـه القصـيرة التي لا خلاص لها، وقـد بهره الضوء، وأصمـه الـذعـر. حين رأته ايرين لم تستطع ان تتصور كيف سيحملون الموت إلى كتلة اللحم الضخمة تلك التي يزيد وزنها عن وزن ثلاثة رجال أقوياء.

كانوا قد وضعوا قريباً من النار بضعة ألواح خشبية فوق براميل ليصنعوا منها طاولـة. وعنـد وصـول الضحيـة، اقـترب منه هيبوليتو رانكيليوا رافعاً فأساً ووجه ضربة قوية بمؤخرة الاداة إلى جبهته. سقط الخنزير على الأرض مترنحاً، لكنه لم يغب عن الـوعي تمامـاً، لأن قبـاعـه الحـاد كان يعلو ليتلاشى صداه في الجبال، حاملاً الرعشة إلى شفاه الكلاب التي كانت تلهث متحرقة، قيده عدد من الرجال ورفعـوه بمشقـة فوق الطـاولـة. عندئذ بدأ عمل الخبير، وهو رجل يحمل معه منذ ولادتـه موهبـة القـدرة على القتـل، هذه القـدرة الغـريبـة التي لا تكـاد تظهر بين النسـاء. كان الخبـير قادراً على اصـابـة القلب بضـربة واحدة حتى وهو مغمض

العينين، لأن ما يقوده ليس المعرفة التشريحية، وانما غريزة الجلاد. لقد جاء من مكان بعيد لاداء مهمة قتل الحيوان، ودعي خصيصاً لذلك، لأنه إذا لم تتم عملية القتل بمهارة، فقد تحطم صرخات احتضار الحيوان أعصاب جميع سكان المنطقة. تناول الرجل مدية هائلة ذات مقبض عظمي ونصل فولاذي حاد، أمسكها بكلتا يديه مثل كاهن ازتيكي وغرسها في الرقبة، مولجاً إياها دون تردد إلى مركز الحياة. جأر الخنزير بيأس وانبجست من الجرح دفقة من الدم الحار ملطخة من كانوا قريبين، ومشكلة بقعة على الأرض سارعت الكلاب إلى لعقها. قربت ديغنا سطلاً لجمع الدم فيه، فامتلأ في الحال، وطفت في الهواء رائحة حلوة هي مزيج من الدم والذعر.

في هذه اللحظة انتبه فرانثيسكو إلى ان ايرين ليست إلى جانبه، وحين بحث عنها بعينيه وجدها خامدة على الأرض. رآها الآخرون كذلك، وانطلقت جوقة من القهقهات احتفاء بالاغماء الذي أصابها. انحنى فرانثيسكو فوقها وهزها ليجبرها على فتح عينيها. وحين تمكنت من الكلام، قالت بمشقة: اريد الذهاب من هنا. لكن صديقها أصر على البقاء حتى النهاية. فقد حضرا من أجل هذا. نصحها بان تتعلم التحكم بأعصابها أو أن تستبدل مهنتها، فحالة فقدان التماسك هذه قد تتحول إلى عادة دائمة، وذكرها بالبيت المسكون بالأرواح حيث كان صرير الباب كافياً لجعلها تنهار ممتقعة بين ذراعيه. وكان ما يزال يسخر من ايرين حين خمدت انفاس الحيوان، وعندما تأكدت من أنه قد مات تماماً، تمكنت من النهوض على قدميها.

لكن العملية تواصلت. صبوا ماء يغلي على جثة الحيوان وكشطوا الوبر بأداة حديدية، حتى صار جلده يلمع، وبدا وردياً ونظيفاً مثل بشرة طفل حديث الولادة. بعد ذلك شقوا بطنه وشرعوا في سحب أحشائه وتقطيع شحمه أمام عيون الأطفال المأخوذين والكلاب الملطخة بالدم. غسلت النسوة أمتاراً وأمتاراً من الأمعاء في الساقية، ثم حشونها ليصنعن منها السجق. ومن المرق الذي وضعت لتغلي فيه، ملأوا فنجاناً لتنشيط ايرين، ترددت الشابة أمام حساء مصاصي الدماء

ذاك، الــذي كانت تطفـو في خثـارات قاتمـة. لكنهـا شربتـه كيـلا تسبب استيـاء مضيفيهـا، فوجـدتـه لذيـذاً وذا خصـائص علاجيـة مضمـونة، لأنها ما لبثت ان استعادت بعد بضع دقائق انتعاشها وتورد وجنتيها. أمضيا بقية النهار وهما يلتقطان الصـور، ويأكـلان ويشـربـان النبيـذ من دمجانة كبيرة، فيما كان المضيفون يذيبون الـدهن في علب صفيحيـة. كان الشحم يطفـوا مترنحـاً في المـرق، فيخـرجـونـه بمصـاف كبـيرة ويقـدمـونـه مع الخبـز. طبخـوا كذلـك الكبـد والقلب وقدموهما لضيـوفهم. وعنـد الأصيـل كان النعـاس يغـالب الجميع: الرجال بفعل الخمر، والنسـاء بسبب التعب، والأطفـال بسبب النعـاس والكـلاب لأنهـا اتخمت للمرة الأولى في حيـاتهـا. عنـدئـذ تذكـر فرانثيسكـو وايرين انهما لم يريا ايفانخيلينا طوال اليوم. فسأل ديغنا رانكيليوا:

- أين ايفانخيلينا؟

فأطرقت ولم تجب. فألحت ايرين حين أدركت أن شيئاً قد حدث، وسألت:

- وابنك، الشرطي، ما اسمه.

فردت الأم والفنجان يرتعش في يدها:

- براديليو دل كارمن رانيكليو.

أمسكتهـا ايـرين من ذراعهـا وقادتها برقة إلى ركن منعزل في الفنا، ء كانت العتمة قد اكتنفته في تلك الساعة. أراد فرانثيسكو اللحاق بهما، لكنها أوقفته بايماءة من يدها، واثقة من انها حين تنفرد بديغنا ستتاح لها فرصة الوصول إلى حالة من التآلف الانثوي. جلستا وجهاً لوجه على كرسيين من القش. وعلى ضوء الشفق الخافت رأت ديغنا رانكيليو الوجه الشاحب الذي تلتهمه عينان غريبتان مرسومتان بقلم أسـود، والشعـر المشعث بفعـل الهـواء، وتلك الملابس المستخرجة من أزمنة اخرى والخرز الصاخب في المعصمين. وعلمت انه رغم الهوة الظاهرية التي تفصل بينهـما، يمكنهـا أن تروي لها الحقيقـة، لأنهـما من حيث الجوهر شقيقتان، كما هن جميع النساء في نهاية المطاف.

ليلة الأحد الماضي، وفيما كان جميع من في البيت نائمين، رجع الملازم خوان دي ديوس راميريث ومعاونه، ذاك الذي أتلف أفلام فرانثيسكو.

وأوضحت ديغنا لايرين.

ـ معاونه هو الرقيب ماوستينوريفيرا، ابن اشبيني مانويل ريفيرا، ذي الشفة المشرومة.

بقي ريفيرا عند الباب مسيطراً على الكلاب، فيما دخل الملازم الى حجرة النوم وهو يركل الاثاث ويطلق التهديدات والسلاح في يده. أوقف أفراد الأسرة، الذين لم يصحوا تماماً بعد، إلى الجدار، وسحب ايفانخيلينا إلى سيارة الجيب. كان آخر ما رآه أبواها منها هو بريق قميص نومها الأبيض يهتز في الظلام، حين اجبرها العسكريان على الصعود إلى السيارة. وسمعا صرخاتها لهنيهة وهي تناديهما. انتظرا حتى الفجر قلقين، وما أن سمعا صياح الديكة حتى ركبا إلى الثكنة. استقبلهما هناك العريف المناوب بعد ان انتظرا طويلاً، وأخبرهما ان ابنتهما قد أمضت الليل في زنزانة، ولكن تم الافراج عنها منذ الصباح الباكر. وسألا عن براديليو، فقيل لهما انه قد نُقل إلى منطقة اخرى.

قالت الأم:

ـ منذ ذلك الحين ونحن لانعرف شيئاً عن البنيَّة وليست لدينا أية أخبار عن براديليو.

بحثا عن ايفانخيلينا في القرية، وطافا على بيوت فلاحي المنطقة بيتاً بيتاً، وأوقفا السيارات العابرة على الطريق العام ليسألا سائقها ان كانوا قد رأوها، واستجوبا الراعي البروتستانتي، والكاهن الكاثوليكي، والمداوي، والقابلة وكل من وجداه في طريقهما، ولكن أحداً لم يقدم لهما بارقة من الأمل. مضيا في كل اتجاه، من النهر وحتى قمة الجبال دون أن يعثرا لها على أثر، لقد ذرت الريح اسمها في شقوق الصخر والدروب، وبعد خمسة أيام من البحث غير المجدي أدركا أن العنف قد ابتلعها، فارتدت ديغنا ملابس الحداد وذهبت إلى بيت آل فلوريس لتروي لهم عن الفاجعة الجديدة. ذهبت خجلة لأن ايفانخيلينا لم تعرف

في بيتهـا إلا التعـاسـة ، ولأنـه كان من الخـير لها أن تعيش في بيت أمهـا الحقيقية .
وردت عليها السيدة فلوريس :

ـ لا تقـولي مثـل هذا الكـلام يا اشبينتي . ألا ترين أن الـرزايـا لا تخطىء أحـداً؟ تذكـري اني فقدت زوجي وأولادي الأربعة منذ سنوات ، لقد أخذوهم ، انتزعوهم مني ، مثلما فعلوا بايفانخيلينا . انه قدرها يا اشبينتي . ليس الذنب ذنبك وانما ذنبي أنا ، لأني أحمل النحس في دمي .

استمعت ايفـانخيلينـا فلوريس المتـوردة والمعافاة ، ذات الخمسة عشر عاماً إلى المـرأتـين وهي واقفـة وراء كرسي أمها بالتبني . كانت لها ملامح ديغنا رانكيليو المتينة والسمراء ، ويداها الممتلئتان وإليتاها الكبيرتان ، لكنها لم تكن تحس انها ابنة هذه المـرأة ، لأن ذراعي الأخـرى هما اللذان احتضنـاهـا في طفـولتهـا وثدييها هما اللذان أرضعاها . ومع ذلك ، ولسبب ما ، شعرت بان المفقودة هي أكثر من أخت بالنسبـة اليهـا ، بل شعـرت بأنهـا هي ذاتهـا المستبـدلـة ، وانها حياتها التي عاشتها الأخرى ، وأحست أن موتها سيكون هو موت ايفانخيلينا رانكيليو . وربما في لحظة الصفاء هذه ، اختارت ايفانخيلينا فلوريس المهمة التي ستحملها فيما بعد لتجوب العالم مطالبة بالعدالة .

أفضت ديغنـا بكـل هذا لتتقـاسمـه مع ايـرين ، وحين انتهت من الحديث كانت آخـر شرارات المـوقـد تنطفىء وكـان الليـل يهيمن على الأفق . انـه موعـد الـرحيـل . وعدتها ايرين بيلتران بان تبحث عن ابنتها في العاصمة وأعطتها عنوان بيتها ، لتتصل بها إذا ما حصلت على أخبار جديدة . وتعانقتا مودعتين بعضهما .

في هذه الليلة بالذات لاحظ فرانثيسكو شيئاً مختلفاً في عين الشابة ، ولم يجد الفـرح والـذهـول المعتـادين . لقد أصبحت حدقتا عينيها قاتمتين وحزينتين ، مثل أوراق اليـوكـالبتـوس الجـافـة . فأدرك حينئذ أنها قد بدأت تفقد براءتها وانه لم يعد هناك ما يحول دون اطلاعها على الحقيقة .

★ ★ ★

جاب الصديقان الاماكن المعهودة يسألان عن ايفانخلينا رانكيليو، يدفعهما الاصـــرار اكثر من الأمـل. لم يكـونـا الـوحيـدين في هذه المسـاعي. ففي مراكـز الاعتقـال، وفي مواقـع الشـرطـة، وفي الجنـاح المحظور من مشفى الطب النفسي الــذي لا يرسلون إليــه سوى من أوصلهم التعـذيب إلى حالـة لا شفـاء منهـا، يدخلونهم هنـاك بقمصـان المجـاذيب ويضعـونهم تحت اشراف أطباء من الفروع الأمنية، كان يرافق ايرين بيلتران وفرانثيسكو ليال كثير ون ممن يعرفون خيراً منهما درب الجلجلة ويقـودونهـما فيـه. وهنـاك، كما في كل مكـان يتفاقهم فيه الألم، كان التضامن الانساني حاضراً مثل بلسم يساعد على تجاوز التعاسة.

سألت ايرين امرأة تقف معها في الصف:

ـ وعمن تبحثين أنت يا سيدتي؟

ـ لا أحــد يا بنيتي. أمضيت ثلاث سنـوات في اقتفـاء آثـار زوجي، لكنني أعرف الآن انه يرقد بسلام.

ـ لماذا تأتين إذن؟

فردت وهي تشير إلى امرأة اخرى:

ـ لأساعد احدى صديقاتي.

لقد تعارفتا منذ سنوات وجابتا معاً جميع الأماكن المحتملة تطرقان الأبواب، وتتوسلان الموظفين، وترشوان الجنود. احداهما كانت محظوظة وعلمت على الأقل ان زوجها لم يعد بحاجة لها. لكن الأخرى واصلت طوافها. كيف اتركها وحيدة؟ ثم انهـا اعتـادت على الانتظـار والمـذلـة، هكذا قالت، فكل حياتها صارت تدور حول مواعيـد الـزيـارة والأنظمـة، وأصبحت تعـرف أسـاليب الاتصال بالمعتقلين والحصول على معلومات عنهم.

ـ ايفـانخيلينـا رانكيليـو سانتشيث، خمسة عشر عاماً، اعتقلت للاستجواب في لوس ريسكوس ثم اختفى اثرها.

ـ لا حاجة بكم لمزيد من البحث عنها، فلا بد أن أيديهم قد تجاوزت الحد معها.

ـ اذهبوا إلى وزارة الدفاع، فهناك توجد قوائم جديدة.
ـ ارجعوا الأسبوع القادم في مثل هذا الوقت.
ـ من الخامسة يجري استبدال الحرس، اسألوا عن انطونيو، انه شخص طيب وقد يساعدكم.
ـ من الأفضل أن تبدأوا البحث في مستودع الجثث، وبهذا لا تضيعون وقتكم دون جدوى.

كانت لدى خوسيه ليال خبرة في هذه الأمور، فقد استنفد جزءاً كبيراً من طاقته في مثل هذه النشاطات. استخدم اتصالاته ككاهن لتمكينهما من الدخول حيث لم يكن بامكانهما الدخول بمفردهما. رافقهما إلى مستودع الجثث، وهو عبارة عن بناء رمادي عتيق يبدو كأنه مهجور ونذير شؤم، بنَاء ملائم تماماً كبيت للموتى. اليه ينتهي مصير المعدمين، والجثث مجهولة الهوية في المستشفيات، وصرعى مشاجرات السكارى أو من يُقتلون دون ذنب ارتكبوه، وضحايا حوادث المرور. وفي السنوات الأخيرة صار ينقل الى هناك رجالاً ونساء مبتوري الأصابع، ومقيدين بأسلاك ومحروقي الوجوه بمواقد لحام أو مشوهين بالضرب، مما يجعل التعرف عليهم مستحيلاً، ويجعل مصيرهم النهائي قبراً بلا اسم في الفناء رقم ٢٩ من المقبرة العامة. كان الدخول إلى هناك يستوجب الحصول على تصريح من القيادة، لكن خوسيه كان يتردد على المكان بكثرة حتى صار الموظفون يعرفونه. فعمله في مقر النائب الرسولي هو التقصي عن آثار المفقودين. فبينما كان المحامون المتطوعون يحاولون دون نجاح التوصل إلى وسيلة قانونية لحماية المخطوفين في حال وجودهم على قيد الحياة، كان خوسيه وكهنة آخرون ينجزون الاجراء البير وقراطي الفظيع بالتنقل بين الموتى حاملين صورهم في أيديهم للتعرف على شخصياتهم، ونادراً ما كان الكهنة يتمكنون من اخراج أحدهم وبه رمق من الحياة، لكنهم كانوا يثقون من ان المعونة الإلهية ستمكنهم من تسليمه إلى ذويه جثة هامدة ليدفنوه.

رجا فرانثيسكو ايرين أن تبقى خارجاً، بعد ان نبهه أخوه إلى ما سيريانه في

مستودع الجثث، لكنه وجد فيها اصراراً جديداً، ولدته رغبتها في معرفة الحقيقة، دفعها إلى اجتياز عتبة الباب. كان فرانثيسكو رجلاً صلباً أمام الرعب وذلك لممارسته العملية في المشافي والمصحات العقلية، ولكنه أحس بالاضطراب لدى خروجه من هذا المكان، وبقي كذلك لزمن طويل؛ وهكذا عرف أيضاً ما شعرت به صديقته. لم تكن حجرات التبريد كافية لكل تلك الأجساد، وحيث ان الطاولات ما كانت تتسع لها جميعاً، فقد راكموها في مستودعات كانت مخصصة فيما مضى لاستخدامات اخرى. كانت رائحة الجو مشبعة بالفورمول والرطوبة، وكانت الصالات الفسيحة القذرة، ذات الجدران الملوثة، غارقة في الظلام. ولم يكن هناك سوى مصابيح قليلة تضيء الممرات والمكاتب العتيقة والمستودعات الواسعة. كان اليأس يخيم على المكان، ويبدو أن من يقضون يوم عملهم هناك كانوا مصابين بعدوى عدم المبالاة، وكانت قدرتهم على الحزن مستنفدة. فكل منهم يؤدي عمله مقلباً الموت كما لو كان بضاعة تافهة، متعايشاً معه بشكل وثيق يجعله ينسى الحياة. رأيا هناك موظفين يمضغون طعامهم فوق طاولات التشريح، وآخرين يستمعون إلى برامج رياضية من المذياع غير مكترثين بالجثث المنتفخة، أو يلعبون الورق في مستودعات القبو حيث تحفظ جثث ذلك اليوم.

فتشا الحجرات واحدة واحدة، متوقفين بشكل خاص عند جثث النساء، وكن عاريات وقليلات العدد. أحس فرانثيسكو بفمه يمتلىء باللعاب، وبيد ايرين ترتعش في يده، بينما كانت الشابة الشاحبة تنسل صامتة ومتجمدة، وجاحظة العينين، كأنها في كابوس بلا نهاية. كانت منفعلة لدرجة انها لم تشعر بأنها تطفو في ضباب منتن. لم تستطع فهم هذه الرؤيا الجهنمية، بل ولم يستطع خيالها الملجوم ادراك أبعاد ذلك الرعب.

لم يكن فرانثيسكو من النوع الذي يتراجع في مواجهة العنف، فهو يشكل حلقة من تلك السلسلة البشرية الطويلة التي تتحرك في السرية وتعرف ما وراء كواليس الدكتاتورية. ولم يكن هناك من يرتاب بنشاطه في تهريب المطلوبين، والرسائل، والمال الذي يأتي من مصادر غامضة، وقوائم الأسماء، والمعلومات

والأدلـة المتجمعـة لارسـالها إلى الخـارج كي تكون جاهزة إذا ما قرر أحدهم يوماً كتـابـة القصـة. لكن القمـع لم يكن قد مسـه حتى ذلـك الحين، كان يتمكن من الإفـلات منـزلقـاً وسـط الخطـر، وعلى شفـير الهـاويـة دومـاً. مرة واحدة فقط، وبـالمصـادفـة، قذفـوا القفـاز في وجهه وجزوا شعر رأسه. فلدى عودته من عيادته، في الفـترة التي كان ما يزال يمارس فيهـا مهنتـه كطبيب نفسي، التقى بدوريـة توقف المارين. ظن أول الأمر أنها عملية تفتيش روتينية، فأخرج لهم وثائقه، لكن يدين كالمخالب انزلتاه عن الدراجة النارية وانغرست فوهة بندقية في صدره.

ـ انزل يا مخنث!

لم يكن وحيـداً في ذلـك الموقف العصيب. كان هناك صبيان في سن تلاميذ المـدارس يجثـوان على الأرض، وأجـبر وه على الـركـوع إلى جانبهـما. سدد اليه جنـديـان سلاحهما وأمسك ثالث بشعره الطويل وراح يجزه. على الرغم من مرور سنوات على ذلك الحادث إلا انه غير قادر على تذكره دون ان يصاب بتشنج من العجز والمذلة، مع انه أدرك مع مرور الوقت انه حادث لا أهمية له على الإطلاق بالمقارنة مع وقائع اخرى. حاول يومها التحدث إلى الجنود بعقلانية، لكنه لم ينل لقاء ذلك سوى ضربة بعقب بندقية على ظهره وعدة جراح في جلدة رأسه. رجع في تلك الليلة إلى بيته وهو يتميز غضباً، ويعاني حالة من الذل لم يشعر بمثلها من قبل.

بكت أمه:

ـ لقد حذرتك من انهم يقصون الشعور الطويلة يا بني.

ـ عليـك منـذ هذه اللحظـة يا فرانثيسكو أن تترك شعرك يطول من جديد، لأنه لا بد من المعارضة بكل الأساليب الممكنة. ـ هكذا تمتم والده بغضب، ناسياً رفضـه للشعـر الطـويـل لدى الـرجـال. وفعـل فرانثيسكـو ذلـك، واثقاً من انهم سيعودون إلى جز شعره، لكن أمراً معاكساً ترك ذوي الشعور الطويلة بسلام.

كانت ايـرين بيلتران تعيش حتى ذلـك الحـين محمية بجهل ملائكي، ولم يكن الأمـر نتيجـة تهاون أو بلاهـة، وانـما لأن معايير وسطها كانت كذلك. فأمها

وآخـرون كثيرون من طبقتهـا الاجتـماعيـة، يلوذون بعـالم الحي الـراقي المنتظم والهـادىء، وبمنتجعـات الاستجـمام الخـاصـة، ومـلاعب التـزلـج، والاصياف الـريفيـة. وقـد ربـوهـا على جهـل البـديهيات غير المواتية وانكارها، أوتفسيرها كظواهر خاطئة. لقد رأت في احدى المرات سيارة تتوقف فجأة وتخرج منها مجموعة رجال يقدفون بأنفسهم على أحد المارة ويدخلونه إلى السيارة بالقوة؛ وشمت من بعيـد دخـان حرائق الكتب المحظـورة، ولمحت أشيـاء لها شكل الأجساد البشرية تطفو في مياه القناة العكرة. وكانت تسمع في بعض الليالي صوت مرور الدوريات العسكـريـة وازيـز طائرات الهليوكبتر في السماء. وقد انحنت يوماً لتسعف شخصاً سقط مغمى عليه من الجوع في الشارع. كانت رياح العنف تدوّم من حولها دون ان تصـل إلى لفهـا وملامستها وهي محمية بالسور العالي الذي ربوها وراءه، لكن حسـاسيتهـا رغم ذلـك كانت مهيَّأة، وحـين قررت الـدخول الى مستودع الجثث كانت تخطوخطوة ستؤثر على وجودها كله. لم تكن قد رأت في حياتها من قبل ميتاً عن قرب حتى هذا اليـوم الـذي رأت فيـه من الموتى ما يكفي لملء أسوأ أحلامها. توقفت أمـام قبـوفسيـح مبرد لتتأمـل جثة شابة ذات شعر أشقر معلقة بخطاف مع اخرين. كانت تشبه ايفانخيلينا رانكيليومن بعيد، ولكنها لم تستطع التعرف اليها لدى الاقـتراب منهـا. ورأت وهي ترتعـد آثـاراً عميقـة على جسدها، وحروقاً في وجهها، كما رأت ان يديها مبتورتان.

ـ ليست ايفـانخيلينـا، لا تنظري اليها. ـ رجا فرانثيسكو صديقته وأبعدها وهو يحتضنها، وقادها إلى الباب وقد أصابه من الوجوم مثل ما أصابها.



رغم ان الجولة في مستودع الجثث لم تدم سوى نصف ساعة، إلا أن ايرين بيلتران لم تعـد هي نفسهـا بعـد الخـروج من هنـاك، إذ انكسـر شيء في روحها. أحس فرانثيسكو بذلك قبل ان يسمع كلمة واحدة منها، فبحث بجزع عن طريقة

لتقديم السلوى اليها. دعاها للركوب على الدراجة النارية وتوجه بأقصى سرعة نحو الجبل.

كثيراً ما كانا يذهبان معاً لتناول وجبة خفيفة في هذا المكان. فالغداء الخلوي في الجبل وضع حداً لجدلها عند دفع الحساب في المطعم وصارا يستمتعان بالهواء الطلق في هذا المنتزه الجميل. كانت الشابة تخشى ان تفقد الكلبة سلامة غريزتها وتصاب بالبله لطول معاشرتها المسنين وتسكعها في ممرات مأوى العجزة، ولهذا كانت ترى انه لا بأس في حملها إلى هناك لتركض على هواها قليلاً. قامت الكلبة المسكينة بالرحلة في الممرات الأولى وهي ترتعد، مستكينة على الدراجة النارية بين الاثنين وقد تهدلت اذناها وملأ الفزع عينيها. ولكنها مع مرور الوقت صارت تحب تلك الرحلات وأصبحت جلبة أي دراجة نارية تبعث فيها فرحاً جنونياً. لم تكن كلبة من سلالة نبيلة، فهي ملطخة بعدة ألوان، ورثتها من طيش اسلافها البناديق واختلاطهم، لكنها كانت مرتبطة بسيدتها بولاء وقور. كانوا ثلاثتهم يبدون فوق الدراجة النارية وكأنهم مشهد مسل من مشاهد الكرنفال: ايرين بفساتينها الفضفاضة وشالاتها وكشاكشها وشعرها الطويل المفلت للريح، والكلبة في الوسط، وفرانثيسكو الذي يحافظ على توازن سلة الطعام وهو يقود الدراجة.

كان الدخول سهلاً إلى تلك الحديقة الطبيعية الهائلة، المغروسة في وسط المدينة، لكن اناساً قليلين كانوا يرتادونها، وكان هناك كثير ون لا علم لهم بوجودها. كان فرانثيسكو يشعر انه سيد المكان، فيستخدمه كلما رغب في تصوير المناظر الطبيعية: تلال بديعة متعطشة للصيف، وأقنية ذهبية، وأشجار بلوط برية تعشش فيها السناجب في الخريف، وصمت أغصان جرداء مطبق في الشتاء. وأما في الربيع، فتستيقظ الحديقة نابضة ومشعة بألف لون من الخضرة المتنوعة، وبعناقيد من الحشرات بين الزهور، وبكل جداولها الحصوية، وجذورها المتشوقة ونسغها الذي يروي أوردة الطبيعة الخفيفة. كانا يجتازان جسراً فوق الساقية ويبدأان الصعود في طريق متعرج تحيط به جنائن مزروعة بأصناف غريبة. وكلما

أوغلا في الصعود تشابكت الأشجار اكثر وامحت الدور وبدأت تظهر أشجار الحور الناعمة وهي تمتلىء بأول أوراق السنة، وأشجار الصنوبر دائمة الخضرة، واليوكالبتوس النحيلة السامقة، وأشجار الزان الحمراء. كان حر الظهيرة يبخر ندى الصباح فيغمر الأرض ضباب خفيف يحجب المشهد. وعند القمة ينتابهما احساس بانهما الوحيدان اللذان يسكنان هذا المكان المسحور. كانا يعرفان أركاناً خفية هناك، ويتقنان اختيار الأماكن يتأملان منها المدينة الرابضة تحت أقدامهما. وفي بعض الأحيان، عندما تشتد كثافة الضباب في الأسفل، وتضيع قاعدة الجبل في زبد ثابت، يستطيعان ان يتخيلا انهما في جزيرة محاطة بالطحين. أما في الأيام المشرقة فانهما يتأملان شريط حركة المرور الفضي المتصل، وتصلهما ضجته مثل دوي سيل بعيد. وفي بعض الأماكن كانت الأوراق وارفة وشديدة التشابك، وكان الشذى النباتي كثيفاً إلى حد اصابتهما بنوع من النشوة المشوشة. كلاهما كان يخفي أمر هذه الهروبات إلى الجبل كسر ثمين. وكانا يمتنعان عن الحديث عنها دون أي اتفاق مسبق بينهما ليحتفظا بحميميتها.

لدى خروجهما من مستودع الجثث، فكر فرانثيسكو ان خضرة الغابة الكثيفة، ورطوبة الأرض وشذى الذُبال هي وحدها القادرة على بعث العزاء في نفس رفيقته وجعلها تنسى اولئك الموتى. قادها إلى القمة وبحث عن ركن منعزل وظليل. جلسا تحت صفصافة، قريباً من الساقية التي تنحدر متواثبة بين الحجارة. كانت فروع الشجرة الصغيرة تسقط حولهما مكونة خصاً من الأغصان. بقيا صامتين وهما يستندان إلى الجذع ذي العقد، دون أن يلمس أحدهما الآخر، لكنهما كانا قريبين في انفعالاتهما حتى ليبدوان وكأنهما يسكنان بطناً واحداً. كانا مشبعين بالفاجعة، وكان كل منهما غارق في أفكاره، يشعر بالسلوى في قرب الآخر منه. وأعادهما مرور الساعات، ونسيم الجنوب، وخرير الماء، وزقزقة العصافير الصفراء وشذى الأرض إلى الاحساس بالواقع شيئاً فشيئاً. وأخيراً قالت ايرين:

ـ علينا أن نرجع إلى المجلة.

ـ يجب أن نرجع.

لكنهما لم يتحركا. التقطت هي بعض الأعشاب ورفعتها إلى فمها، ومضغتها لتمتص رحيقها، ثم التفتت لتنظر إلى صديقها، فغاص هو في حدقتيها الضبابيتين. وبلا تفكير، جذبها فرانثيسكو اليه وبحث عن فمها. كانت قبلة عفيفة، فاترة، وقصيرة، ولكن كان لها رغم ذلك أثر هزة أرضية على حواسهما. أحس كل منهما ببشرة الآخر التي لم يعرفها من قبل بهذه الدقة وعن هذا القرب، وبضغط ايديهما وحميمية ملسمها المشتاق منذ بدء العصور. اعتراهما دفء نابض في العظام، في الشرايين، في الروح؛ شيء ما كانا يعرفانه أو انهما نسياه تماماً، لأن ذاكرة اللحم هشة. اختفى كل شيء من حولهما ولم يعيا سوى وجود شفاههما الملتحمة وهي تأخذ وتعطي. الحقيقة أنها لم تكد تكون قبلة، كانت ايحاء تواصل منتظر ومرغوب، ولكنهما كانا واثقين من أن هذه القبلة هي الوحيدة التي يستطيعان أن يتذكراها حتى آخر أيامهما، وانها الوحيدة التي ستترك، بين جميع المداعبات، أثراً لا يمحى في أشواقهما. أدركا انهما سيتذكران بدقة، ولسنوات طويلة، تلك الملامسة الرطبة والدسمة بين شفاههما، ورائحة العشب الطازج وأحاسيس القلق في روحيهما. لقد دامت تلك القبلة ما تدومه تنهيدة. وحين فتح فرانثيسكو عينيه، كانت الشابة تقف مطلة على الهاوية وذراعاها متقاطعان على صدرها. كلاهما كان يتنفس تنفساً هائجاً ومتقداً، وكلاهما كان غارقاً في مكانه وزمانه الخاصين. لم يتحرك فرانثيسكو من مكانه، متأثراً بعاطفة جديدة ومطلقة نحو هذه المرأة التي ارتبطت بمصيره إلى الأبد. بدا له انه سمع نحيباً خافتاً وأدرك الصراع الدائر في قلب ايرين: حب، اخلاص، شكوك. تردد بين رغبته في احتضانها وخشيته من ممارسة الضغط على نواياها. وانقضت لحظات من الصمت وهما على هذا الحال. ثم التفتت ايرين، واقتربت ببطء لتجثو إلى جانبه. أحاط خصرها وشم عطر بلوزتها وايحاءات جسدها العميقة.

ـ لقد انتظرني غوستافو طوال حياته. وسأتزوج منه.

فهمس فرانثيسكو:

ـ لا أعتقد.

خفت حدة توترهما شيئاً فشيئاً، وأمسكت هي برأس صديقها القاتم بين يديها وتأملته. ابتسما متخففين، سعيدين، مرتعشين، وواثقين من انهما لن يحاولا الاقدام على مغامرة عابرة لأنهما خُلقا ليتقاسما الحياة كلها وليعرفا معاً جسارة تبادل الحب إلى الأبد.

كان المساء يذوي وخضرة الحديقة تتحول إلى القتامة. انها ساعة الرجوع. نزلا كهبة ريح فوق الدراجة النارية. ان رؤيا الجثث الضبابية لن تمحى من روحيهما أبداً، لكنهما في هذه اللحظة كانا يشعران بالسعادة.

لم يفارقهما أوار هذه القبلة لأيام عديدة، وملأ لياليهما بأشباح رقيقة، مخلفاً على بشرة كل منهما ذكرى الآخر مثل حرق. ان بهجة ذلك اللقاء كانت تحملهما خفيفين في الشارع، وتدفعهما إلى الضحك دون سبب ظاهر، وتوقظهما من أحلامهما فجأة، فيلمس أحدهما شفتيه بأطراف أصابعه ويتذكر شكل فم الآخر بدقة. كانت ايرين تفكر بغوستافو وبالحقائق الجديدة التي اطلعت عليها مؤخراً. وكانت تشك انه يشارك في ممارسة السلطة مثل أي ضابط آخر في القوات المسلحة، وان له حياته السرية التي لا يشاطرها إياها على الاطلاق. صارت ترى كائنين مختلفين في ذلك الجسد الرياضي الذي تعرفه حق المعرفة. فأحست لأول مرة في حياتها بالخوف منه وتمنت ألا يعود أبداً.



شنق خابيير نفسه يوم الخميس. كان قد خرج مساء ذلك اليوم للبحث عن عمل كعادته كل يوم، ولم يرجع. أحست زوجته بمثول الفجيعة في وقت مبكر، أحست بها قبل أن يساورها القلق بوقت طويل. وحين خيم الليل، وقفت تنتظره عند عتبة الباب وعيناها على الشارع. حينئذ صار هاجس المأساة لديها لا يطاق، فتناولت الهاتف واتصلت بحميها وبكل من تعرفهم من الأصدقاء، لكنها لم تحصل على أي خبر عن زوجها. وفيما هي تترصد الظلال خلال زمن بدا لها لا نهائياً، وتستحضره إلى ذاكرتها، داهمها حظر التجول، ومضت أشد الساعات ظلمة

حتى رأت بزوغ فجر يوم الجمعة. لم يكن الأطفال قد استيقظوا بعد عندما توقفت سيارة دورية للشرطة أمام باب البيت. كانوا قد وجدوا خابيير ليال معلقاً على شجرة في حديقة الأطفال. لم يكن قد تحدث عن الانتحار مطلقاً، ولم يودع أحداً، كما أنه لم يترك ملاحظة اخيرة، ومع ذلك فقد عرفت دون أي شك انه قد انتحر، وفهمت اخيراً معنى عقد الحبل التي كان يربطها ويحلها دون توقف.

تولى فرانثيسكو أمر الجثة ومسؤولية اجراءات جنازة أخيه. وفيما هو ينجز اجراءات الموت البير وقراطية المتعبة كان يحمل في ذاكرته صورة خابيير كما ظهر لعينيه فوق طاولة المركز الطبي، مستكيناً تحت الأنوار الجيلدية المنبعثة من المصابيح الفلورية. كان يحاول البحث عن أسباب هذه النهاية القاسية والاعتياد على فكرة ان رفيق حياته، والصديق اللا مشروط والحامي لم يعد موجوداً في هذا العالم. تذكر تعاليم ابيه: العمل هو مصدر الفخر والاعتزاز. ما كانوا يعرفون البطالة حتى خلال العطلة، فأيام الأعياد كانت تُستغل بعمل مفيد في بيت آل ليال. لقد مرت الأسرة بأوقات عصيبة، لكنهم لم يفكروا أبداً بقبول الصدقات، حتى ولو جاءت ممن أسلفوا هم بتقديم المساعدة لهم. وعندما رأى خابيير ان السبل أمامه مسدودة، ولم يبق له سوى القبول بمساعدة أبويه وأخويه، فضل المضي بصمت.

رجع فرانثيسكو في ذكرياته إلى زمن بعيد، حين كان اخوه الكبير فتى عادلاً مثل أبيه وعاطفياً مثل أمه. لقد ترعرع أبناء ليال الثلاثة متكاتفين ومتضامنين، ثلاثة في مواجهة العالم، ثلاثة في عصبة واحدة، مرهوبون في باحة المدرسة لأن كلاً منهم كان محمياً من الاثنين الآخرين، وأية اساءة لهم يدفع المسيء ثمنها في الحال. كان خوسيه، أوسطهم، هو الأقوى والأشد، لكن خابيير كان اكثر اثارة للخوف بسبب جسارته ومهارته في توجيه اللكمات. لقد أمضى مراهقة مضطربة إلى أن أحب أول امرأة شدت انتباهه، فتزوج منها وأخلص لها حتى ليلته الأخيرة. وقد شرّف كنيته[1]: فكان مخلصاً لزوجته، ولاسرته ولاصدقائه. كان يحب عمله كبيولوجي

١ ـ كنية هي ليال leal ، والكلمة تعني: مخلص، وفيّ. وهذا يوضح الصورة المجازية للتعبير.

١ ـ نيرفانا: الراحة الأبدية عند البوذيين.

ويفكر بالتفرغ للتعليم، لكن الظروف قادته إلى العمل في مخبر تجاري، حيث وصل خلال سنوات قليلة إلى أعلى المراتب، لأن احساسه بالمسؤولية كان يواكب مخيلة خصبة مكنته من تجاوز أجرأ المشاريع العلمية. لكن هذه الخصائص لم تفده في شيء حين أعد المجلس العسكري قوائم المحظورين من العمل. فنشاطه في النقابة كان بمثابة وصمة في نظر السلطات الجديدة. لقد راقبوه أول الأمر، ثم عادوه، وفي النهاية طردوه. وحين صار دون عمل، وفقد الأمل في الحصول على عمل جديد، بدأ تآكله وانحداره. كان يهيم على وجهه شاحباً وهزيلاً في ليالي الأرق ونهارات المذلة. لقد طرق أبواباً كثيرة، وانتظر طويلاً في قاعات الانتظار، وهرع إلى اعلانات الجرائد ولكنه وجد نفسه مثقلاً باليأس في نهاية الطريق. وفي بطالته راح يفقد هويته شيئاً فشيئاً. كان مستعداً للقبول بأي عرض للعمل، حتى ولو كان الأجر زهيداً لأن حاجته للإحساس بأنه ذو فائدة كانت ملحة. فالبطالة جعلت منه كائناً هامشياً، مجهولاً، ينكره الجميع لأنه غير منتج، وذاك هو مقياس القيمة الانسانية في المجتمع الذي كان عليه أن يعيش فيه. لقد تخلى خلال الشهور الأخيرة عن أحلامه، ونسي أهدافه واعتبر نفسه منبوذاً. لم يكن أولاده يفهمون سبب تعكر مزاجه وكآبته الدائمة، فهم يبحثون كذلك عن عمل في غسل السيارات، أو حمل الأكياس في السوق أو القيام بأي عمل لتخفيف العبء عن الميزانية العائلية. ويوم وضع ابنه الأصغر على الطاولة قطعاً نقدية كسبها من مرافقته كلاب الأثرياء للنزهة في الحديقة، انكمش خابيير كحيوان مضروب، ولم يعد ينظر إلى عيني أحد منذ ذلك الحين وغرق في الخيبة. فقد الرغبة في اللبس، وكثيراً ما صار يقضي يومه مستلقياً في السرير، وأصبحت يداه ترتعشان لأنه بدأ بتعاطي الشراب خفية، شاعراً بالذنب لأنه ينفق بذلك نقوداً كان البيت في أمس الحاجة اليها. وكان يجهد كل سبت للحضور إلى بيت والديه نظيفاً ومرتباً كي لا يحمّل أسرته مزيداً من الكآبة، لكنه كان عاجزاً عن محو ذلك التعبير الحزين من نظرته. وقد ساءت علاقته بزوجته، لأن الحب في مثل هذه الظروف يصاب بالانهاك. كان بحاجة للمواساة، لكنه كان يترصد في الوقت ذاته أي تعبير عن

الـرثـاء لحالـه كي يرد عليه بغضب. لم تكن زوجته تصدق أول الأمر أنه لا يجد أي عمـل شاغـر، ولكن فيـما بعـد، حين علمت بأمـر آلاف العـاطلين عن العمـل، أطبقت فمـها وضاعفت ساعات عملها. فأنهك ارهاق هذه الشهور شبابها وجمالها اللذين كانت تكتنـزهما باعتبـارهما ثروتيهـا الـوحيدتين. فلم يعد يتاح لها للأسف وقت للحفـاظ على ذلـك الجـمال، لأنهـا كانت تركض لابعـاد الجوع عن أولادها واليأس عن زوجهـا. ولم تتمكن من الحيلولـة دون ضيـاع خابيير في متاهة العزلة. لقـد لفتـه الـلامبـالاة مثـل دثـار، وألغت احساسه باللحظة الراهنة، وفتتت قواه وجـردتـه من شجـاعتـه. كان يتصـرف كشبح. ولم يعد يحس برجولته مذ رأى بيته ينهـار، وأحس بانطفـاء الحب في عيني زوجتـه. وفي لحظة لم تستطع اسرته رصدها مسبقـاً لشـدة قربهـا، انكسـرت ارادتـه نهائيـاً. انصرف عن الرغبة في الحياة وقرر احتضان موته.

لقـد صدمت المأسـاة آل ليـال مثـل ضربـة فأس. فشـاخت هيلدا فجأة، وكـذلـك البر وفسـور، وسيطر عليهـما الصمت المطبق. حتى العصافير الصاخبة صمتت في الفناء كما يبدو. ورغم ادانة الكنيسة الكاثوليكية الصارمة للمنتحرين، إلا أن خوسيـه أقـام قداسـاً من أجـل راحـة روح أخيه. ووضع البر وفسور قدميه للمـرة الثـانيـة في معبـد. فعـل ذلـك في المـرة الأولى يوم زواجه، وكانت السعادة تغمره. أما حالته في هذه المرة فكانت مختلفة تماماً. بقي واقفاً طوال مراسم قداس الجنازة، يداه متقاطعتـان وشفتـاه مطبقتان في خط نحيل، تُسكره الكآبة. وكانت امرأته تصلي بخشوع، راضية بموت ابنها على أنه اختبار آخر من القدر.

حضـرت ايـرين الجنـاز، وكانت مذهولة لا تفهم سبباً لكل هذه التعاسة. بقيت ساكنـة إلى جانب فرانثيسكـو، يهيمن عليهـا كرب هذه الأسـرة التي أحبتها كأنها اسرتها. كانت تعـرفهم سعداء، متهللين، باسمين، جاهلة انهم يعيشون الألم بسرية ووقار. لقد كان بمقدور البر وفسور ليال، ربما بسبب أصله القشتالي، ان يعـبر عن جميـع الانفعالات باستثناء تلك التي تمزق روحه. وكان من عادته ان يقـول: الـرجـال لا يبكـون إلا بدافـع الحب. أمـا عينـا هيلدا فكـانتا تغرورقان

بالدموع عند أي انفعال: الحنان، الفرح، الحنين. أما الألم فكان يصلّبها كالزجاج. وكانت الدموع قليلة جداً في مأتم ابنها البكر.

دفنوه في قطعة أرض صغيرة، اشتروها في اللحظة الأخيرة. وبدت الطقوس مرتجلة ومشوشة، لأنه لم يخطر ببالهم حتى ذلك اليوم التفكير بمتطلبات الموت. ومثل جميع محبي الحياة، كانوا يشعرون أنهم مخلدون.

- لن نرجع إلى اسبانيا يا امرأة. - قرر البر وفسور ليال، فيما كانت آخر رفوش التراب تنهال على القبر. وقبل للمرة الأولى منذ أربعين سنة بانتمائه إلى هذه الأرض.

عادت أرملة خابيير من المقبرة إلى بيتها، فجمعت أمتعتها القليلة في علبة من الكرتون، وأمسكت بأيدي أولادها وودعت الأسرة. ستذهب إلى الجنوب، إلى المقاطعة التي ولدت فيها، لأن الحياة في ذلك المكان أقل قسوة ويمكنها الاعتماد هناك على مساعدة اخوتها. كما أنها لم تكن راغبة في أن يكبر أولادها في ظل الأب الغائب. ودع آل ليال كنتهم وأحفادهم، ورافقوهم إلى المحطة خامدي العزيمة، ورأوهم يصعدون إلى القطار ويبتعدون دون أن يصدقوا أنهم سيفقدون أولئك الأطفال الذين شاركوا في تربيتهم. لم يكونوا يأبهون بأية ثروة مادية، وكانت ثقتهم في المستقبل موضوعة في الأسرة، ولم يتصوروا يوماً أنهم سيهرمون بعيداً عن ذويهم.

رجع البر وفسور من المحطة إلى البيت، ودون أن يخلع السترة وربطة العنق السوداء، جلس على كرسي تحت شجرة الكرز في الفناء وعيناه تائهتان. كان يحمل بين يديه مسطرة الحسابات القديمة، وهي الشيء الوحيد الذي نجا من كارثة الحرب وأُحضر إلى اميركا. كان يحتفظ بها دوماً على الكوميدينو قريباً منه، وكان يسمح للأطفال باللعب بها عندما يريد مكافأتهم فقط. وقد تعلم أولاده الثلاثة طريقة استخدامها بجعل اجزائها تنزلق لرسم الأرقام، ورفض استبدالها حين تجاوزتها الأجهزة الالكترونية المتطورة. كانت عبارة عن انبوب تلسكوبي من البرونز، نُقشت الأرقام الدقيقة على سطحها، وقد صنعها صناع

القرن الماضي المهرة. بقي البر وفسور ليال جالساً تحت الشجرة لساعات عديدة، يتأمل جدران الطوب التي بناها بنفسه لايواء ابنه خابيير. وفي تلك الليلة قاده فرانثيسكو بما يشبه الإكراه إلى سريره، لكنه لم يستطع اجباره على تناول الطعام. وفي اليوم التالي فعل الشيء نفسه. لكن هيلدا مسحت دموعها في اليوم الثالث وجمعت الصلابة الحاضرة دوماً في أعماقها، واستعدت للنضال مرة اخرى من أجل اسرتها.

قالت:

ـ السيء في أبيك يا فرانثيسكو انه لا يؤمن بالروح. لهذا يشعر بأنه فقد خابيير.

ومن خلال نافذة المطبخ كان بامكانها رؤية البر وفسور على كرسيه وهو يدير مسطرة الحسابات. تنهدت هيلدا، ووضعت الطعام في الثلاجة دون أن تذوقه، وحملت كرسياً آخر إلى الفناء وجلست تحت شجرة الكرز واضعة يديها فوق تنورتها، دون ان تستغلهما بحياكةٍ ولا بخياطة للمرة الأولى منذ زمن لا ترقى اليه الذاكرة. وبقيت ثابتة على تلك الحال لساعات. عند الغروب توسل اليهما فرانثيسكو ليأكلا شيئاً، لكنه لم يحصل منهما على رد. وبصعوبة كبيرة حملهما إلى حجرة نومهما ووضعهما في السرير، حيث بقيا صامتين وأعينهما مفتوحة ومكدرة، كشيخين معتوهين. قبّل وجنتيهما، ثم أطفأ النور متمنياً من أعماق روحه أن يناما نوماً عميقاً يهديء من حزنهما. ولدى استيقاظه في اليوم التالي رآهما يجلسان تحت الشجرة في الوضع الذي كانا عليه في اليوم السابق، صامتين، بثيابهما المجعدة، ودون أن يغتسلا أو يأكلا. وكان عليه أن يستجمع كل معلوماته ليراقب شدة الهزة التي تعرضا لها. فجلس يرصدهما بصبر، متيحاً لهما الوقت ليصلا إلى قرارة أحزانهما.

عند الظهيرة رفع البر وفسور ليال عينيه وتطلع إلى هيلدا وسألها بصوت هشمته أربعة أيام من الصمت:

ـ ما الذي أصابك يا امرأة؟

ـ مثلما أصابك أنت.

وفهم البروفسور الأمر. لقد كان يعرفها حق المعرفة، وعلم انها ستستسلم للموت بنفس القدر الذي يفعله هو، لأنها لن تسمح له بالذهاب وحيداً بعد أن أحبته كل هذه السنين الطويلة.

فقال وهو ينهض بمشقة ويمد يده اليها:

ـ حسن.

دخلا إلى البيت على مهل، مستندين إلى بعضهما. سخّن فرانثيسكو الحساء، وعادت الحياة إلى مسارها.



أخذت ايرين بيلتران، المستبعدة من مأتم آل ليال، سيارة أمها ومضت وحيدة إلى لوس ريسكوس، مصممة على البحث عن ايفانخيلينا بمفردها. لقد وعدت ديغنا بمساعدتها في التقصي ولم تكن تريد ان تترك انطباعاً بالاستخفاف. كانت محطتها الأولى هي بيت آل رانكيليو، حيث قالت لها الأم بصبر من احتملت انكسارات كثيرة:

ـ دعك من البحث عنها يا آنسة. لقد ابتلعتها الأرض.

لكن ايرين كانت مصممة حتى على قلب الأرض إذا اقتضى الأمر، للعثور على الصبية. فيما بعد، وحين كانت تعود بذاكرتها إلى هذه الأيام، كانت تتساءل عما دفعها إلى منطقة الظلال. لقد شعرت منذ البدء أن في يدها طرف خيط، وانها إذا ما شدته فستنفلت لفافة لا نهاية لها من الفواجع. أحست ان هذه القديسة ذات المعجزات المريبة هي الحد بين عالمها العادي وبين منطقة الظلال التي لم تطأها قدماها من قبل. واستنتجت وهي تفكر بذلك، ان ما يدفعها ليس مجرد فضول طبعها ومهنتها فقط، وانما شيء كالدوار. لقد أطلت على بئر لا قرار لها ولم تستطع مقاومة اغراء الهاوية.

استقبلهـا المـلازم خوان دي ديوس رامير يث في مكتبه دون تأخير . وبدا لها أقـل قوة مما كان عليـه حين عرفتـه يوم الأحـد المنهـك ذاك ، في بيت آل رانكيليو، وتبينت أن حجم الـرجـل يعتمـد على الموقف الذي هو فيه . أبدى رامير يث شيئاً من الكيـاسـة نحـوهـا . كان يرتـدي سترة مفتوحة ، ورأسه حاسر، ولم يكن يحمل سلاحــاً ، وكـانت يداه منتفختــين ، حمراوين ، ومليئتــين بالقـروح التي تصيب الفقـراء . من الصعب على شخص رأى ايـرين ألا يتعـرف عليهـا ، فبمجرد رؤ ية شعـرهـا المشعث ومـلابسها الغريبة ولو مرة واحدة ، يمكن لأي كان ان يتذكرها ، ولهذا لم تحاول خداعه وأبدت اهتمامها بايفانخيلينا رانكيليو دون ديباجات .

قال الضابط :

ـ لقـد جرى اعتقـالهـا لاستجـواب روتيني قصـير . قضت تلك الليلة هنـا وذهبت في اليوم التالي باكراً .

مسح رامير يث العرق عن جبهته . كانت حجرة مكتبه حارة .

ـ وهل اخرجتموها إلى الشارع دون ملابس؟

ـ كان مع المواطنة رانكيليو حذاء وعباءة .

ـ لقـد اقتـدتموها من سريرها ليلاً . وهي دون سن الرشد ، فلماذا لم تعيدوها إلى أبويها؟

فرد الملازم عليها بجفاء :

ـ لست مطالباً بمناقشة أساليب الشرطة معك .

ـ هل تفضل أن تفعل ذلك مع خطيبي ، الكابتن في الجيـش غوستافو موارنتي؟

ـ ما الذي تتصورينه؟ أنا لا أقدم كشفاً بأعمالي إلا أمام قائدي المباشر.

لكن رامـير يث تردد ، فكـل ما هو بين جلده وعظـامـه كان متشـربـاً بمبدأ الإخـوة العسكـريـة ؛ وفـوق الخـلافات بين الوحدات العسكرية ، هناك مصلحة الـوطن المقـدسة ومصلحة الزي العسكري الذي لا يقل قدسية ؛ وعليهم في كافة الـوحـدات ان يحمـوا أنفسهم من سرطـان الـريـاء الـذي ينمو ويتكاثر في أحشاء

الشعب بالـذات. لهذا لا بد لهم من الارتيـاب بالمـدنيـين دوماً كاجراء احتياطي، والاخـلاص لرفـاق السـلاح كإجـراء استراتيجي. لا بد للقوات المسلحة من أن تكـون كتلة متـماسكـة، هذا ما قالوه له آلاف المرات. ومما أثر عليه أيضاً رقي طبقة الفتـاة الاجتـماعيـة الظاهر، لأنه كان معتاداً على احترام سيادتي المال والسلطة، والفتاة تملك الاثنتين ما دامت تتجرأ على استجوابه بهذه السهولة، وتعامله كما لو كان خادمها. بحث في سجل المناوبة وأراها إياه. كان مقيداً فيه دخول ايفانخيلينا رانكيليـو سانتشيث إلى الثكنـة، فتـاة في الخـامسـة عشـرة، اعتقلت لدعوتها إلى اجتـماع غير مرخص في بيت اسـرتهـا ولالحـاقهـا الأذى الجسدي بشخص الملازم خوان دي ديـوس رامـير يث. وفي الهـامش ملاحظـة تشـير إلى أنهم قرروا إلغـاء استجوابها بسبب نوبة بكاء أصابتها. ويلي ذلك توقيع العريف المناوب اغناسيو برافو.

قال رامير ييث:

ـ اعتقد أنها ذهبت إلى العاصمة. فهي تريد العمل كمومس، مثل اختها الكبرى.

ـ وهي بلا نقود وشبه عارية أيها الملازم؟ ألا ترى الأمر غريباً بعض الشيء؟

ـ هذه الحشرة كانت نصف مخبولة.

ـ أيمكنني التحدث إلى أخيها براديليو رانكيليو؟

ـ لا. لقد نُقل إلى موقع آخر.

ـ أين؟

ـ معلومات سرية. اننا في حالة حرب داخلية.

أدركت انها لن تحصل على مزيد من المعلومات في هذا المكان، ولأن الوقت كان ما يزال باكـراً، فقـد مضت إلى القـريـة لتقـوم بجـولـة هناك وفي نيتها تبادل الحـديث مع أحـد. كانت تريـد التقصي عن رأي أهل القرية بالعسكريين عموماً وبـالمـلازم رامـير يث بوجـه خاص، لكن النـاس كانـوا يديـرون وجـوههم حين يسمعون تلك الأسئلة ويبتعدون بأسرع ما يمكن دون ان ينطقوا بكلمة واحدة.

لقد فرضت سنوات الحكم الاستبدادي على الناس التزام جانب الحذر كقاعدة للاستمرار في الحياة. وفيما كانت ايرين تنتظر ان ينتهي الميكانيكي من اصلاح اطار السيارة، جلست في استراحة قريبة من الساحة. كان الربيع يتبدى في طيران الزرازير الزفافي، وفي انتفاخ الدجاجات الفخورة برفقة بطانتها من الصيصان، وفي ارتعاش الصبايا في فساتينهن القطنية الرقيقة. دخلت هرة حبلى إلى الاستراحة بوقار وقبعت تحت طاولتها.

لقد أحست ايرين في بعض مراحل حياتها بان قوة الحدس تداهمها أحياناً. وكان يخيل اليها انها تسمع علامات المستقبل وترى ان سلطة الذهن قادرة أحياناً على فرض وقوع بعض الأحداث. وبهذا المنطق فسرت ظهور الرقيب فاوستينو ريفيرا في المكان الذي اختارته لتناول الطعام فيه. وحين روت ذلك لفرانثيسكو فيما بعد، طرح نظرية أبسط: فذلك المكان هو المطعم الوحيد في لوس ريسكوس والرقيب كان يشعر بالظمأ في تلك الساعة دون شك.

رأت ايرين الرقيب وهو يدخل متعرّقاً، ويدنو من الكونتوار ليطلب زجاجة بيرة، فتعرفت في الحال على وجهه الريفي، بوجنتيه العاليتين، وعينيه الزائغتين، وشعره القاسي، وأسنانه الكبيرة المتناسقة. كان يرتدي الزي العسكري ويحمل قبعة الخدمة في يده. تذكرت المعلومات القليلة التي ذكرتها أمامها عنه ديغنا رانكيليو وقررت استخدامها لمصلحتها. فبادرته قائلة:

- أأنت الرقيب ريفيرا؟
- رهن اشارتك.
- ابن مانويل ريفيرا، ذي الشفة المشرومة؟
- هو ذاته، في خدمتك.

اعتباراً من هنا اتخذ الحديث مساره السهل. دعته الشابة إلى تناول الشراب على طاولتها. وما ان استقر إلى جانبها وفي يده زجاجة ثانية من البيرة، حتى جعلت من نفسها غنيمة له. ومع الكأس الثالثة بدا بوضوح أن الحارس لا يتحمل الكحول، فقادت الحديث في السبل التي تهمها. بدأت باستمالته قائلة له

انـه قد ولـد ليحتـل موقعـاً قيادياً، وانه بامكان أي شخص أن يلاحظ ذلك، وانها هي نفسها انتبهت إلى الأمـر في بيت آل رانكيليـو، حين سيطر على الموقف بهيبة القائد وبرودة أعصابه، وانه نشيط وكفء، وليس كالملازم رامير يث.

ـ هل ملازمك هذا متهور دائماً هكذا؟ تصور كيف أخذ باطلاق النار في كل اتجاه! لقد خفت كثيراً. . .

فرد الرقيب:

ـ لم يكن هكذا في السابق. لم يكن رجلاً سيئاً، أؤكد لك.

كان يعرفه كما يعرف كف يده، لأنه يعمل تحت أمرته منذ سنوات. لقد كان رامير يث، لدى قدومه من كلية الضباط، يجمع فضائل العسكري الجيد: فهو مهذب، وصارم، ومخلص، وكان يحفظ الأنظمة واللوائح عن ظهر قلب، ولا يسمح بوقوع الأخطاء. كان يتفحص طلاء أحذية الجنود ولمعانها، ويشد أزرارهم ليتأكد من حسن ثباتها، ويطالب مرؤوسيه بأقصى الجدية أثناء الخدمة. وكان مهووساً بالنظافة، فهو يشرف شخصياً على مراقبة نظافة المراحيض، ويجمع الرجال عراة مرة كل اسبوع ليكشف عن الأمراض التناسلية والقمل. كان يتفحص أعضاءهم السرية بعدسة مكبرة، وكان يفرض على المصابين علاجاً قاسياً واهانات لا حصر لها.

ـ لكنه لم يكن يفعل ذلك بدوافع شريرة يا آنسة، وانما ليعلمنا كيف نصير بشراً. وأظن أن ملازمي كان طيب القلب في ذلك الحين.



تذكر ريفيرا تنفيذ أول اعدام بالرصاص وكأنه يراه أمامه الآن. حدث ذلك منذ خمس سنوات، بعد أيام قليلة من الانقلاب العسكري. كان الجو ما يزال بارداً حينئذ، وكان المطر قد هطل في تلك الليلة دون توقف وكأنه شلال متصل نزل من السماء ليغسل الدنيا، وخلّف الثكنة نظيفة، تعبق برائحة الطحالب

والـرطـوبـة. وعنـد الفجـر توقف المطـر، لكن المشهد بدا مقفراً بتأثير ذكرى ذلك الـوابـل. وبـين الأحجـار كانت تلمـع برك الماء مثل قطع من زجاج. كان فصيل الاعـدام يقف في طرف الفنـاء، يتقـدمه خطوتين الملازم راميريث الذي كان يبدو شديد الشحوب. جاؤوا بالمعتقل وسط حراسه، وكانوا يسندونه من ذراعيه، لأنه لم يكن قادراً على الاستناد على قدميه. لم ينتبه ريفيرا أول الأمر إلى حالة المعتقل المترديـة، وظنـه خائفـاً، كغـيره ممن يمارسـون التمرد لالحاق الضرر بالوطن، ثم يغمى عليهم حين تأتي اللحظة التي سيدفعون فيها ثمن ذنوبهم. لكنه أمعن النظر في الحـال ورأى أن ذلـك المعتقـل هو من سحقوا ساقيه. كان عليهم أن يرفعوه عن الأرض ليحولوا دون تعثر قدميه المترهلتين بالأرض المرصوفة. نظر فاوستينو ريفيرا إلى رئيسـه وأدرك ما يجول في ذهنـه. فقـد كانـا يتبـادلان الحـديث في بعض ليالي المنـاوبـة كنـدين، حديث رجـل لرجـل، متجـاوزين الـرتب للبحث في أسبـاب الانقـلاب العسكري ونتائجه. كانت البلاد فريسة يتقاسمها السياسيون المعادون للوطن، الذين أضعفوا الأمة وحولوا الوطن إلى صيد سهل للعدو الخارجي، هذا ما كان يقـولـه الملازم راميريث، ويضيـف: ان الواجب الأول للجندي هو الحفاظ على الأمن، ولهـذا استـولى العسكريون على السلطة ليعيدوا إلى الوطن منعته، وليكنسـوا في طريقهم أعـداءهم الداخليين. كان ريفيرا يكره التعذيب، ويعتبره أسـوأ ما في هذه الحـرب التي أغـرقـوه فيهـا، ثم أن التعـذيب لا يشكـل جزءاً من مهنته، ولم يعلموه إياه، وهو يجعله يتقيأ أحشاءه. فتوجيه ركلتين إلى جانح عادي كجـزء من التحقيق الـروتيني، أمر مختلف عن تعذيب المعتقل تعذيباً منهجياً، لماذا يصمت هؤلاء التعسـاء؟ لماذا لا يتكلمـون منـذ الاستجـواب الأول ويوفرون كل هذه الآلام التي لا جدوى منها؟ فجميعهم يعترفون في نهاية الأمر، أو أنهم يموتون لأن الاعدام بالرصاص في انتظارهم.

ـ فصيل! انتبـ. . . . !

فهمس اليه فاوستينو ريفيرا، وكان حينئذ برتبة عريف أول:

ـ سيدي الملازم.

ـ ضع المعتقل أمام الجدار أيها العريف!

ـ لكنه لا يستطيع الوقوف يا سيدي الملازم.

ـ فليجلس إذن!

ـ أين سيجلس يا سيدي الملازم؟

فانكسر صوته:

ـ أحضروا كرسياً، اللعنة.

التفت فاوستينو إلى الرجل الواقف إلى يساره، وكرر اصدار الأمر، فمضى الآخر لاحضار الكرسي. لماذا لا يطرحونه على الأرض ويقتلونه مثل كلب قبل أن يتضح الفجر ونرى وجوه بعضنا بعضا؟ لماذا كل هذا التأخير؟ فكر بذلك قلقاً لأن الضوء كان يزداد في الفناء لحظة بعد اخرى. رفع المعتقل بصره وتطلع اليهم واحداً واحداً بعينين يملؤها ذهول الاحتضار، وتوقف عند فاوستينو. لا شك انه يعرفه. لانهما لعبا الكرة معاً في الملعب ذات يوم. كان الآخر يقف في برك الماء المتجمدة حاملاً في يديه بندقية تثقل عليه مثل نير، بينما لا يزال هو ينتظر هنا. في أثناء ذلك وصل الكرسي وأمر الملازم بأن يقيدوه إلى المسند، لأنه كان يترنح مثل فزاعة. دنا العريف منه وفي يده منديل. فقال المعتقل:

ـ لا تعصب عيني يا عسكري.

فخفض الآخر رأسه خجلاً متمنياً أن يصدر الضابط أمره في الحال، وان تنتهي هذه الحرب دفعة واحدة، وان تسوى الأمور ليتمكن من السير في الشارع بسلام ومن تبادل التحية مع المدنيين.

صرخ الملازم:

ـ سدد! سلا . . . !

هاهوذا يصدر الأمر أخيراً، فكر العريف الأول. وأغمض الذي سيموت عينيه لبرهة، لكنه فتحهما من جديد ليرى السماء. لم يعد يشعر بالخوف. كان الملازم مرتبكاً. فمذ علم بمسألة الاعدام وهو يمضي شاحباً، يدق في رأسه صوت قديم آت من طفولته. ربما هو صوت أحد معلميه أو صوت كاهن الاعتراف في

مدرسة الرهبان: جميع البشر أخوة، لكن هذا غير صحيح، فليس أخاً من يزرع العنف، ثم ان الوطن قبل كل شيء. . وما الآخرون سوى أنذال، ان لم نقتلهم قتلونا. هذا ما يقوله الكولونيلات، أما أن تَقتل أو تُقتل، هكذا هي الحرب، ولا بد من الاقدام على هذه الأعمال، فشدّ بنطالك ولا ترتجف. . لا تفكر. . لا تحس. . وقبل كل شيء، لا تنظر إلى وجهه، لأنك ان فعلت ذلك خوزقت نفسك.

ـ نار!

زعزعت زخة الرصاص الهواء، وبقي صداها يتردد في الجو الجليدي. طار عصفور دوريّ مبكر فزعاً. وبدا أن رائحة البارود وصوت الرصاص سيدومان إلى الأبد، لكن الصمت ما لبث أن عم ثانية. وفتح الملازم عينيه: كان المعتقل على الكرسي يتطلع اليه بكبرياء وهدوء، وعلى بنطاله المجعد بقع دم طازج. لكنه كان حياً ووجه صاف في ضوء الفجر. كان حياً وكان ينتظر.

سأل الملازم بصوت خافت:

ـ ما الذي حدث أيها العريف؟

فرد فاوستينو ريفيرا:

ـ لقد أطلقوا النار على ساقيه يا سيدي الملازم. الشباب من أبناء المنطقة، وهم يعرفون بعضهم بعضاً. كيف يمكنهم أن يقتلوا صديقاً؟

ـ والآن؟

ـ الآن جاء دورك يا سيدي الملازم.

فهم الضابط الصامت ذلك، فيما أفراد فصيل الاعدام ينتظرون متأملين الندى الذي كان يتبخّر بين الأحجار. وكان المعتقل بنتظر كذلك في الطرف الآخر من الفناء، وينزف على مهل.

ـ ألم يخبروك بذلك يا سيدي الملازم؟ الجميع يعرفون الأمر: لا، لم يخبروه. ففي مدرسة الضباط أعدوه للقتال ضد البلدان المجاورة أو ضد أي ابن عاهرة

يعتـدي على الـتراب الـوطني. ودربوه كذلك على مقاومة الاشرار ومطارتهم دون رحمـة، وعلى اصطيـادهم دون تردد، ليتيح للرجال المحترمين، وللنساء والأطفال أن يسيروا في الشارع مطمئنين. كانت تلك هي مهمته. لكن أحداً لم يقل له إن عليه ان يحطم رجلاً مقيداً ليجبره على الكلام، لم يعلموه شيئاً من هذا، وهاهوذا العالم ينقلب رأساً على عقب الآن، وعليه ان يذهب ليطلق رصاصة الرحمة على هذا التعيس الذي لا يشكو حتى مجرد شكوى. لم يخبره أحد بذلك من قبل.

ربت العـريف الأول على ذراع المـلازم خفيـة كيـلا يلحـظ أفـراد فصيـل الاعدام تردد قائدهم. وهمس:

ـ المسدس يا سيدي الملازم.

أخـرج السـلاح من قرابـه وسار عبر الفناء. كان صدى وقع جزمته الأصم على الأرض المـرصـوفة يرن في جوف الرجال. تقابل الملازم والمعتقل وجهاً لوجه، وكل منهما ينظر في عيني الآخر. كانا في سن واحدة. رفع الضابط ذراعه مسدداً إلى الصـدغ وأمسـك المسـدس بكلتـا يديـه ليسيطـر على ارتعـاشتـه. وكانت السماء الصـافيـة هي آخـر ما رآه المحكوم حين ثقبت الرصاصة رأسه، فغطى الدم وجهه وصدره ولطخ بدلة الضابط النظيفة.

بقي نشيـج المـلازم في الهواء يموج مع صوت الطلقة، لكن فاوستينو ريفيرا وحده هو الذي سمعه.

ـ تشجـع يا سيـدي المـلازم. يقـولون ان هذا الأمر كالحرب. شاق في المرة الأولى، لكن المرء يعتاد عليه بعد ذلك.

ـ عليك اللعنة أيها العريـف.

وكان العريـف محقاً، فمع مرور الأيام والأسابيع صار القتل في سبيل الوطن بالنسبة اليهما أسهل كثيراً من الموت في سبيله.

انتهى الرقيب فاوستينو ريفيرا من الكلام ومسح العرق عن عنقه. كان في غيبوبة النشوة لا يكاد يميز ملامح ايرين بيلتران، لكنه كان قادراً على الاعجاب بانسجام تقاطيعها. نظر إلى ساعته وانتفض بشكل مفاجىء. لقد مضت ساعتان

وهـو يكلم هذه المـرأة، ولولا انه سيتأخر عن نوبة خدمته، لحدثها في بعض الأمور الاخـرى. فهي تحسن الاستـماع بانتباه وتهتم بحكـايـاتـه، وليست مثـل اولئـك الآنسـات المتجهـمات اللواتي يشمخن بأنوفهن حين يُفرغ الرجل بضعة أكواب ما بين صدره وظهـره. لا ياسيـدي، انها امرأة حقيقية على ما يبدو، واثقة من نفسها وفي رأسهـا أفكـار، رغم انهـا ضئيلة بعض الشيء وليست ذات نهدين كبيـرين وردفين جيدين، وليس فيها أي بروز معقول يمسكها المرء منه حين يجد الجد.

قال وهو ينفض بدلته العسكرية وينهض واقفاً:

ـ لم يكن ملازمي بالرجل السيء يا آنسة. لقد تبدل فيما بعد، حين منحوه صلاحيات واسعة ولم يعد عليه تقديم حساب أمام أحد.

انتظـرت ايـرين إلى أن دار على عقبيه منصرفاً، وأوقفت آلة التسجيل التي تخفيهـا في حقيبتهـا على الكـرسي. ألقت بآخر قطع اللحم إلى القطة وهي تفكر بغوستافو موارنتي متسائلة ان كان خطيبها قد اجتاز فناء في أحد الأيام والسلاح في يده ليطلق رصـاصـة الـرحـمة على أحد المعتقلين. استبعدت هذه الصور بيأس، محاولـة ان تتـذكر وجه غوستافو الحليق وعينيه الزرقاوين، فلم يرد إلى ذهنها سوى وجه فرانثيسكو ليال وهو ينحني إلى جانبها على طاولة العمل، وعينيه السوداوين اللتـين تحمـلان بريق التفهم، وتكشـيرة فمـه الطفـوليـة حين يضحـك ومـلامحه الاخرى، المتوترة والقاسية، حين يصدمه جلاء شر الآخرين.



كان ملجأ «مشيئـة الـرب» مضـاء بأنـوار قويـة، وكـانت ستـائـر الصالات مفتوحة، والموسيقى تطفو في الجو، لأن اليوم هو يوم الزيارة وفيه يأتي أقرباء المسنين واصدقاؤهُم لاداء واجب الشفقة. كان الطابق السفلي يبدو من بعيد وكأنه عابرة محيطـات راسيـة نتيجـة خطأ ما بين الجنائن. كان النزلاء وضيوفهم يتمشون على سطـح تلك السفينـة مستمتعـين ببرودة الليـل أو يسـتريحـون على آرائك الشرفة

كأشباح فقدت رونق ألوانها، وكأرواح من زمن آخر، يتحدثون إلى أنفسهم، بعضهم يمضغ الهواء وآخرون يتذكرون كما يبدو أزمنة بعيدة أو يبحثون في ذاكرتهم عن أسماء جلسائهم وأسماء أبنائهم وأحفادهم الغائبين. ان العودة إلى الحديث عن الماضي في مثل هذه السن هو كالدخول في متاهة، حيث لا يمكن التعرف أحياناً على أي مكان، أو أي شخص، أو أي كائن عزيز وتحديده في ضباب الذاكرة، كانت المشرفات يتجولن بزيهن صامتات ليدثرن أرجلاً ذاوية، ويوزعن أقراص الدواء الليلية، ويقدمن المشروبات الساخنة للنزلاء والمرطبات للآخرين. ومن مكبرات صوت لا مرئية كان تنطلق أنغام راقصة متدفقة لشوبان لا علاقة لها بالايقاع الداخلي البطيء لنزلاء البيت.

قفزت الكلبة متهللة حين رأت فرانثيسكو وايرين يدخلان الحديقة. وقالت ايرين لصديقها وهي تدعوه للصعود إلى السفينة وتقوده إلى حيث مسافرو الماضي:

ـ حذار، لا تدس نبتة اللاتنسيني.

كان شعر الفتاة مسرحاً في غديرة مرفوعة فوق رأسها، كاشفاً بذلك عن انحناءة رقبتها، وكانت ترتدي عباءة طويلة من القطن، وقد غابت من يديها للمرة الأولى اساورها النحاسية والبرونزية الصاخبة. لقد أثار شيء ما فيها استهجان فرانثيسكو، لكنه لم يستطع تحديده. راقبها وهي تمشي بين المسنين، تبتسم للجميع وتجاملهم، وخصوصاً أولئك الذين كانوا مغرمين بها. لقد كان كل منهم يعيش حاضراً مغموراً بالحنين. أشارت ايرين إلى المفلوج الذي لا يستطيع امساك قلم بأصابعه المتيبسة، والذي يملي عليها رسائله عادة. انه يكتب إلى أصدقاء طفولته، والى عشيقات من الزمن القديم، وأقرباء مدفونين منذ عشرات السنين، لكنها لم تكن تبعث هذه الرسائل المحزنة، كي لا يعاني خيبة الأمل حين يعيدها البريد اليه لعدم وجود من يتلقاها. كانت تخترع ردوداً وترسلها إلى الشيخ لتحول دون حسرة معرفته انه وحيد في هذه الدنيا. وقدمت إلى فرانثيسكو كذلك شيخاً مخبولاً لا يزوره أحد مطلقاً. كانت جيوبه مليئة بكنوز دافئة يحتفظ بها

بحرص وغيرة: صور باهتة الألوان لفتيات تحيط بوجوههن ورود، وبطاقات قديمة يظهر فيها نهد لا يكاد يستره شيء، أوساق جسور يبرز من بين شرائط الدانتيلا. واقتربا من كرسي الأرملة المعقدة الأوسع ثراء في المملكة. كانت المرأة ترتدي فستاناً ذاوياً، وشالاً أكله العث وتقادم الزمن، وفردة قفاز واحدة تحتفظ بها من المناولة الأولى. وكانت تتدلى من مقعدها ذي العجلات أكياس بلاستيكية مملوءة بالترهات وعلى ركبتيها صندوق أزرار، تعد ما فيه مراراً وتكراراً لتتأكد من انها لم تفقد أي زر منها. تدخل كولونيل يضع ميداليات من الصفيح ليقول لهما بصوت هامس به أثر من الربو أن قذيفة مدفع هي التي فتتت نصف جسد هذه المرأة البطلة. أتعلم انها قد ملأت كيساً بالنقود الذهبية التي كسبتها بنزاهة من زوجها لكونها مطيعة له؟ تصوري يا آنسة مدى حماقته وهو يدفع ثمن ما يمكنه الحصول عليه مجاناً؛ أنا أنصح مرؤوسيّ بألا يبذروا رواتبهم على العاهرات، لأن النساء يفتحن سيقانهن راضيات عند رؤيتهن بدلة عسكرية، وأقول هذا عن تجربة؛ فالنساء يفضن عن حاجتي. وقبل ان يتمكن فرانثيسكو من الاستيضاح حول تلك الأسرار، اقترب رجل طويل القامة وشديد النحول، تغطي وجهه ملامح مأساوية، ليسألهما عن ابنه، وعن كنته والطفل. أخذته ايرين جانباً وأسرت اليه بشيء، ثم قادته نحو مجموعة صاخبة وبقيت إلى جانبه إلى ان رأته يهدأ. أوضحت الشابة لصديقها انه كان لهذا العجوز ابنان اثنان، نُفي أحدهما إلى الجهة الأخرى من الكوكب ولم يكن يستطيع الاتصال بأبيه إلا من خلال رسائل كانت تصبح اكثر تباعداً وبروداً مرة بعد اخرى، لأن البعاد مثل مرور الزمان، يولد النسيان. أما الابن الآخر فقد اختفى مع زوجته وطفله الذي كان عمره بضعة شهور. لم يحظ العجوز بنعمة فقدان العقل، وصار يهرب إلى الشارع عند أي سهو من المشرفات، تدفعه الرغبة في البحث عنهم. وحاولت ايرين ترسيخ الافتراضات الفظيعة مؤكدة له ان لديها معلومات تفيد انه لم يبق أي منهم على قيد الحياة. لكنه رغم ذلك لم يفقد الأمل في العثور على الطفل يوماً، لأن همساً كان يدور عن أطفال أنقذتهم عمليات المتاجرة بالأيتام. فبعض من أشيع عن

موتهم كانوا يظهرون فجأة في بلدان نائية وقد تبنتهم عائلات من عروق اخرى، أو عُثر عليهم في مؤسسات خيرية بعد عدة سنوات وقد نسوا انه كان لهم آباء.
وتمكنت ايرين بفضل اكاذيب الشفقة ان تمنعه من الهرب كلما وجد الحديقة دون مراقبة، لكنها لم تستطع منعه من انفاق احلامه في عذابات لا شفاء منها وحياته في التقصي عن التفاصيل لرغبته في زيارة قبور ذويه. ثم أشارت لفرانثيسكو إلى عجوزين من رق وعاج يتأرجحان على اريكة من الحديد، ولا يكادان يعرفان اسميهما، ولكن كلاً منهما تمكن من حب الآخر رغم معارضة بياتريس الكانترا الصارمة، والتي كانت تعتبر الأمر استخفافاً بالعادات لا يغتفر. من رأى عجوزين تالفين يتبادلان القبلات خلسة من قبل؟ أما ايرين فكانت تدافع عن حقهما بهذه السعادة الأخيرة وتتمنى لجميع النزلاء حظاً مماثلاً، لأن الحب ينقذهم من الوحدة، أسوأ قيود الشيخوخة، فدعيهم وشأنهم بسلام يا أماه، ولا تنظري إلى الباب الذي تتركه هي مفتوحاً في الليل، ولا تغضبي هكذا حين تجدينهما معاً في الصباح، انهما يمارسان الحب، كيف لا، حتى ولو قال الطبيب ان ممارسة الحب مستحيلة في مثل سنهما.

وأرت صديقها اخيراً سيدة تستمع بالبرودة على الشرفة، انظر اليها بامعان، انها خوسيفينا بيانتشي، الممثلة، هل سمعت بها؟ ولمح فرانثيسكو سيدة نحيلة كانت دون شك آية في الجمال وهي ما تزال كذلك بطريقة ما. كانت ترتدي روب ما بعد الاستيقاظ وتنتعل خفاً ناعماً، إذ انها تنظم شؤونها حسب توقيت باريس، بفارق عدة ساعات وفصلين. وكان على كتفها شال بالٍ من فراء الثعالب، فيه عيون زجاجية مؤثرة وأذيال مهترئة.

قالت ايرين وهي تمسك الكلبة لتمنعها من الافلات:

- في احدى المرات أمسكت «كليو» بالشال، وحين انقذناه منها كان يبدو وكأن قطاراً قد مر فوقه.

كانت الممثلة تحتفظ بصناديق ملابس قديمة من مسرحياتها المفضلة، وبثياب لم تستخدم منذ نصف قرن، كثيراً ما كانت تنفض الغبار عنها لتريها لزملائها

المبهورين في بيت المسنين. لقد كانت تسيطر تماماً على جميع مواهبها، بما في ذلك التغنج. ولم يكن اهتمامها بالدنيا قد تضاءل، فهي تقرأ الصحف وتذهب إلى السينما من حين لآخر. كانت ايرين تميزها عن الآخرين، والمشرفات يعاملنها بطريقة مختلفة، فينادينها بلقب سيدة بدلاً من جدة. ولعزاء أيامها الأخيرة لم تفقد أبداً مخيلتها التي لا تنضب، فكانت تشغل نفسها في أوهامها دون أن يكون لديها الوقت والحماس للاهتمام بصغائر الحياة. لم تكن ذكرياتها مختلطة، فهي تختزنها في ترتيب دقيق وتبتهج في تقليب تلك الذكريات. ومن هذه الناحية كانت أوفر حظاً من بقية المسنين الذين تخونهم الذاكرة وتمحو أحداثاً من ماضيهم وتولد فيهم الخشية من انهم لم يعيشوا تلك الأحداث. لقد عاشت خوسيفينا بيانتشي حياة زاخرة، وكان من حسن طالعها العظيم انها تتذكر تلك الحياة بدقة مُوثّق عقود. ولم تكن تأسف إلا على الفرص التي أضاعتها، وعلى اليد التي لم تمدها، وعلى الدموع التي لم تذرفها، وعلى الأفواه التي لم تستطع تقبيلها. لقد تزوجت عدة مرات، وكان لها عشاق كثير ون، وخاضت مغامرات لم تفكر بنتائجها، وأهدرت وقتها بسعادة، وكانت تقول دوماً أنها ستموت حين تبلغ من العمر مئة سنة. لقد أعدت مستقبلها بشعور عملي، فاختارت بنفسها ملجأ العجزة حين ادركت انها لم تعد قادرة على العيش بمفردها، وأوكلت إلى محام مهمة ادارة مدخراتها ليؤمن لها حياة مريحة حتى آخر أيامها. كانت تشعر بميل شديد نحو ايرين بيلتر ان، لأن شعرها وهي شابة كان له مثل هذا اللون الحاد، وكانت تتسلى بتخيل أن الشابة هي حفيدتها، أو أنها هي ذاتها في مرحلة تألقها، كانت تفتح صناديقها المترعة بالكنوز، وتعرض عليها الشهرة التي أصابتها وتطلعها على رسائل المعجبين الذين فقدوا سلام الروح وهدوء البال من أجلها. لقد عقدتا عهداً سرياً بينهما. إذ رجتها خوسيفينا بيانتشي قائلة: يوم أبدأ بتوسيخ سراويلي الداخلية أو أفقد القدرة على طلي شفتي، فساعديني على الموت يا ابنتي. ووعدتها ايرين بذلك طبعاً.

قالت ايرين وهي تقود فرانثيسكو إلى الطابق الثاني عبر السلم الداخلي:

ـ أمي مسافرة، ولهذا سنتناول العشاء وحدنا.

كان الظلام والصمت يخيمان على الطابق العلوي، لأن أنوار الطابق الأول لا تصل إلى هناك، كما ان الموسيقى التي تبثها مكبرات الصوت في «مشيئة الرب» لم تعد مسموعة. كان الزائرون قد بدأوا بالانصراف، والنزلاء بالعودة إلى غرفهم، وأخذ سكون الليل وظلاله المميزة يعمان البيت. استقبلتهما روسا، البدينة الرائعة، بابتسامتها العريضة في الردهة. كانت تشعر بالضعف أمام هذا الشاب الأسمر الذي يحييها بحماس ويمازحها ويبدو مستعداً للتدحرج على الأرض لمعانقة الكلبة. كانت تشعر انه أقرب إلى نفسها من غوستافو مورانتي واكثر الفة منه، رغم انه ليس بالشخص المناسب لصغيرتها دون شك. فطوال الشهور التي عرفته اثناءها لم تره أبداً إلا بهذا البنطال الرمادي، وهذا الحذاء ذي النعل المطاطي، يا للأسف. وفكرت: من يلبس جيداً أهلاً به. لكنها عدّلت ما فكرت فيه للحال متذكرة المثل المعاكس: المسوح لا تصنع الراهب.

وقبل ان تغوص في المطبخ قالت موصية:

- أشعلي الأنوار يا ايرين.

كانت الصالة مزينة ببساطة: سجادات عجمية، ولوحات معاصرة، وبعض كتب الفن الموزعة في فوضى استراتيجية. وكان الأثاث يبدو مريحاً، وكثرة النباتات تمنح الجو نوعاً من البرودة. استقر فرانثيسكو على الأريكة مفكراً ببيت أبويه، حيث الشيء الفخم الوحيد هو جهاز للموسيقى، فيما كانت ايرين تفتح زجاجة نبيذ وردي.

سألها:

- بماذا سنحتفل؟

فردت صديقته دون ان تبتسم؛

- بأن الحظ حالفنا في البقاء على قيد الحياة.

تأملها بصمت موقناً أن شيئاً قد تبدل فيها. رآها تملأ الكؤوس بيد مرتعشة، وفي وجهها العاري من المكياج لمحة حزن. و لكسب بعض الوقت والتحقق من مشاعره، بحث فرانثيسكو بين الاسطوانات واختار موسيقى تانغو

قديمة، وضع الاسطوانة في الحاكي وجاءهما صوت غارديل الواضح عبر خمسين سنة من التاريخ. استمعا بصمت، وكل منهما يمسك بيد الآخر، إلى أن دخلت روسا لتعلن ان العشاء جاهز في غرفة الطعام.

فقالت له ايرين:

ـ انتظر هنا. لا تتحرك. وخرجت بعد أن أطفأت الأنوار.

رجعت بعد قليل وهي تحمل شمعداناً ذا خمس شموع، بدت كرؤ يا منبثقة من عصر آخر بعباءتها الطويلة البيضاء وبريق الشموع الذي ينعكس خطوطاً معدنية في شعرها. قادت فرانثيسكو باحتفاليةعبر الممرإلى غرفة كانت فيما مضى حجرة نوم واسعة، وتحولت الآن إلى غرفة للطعام. كان الأثاث كبيراً جداً بالنسبة لأبعاد الحجرة، لكن ذوق بياتريس الكانترا الصائب تجاوز هذا العائق بطلاء الجدران باللون الأحمر البومبي في تضاد دراماتيكي مع زجاج المائدة وقماش الكراسي الأبيض. واللوحة الوحيدة في الحجرة كانت تمثل طبيعة صامتة من المدرسة الفلامنكية: بصل، ثوم، بندقية صيد مسندة في أحد الأركان وثلاثة ديوك برية مترهلة ومعلقة من قوائمها.

نصحته ايرين:

ـ لا تتأمل اللوحة كثيراً وإلا جاءتك الكوابيس.

احتفل فرانثيسكو صامتاً بغياب بياتريس وعريس المنية، وسعيداً بوجوده وحيداً مع ايرين.

ـ أخبريني لماذا أنت حزينة الآن يا صديقة.

ـ لأني عشت حياتي حتى اليوم حالمة وأخشى ان استيقظ الآن.



كانت ايرين طفلة مدللة، ابنة وحيدة لأبوين ثريين، محمية من الاحتكاك بالعالم الخارجي، بل ومن هواجس قلبها ذاته. ملاطفات. تدليل، مداعبات،

مدرسـة انكليـزيـة للآنسات، جامعة كاثوليكية، حذر شديد من أخبار الصحافة والتلفـزيـون، فهنـاك كثـير من الشـر والعنف، ومن الخير ابقاؤ ها بعيدة عن هذه الأمـور، ستعـرف الألم فيـما بعد، لا مفر من ذلك، فلنجعلها تعيش طفولة سعيدة اذن، نامي يا طفلتي فأمك ساهرة. كلاب من سلالات ممتازة، حدائق، حصان خاص في النـادي، تزلـج على الثلج في الشتـاء، وشاطىء البحر طوال الصيف، دروس في الـرقص لتتقن التحـرك برقـة بدل مشيتها المتقافزة ووقوعها على الأثاث مثـل بهلوان؛ دعيهـا وشأنهـا يا بيـاتريس، لا تزعجيها، هذا ضروري، علينا ان نبنيهـا سليمـة: صورة شعـاعيـة للعمود الفقري، تنظيف للبشرة، طبيب نفساني لأنهـا حلمت يوم الثـلاثاء بمستنقعات متحركة واستيقظت صارخة. انها خطيئتك يا اوسيبيو، فأنت تفسدها بهدايا الحظية، والعطور الفرنسية، وبلوزات الدنتيلا، والمجوهرات غير الملائمة لطفلة في سنها. المذنبة في جعلها تافهة وضيقة الأفق هي أنت يا بيـاتـرس، فايـرين تلبس الخرق لتعبر عن عدوانيتها نحوك، لقد قال ذلك الطبيب النفسي. وأنـا أقـول: رغم كل العنـايـة في تربيتهـا، انظـر ماذا كانت النتيجـة.. فتـاة غريبـة الأطـوار تسخـر من كل شيء وترفض استخدام الاصبغة لتكرس وقتها للصحافة، هذه المهنة لا تعجبني، انها مهنة خبثاء، لا مستقبل لها، بل انها مهنة خطرة. لا بأس يا امرأة، لكننا تمكنا من جعلها سعيدة على الأقل، فهي تضحـك بسهـولـة وقلبهـا فرح، وبقليـل من الحـظ ستعيش سعيدة إلى أن تتـزوج، وبعـد ذلـك، حين يتـوجب عليها مواجهة الحياة بنفسها، فستقول على الأقـل ان ابـويهـا منحـاها سنوات طويلة من السعادة. ولكنك ذهبت يا اوسيبيو، عليك اللعنة، وهجرتنا قبل ان تكبر تماماً، وها أنذا الآن تائهة، التعاسة تتسرب من جميع مساماتي، تقطر، تغرقني، لم أعد أستطيع ايقافها وأصبحت حماية ايرين من أي أذى أكثـر صعـوبـة، آمـين. اترى عينيها؟ دائماً شاردتين، لهذا تظن روسا أنها لن تعيش طويـلاً، تبـدو وكأنهـا تودع. انظـر اليهـما يا اوسيبيـو، لم تعـودا عينيهـا السابقتين المعهودتين، لقد امتلأتا بالظلال وكأنهما تنظران إلى بئر. أين أنت يا أوسيبيو؟

قدرت ايـرين حجم الكـراهية الكبيرة التي تسود علاقة ابويها قبل شعورهما بذلك. ففي ليالي طفولتها كانت تبقى مستيقظة تستمع إلى مشاحناتهما المتبادلة، نظـرهـا مثبت في سقف غرفتهـا وجـزع لا يوصف في عظـامها. كانت تمتمات أمها البـاكيـة في مناجيات هاتفية طويلة مع صديقاتها تؤرقها، فالصوت يصلها مشوهاً عبر الأبـواب المغلقـة وكـآبـة روحهـا. لم تكن تفهم معنى الكلمات، لكن مخيلتها كانت تمنحهـا المعنى، وكـانت تدرك انهـا تتكلـم عن ابيهـا. لم تكن تنـام إلى أن تسمـع صوت سيـارتـه تدخـل الكـراج ومفتـاحه يدور في الباب، عندئذ يتلاشى كربهـا، وتتنفس الصعـداء، وتغمض اجفـانهـا لتغـرق في النـوم. وعنـدما يدخل اوسيبيـو بيلتران ليقبـل ابنتـه القبلة الأخـيرة لكـل يوم، يجدهـا نائمـة، فينصرف مطمئنـاً لاعتقـاده انهـا سعيـدة. وحـين استطـاعت الطفلة حل الرموز الصغيرة، عرفت انـه سيـذهب بعيـداً ذات يوم، وهـو ما حدث فعلاً في آخر الأمر. لقد كان أبوها رجلاً عابراً في الحياة، كان عابراً على الدوام، فهو يقف متمايلاً من جهة إلى اخـرى غير قادر على السكـون، بصره يضيع في البعيد، وينتقل من موضوع إلى آخر بشكل مفاجىء اثناء الحديث، يسأل ولا يصغي إلى الرد. لكنه أمامها فقط كان يتخـذ مظهـراً ثابتاً. فايرين هي الكائن الوحيد الذي يحبه حقاً، وهي وحدها التي جعلته يبقى لبضع سنوات اخرى. كان إلى جانبها في اللحظات الحاسمة من حيـاتهـا كامرأة، فهو الذي اشترى لها أول مشد للصدر، وأول جوارب النايلون، والأحـذيـة ذات الكعـوب العـاليـة، وحكى لها كيف تتم عمليـة الحَبَل، فكانت مفـاجأة لايـرين، لأنهـا لم تستطع ان تتصور كيف أمكن لشخصين يتبادلان الحقد والكراهية كأبويها ان يفعلا ذلك ليجيئا بها إلى الدنيا.

ومـع مرور الـزمن أدركت ان هذا الـرجـل الذي تعبده قادر على ان يكون مستبـداً وقـاسيـاً، فهـو يهين زوجتـه باستمـرار، مشـيراً لها إلى أثـر أي تجعيدة في وجههـا، وإلى كل كيلوغـرام يزداد في خصرها، أرأيت كيف ينظر اليك السائق يا بيـاتـريس؟ انت منـاسبـة للذوق الـبر وليتـاري يا عزيزتي. وكانت ايرين بينهما، تمارس دور الحكم في مشـادتهـا التي لا تنتهي. لماذا لا تتصـالحـان ونأكـل الحلوى

احتفالاً بذلك؟، كانت تقول لهما متوسلة. وكان قلبها يميل لصالح الأب، لأن علاقتها بأمها كانت تتسم بالمنافسة. فبياتريس تراقب تكونها الأنثوي وتراجع حساباتها عائدة إلى الزمن الذي كانت فيه في مثل سنها. رباه، عساها تتوقف عن النمو!

لقد تفتحت الفتاة باكراً على اندفاعات الحياة. ففي الثانية عشرة كانت تبدو أصغر من سنها، ولكنها كانت قد تعرضت لهزات داخلية وقلق مغامرات. وكثيراً ما كانت تلك الانفعالات العاصفة تعكر أحلامها وتبعث الحمى في أيامها. كانت قارئة نهمة دون تحفظ، رغم عين أمها المتيقظة المراقبة، فهي تضع يدها على أي كتاب تحصل عليه، أما تلك الكتب التي لم تكن تستطيع اظهارها أمام بياتريس، فكانت تقرؤها في منتصف الليل تحت شرشف السرير، مستخدمة للاضاءة مصباحاً يدوياً. وبهذا توصلت إلى معلومات أكثر من تلك التي تصل إليها في العادة فتاة من وسطها، وعوضت بالخيال الرومنسي ما كانت التجربة تحرمها منه.

كان اوسيبيو بيلتران وزوجته مسافرين يوم سقط الوليد من كوة النور. لقد مضت على هذا الحدث سنوات، لكن روسا وايرين لن تنسياه مطلقاً. ذهب السائق يومها لاحضار الطفلة من المدرسة وتركها عند باب الحديقة، فقد كان عليه أن يؤدي مهمات اخرى. كان المطر قد هطل طوال ذلك اليوم، وصار لون سماء الشتاء في تلك الساعة كلون الرصاص المذاب، فيما كانت أنوار الشارع تضاء. فوجئت ايرين حين رأت بيتها غارقاً في الظلام، دون أي ضوء، والصمت يخيم عليه. فتحت الباب بمفتاحها واستغربت لأن روسا ليست في انتظارها كعادتها، وليست تستمع إلى تمثيلية الساعة السادسة من المذياع. وضعت كتبها على طاولة المدخل وتقدمت في الممر دون أن تضيء المصابيح. دفعها هاجس غامض وضبابي للتقدم إلى الأمام. انسلت على رؤوس أصابعها ملتصقة بالجدران، ومنادية على روسا بكل ما في ذهنها من قوة. كانت الصالة خاوية، وكذلك غرفة الطعام والمطبخ. ودون أن تتجرأ على مواصلة التقدم، وقفت تستمع إلى الطبل الذي

يدق في صدرها، محاولة البقاء دون حراك، بل ودون تنفس إلى أن يرجع السائق.
حاولت أن تتشجع قائلة لنفسها انه ليس هناك ما يخيفها، وأن مربيتها ربما تكون قد خرجت من البيت أو نزلت إلى القبو. ولأنها لم تبق وحيدة في البيت من قبل، فقد منعها الاضطراب من التفكير بوضوح. ومع مرور الدقائق راحت تنحني إلى ان وجدت نفسها منزوية في الركن، وحين أحست بالبرد في قدميها تنبهت إلى أن جهاز التدفئة لا يعمل، فتوقعت عندئذ حدوث أمر خطير، لأن روسا لم تكن تهمل واجباتها أبداً. حسمت أمرها لتقصي ما حدث، وتقدمت ببطء إلى أن سمعت أول التأوهات. توترت جميع أعصابها، واختفى الرعب ليقود الفضول خطواتها نحو جناح الخدم، حيث كان محظوراً عليها الدخول. هناك توجد آلات تسخين الماء، وغرف الغسيل والكوي، ومستودع الخمور والمؤونة. وفي نهاية الممر كانت غرفة روسا، ومنها كان يأتي النحيب المختنق. وباتجاهها سارت مفتوحة العينين والقلق ينبض في وجنتيها. لم تر ضوءاً من فرجة الباب، وصورت لها مخيلتها مشاهد من الرعب، فتواردت القراءات المحظورة إلى ذهنها مثل شحنة من الفزع والعنف: في البيت لصوص، وروسا ملقاة على السرير مقطوعة العنق؛ وفئران ضارية هاربة من القبو تلتهمها؛ روسا مقيدة القدمين واليدين ومهووس يغتصبها، كما قرأت في قصة أعارها إياها السائق. لكنها لم تتصور أبداً مارأته لدى دخولها.

أدارت ايرين قبضة الباب بحذر ثم دفعته ببطء. أدخلت يدها، ولمست الجدار بحثاً عن مفتاح النور وأشعلته. وأمام عينيها المبهورتين من الضوء المفاجىء، بدت مربيتها البدينة والحبيبة روسا، منهارة على كرسي وفستانها مرفوع إلى وسطها وساقاها السمراوان المغمدتان في جوربين من الصوف يصلان إلى ركبتيها، ملطختين بالدم. كان رأسها مائلاً إلى الوراء وجهها منهوكاً من الألم. وعلى الأرض، بين قدميها، كانت تجثم كتلة حمراء ملفوفة بمصران أزرق طويل وملتو.

ما ان رأتها روسا حتى قامت بانزال ملابسها لتستر بطنها وحاولت النهوض دون جدوى.

ـ روسا، ماذا أصابك؟

ـ هيا يا صغيرتي! اخرجي من هنا!

سألتها ايرين وهي تشير إلى الأرض:

ـ ما هذا؟ دنت الطفلة من مربيتها، احتضنتها بذراعيها، ومسحت العرق عن جبهتها بمريلتها المدرسية وغمرت خدها بالقبلات. ثم سألتها اخيراً:

ـ من أين خرج هذا الطفل؟

فردت روسا مشيرة إلى فتحة التهوية التي في السقف:

ـ سقط من فوق، من كوة النور. سقط على رأسه ومات، لهذا هو مغطى بالدم.

انحنت ايرين لتتفحصه وتأكدت من أنه لا يتنفس. لم تجد ضرورة لتوضح انها تعرف شيئاً حول هذه الأمور وانها قادرة على ان تحدد بدقة انه جنين في الشهر السادس أو السابع، وأنه يزن حوالي كيلوغراماً ونصف، جنسه ذكر، وسبب ازرقاقه يرجع إلى نقص الاوكسجين، وانه ربما يكون قد مات قبل الولادة. الشيء الوحيد الذي فاجأها هو انها لم تلمح حالة الحمل من قبل، ولكنها عزت ذلك إلى سمنة مربيتها، التي يمكنها أن تواري انتفاخاً بين كتل جسدها اللحمية.

ـ ماذا سنفعل يا روسا؟

ـ آه يا صغيرتي! يجب ألا يعلم أحد بهذا الأمر، هل تقسمين لي انك لن تخبري أحداً؟

ـ أقسم لك.

ـ هيا نلق به إلى القمامة.

ـ مؤسف أن ينتهي هكذا يا روسا. فهو ليس مذنباً لسقوطه من كوة النور. لماذا لا ندفنه؟

وهذا ما فعلتاه. ما ان تمكنت المرأة من النهوض، والاغتسال واستبدال ملابسها، حتى وضعتا الوليد في كيس من أكياس السوق، وختمتاه بشريط

لاصق. خبأتـا كيس الـرفـات البلاستيكي حتى الليـل، وبعد أن تأكدتا من أن السائق قد نام، حملتاه إلى الحديقة لتدفناه. حفرتا حفرة عميقة، وضعتا في قاعها الكيس والكتلة الخـامـدة التي فيـه، وطمرتاه بحذر، ثم وطأتا التراب ورددتا فوقه احدى الصلوات. بعد يومين من ذلك اشترت ايرين نبتة لا تنسيني وزرعتها حيث يرقـد الـوليـد الـذي سقـط من كوة النـور. ومنذ ذلك الحين أحستا انهما متحدتان بالاشـتراك في مؤامـرة كبـيرة، يجمعهـا سر لن تكشفـه أي منهما لسنوات طويلة، وصار السر مألوفاً بينهما حتى أنه بدأ يظهر مصادفة في أحاديثهما. ولم يهتم أحد ممن في البيت بتقصي ما تعنياه. كان كل جنائني جديد يتلقى وصية الفتاة بالاعتناء بنبتة الـلاتنسيني، وفي فصـول الـربيـع، حين تتفتـح ازهارها الصغيرة، كانت تقطفها لتصنع منها باقة تضعها في غرفة مربيتها.

بعـد ذلـك بوقت قصير، اكتشفت ايرين أثناء لعبها مع ابن عمها غوستافو ان للقبـلات طعم الفـواكـه وانـه يمكن لأكثـر المـداعبات خراقة وغرارة أن تلهب الحـواس. كانـا يختبئـان لتبـادل القبل، موقظين الرغبة الكامنة فيهما. وقد احتاجا لبضعـة أصيـاف قبـل ان يصـلا إلى المتعـة القصوى، وذلك لخوفهما من العواقب ولتصلب الفتى الـذي لقنـوه وعلمـوه انـه يوجـد صنفـان من النساء: المحترمات الجـديـرات بالـزواج منهن والاخـريات لمضاجعتهن. وكانت ابنة عمه تنتمي الى الصنف الأول. ما كانـا يعـرفـان شيئـاً عن وسـائـل منع الحمل، وفيما بعد فقط، عنـدمـا علمت حيـاة الثكنـة القـاسيـة الشاب وظائف الرجال، وأكسبت أخلاقه بعض المرونة، استطاعا ممارسة الحب دون خوف. ثم نضجا معاً خلال السنوات التالية، ولم يعد الزواج سوى أمر شكليّ لمن اتفقا على شؤون المستقبل.

على الرغم من وجود خطيبها ولقائها الساحر بالحب، فقد بقي مركز الكون بالنسبة لها هو أباها. كانت تعرف فضائله ونقائصه الكبيرة. فقد فاجأته في عدد لا حصـر له من الخيـانـات الـزوجيـة والأكاذيب، رأته جباناً وخاسراً، ولمحته وهو يلاحق بعيني كلب شبق النســاء الأخـريات. لم تكن لديها أوهام بشأنه، لكنها كانت تحبه حباً عميقاً. وفيما كانت تقرأ في غرفتها في مساء أحد الأيام، أحست به قريباً منها. وقبل

أن ترفع نظرها لتراه، علمت انها زيارة الوداع. رأته واقفاً عند الباب وأحست كأن ما تراه ليس إلا شبحه، وانه ليس هناك، وانما ممحواً، بالطريقة التي كانت تخشى حدوثها دوماً.

قال اوسيبيو وهو يقبل جبهتها:

ـ سأخرج للحظة يا بنيتي.

فردت الفتاة وهي موقنة من أنه لن يرجع:

ـ وداعاً يا أبتاه.

وكان هذا ما حدث. لقد مضت أربع سنوات، ولكنها من خلال آلية عزاء مهلهلة لم تعتبره ميتاً، مثلما اعتبره الآخرون. كانت تعلم أنه حي، وكان ذلك يمنحها بعض الطمأنينة، ويجعلها تتصوره سعيداً كذلك في حياة جديدة. لكن رياح العنف التي راحت تصفع عالمها الآن ملأتها بالشكوك. كانت خائفة عليه.



انتهى الصديقان من تناول العشاء. كانت صورتاهما تنعكسان على جدران الحجرة في ظلين عاليين يهتزان مع ارتعاشة ضوء الشموع. كانا يتكلمان بما يشبه الهمس ليحتفظا بحميمية هذه اللحظات. روت ايرين لفرانثيسكو قصة صفقة اللحوم الخيرية المؤثرة وخلص هو إلى الاستنتاج بانه لن يفاجأ بأي تصرف من تصرفات هذه الأسرة.

قالت ايرين:

ـ بدأ كل شيء عندما تعرف أبي على مبعوث عربي.

كانت مهمة الرجل الموفد من حكومته هي شراء الأغنام. عرفوه على اوسيبيو بيلتران في حفل استقبال أقامته سفارة المبعوث، وللحال أصبحا صديقين، فكلاهما يعيش حياة يلهبها الميل الجامح نحو النساء الجميلات والحفلات الممتعة. بعد تلك المأدبة، دعاه والد ايرين لمواصلة الحفلة في بيت

احدى السيدات، حيث اكملا احتفالهما بالشمبانيا والنساء المرتزقة إلى أن انتهيا في ليلة حمراء صاخبة يمكن لها أن تودي بأشخاص آخرين عديمي الخبرة إلى الجحيم. استيقظا في اليوم التالي وقد انقلبت معدتاهما وتشوش ذهناهما، لكنهما ما لبثا أن انبعثا بعد حمام دافىء وحساء محار كثيف وساخن. لم يكن العربي، كمسلم فاضل، معتاداً على تناول المسكرات، فعانى من أثر الخمرة، وكان لا بد لاوسيبيو من مرافقته والتسرية عنه ومتابعته بالعلاج الطبيعي في مثل هذه الحالة: دعك جبهته بالكافور ووضع كمادات باردة عليها. وعند الظهيرة صارا أخوين، وكانا قد باحا لبعضهما بأسرار حياتيهما. حينئذ نصح الاجنبي اوسيبيو بان يتولى تجارة الأغنام، لأن في الصفقة أطنان من المال لمن يحسن كسبها.

ضحك بيلتران:

- لم أر في حياتي نعجة على الطبيعة، ولكنها إذا كانت مثل الأبقار أو الدجاج فلن أجد أية صعوبة.

كانت تلك هي بداية صفقة ستقوده إلى الإفلاس وإلى نسيان نفسه، كما تكهنت زوجته قبل وقت طويل من حصولها على أدلة معقولة لتفترض ذلك. سافر إلى أقصى جنوب القارة، حيث تتكاثر المواشي، وباشر في اقامة مسلخ وبراد، موظفاً في المشروع جزءاً كبيراً من ثروته. وحين صار كل شيء جاهزاً، وصل رجل دين مسلم، مبعوث من قلب أرض العرب لمراقبة العمل، وليتم كل شيء حسب شريعة القرآن. كان عليه أن يصلي متجهاً نحو مكة عند ذبح كل نعجة وأن يتأكد من أنها قد ذُبحت بجرة واحدة من السكين وأن دمها قد نزف كله كما تقتضي الطهارة المحمدية. وبعد تطهير جثث المواشي وتنظيفها وتجميدها، كانت تُرسل بطريق الجو إلى وجهتها الأخيرة. في الأسابيع الأولى، تمت الاجراءات بالصرامة المناسبة، لكن الإمام ما لبث أن فقد حماسه الذي بدأ به. وذلك لافتقاره إلى الحوافز. إذ لم يكن بين من يحيطون به أحد يدرك أهمية مهمته، بل لم يكن هناك من يحسن الحديث بلغته أو من قرأ كتابه المقدس. وكان الوضع على العكس من ذلك تماماً، فهو محاط بأجانب سافلين يضحكون من ذقنه ويقومون بحركات بذيئة

ويسخرون منه اثناء تأديته تراتيله العربية. لقد أخمد المناخ الجنوبي، والحنين، وعدم التفهم الثقافي من حماسه، ثم لم يلبث ان انكسر، فنصحه اوسيبيو بيلتران، العملي دوماً، بان يسجل تراتيله على جهاز تسجيل يعمل بالبطارية، كي لا يتوقف العمل. اعتباراً من هذه اللحظة أصبح انحدار الامام واضحاً لكل ذي عين بصيرة. ووصل به التشوش إلى حدود مخيفة، فلم يعد يهتم بالحضور إلى المسلخ، وغلب عليه الكسل، ولعب القمار، والنوم، ورذيلة شرب الخمور، وكلها أمور محرمة في ديانته. ولكن لا أحد يتمتع بالكمال، كما كان يقول صاحب المسلخ ليواسيه حين يجده نادماً على بؤسه البشري.

كانت الأغنام تذهب مجمدة وباردة كأحجار قمرية، دون ان ينتبه أحد إلى انها لم تتخلص من نجاستها عبر الوريد وأن آلة التسجيل كانت تصدح باغنيات البولير و والرانتشيرا بدلاً من الصلوات اللازمة. وما كان للأمر أن يؤدي إلى نتائج ذات بال، لولا ان الحكومة العربية المعنية أرسلت، دون سابق انذار، مفوضاً لمراقبة الشريك الاميركي الجنوبي. في اليوم الذي زار فيه المفتش مكان الأحداث وتأكد من الطريقة التي يتم بها اهمال تعاليم القرآن، وضع حداً لصفقة الخراف المزدهرة ووجد اوسيبيو بيلتران نفسه مع امام محمدي في ذروة الندم، وبين يديه جبل من الأغنام المجمدة التي لا وجود لسوق يشتريها لأن لحمها لم يكن مرغوباً في البلاد. فكان أن برز حينئذ ذلك المظهر الرائع من شخصيته. إذ انتقل مع بضاعته إلى العاصمة، وراح يجوب الأحياء الفقيرة في سيارة شاحنة ليوزع اللحوم على من هم بأمس الحاجة اليها. كان واثقاً من أن مبادرته ستجعل بعض كبار التجار يشعرون بالاهانة، فيسعون إلى محاكاته، ويتبرعون كذلك بجزء من منتجاتهم إلى المعوزين. ووصل به الأمر إلى الحلم بسلسلة متماسكة مؤلفة من أصحاب الأفران، وتجار الخضار، وأصحاب متاجر السمك والمؤن، ومنتجي المعجنات، وتجار الأرز والسكاكر، ومستوردي الشاي والقهوة والشوكولاته، وصانعي المعلبات والمشروبات والأجبان، أي أن كل صناعي وتاجر سيقدم جزءاً من أرباحه لتسكين الجوع الذي يداهم المحرومين والأرامل والأيتام والعاطلين وغيرهم من البائسين.

لكن شيئاً من ذلـك لم يحدث. فالجـزارون اعتبر وا لفتته تهريجاً وتجاهلها الآخرون ببساطة. ولأنه واصل صليبيته بحماس رغم كل شيء، فقد تلقى التهديد بالموت لأنـه يدمـر تجارتهم وسمعتهم كتجـار شرفـاء. اتهموه بالشيوعية، ففاقـم ذلك من عصبيـة بيـاتـريس الكـانـترا المحبطـة، والتي احتاجت لصلابة عالية كي تتحمل شذوذات زوجهـا، ولكن ليس لتحمـل صدمـة اتهـام بهذه الخطورة. كان اوسيبيو بيلتر ان يوزع بنفسـه أفخـاذ الأغنام وظهورها في شاحنة علقت على جانبيها اعلانات كبـيرة وزودت بمكـبر صوت يعلن عن مبـادرتـه. وسـرعـان ما وجـد نفسه محاطاً بالشـرطـة وبـالقتلة المأجورين. فرجال الأعمال المنافسين كانوا عاقدين العزم على القضاء عليه. شهروا به وهددوه بالقتل وأرسلوا إلى زوجته رسائل مغفلة تتضمن سفـالات لا تصـدق. وعنـدمـا ظهـرت شاحنة «الملحمة الخير ية» في التلفزيون، وتحول صف البائسين إلى حشد يستحيل على خفراء الأمن العام ضبطه، فقدت بيـاتـريس الكـانترا آخر قشة من البر وقذفت في وجهه كل ما جمعته طوال حياة من الضغينة. فذهب اوسيبيو دون رجعة.

قالت ايرين:

ـ لم أشعـر أبـداً بالقلق على أبي يا فرانثيسكـو. كنت واثقة من أنه قد هرب من أمي، ومن دائنيـه، ومن الأغنـام اللعينـة التي بدأت تتعفن دون أن يجد لها وجهة. لكنني الآن أشك في كل شيء.

صارت تشعـر بالخـوف في الليل، حين تظهر لها في أحلامها أجساد مستودع الجثث الـزرقـاء، وخـابيـير ليـال المعلق مثل ثمرة على شجرة الاكاسيا في حديقة الأطفـال، وصفـوف النسـوة الـلانهـائيـة عمن يسألن عن رجـالهن المفقـودين، وايفـانخيلينـا رانكيليـو الحافية وبقميص النوم وهي تنادي من الظلال، وبين جميع هذه الأشباح الغريبة كانت ترى كذلك أباها غارقاً في مستنقعات الحقد.

تنهدت ايرين:

ـ ربما انه لم يهرب، وانما قتلوه أو اعتقلوه، كما تظن أمي.

ـ ليس من سبب منطقي يحمل على الظن بوقوع رجل في مثل مكانته ضحية للشرطة .

ـ ليس للمنطق علاقة بكوابيسي ، ولا بالعالم الذي نعيش فيه .

أثناء حديثهما دخلت روسا لتعلن ان هناك امرأة تسأل عن ايرين ، وان اسمها هو ديغنا رانكيليو.



كانت ديغنا تحمل عبء الزمن على كاهلها ، وكانت عيناها قد ابيضتا لكثرة ما راقبت الطريق منتظرة . اعتذرت لمجيئها في مثل هذه الساعة المتأخرة وأوضحت انها انما تصرفت بدافع اليأس . لأنها لا تعرف من تتوجه اليه . وحيث انها غير قادرة على ترك الأولاد وحدهم ، فقد كان يستحيل عليها أن تسافر في النهار، لكن ماميتا انكارناثيون أبدت استعدادها للبقاء مع الصغار تلك الليلة ، فأتاحت لها طيبة القابلة أن تركب الحافلة إلى العاصمة . رحبت ايرين بها ، وقادتها إلى الصالة وقدمت لها شيئاً تأكله ، لكنها لم تقبل سوى فنجاناً من الشاي . جلست على حافة الكرسي مخفضة بصرها ، وممسكة في حضنها بكيس مهترىء أسود اللون . كانت تضع شالاً على كتفيها ، ولم تكن تنورتها الصوفية الباهتة لتغطي نهاية جوربيها المطويين عند الركبتين . كان لا بد لها من بذل الجهد للتغلب على خجلها .

ـ هل توصلت إلى شيء عن ايفانخيلينا يا سيدتي ؟

نفت الأم ذلك بحركة من رأسها ، وقالت بعد صمت طويل انها تعتبرها مفقودة وان الجميع يعلمون ان البحث عن المفقودين مهمة لا تنتهي أبداً . وانها لم تأت من أجلها ، وانما من أجل براديليو، ابنها الاكبر . وخفضت صورتها إلى ما يشبه الهمس غير المسموع وقالت معترفة :

ـ إنه مختبىء .

كان قد فر من الثكنة . وبسبب حالة الحرب القائمة ، فان الفرار من الخدمة

قد يكلفه حياته. لقد كان هجر سلك الشرطة في زمن آخر لا يكلف المرء سوء بعض الاجراءات البيروقراطية. أما الآن، فحراس الشرطة يشكلون جزءاً من القوات المسلحة، وهم يقومون بالمهمات نفسها التي يقوم بها الجنود في ميدان المعركة. كان براديليو رانكيليو في وضع حرج، لأنه سيلقى مصيراً سيئاً إذا ما ألقوا القبض عليه، هذا ما ادركته أمه حين رأته وهو مثل حيوان مُطارَد. كان زوجها هيبوليتو هو الذي يتخذ القرارات الهامة في البيت، لكنه التحق للعمل بأول سيرك نصب خيمته في المنطقة. فما ان يسمع نداء الطبل معلناً عن أي استعراض، حتى يُخرج حقيبته التي تضم لوازم مهنته، ويلتحق بالفرقة منطلقاً في جولات عبر القرى والضياع، ويصبح من الصعب العثور عليه. لم تتجرأ ديغنا كذلك على الحديث عن مشكلتها مع أناس آخرين، بقيت في صراع مع القلق لعدة أيام، إلى ان تذكرت حديثها مع ايرين بيلتران واهتمام الصحفية بالمحنة التي تجثم على بيت آل رانكيليو. وفكرت بانها الكائن الوحيد الذي يمكنها التوجه اليه.

قالت هامسة:

- يجب اخراج براديليو من البلاد.

- لماذا فر من الخدمة؟

لم تكن الأم تعرف السبب. فقد جاء إلى البيت في أحد الأيام، كان شاحباً ومنهوكاً، بدلته العسكرية ممزقة، ونظراته كنظرات مخبول. رفض التكلم. كان جائعاً جداً، وبقي يأكل بشراهة لوقت طويل، مالئاً فمه بكل ما يجده في المطبخ: بصل نيء، قطع كبيرة من الخبز، لحم قديد، فواكه، شاي. وعندما شبع أسند ذراعيه إلى الطاولة، وأخفى رأسه بينهما، وغفا مثل طفل صغير من الانهاك. حرست ديغنا نومه. وبقيت إلى جانبه لأكثر من ساعة وهي تتأمله لتتخيل الطريق الطويل الذي قاده إلى تلك الحالة من الاستنزاف والخوف. ولم يشأ براديليو عندما استيقظ ان يرى اخوته ليحول دون أن يشوا به في لحظة سهو. كان ينوي الهرب إلى الجبال حيث تعجز حتى النسور من العثور عليه. وقال ان غرضه الوحيد من الزيارة هو وداع أمه واخبارها بانهما لن يعودا إلى اللقاء، لأن لديه مهمة يود تنفيذها

حتى لو كلفه ذلك حياته، وبعدها سينتهز فصل الصيف ليجتاز الحدود من أحد الممرات الجبلية. لم توجه ديغنا رانكيليو أسئلة اليه، لأنها تعرف ابنها: فهو لا يطلعها، ولا يُطلع أحداً على أسراره فاكتفت بتذكيره أن محاولة اجتياز الحدود دون دليل بين هذه الجبال اللامتناهية هو عمل جنوني، حتى ولو كان الجو جيداً، لأن كثيرين يضيعون في تلك الأماكن الوعرة ويهيمون على وجوههم إلى أن يفاجئهم الموت، فتغطيهم الثلوج ويختفون حتى الصيف التالي، حين يصطدم مسافر ببقاياهم. نصحته بالتواري عن الأنظار إلى أن يملوا البحث عنه أو أن يرحل إلى الجنوب، حيث يمكنه الهرب عبر الجبال الواطئة بسهولة اكبر.

فقاطعها براديليو:

ـ دعيني وشأني يا أماه. سأفعل ما عليّ عمله وبعد ذلك سأسافر كما أستطيع.

انطلق إلى الجبل يقوده خاثينتو، الأخ الأصغر الذي يعرف هذه الجبال كما لا يعرفها أحد سواه. واختبأ في القمة، حيث صار يتغذى بالسحالي والقوارض والجذور وببعض الطعام الذي يحمله اليه أخوه الصغير بين الحين والآخر. رضخت ديغنا لمشيئته بتقرير مصيره بنفسه، ولكن حين فتش الملازم راميريث المنطقة بيتاً بيتاً بحثاً عنه، متوعداً من يتسترون عليه وعارضاً مكافأة لمن يساعد في القبض عليه، وحين جاء الرقيب فاوستينو ريفيرا إلى بيتها في احدى الليالي، وهو بالملابس المدنية، ليحذرها هامساً إذا كانت تعرف مخبأ الهارب لتخبره أنهم سيمشطون الجبال إلى ان يجدوا مكانه، فقررت الأم حينئذ ألا تنتظر اكثر. وقالت موضحة:

ـ الرقيب ريفيرا من العائلة تقريباً، وكان لا بد له من أن يحذرني.

ان فكرة خروج الابن إلى بلد آخر، بالنسبة لمزارعة أمضت حياتها كلها في المكان الذي ولدت فيه، ولم تعرف سوى القرية القريبة، تبدو فكرة مستحيلة التحقيق مثلها مثل اخفائه في قاع البحر. لم يكن بامكانها ان تتصور ان حجم العالم يصل إلى أبعد من الجبال التي تلوح في الأفق، لكنها كانت تخمن ان الأرض

تمتد إلى مناطق يدور الحديث فيها بلغات اخرى، حيث يعيش أناس من أجناس مختلفة وفي مناخات غريبة، هناك حيث يصبح من السهل فقدان التوجه الصحيح، ويبتلع سوء الطالع المرء. لكن الذهاب إلى هناك أفضل من الموت على أي حال. كانت قد سمعت عن المنفيين، وهو موضوع صار يتردد بكثرة في السنوات الأخيرة، وكانت تأمل في مساعدة ايرين لتأمين لجوء برادليو إلى بلد اجنبي. حاولت الشابة أن توضح لها المصاعب التي لا يمكن تجاوزها لتحقيق هذه الفكرة، وانه لا يمكن مغافلة الحراس المسلحين، والقفز على سور حديدي والدخول دون مجازفة إلى بناء احدى السفارات، حيث لا يوجد أي دبلوماسي مستعد لتقديم الحماية الى عنصر فار من القوات المسلحة، وأسباب فراره غامضة. ورأت أن الحل الوحيد هو الاتصال برجال الكردينال.

فقال فرانثيسكو عارضاً معونته:

ـ يمكنني الاستعانة بشقيقي خوسيه. لكنه قال ذلك دون حماس، لأنه غير مستعد للمغامرة باطلاع رجل عسكري على سر منظمته، حتى ولو كان هذا العسكري هو مجرد شرطي بائس يطارده رفاقه. ثم أضاف قائلاً: ـ للكنيسة أساليب خفية في الانقاذ، لكنها تطالب بمعرفة الحقيقة يا سيدتي، انني بحاجة للتحدث إلى ابنك.

أوضحت له ديغنا انه متوار في كهف في الجبال، على ارتفاع يصعب التنفس فيه، وللوصل اليه لا بد من تسلق منحدر لا يمكن للماعز ان تتسلقه، والبحث فيه عن موطىء قدم بين الأحجار والأشواك. ليس الوصول اليه بالنزهة السهلة، فالطريق طويل وشاق لمن هو غير معتاد على التسلق.

قال فرانثيسكو:

ـ سأحاول.

فقررت ايرين:

ـ إذا أنت ذهبت، فسأذهب معك.

استلقت المرأة في تلك الليلة على الفراش الذي أعدته لها ايرين على

عجـل ، وأمضت السـاعات وهي تتأمل السماء الصافية بعينين ذاهلتين . وفي اليوم التـالي انطلق الثـلاثـة إلى لوس ريسكـوس في سيـارة بياتريس ، بعد أن أحضرت الفتـاة من مستـودع المؤ ونـة كيسـاً من المؤ ن لبراديليو. ألمح فرانثيسكو إلى صعوبة تسلق الجبل مع هذا الحمل الرهيب، لكنها تطلعت اليه ساخرة، فلم يلح على الأمر.

أثنـاء الطـريق روت لهما الأم كل ما توصلت اليـه عن مصـير ايفـانخيلينـا المشؤ وم ، منذ اللحظة التي قادها فيها الملازم والرقيب إلى سيارة الجيب ليلة الأحد التي لا تُنسى . انطلقت صرخات الصبية في البراري منبهة الظلال إلى أن أطبقت فمهـا صفعـة قويـة جعلتهـا تتـوقف عن الرفس والصياح . وفي مقر الشرطة رآهم عريف الحـرس عنـد وصولهم ولم يتجـرأ على السؤ ال عن المعتقلة ، مكتفياً بالنظر إلى ناحيـة أخـرى . وفي اللحظة الأخيرة ، حين شدّها الملازم بقوة جعلتها تقفز في الهـواء وحملهـا إلى مكتبـه ، أحس الرقيب بالأسى وتجرأ على الطلب منه أن يرأف بها ، لأنهـا مريضـة ولأنهـا كذلـك أخت رجل من رجال الموقع ، لكن رئيسه صفق البـاب في وجهـه ولم يسمح له بمواصلة الكلام ، فانطبق الباب على طرف قميص نوم الفتـاة الأبيض ، وبقيت مزقـة منـه معلقة هناك مثل حمامة جريحة . انطلق بكاء دام لحظة ثم ساد الصمت .

كانت ليلة بلا نهاية بالنسبة للرقيب فاوستينو ريفيرا . لم ينم لأنه أحس بقلبه مثقـلاً . تسلى بالتحـدث إلى عريف الحـرس ، وتجول في الموقع ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، ثم مضى ليجلس تحت افـريـز سطح اصطبل الخيول ويدخن سجـائـره القـويـة ذات التبغ الأسود ، يلفحه نسيم الفصل الدافىء ، ويشم رائحة ازهـار الاشـواك البعيدة والرائحة الأخرى المنبعثة من روث الخيل الطازج . كانت ليلة مفعمـة بالنجـوم ومنـيرة ، يلفهـا صمت مطبق . وبقي هناك لوقت طويل دون أن يعـرف سبب انتظـاره ، ورأى ظهـور أول بوادر الفجـر ، التي يلحظها أولئك الذين ولـدوا على اتصـال مع الطبيعـة واعتادوا الاستيقاظ مبكرين . وفي الساعة الرابعة وثـلاث دقـائق بالضبـط ، كما قال لديغنـا رانكيليـو ، وأعـاد قولـه فيما بعد دون ان

تتمكن التهديدات من اسكاته، رأى الملازم خوان دي ديوس رامير يث يخرج وبين يديه حمل ثقيل. ورغم بعد المسافة وانتشار الظلام إلا انه لم يشك في انها ايفانخيلينا. كان الملازم يترنح قليلاً، ولكن ليس بسبب السكر، لأنه لا يشرب على الاطلاق في ساعات الخدمة. كان شعر الفتاة الطويل يكاد يلامس الأرض، ولدى مروره في الممر المفروش بالحصى والمؤدي إلى المرآب، لامست أطراف الشعر الحصى. وسمع ريفيرا من مكانه أنفاس الملازم المضطربة وأدرك أن ذلك لم يكن نتيجة الجهد الذي يبذله، لأن جسد المعتقلة النحيل كان خفيفاً بالنسبة له، هو الضخم ذو العضلات والمعتاد على ممارسة التمارين الرياضية. لقد كان يتنفس مثل منفاخ بسبب عصبيته. رآه يضع الفتاة على المنصة الاسمنتية التي يستخدمونها في افراغ شحنات المؤونة. كانت أنوار الكشافات تدور طول الليل في أعلى برج المراقبة تحسباً لهجمات محتملة، فأضاءت لدى مرورها وجه ايفانخيلينا الطفولي. كانت عيناها مغمضتين، ولكنها ربما كانت على قيد الحياة، لأنه بدا للرقيب أنها تئن. اتجه الملازم إلى الشاحنة الصغيرة البيضاء، فصعد إلى مقعد القيادة وأدار المحرك، ثم رجع ببطء نحو المكان الذي ترك فيه الصبية. نزل، وحملها بين ذراعيه ليضعها في القسم الخلفي من السيارة، في الوقت الذي كانت فيه حزمة نور الكشاف تكنس المكان. وقبل ان يغطيها الملازم بقطعة مشمع، رأى فاوستينو ريفيرا ايفانخيلينا ملقاة على جانبها ووجهها مغطى بشعرها فيما قدماها الحافيتان تطلان من بين ثنايا العباءة. رجع رئيسه إلى المبنى، واختفى وراء باب المطبخ ليعود للظهور بعد لحظة وهو يحمل رفشاً ومعولاً وضعهما إلى جانب الفتاة. صعد اثر ذلك إلى الشاحنة وتوجه بها نحو المخرج. تعرف حارس البوابة على قائده، فحياه بصرامة وفتح الباب الثقيل. وابتعدت السيارة على الطريق باتجاه الشمال.

انتظر الرقيب فاوستينو ريفيرا مراقباً ساعته، ودخن سيجارتين وهو يجلس القرفصاء في ظل الاصطبلات. كان يتحرك بين الحين والآخر لينشط ساقيه، وغلبه النعاس للحظة، فغفا مستنداً إلى الجدار. ومن موقعه كان قادراً على رؤية

كوخ الحارس، حيث كان العريف اغناسيو برافو يمارس العادة السرية للتخلص من السأم، دون أن يرتاب بوجوده قريباً منه. عند الفجر انخفضت درجة الحرارة وأبعدت البرودة النعاس عن عينيه. وحين رجعت الشاحنة كانت الساعة تشير إلى السادسة، وكان الأفق قد اصطبغ بألوان الفجر.

سجل الرقيب فاوستينو ريفيرا كل ما شاهده في الدفتر الصغير المهترىء الذي يحمله معه دوماً. كان مهووساً بتدوين الاحداث الهامة والتافهة، دون ان يتصور أن ذلك سيكلفه حياته بعد بضعة اسابيع. راقب من مخبئه الضابط وهو ينزل من السيارة ويشدّ أحزمته وقراب مسدسه ثم يتجه إلى المبنى. دنا الرقيب من الشاحنة، ولمس الرفش والمعول وتأكد من وجود تراب طازج على حوافهما. لم يدر ما معنى ذلك ولا ما الذي فعله الضابط أثناء غيابه، حسبما قال لديغنا رانكيليو، ولكن بامكان أي كان أن يخمن الأمر.

توقفت السيارة التي كان يقودها فرانثيسكو ليال أمام بيت آل رانكيليو. خرج جميع الصبيان ليحيوا أمهم والزائرين، لأن أحداً منهم لم يذهب إلى المدرسة. ومن ورائهم برزت ماميتا انكارناثيون بصدرها الذي يشبه صدر حمامة، وشعرها القاتم المضفور فوق رأسها والمثبت بدبوس، وساقيها الملونتين والمصابتين بالدوالي.. انها عجوز رائعة، واجهت كوارث الحياة بعزيمة ورباطة جأش.

قالت لهم:

ـ تفضلوا واستريحوا في الداخل، سأقدم لكم الشاي.



قادهما خاثينتو إلى مكان براديليو، فهو الوحيد الذي يعرف مخبأ أخيه ويدرك ضرورة حفظ هذا السر ولو كلفه ذلك حياته. أسرجوا الحصانين اللذين يملكهما آل رانكيليو، وركب الصغير مع ايرين على فرس بينما امتطى فرانثيسكو بهيمة اخرى قاسية الملامح وعصبية. لم يكن قد ركب جواداً منذ زمن طويل، فكان يشعر

وهـو على صهـوتهـا بعـدم الأمـان . انـه قادر على ركـوب الخيل دون فن ، ولكن بثبات ، ذلك انه كان يتردد في طفولته على بستان أحد الأصدقاء ، حيث تآلف مع الفـروسيـة . أمـا ايـرين ، فهي فارسـة مجربة ، لأنها كانت تملك فرسها الخاصة في حقبة الوفرة الاقتصادية لأبويها .

اتجهوا نحو سلسلة الجبال ، صاعدين درباً وعراً ومقفراً لا يستخدمه أحد في الأحـوال العـاديـة ، مما جعـل ملامحه شبه مطموسة . وبعد مسيرة قصيرة أخبرهما خاثينتو بانهم لا يستطيعون مواصلة التقدم على الدابتين ، وانه عليهم الصعود بين الأحجـار باحثـين عن النتوءات الصخرية ليستندوا عليها . وربطوا البهيمتين إلى بعض الأشجـار وبـدأوا الصعـود مشيـاً على الأقـدام ، يساعد احدهم الآخر في المنحـدرات الـوعـرة . كانت حقيبـة المعلبات تثقل كتفي فرانثيسكو وكأنها مدفع ، فكـاد ان يطلب من ايـرين ان تحملهـا لبضعـة أمتـار كونهـا هي التي أصرت على احضارها ، لكنه أشفق عليها حين رآها تلهث مثل من يحتضر . كانت راحتا يديها قد تجرحتـا من الصخـور وتمـزق بنطـالهـا عند احدى ركبتيه ، وكانت تتعرق بغزارة وتسأل في كل لحظـة كم بقي أمـامهم للوصـول . وكان الصغير يرد بالاجابة نفسها دومـاً : هنـاك فقـط ، وراء هذا المـرتفـع . وظلوا على هذه الحـال وقتاً طويلاً تحت الشمس القاسية ، ينهكهم التعب والعطش ، إلى أن أعلنت ايرين أنها عاجزة عن التقدم ولو خطوة واحدة .

فقال خاثينتو منبهاً :

ـ ليس الصعود بالأمر المهم . انتظري النزول .

نظـروا إلى أسفـل ، وأطلقت ايـرين شهقـة من اعـماقها . كانوا قد تسلقوا كالماعز فوق جرف خطير ، متمسكين بأي نبتة ناتئة بين تلك الصخور الوعرة . ومن بعيد تبينوا الأشجار التي تركوا عندها الدابتين فكانت تبدو مجرد بقع قاتمة .

تمتمت ايرين وهي تنحني مفتونة بالهوة التي تمتد تحت قدميها :

ـ لن أستطيع النزول من هنا أبداً . انني أشعر بدوار .

فأمسكها فرانثيسكو قائلاً :

ـ إذا كنت قد صعدت ، فيمكنك النزول .

وقال الصغير :

ـ تشجعي يا آنسة ، انه هناك ، وراء هذا المرتفع .

رأت ايرين نفسها تترنح في قمة جبل ، متأوهة من الرعب ، فانتصرت حينئذ قدرتها للتغلب على كل شيء . جمعت قواها ، وأمسكت بيد صديقها وأعلنت انها مستعدة لمواصلة المسير . تركوا جعبة المؤونة ، مفكرين بالرجوع لأخذها فيما بعد ، فاستطاع فرانثيسكو الذي تحرر من ثقل كان ينهك عضلاته ، ان يساعد ايرين . بعد عشرين دقيقة من ذلك وصلوا إلى التواء في الجبل ، حيث برزت فجأة ظلال أشجار عالية ومسيل ماء ينحدر بين الصخور ، فأدركا ان براديليو قد اختار هذا المكان لوجود الينبوع ، الذي يستحيل العيش بدونه في هذا الجبل المقفر . انحنوا على الجدول ليرطبوا وجوههم ، وشعرهم ، وملابسهم . وحين رفع فرانثيسكو رأسه ، رأى الحذاء المهترىء أولاً ، ثم البنطال القطني الأخضر ، وبعد ذلك الصدر العاري الذي لوحته الشمس ، وأخيراً قابل وجه براديليو دل كارمن رانكيليو الأسمر ، الذي كان يصوب سلاحه العسكري اليهما . كانت لحيته قد طالت ، وانتفش شعره المعجون بالغبار والعرق مثل طحالب كوكبية .

قال خاثينتو:

ـ لقد ارسلتهما أمي . انهما آتيان لمساعدتك .

أنزل رانكيليو المسدس وساعد ايرين على الوقوف ، ثم قادهما إلى كهف ظليل وبارد تخفي مدخله نباتات كثيفة وصخور . وهناك انبطحا على الأرض ، فيما قاد الصغير شقيقه بحثاً عن الحقيبة المتروكة . وعلى الرغم من صغر سن خاثينتو ونحول جسده ، إلا انه كان يبدو نشيطاً كما كان عند بدء الرحلة . بقي فرانثيسكو وايرين وحيدين لوقت طويل . فنامت هي على الفور ، كان شعرها مبللاً وبشرتها محروقة . توقفت حشرة على عنقها ثم تقدمت إلى خدها ، لكنها لم تشعر بها . فهز

فرانثيسكو يده لمسها مبللاً وجه الشابة الناعم والدافىء مثل ثمرة صيفية. أعجبه انسجام تقاطيعها، وبريق شعرها، وتراخي جسدها وهي نائمة. رغب في لمسها، والانحناء لسماع أنفاسها، واحتضانها بين ذراعيه وحمايتها من الهواجس التي تعذبه منذ بدء هذه المغامرة، إلا ان الارهاق ما لبث ان تغلب عليه أيضاً، فنام. لم ينتبه إلى مجيء الاخوين، ولذلك استيقظ فزعاً حين لمسا كتفه.

كان براديليوا مارداً، يشد الأنظار بجسده الهائل الذي لا تفسير له وسط اسرة من أناس ضئيلين كاسرته. جلس في المغارة، وفتح الحقيبة بهيبة ليستخرج كنوزها، داعب علبة سجائر بحنان مستبقاً متعة التدخين، فبدا مثل طفل كبر جسده. كان قد نحل كثيراً، وغارت وجنتاه وأحاطت بعينيه هالتان زرقاوان مما منحه مظهر المصاب بشيخوخة مبكرة. كان جلده مدبوغاً بشمس الجبال، وشفتاه مشققتان وكتفاه مجرّحان تغطيهما القشور والبثور. وبدا وهو منحن في هذه المغارة المفتوحة في الصخر الأصم مثل قرصان معتوه. كان يستخدم يديه بحذر شديد، وكأنه يخشى أن يتلف ما يمسه بهاتين اليدين وأظافرهما المقروضة والقذرة. وبدا في اسماله كما لو انه قد كبر فجأة، دون ان يتاح له الوقت الكافي للاعتياد على أبعاد جسده، وكأنه عاجز عن تقدير طول أطرافه ووزنها، فيصطدم بما حوله في بحثه الدائم عن وضع مناسب. لقد عاش في هذا الوكر الضيق أياماً طويلة، متغذياً بالأرانب البرية والجرذان التي يصطادها بالحجارة. زائره الوحيد هو خاثينتو، صلة الوصل بين عالمه المقفر ودنيا الأحياء. كان يشغل وقته بالصيد، دون استخدام سلاحه الناري الذي يحتفظ به لحالات الطوارىء. صنع مقلاعاً وشحذ الجوع حسن تصويبه بهذه الاداة لاقتناص الطيور والقوارض عن بعد. كانت تنبعث من أحد أركان المغارة رائحة عفونة تشير إلى المكان الذي يكوم فيه ريش ضحاياه وجلودها الجافة، كي لا يترك أي أثر في الخارج. وليتغلب على الملل، كانت لديه بعض روايات رعاة البقر التي ارسلتها اليه أمه، فكان يقرأ فيها أطول وقت ممكن لأنها تشكل وسيلة التسلية الوحيدة في أيامه البطيئة. كانت تنتابه مشاعر الناجي الوحيد من كارثة شاملة، ولوحدته وشدة يأسه صار يحن إلى زنزانته في الثكنة.

قالت ايرين وهي تبعد النعاس الذي تغلغل في روحها:

ـ كان عليك ألا تفر من الخدمة.

ـ إذا أمسكوا بي فيسرمونني بالرصاص. عليّ أن أجد ملجأ يا آنسة.

ـ سلم نفسك فلا يرمونك بالرصاص..

ـ انني ضائع على أية حال.

أوضح له فرانثيسكو مصاعب الحصول على لجوء سياسي في مثل حالته. وانه بعد مرور كل هذه السنوات على الدكتاتورية لم يعد هناك من يغادر البلاد بهذه الطريقة. ونصحه بالاختفاء لبعض الوقت، ريثما يحاول الحصول له على وثائق مزيفة يمكنه الانتقال بها إلى مقاطعة اخرى ليبدأ فيها حياة جديدة. ظنت ايرين انها لم تسمع ذلك جيداً، لأنها غير قادرة على تصور أن يكون صديقها ممن يتاجرون بالوثائق المزيفة. فتح بارديليو ذراعيه في حركة يائسة وفهما انه يستحيل عليه خداع عيون الشرطة بهذه القامة التي كشجرة سرو وبوجه الجندي الفار الذي له.

قالت ايرين باصرار:

ـ اخبرنا عن سبب فرارك.

ـ من أجل ايفانخيلينا، شقيقتي.

حينئذ، وشيئاً فشيئاً، راح يروي الحكاية، باحثاً عن الكلمات في مياه صمته المعتاد الراكدة، قاطعاً حديثه باطراقات طويلة. وما لم يقله ذلك المارد، سألته عنه ايرين وهي تنظر إلى عينيه. وما صمت عنه استطاعا ادراكه من خلال خجله، ومن بريق دموعه وارتعاش يديه الضخمتين.



حين بدأت الشائعات تدور حول ايفانخيلينا ومرضها الغريب الذي يجذب الفضوليين ويحطم اسمها الطيب، ويضعها في مرتبة المجاذيب، فقد براديليو

رانكيليوا لذة النوم. فبين جميع أفراد اسرته كانت هي المحببة اليه اكثر من سواها، وقد نما هذا الشعور لديه مع مرور الزمن، فلم يكن هناك ما يُفرح قلبه كتعليمه تلك الطفلة النحيلة، ذات الشعر الأشقر، المختلفة تماماً عن آل رانكيليو، أول خطواتها. حين ولدت، كان هو في مطلع صباه، له قامة أطول وبنية أمتن ممن هم في مثل سنه. وكان معتاداً على أداء أعمال الكبار وتولي مسؤوليات الأب الغائب. لم يكن يعرف اللهو ولا الحنان. فديغنا تقضي حياتها حبلى أو مرضعة وليدها الأخير، دون ان يمنعها ذلك من العمل في الأرض وانجاز الأعمال المنزلية، لكنها كانت تحتاج لمن تستند اليه. فكانت تثق بابنها وتخوله السلطة تجاه اطفالها الآخرين. وكان براديليو يتصرف كرب البيت في مجالات كثيرة. وقد مارس هذا الدور منذ صباه المبكر، ولم يكن يتخلى عن ممارسته حتى عند عودة ابيه إلى البيت. وفي احدى المرات تجرأ على مواجهة ابيه وهو مخمور، ليمنعه من ضرب ديغنا، فجعلت هذه الوقفة منه رجلاً. كان الفتى نائماً يومئذ، واستيقظ لدى سماعه نحيباً مكتوماً، قفز من السرير وأطل من وراء الستارة التي تفصل الركن حيث ينام ابواه. رأى هيبوليتو رافعاً يده، وأمه منكمشة مثل لفافة خيطان على الأرض، تغطي فمها كي لا توقظ الصغار بشهقاتها. لقد رأى مشاهد مشابهة في أحيان اخرى، وكان يرى في أعماقه أن للرجال الحق بمعاقبة المرأة والأولاد، لكنه لم يستطع كبح نفسه في هذه المرة، إذ أعمت عينيه غلالة من الغضب، فقفز دون تفكير على أبيه يضربه ويشتمه إلى أن توسلت إليه ديغنا أن يتوقف، لأن اليد التي تمتد على الأبوين تتحول إلى حجر. في اليوم التالي استيقظ هيبوليتو وجسده مليء بالبقع الزرقاء الداكنة. وكان ابنه موجوعاً من الجهد الذي بذله، انما دون أن يتحول أي طرف من أطرافه إلى حجر، كما تؤكد الخرافات الشعبية. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي استخدم فيها هيبوليتو العنف مع أفراد اسرته.

كان براديليو دل كارمن رانكيليو يضع في ذهنه دوماً ان ايفانخيلينا ليست شقيقته. الجميع كانوا يعاملونها كما لو كانت كذلك، أما هو فرآها بعينين مختلفتين منذ صغرها. وبذريعة مساعدة أمه كان يحممها، ويؤرجحها ويطعمها. وكانت

الطفلة تعبده، فتستغل أي مناسبة للتعلق بعنقه، وتندس في سريره، وتتكور بين ذراعيه. وكانت تلحق به إلى كل مكان مثل كلب وفيّ، وتطارده بأسئلتها، وتود سماع حكاياته ولا تغفو إلا على أغانيه. كان اللعب مع ايفانخيلينا مشحوناً بالقلق، وقد تحمل براديليو الضرب مرات ومرات لأنه كان يداعبها، دافعاً بذلك ثمن خطيئته.. خطيئة الأحلام المبللة، حيث كانت تستدعيه بايماءات فاحشة، خطيئة مراقبتها حين تنحني لتبول ما بين الشجيرات، خطيئة ملاحقتها إلى الساقية عند ذهابها للاستحمام، خطيئة ابتداع ألعاب محرمة يختبئان فيها بعيداً عن الآخرين ليتبادلا المداعبات حتى الانهاك. وبغريزة الاغراء التي لدى جميع النساء، كانت الطفلة تحفظ السر المشترك مع أخيها الأكبر وتتصرف بتكتم أيضاً. كانت تستخدم مزيجاً من البراءة والوقاحة، من التغنج والخفر، لتبعث فيه الجنون، وتبقي على حواسه متوقدة، وتبقيه أسيراً. ولم يجدِ قمع أبويه ومراقبتهما إلا في تأجيج اللهيب الذي يكوي دماء براديليو المراهق. قاده ذلك للبحث عن مومسات في وقت مبكر، لأنه لم يجد السلوى في متعته المنفردة بالصبية. كان ايفانخيلينا ما تزال تلعب بالدمى حين حلم بامتلاكها، مقدراً ان قوة اندفاع ذكورته قادرة على اختراقها كسيف. كان يُجلسها على ساقيه ليساعدها في وظائفها المدرسية، وخلال بحثه عن الاجابة على المسائل التي في الدفتر، يشعر بعظامه تذوب وبشيء دافىء ولزج يتقد في عروقه؛ فتخور قواه، ويفقد القدرة الذهنية على الفهم، بل وتغادره الحياة بسبب رائحة شعرها الدخانية، ورائحة الكلور المنبعثة من ثيابها، وعرق عنقها، وثقل جسدها فوق جسده؛ ويرى انه عاجز عن احتمال كل ذلك دون أن يعوي ككلب شبق، ودون أن ينقض عليها ليلتهمها، ودون أن يهرع الى حيث أشجار الحور ليعلق نفسه من عنقه على أحد الأغصان كي يدفع بموته ثمن جريمة عشق اخته بهذه العاطفة الجهنمية. كانت الطفلة تهيجه وتتحرك فوق ركبتيه ضاغطة، متمرغة، مدلكة، إلى ان تراه يئن مختنقاً، يضغط عقد أصابعه على حافة الطاولة ويتيبس، ويلفهما معاً شذى نفاذ وحلو. ولقد استمرت هذه الألعاب طوال طفولتها.

خرج بارديليو رانكيليو من بيته وهو في الثامنة عشرة لاداء الخدمة العسكرية، ولم يرجع. وقد قال لايرين وفرانثيسكو في ذلك الكهف الجبلي معترفاً:

ـ ذهبت كي لا ألوث يدي باختي.

فبعد انتهاء خدمته العسكرية، التحق فوراً بسلك الشرطة. وبقيت ايفانخيلينا خائبة وتائهة، دون أن تفهم سبب ذلك الهجر، يسحقها قلق لا تعرف له اسماً وكان موجوداً في قلبها قبل وقت طويل من استيقاظ غددها. وهكذا هرب براديليو من قدره كفلاح فقير، ومن طفلة بدأت تتحول الى امرأة، ومن ذكريات طفولة منكوبة بالميل إلى زنا المحارم. وفي السنوات التالية احرز جسده أبعاده النهائية ووجدت روحه نوعاً من السلام. ثم جاءت الاحداث السياسية لتجعله ينضج ولتسكن من فتنة ايفانخيلينا في نفسه، إذ تحول بين يوم وليلة من شرطي ريفي تافه إلى رجل في السلطة. صار يرى الخوف في عيون الآخرين، وأعجبه ذلك. أحس انه مهم، وقوي وذو جبروت. ففي الليلة التي سبقت الانقلاب العسكري أخبروه ان العدو ينوي إبادة الجنود ليقيم نظاماً استبدادياً سوفيتياً. لا شك أن هذا العدو كان خصماً خطيراً وذكياً، لأن أحداً لم ينتبه حتى ذلك اليوم إلى تلك المخططات الدموية، باستثناء قادة القوات المسلحة، الحريصين دوماً على المصالح الوطنية. ولو لم يبادر هؤلاء القادة إلى تحمل مسؤولياتهم، لغرقت البلاد في حرب أهلية، أو لكان الروس قد احتلوها، هذا ما أوضحه له الملازم خوان دي ديوس راميريث. وقد جاء حسن تصرف الجنود وشجاعتهم، ومن بينهم رانكيليو، لينقذ الشعب من مصير رهيب. لهذا أشعر بالاعتزاز وأنا أرتدي الزي العسكري، رغم وجود أمور لا تعجبني. أنا أنفذ الأوامر دون أسئلة، لأنه إذا ما بدأ كل جندي بمناقشة قرارات رؤسائه، فسيتحول كل شيء إلى فوضى وسيذهب الوطن إلى الجحيم. كان عليّ أن أعتقل أناساً كثيرين، لا أستطيع انكار ذلك، بل وبينهم بعض المعارف والأصدقاء مثل آل فلوريس. انه لأمر سيء انضمام آل فلوريس إلى النقابة الفلاحية. كانوا يبدون اناساً طيبين ولم يكن ليخطر ببال أحد انهم يفكرون بمهاجمة الثكنة. انها فكرة سخيفة. كيف فكر انسوبيو فلوريس وأولاده

بمثـل هذه الحماقـة؟ كانـوا أذكياء ومتعلمين. لحسن الحظ أن أصحاب العقارات المجاورة أخبر وا ملازمي راميريث بأمرهم واستطاع التصرف في الوقت المناسب. كان اعتقـال آل فلوريس أمـراً شاقاً بالنسبة لي. ما زلت اذكر صرخات ايفانخيلينا المستبدلة حين قدنا رجال اسرتها. آلمني صراخها لأنها شقيقتي الحقيقية، فهي من آل رانكيليـو مثلي تمامـاً. أجـل، كان هناك معتقلون كثير ون في تلك الفترة. وقد أجبرت بعضهم على الإدلاء باعترافات عن طريق حشرهم في الاصطبلات وهم مقيدو الأقدام والأيدي وضربهم دون رحمة. ورمينا بعضهم بالرصاص أيضاً وقمنا بأعمـال لا يمكنني الخوض فيهـا لأنهـا أسـرار عسكـريـة. كان المـلازم يثق بي، ويعـاملني كابنـه؛ وكنت احـترمـه وأقـدره. كان قائـداً طيباً وكان يكلفني بمهمات خاصة لا ينفع فيها الضعفاء والمتشدقين من أمثال الرقيب فاوستينو ريفيرا، الذي يفقـد عقله إذا تنـاول كأسـاً من البـيرة ويبدأ بالثرثرة مثل عجوز شمطاء. كثيراً ما كان ملازمي يقول لي: رانكيليو، ستصل بعيداً جداً لأنك صامت مثل قبر ولأنك شجاع كذلك. فالكتمان والشجاعة هما أفضل خصال الجندي.

وفي ممارسـة براديليـو للسلطة، فقد الخوف من خطاياه وتمكن من التخلص من شبـح ايفـانخيلينا، اللهم إلا أثناء زيارته لبيته. لان الصبية كانت تعود حينئذ إلى اقـلاق دمـائه بمداعباتها كطفلة بلهاء، ولكنها لم تعد تبدو طفلة، فقد صار لها مظهـر امـرأة مكتملة. يوم رآها منحنية الى الوراء وهي ترتعش وتتأوه مقلدة الفعل الجنسي بشكـل مضحك، صفعته العذابات الدافئة التي كاد ينساها. ولاقصائها عن مخيلتـه لجأ الى أسـاليب يائسـة، مثل الحمامات الطويلة في المياه المثلجة عند الفجر وتنـاول مرارة الـدجـاج مع الخـل، ليرى ان كان البرد في عظامه والحِدّ في أحشائه يعيـدان اليـه الاتـزان، لكن ذلـك كله كان بلا جدوى. واخـيراً روى كل شيء للملازم خوان دي ديوس راميريث، الذي يربطه به تواطؤ قديم.

فأكد له الضابط بعد ان سمع الحكاية الغريبة الشاذة:

أنـا سأتـولى أمـر هذه المشكلة يا رانكيليـو. جميـل ان يفضي لي رجـالي بمشاكلهم. لقد أحسنت صنعاً بالثقة بي.

★★★

في يوم الفضيحــة التي وقعت في بيت آل رانكيليــو بالـذات، أمـر المـلازم رامـير يث بحجـز براديليـو في الزنزانة الانفرادية، دون أن يقدم له أية ايضاحات.

بقي الشرطي هنـاك لعـدة أيـام يعيش على الخبـز والمـاء دون معرفة السبب الذي استـدعى عقـوبته، رغـم اقتناعه بان للأمر علاقة بتصرف اخته غير اللبق. ولدى تفكـيره بذلـك لم يكن يستطيـع منـع نفسـه من الابتسـام. كان يبـدو له مستحيلاً أن تكـون هذه البنت التـافهـة مثـل دودة، والهزيلة التي ليس لها نهدان كالنساء، وانما شيء أشبه بحبتي خوخ بارزتين بين أضلاعها، قد تمكنت من رفع الملازم في الهواء وهـزه مثـل ممسحـة أمـام مرؤ وسيـه. ظن أنـه رأى ذلك في الحلم؛ فربما ان الجوع والـوحـدة واليأس قد شوشت ذهنـه، وربـما ان كل ذلـك لم يحدث مطلقاً. فيسأل نفسـه عنـدئـذ عن سبب اعتقـاله. انها المرة الأولى التي يُعتقل فيها، فهولم يعرف اذلالاً كهـذا حتى أثنـاء خدمتـه العسكـريـة. لقد كان مجنداً مثالياً كما كان شرطياً جيـداً خلال سنـوات عديـدة. كان ملازمـه يقـول له: رانكيليـو، يجب ان تكون البـدلـة العسكـريـة هي مثلك الأعلى الـوحيـد، عليـك بالـدفـاع عنهـا والثقـة برؤ سـائـك. وهـذا ما فعله على الدوام. علمه الضابط قيادة السيارات في الثكنة وجعـل منـه سائقه الخاص. كانا يذهبان معاً في بعض الأحيان لتناول زجاجة بيرة ولـزيـارة المومسات في لوس ريسكوس، كصديقين حميمين. ولهذا تجرأ على اخباره بأمـر النـوبـات التي تصيب اختـه، الحجـارة التي تسقـط على السطـح، ورقص الفنـاجـين وهيـاج الحيوانات. قال كل ذلك دون أن يتصور أنه سيذهب مع ذزينة من الـرجـال المسلحـين لانتهـاك حرمـة بيت أبـويه، وان ايفانخيلينا ستجعل منه اضحوكة وتمرغه في تراب الفناء.

كان رانكيليو يشعر بالراحة في عمله. كان روحاً بسيطة غير قادر على اتخاذ القـرارات، فهـو يفضـل الطـاعـة بصمت، ويرى أن وضع مسؤولية أعماله في يد

الآخـرين أكثـر سهـولـة. كان يتلعثم عند الكلام ويقضم أظافره حتى جذورها، تاركاً أصابعه تدمى وكأنها مبتورة.

اعتذر أمام ايرين وفرانثيسكو:

ـ لم أكن أقضمها في السابق.

كان يشعـر في الحيـاة العسكرية القاسية بسعادة أكبر من تلك التي يشعر بها في بيت والـديـه. ولم يكن يحب العـودة إلى الـريف. ففي القـوات المسلحـة وجد مهنـة، ومصـيراً واسـرة اخرى. كان يتمتع بقوة جاموس تساعده على الصمود في المناوبات وفي أقسى التدريبات، وفي ليالي الحراسة. وكان رفيقاً طيباً، يتخلى عن وجبتـه لرفيق جائـع وعن دثـاره لمقرور. وكان يتحمل المزاح الثقيل دون تذمر، ولا يفقـد طيب مزاجـه، ويشـارك في الضحك حين يسخرون من جسده الفظ ومن عضو ذكـورتـه الضخم. وكـانـوا يسخـرون كذلك من حماسه في اداء عمله، وحلمه الدائم في تقديم حياته في سبيل العَلَم كبطل. وفجأة انهار كل هذا. لم يكن يعرف سبب وجوده في هذه الزنزانة، ولم يكن قادراً على حساب الزمن الذي يمضي عليه فيها. اتصـالـه الـوحيـد بالعالم الخارجي كان بضع كلمات يهمس بها إليه الرجل المكلف بحمـل الطعـام اليـه. وقـد قدم له السجائر في مناسبتين ووعده باحضار رواية عن رعاة البقر أو بمجلة رياضية، رغم عدم وجود نور ليقرأها عليه. وفي هذه الأيام تعلم العيش بالتمتمة، وبالآمال، وبالخدع الصغيرة للتغلب على الضجر. لقد شحذ جميـع حواسـه في محاولـة للمشـاركـة في الحياة الخارجية؛ ومع ذلك، كانت وحدته رهيبة في بعض اللحظات حتى ليخيل اليه انه ميت. كان يسمع الجلبة التي تدور في الخارج، ويعرف موعد استبدال الحرس، ويحصي السيارات الداخلة إلى الفناء والخـارجـة منـه، وأحكم سمعـه للتعـرف على الأصـوات، ووقع الخطا التي يشوِّهها البـعـد. كان يحاول النـوم لكـي يمـضـي الـوقت بسـرعـة، لكن العطـالـة والكآبة أقصت النوم عن عينيه. لقد كان بامكان رجل أضأل منه أن يتمدد أو أن يمارس بعض التـمارين في هذا المجـال، أمـا رانكيليـو فكـان كالمقيد. عشش قمل الفـرشـة في رأسـه وتكاثر بسرعة مذهلة. وصارت الصئبان تقرصه تحت ابطيه وفي

عانته وتضطره إلى الحك حتى يدمى. كان لديه سطل لقضاء حاجته فيه، وحين يمتلىء تصبح النتانة هي عذابه الأعظم. فكر ان الملازم راميريث يختبره. وانه ربما يريد التأكد من مقاومته وصلابة طبعه قبل أن يكلفه بمهمة خاصة، ولهذا لم يلجأ إلى الاستئناف الذي له الحق فيه خلال الأيام الثلاثة الأولى. حاول الاحتفاظ بالهدوء، والصمود وعدم البكاء أو الصراخ كما كان يفعل جميع المعزولين تقريباً. أراد أن يقدم مثلاً في الصلابة الجسدية والمعنوية، كي يقدر الضابط معدنه، وليثبت له انه لن يضعف حتى في أقسى ظروف القسوة. حاول المشي في دائرة لينشط عضلاته ويحول دون خدرها، فاستحال عليه ذلك، لأن رأسه كان يصطدم بالسقف، وكانت ذراعاه تصطدما بالجدار إذا ما حاول شدهما. لقد اعتقلوا في بعض الأحيان ستة أشخاص في هذه الزنزانة ذاتها، ولكن لأيام قليلة فقط، وليس لمثل هذا العدد من الأيام التي أمضاها هو، ثم أن أولئك لم يكونوا معتقلين عاديين، وانها أعداء للأمة، وعملاء للسوفييت وخونة، كما قال له الملازم بكل وضوح. ان جمود الجسد الاضطراري هذا بدأ يتسرب إلى ذهنه أيضاً، هو المعتاد على ممارسة التمارين وعلى الهواء الطلق، فصار يصاب بالاغماء، وينسى الأسماء والأماكن، ويرى ظلالاً فظيعة. ولكي لا يصاب بالجنون كان يغني بصوت خافت. وقد أفرحه ذلك، رغم ان خجله كان يمنعه من الاقدام على الغناء في الظروف العادية. لقد كانت ايفانخيلينا تحب الاستماع اليه، وتصغي صامتة وعيناها مغمضتان، وكأنها تسمع أصوات حوريات. غن لي، غن لي اكثر. لقد فكر بها كثيراً خلال مدة حبسه، تذكر كل حركة من حركاتها بدقة، والرغبة المحرمة التي تقاسماها منذ طفولتيهما. كان خياله ينطلق به ليضع وجه اخته مكان أجرأ المومسات اللواتي مارس معهن، فكانت هي من تنفتح مثل بطيخة طازجة، حمراء، ومليئة بالرحيق وفاترة. وهي من تتعرق رائحة نفاذة كرائحة المحار. وهي التي تعضه، تخمشه، تمصه، تئن، تحتضر اختناقا ولذة. كان يتخيل انه يغرق في لحمها الجنون إلى ان يفقد أنفاسه ويتحول إلى اسفنجة، إلى رئة أو نجمة بحرية في أعالي البحار. كان قادراً على قضاء ساعات طويلة في مداعبة شبح

ايفانخيلينا، لكن ساعات اخرى طويلة كانت تزيد دوماً. فبين هذه الجدران كان الـزمن متـوقفاً في لحظة سرمدية. وصل في بعض الأحيان إلى حافة الجنون، وفكر بضـرب رأسـه في الجدار الى أن يدميه الضرب، ويسيل الدم من تحت الباب وينبه الحارس، لعلهم ينقلونه إلى العيادة على الأقل. وفي مساء أحد الأيام كان على وشك ان يفعل ذلك، حين ظهر الرقيب فاوستينو ريفيرا. فتح الكوة التي في الباب الحديدي، وأدخل له سجائر وكبر يت وشكولاته.

ـ الشباب يبعثـون اليـك تحيتهم. سيشـتـر ون لك شموعاً ومجلات لتتسلى بها، انهم قلقون عليك ويريدون التحدث مع الملازم عله يرضى برفع العقوبة عنك.

ـ ولماذا وضعني هنا؟

ـ لست ادري، ربما بسبب اختك.

ـ انني ضائع ولا بد أيها الرقيب.

ـ هكذا يبدو. جاءت أمك لتسأل عنك، وعن ايفانخيلينا أيضاً.

ـ ايفانخيلينا؟ ماذا أصابها؟

ـ ألا تعرف؟

فصرخ براديليو وهو يهز الباب كمجنون:

ـ ماذا جرى لاختي؟

قال الرقيب:

ـ أنا لا أعرف شيئاً. لا تصرخ، إذا ما فاجأوني هنا، فسأدفع الثمن غالياً يا رانكيليو. لا تيأس، أنا قريبك وسوف أساعدك. سأرجع عما قريب.

ومضى مبتعداً.

انهار رانكيليو على الأرض، وكل من مرّ بالفناء، حينئذ استطاع ان يسمع بكـاء رجـل هز الضـمائـر طوال ساعـات. شكـل اصـدقـاؤه لجنـة للتـوسط لدى الضـابـط، لكنهم لم يتـوصلوا إلى شيء. فانتشـر التـذمـر بين الـرجال، وصاروا يتمتمـون في المـراحيض، وفي الممـرات، وفي صالـة الأسلحة. لكن الملازم خوان

دي ديـوس رامـير يث تجاهلهم . عنـدئذ قرر فاوستينو ريفيرا ، أكثرهم حيطة ، أن يضـع الأمـور في نصابها . فاستغل بعد يومين من ذلك عتمة الليل وغياب الضابط ليقـترب من زنـزانـة السجـين المنفرد. رآه الخفير يدنو، وأدرك نواياه في الحال، فتظاهر بالنـوم ، لأنـه كان يرى كذلك ان هذا العقاب بحق رانكيليوا جائر. تناول الرقيب المفتـاح المعلق بمسـمار على الجدار دون أن يحاول التخفي أو يتفادى اثارة ضجة ، واتجـه إلى البـاب الحديدي . أخرج رانكيليو من سجنه ، وأعطاه ملابسه وسلاحه النظامي مع ست طلقات ، وقاده إلى المطبخ حيث قدم له وجبة مزدوجة . ثم أعطاه بعض المـال الـذي جمعـه عنـاصر الوحدة وحمله إلى أبعد ما يستطيع عن الثكنة في سيارة الجيب . من رأوهما ، نظروا إلى الجانب الآخر ولم يشاؤوا أن يعرفوا شيئاً عن التفاصيل ، وقالوا : للرجل الحق بالثأر لاخته .

أمضى براديليـو رانكيليـوا نحـو اسبـوع وهـو يزحف في الليـل ويختفي في الحقول دون حراك اثناء النهار، ولم يتجرأ على طلب المساعدة من أحد ، لأنه كان يتخيـل غضب المـلازم حين سيكتشف هروبـه ويعلم ان الحـراس لا يستطيعـون رفض الأوامر بالبحث عنه في السماء والأرض . قبع في الظلال منتظراً إلى ان قاده الجوع واليأس أخيراً إلى بيت والـديـه . كان الـرقيب ريفيرا قد زار البيت وروى لديغنا ما كان قد اخبره به ، وبهذا لم تكن هنالك من حاجة للحديث . فالثأر مسألة تخص الرجال . كان ريفيرا قد طلب منه وهو يودعه أن يبحث عن اخته ، لكن ما أراد قوله في الحقيقة هو أن يثأر لها ، وبراديليو متأكد من ذلك . كان واثقاً من موتها . لم تكن لديه أية أدلة ، لكنه يعرف رئيسه بما يكفي ليفترض ذلك .

قال لفرانثيسكو وايرين وهما في المغارة :

ـ سيكون قيامي بواجبي مكلفاً ، لأنهم سيقتلونني إذا ما نزلت من هذا الجبل .

ـ لماذا؟

لأني أحمل سراً عسكرياً .

ـ إذا كنت تريدنا أن نساعدك فعليك ان تخبرنا به .

ـ لن أبوح به أبداً.

كان منفعلاً جداً، يتعرق ويقضم أظافره، ويلمع في عينيه بريق ذعر. كان يمر بيده على وجهه وكأنه يريد أن يبعد عن ذهنه ذكريات فظيعة. لاشك أن لديه شيئاً كثيراً يقوله، لكنه كان مقيداً بأحزمة صمت هائلة. تمتم قائلاً انه من الخير له ان يموت سريعاً، لأنه لا مفر له من هذا المصير. وحاولت ايرين طمأنته، يجب عليه ألا ييأس، فسيجدان طريقة لمساعدته، والمسألة هي مسألة بعض الوقت. وكان فرانثيسكو يرى في تلك القصة عدداً من النقاط الغامضة ويشعر بالريبة الغريزية؛ لكنه يسترجع في الوقت ذاته اتصالاته باحثاً عن رجل ينقذ حياة هذا الرجل.

وفي اللحظة الأخيرة، قال براديليو:

ـ إذا كان الملازم راميريث قد قتل أختي فأنا أعرف أين خبأ جثتها. أتعرفان منجم لوس ريسكوس المهجور؟

وقطع كلامه فجأة، نادماً على ما قاله. ومع ذلك، ومن تعابير وجهه ونبرة صوته، أدرك فرانثيسكو انه لا يتكلم عن احتمال، وانما عن يقين. لقد قدم لهما طرف خيط.

كان الوقت أصيلاً حين ودعاه وبدأا النزول، تاركين رانكيليو مكروباً، يجتر أفكار الموت. كان نزول الجبل شاقاً كصعوده، وخاصة بالنسبة لايرين التي كانت تنظر إلى الهوة السحيقة مرتجفة، لكنها لم تتوقف إلى أن وصلت إلى حيث تركوا الجوادين. هناك تنفست الصعداء، ونظرت إلى الجبل، فبدا لها مستحيلاً انها قد تسلقت هذه القمم الوعرة التي تتلاشى في لون السماء.

قال فرانثيسكو:

ـ هذا يكفي اليوم. سأرجع فيما بعد ومعي بعض الأدوات لأرى ما يوجد في ذلك المنجم.

فقالت ايرين:

ـ وأنا معك.

نظر كل منهما إلى الآخر وأدركا انهما قد قبلا كلاهما الوصول إلى نهاية هذه المغامرة التي قد تقودهما إلى الموت، أو إلى ما هو أبعد منه.



تقدمت بياتريس الكانترا تضرب كعبيها بغطرسة على لينليوم المطار النظيف، سائرة وراء الحمال الذي كان يحمل حقائبها الزرقاء. كانت ترتدي فستاناً من الكتان مفتوحاً حول العنق وله لون البندورة، وتربط شعرها فوق رقبتها، لأنها لم تجد في نفسها الرغبة الكافية لتصفيفه باتقان. وكانت تتدلى من اذنيها لؤلؤتان باروكيتان كبيرتان تُظهران لون السكر المحروق الذي لبشرتها وبريق عينيها القاتمتين اللتين تشعان راحة جديدة. فساعات الطيران الطويلة في المقعد غير المريح، برفقة راهبة غاليسية، لم تنزع منها سعادة لقائها الأخير مع ميشيل. كانت تشعر انها امرأة اخرى، متجددة الشباب وخفيفة. وكان اعتزاز من تعلم انها جميلة يضفي على مشيتها ايقاعاً متغطرساً. فعيون الرجال تلاحقها، دون ان يشك أي منهم في عمرها الحقيقي. إذ انها ما تزال قادرة على ارتداء الملابس المفتوحة حول العنق وهي مطمئنة، دون ان تظهر آثار في الصدر تشي بحقيقة سنها، ودون ان تبدو في ذراعيها أية ترهلات، بينما يحتفظ ساقاها باستدارتهما الرقيقة وخط ظهرها باستقامته الشامخة. كان هواء البحر قد منح وجهها نفحة احتفالية، وتكفلت ريشة المكياج باخفاء التجاعيد الخفيفة عند جفنيها وفمها. يداها وحدهما، المليئتان بالبقع والاخاديد رغم المراهم السحرية، كانتا تشيان بمرور الزمن. لقد كانت راضية عن جسدها. فهي تعتبره انجازها وصنع يديها وليس من صنع الطبيعة، لأنه الحصيلة النهائية لقوة ارادتها الهائلة، ونتيجة سنوات من الحمية والتمارين والمساجات واسترخاءات اليوغا والتقدم في صناعة مستحضرات التجميل. كانت تحمل في حقيبة يد امبولات زيت للنهدين، ودهناً للعنق، وسوائل وكريمات هرمونية للبشرة ومستحضرات مستخرجة من النمس المسكي للشعر، وكبسولات

الـرُب الملكي وبـودرة الشباب الأبدي ، وأدوات وفراش مصنوعة من عرف الفرس للحفـاظ على مرونـة انسجتهـا . انهـا معـركـة خاسـرة يا أماه ، فالعمر لا يتراجع والشيء الوحيد الذي قد تحصلين عليه هو بعض التأجيل فقط . أيستحق الأمر كل هذا العنـاء؟ حين تستلقي تحت الشمس على رمـال أحـد الشـواطيء المـداريـة الدافئة ، دون أية ملابس سوى قطعة قماش مثلثة على عضوها ، وتقارن نفسها مع نسـاء يصغـرنهـا بعشرين سنة ، تبتسم فخورة . أجل يا ابنتي ، انه يستحق العناء .

حين تدخـل أحـد الصـالـونـات أحيـاناً ، تشعر بالجو المشحون بالحسد وبالرغبة ، فتعلم حينئـذ ان جهـودهـا تعطي نتـائـج . ولكنهـا حين تكون بين ذراعي ميشيل بشكل خاص ، تصل إلى القناعة بان جسدها هو رأسمال رابح ، لأنه يمنحها المتعة العظمى .

كان ميشيـل يجسـد ترفهـا السـري ، والتأكيد على تقويمها لنفسها ، ومبر ر غرورهـا الـداخـلي . كان أصغـر منهـا سناً ، حتى يمكن الاعتقاد انه ابنها . طويل القـامـة ، عريض الكتفـين وضيق الوركين مثل مصارع ثيران ، شعره حائل اللون لكثرة تعرضه للشمس ، وعيناه زرقاوان ، ولصوته نبرة عذبة عند الكلام ، وهو يتقن كل المعـارف الـلازمة لممارسة الحب . ان حياة البطالة ، وممارسة الرياضة ، وانعدام القيـود تطبـع ابتسامة دائمة على وجهه وتمنحه قدرة على المتعة . نباتي ، لا يتناول المسكرات ، عدو للتدخين ، ليست لديه أية هموم ثقافية ، وأعظم متعه هي اللهو في الهـواء الطلق واللقـاءات الغـراميـة . عذب ، رقيق ، بسيـط ، وطيب المـزاج على الـدوام ، يعيش في دنيـا اخـرى ، وكأنـه ملاك هبط إلى الأرض نتيجة خطأ . كان يبتدع الاساليب التي تجعل حياته تمضي في اجازة دائمة . تعارفا على شاطيء ذي أشجار نخيل مائلة ، وحين ضم كل منهما الآخر للرقص في عتمة الفندق أول مرة ، ادركا انه لا بد لهما من لقاء اكثر حميمية . وفي تلك الليلة بالذات فتحت بياتريس باب حجرتهـا يراودهـا احساس بأنها فتاة مراهقة . كان بها شيء من الرهبة لخوفها من ان يكتشف علامات صغيرة تشي بحقيقة سنها ، لكن ميشيل لم يتح لها الوقت لمثل تلك المخـاوف . فقـد أضـاء النـور مستعـداً للتعـرف عليها معرفة كاملة . وفيما هو

يقبلها بشفتين خبيرتين، كان يعريها من كل زينتها: اللؤلؤتين الباروكيتين، الخواتم الماسية، وسوارات العاج. . إلى أن جعلها عارية ومكشوفة. حينئذ تنهدت مطمئنة، لأنها وجدت في عيني عشيقها التأكيد على جمالها. نسيت مرور السنوات، واستنزاف الصراع والسأم الذي غرسه رجال آخرون في روحها، وتقاسمت معه علاقة سعيدة لم يسمياها كلاهما حباً.

كان القرب من ميشيل يبهج بياتريس ويجعلها تنسى جميع همومها. فلهذا الرجل القدرة الخارقة التي تجعله يمحو بقبلاته من ذاكرتها مسني «مشيئة الرب» المقعدين، وشذوذات ابنتها ومصاعبها المادية. لأنها لا ترى وهي معه سوى الحاضر. كانت تشم فيه رائحة الحيوان الفتي، وانفاسه النظيفة، وعرق بشرته الناعمة، وأثر ملوحة البحر في شعره؛ وتلمس جسده، وشعر صدره الخشن، ونعومة خديه الحليقين، وقوة ذراعيه، وصلابة عضوه المتجددة. لم تعرف حباً ولا جماعاً مثل هذا من قبل. فعلاقتها بزوجها كانت مصبوغة بأحقاد متراكمة وصدّ لا ارادي، وكان عشاقها العابرون رجالاً متقدمين في السن يعوضون نقص قوتهم بفنون من التصنع. فلم تكن تحب أن تتذكر شعورهم الخفيفة، وأجسادهم المترهلة، وروائحهم الوبيلة التي هي مزيج من رائحة التبغ والخمر، وأعضاءهم التي تندفع بمشقة، وهداياهم البائسة ووعودهم الخادعة. أما ميشيل فلايكذب.

لم يقل لها أبداً: أحبك، وانما: تعجبينني. . أشعر بالراحة إلى جانبك. . أريد ممارسة الحب معك. كان مسرفاً في السرير، منهمكاً في تقديم السعادة لها، وارضاء أهوائها، واستنباط متع جديدة لها.

كان ميشيل يمثل الجانب الخفي والاكثر اضاءة في حياتها. وكان يستحيل عليها اطلاع أحدد على هذا السر، لأن أحداً لن يتفهم عاطفتها تجاه رجل أصغر منها بكثير. ويمكنها أن تتصور التعليقات التي سيتبادلها معارفها إذا ما علموا بالأمر: بياتريس فقدت عقلها من أجل صبي أجنبي، لا شك انه يستغلها ويجردها من كل أموالها، عليها ان تخجل وهي في مثل هذه السن. لن يصدق أحد الفرح المشترك والحنان، ولن يقتنع أحد بصداقته لها، وبانه لا يطلب منها شيئاً

على الاطلاق، ولا يقبل هداياها. كانا يلتقيان مرتين في السنة، في أي مكان من الخريطة، ليعيشا أياماً من الأمل تعود بعدها وجسدها شاكر وروحها منشرحة، فتمسك بياتريس الكانترا بزمام أمورها من جديد، وتتولى مسؤولياتها، وترجع إلى علاقاتها المتأنقة مع عشاقها المعهودين، من مترملين ومطلقين وأزواج خائنين لزوجاتهم ومخادعين مزمنين يغدقون عليها اهتمامهم دون أن يمسوا قلبها.

اجتازت البوابة الزجاجية التي تفصل المنطقة المسيجة في المطار، ورأت ابنتها في الجانب الآخر ذائبة وسط الجموع. كان يرافقها ذاك المصور الذي لم يعد يفارقها في الشهور الأخيرة، ما اسمه؟ ولم تستطع ان تواري تكشيرة ضيق وهي ترى ايرين مهملة لمظهرها إلى هذا الحد. فحتى حين كانت تلبس ثيابها الغجرية، كانت تُظهر شيئاً من الأصالة على الأقل، أما وهي بهذا البنطال المجعد وشعرها المربوط مثل ذيل فانها تبدو كمعلمة ريفية. وعندما دنت منها لمحت علامات اخرى مثيرة للقلق، لكنها لم تتمكن من تحديدها. فقد رأت في عينيها مسحة كآبة، وتكشيرة في فمها، ولم تستطع التحقق من امارات وجهها الأخرى لانشغالها بوضع الحقائب في السيارة والانطلاق في الطريق إلى البيت.

ـ أحضرت معي ملابس فاخرة لجهاز عرسك يا ابنتي.

ـ ربما لن أستطيع استخدامها يا ماما.

ـ ماذا تعنين؟ هل حدث شيء مع خطيبك؟

نظرت بياتريس إلى فرانثيسكو ليال عرضاً وكاد أن يصدر منها تعليق لاذع، لكنها اعتصمت بالصمت إلى ان تنفرد بايرين. أخذت نفساً عميقاً ملأ رئتيها ثم زفرت الهواء في ست دفعات متتالية، مرخية عضلات عنقها ومفرغة روحها من كل عدوانية، لتضع نفسها في انسجام ايجابي، كما يعلمها معلم اليوغا. أحست بالتحسن للحال وصار بامكانها الاستمتاع بمنظر المدينة البديع في الربيع، وبالشوارع النظيفة، والجدران حديثة الطلاء، والناس المهذبين والمنضبطين، وأحست انه لا بد من شكر السلطات على ذلك، فكل شيء مراقب جيداً وتحت السيطرة. تأملت واجهات المحال التجارية المترعة بالبضائع الأجنبية التي لم تكن

تستهلك في البلاد من قبل، والأبنية الفخمة التي أقيمت على سطوحها مسابح مسيجة بقصب قصير، ومجمعات الاسمنت الحلزونية حيث المتاجر الخيالية لارضاء أهواء الأثرياء المحدثين، والاسوار التي تخفي منطقة البؤس، حيث الحياة تسير بعيداً عن نظام الزمن وقوانين الرب. فأمام استحالة القضاء على البؤس، فُرض الحظر على ذكره. أخبار الصحافة كانت مطمئنة، فهم يعيشون في مملكة مسحورة. أما الشائعات عن نساء وأطفال يسطون على المخابز بدافع الجوع فليست إلا أكاذيب. والمساوىء الجديدة لا وجود لها إلا في الخارج، حيث العالم بأسره يعاني من مشاكل لا حلّ لها، لكنها لا تمس الوطن الفاضل. وتذرع الشوارع سيارات يابانية شديدة الهشاشة حتى لتبدو وكأنها صُنعت لتستبدل؛ وفي كل ناحية اعلانات تعرض للبيع مساكن مخصصة لفئة محددة من الناس، واخرى تعلن عن رحلات ماركو بولو بالتقسيط وعن آخر منجزات الالكترونيات. وتتزايد دور اللهو بأضوائها المشعة وأبوابها المحروسة حتى ساعة حظر التجول. ويدور الحديث عن الثراء وعن المعجزة الاقتصادية، ورؤوس الأموال الأجنبية التي جذبها بغزارة صلاح النظام. أما المتبرمون فهم معادون للوطن، لأن السعادة اجبارية. وبموجب قانون تمييز غير مكتوب، لكنه معروف للجميع، كان هناك بلدان اثنان يموجان ضمن التراب الوطني نفسه: اولهما بلد النخبة الذهبية والقوية، والآخر بلد الكتلة الهامشية الصامتة. ويفسر الاقتصاديون الشباب من اتباع المدرسة الجديدة الأمر قائلين: انه الثمن الاجتماعي. فتردد وسائط الاعلام هذا الكلام.

توقفت السيارة عند شارة ضوئية، دنت ثلاثة كائنات صغيرة ترتدي الاسمال لتمسح زجاج السيارة الامامي، ولتعرض للبيع بطاقات دينية وأبر خياطة، أو لطلب صدقة وحسب. تبادل فرانثيسكو وايرين النظرات، لأنهما كانا يفكران بالشيء نفسه:

قالت ايرين:

- في كل يوم يزداد عدد الفقراء.

فردت بياتريس معترضة:

ـ هل ستبدئين هذه الترتيلة؟ في كل مكان يوجد متسولون. كل ما في الأمر ان الناس هنا لا يريدون أن يشتغلوا، انه بلد ضعفاء.

ـ ليس هناك عمل للجميع يا أماه.

ـ وماذا تريدين؟ ألا تكون ثمة فروق بين الفقراء وبين الناس المحترمين؟

أحست ايرين بالخجل ولم تتجرأ على النظر إلى فرانثيسكو، لكن أمها تابعت باصرار:

ـ هذه مرحلة انتقالية، وعما قريب ستتحسن الأمور. لدينا نظام على الأقل الآن، أليس كذلك؟ ثم ان الديمقراطية تقود إلى الفوضى، لقد قال الجنرال ذلك ألف مرة.

أمضوا بقية الطريق صامتين. وعند وصولهم إلى البيت، حمل فرانثيسكو الحقائب الى الطابق الثاني، حيث كانت روسا تنتظر مضيئة الأنوار. شكرته بياتريس على هذه اللفتة ودعته للعشاء معهما. وكانت تلك هي لفتتها الودية الوحيدة، فوافق على الفور.

قالت ايررين:

ـ قدمي الطعام باكراً يا روسا، فلدينا مفاجأة في «مشيئة الرب».

كانت بياتريس قد أحضرت معها، بناء على رغبة ابنتها، هدايا صغيرة للمسنين وللعاملات في خدمتهم. واشترت ايرين حلوى وأعدت شراب بونش الفواكه لاقامة حفلة. بعد العشاء نزلوا إلى الطابق الأول، حيث كان النزلاء ينتظرون وهم يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب، والمشرفات يزدهين بمرايل بيضاء منشاة. وكانت أول أزهار الفصل تشرئب من المزهريات لترحب بالسيدة.

أعلنت خوسيفينا بيانتشي، الممثلة، انها ستمتعهم بتقديم مشهد تمثيلي. التقط فرانثيسكو غمزة من ايرين، فهم منها انه يشارك في مؤامرة سرية، فأراد الانسحاب قبل فوات الأوان، لأن السخرية من الآخرين كانت تسبب له الألم. لكن صديقته لم تتح له الوقت ليختلق عذراً وينسحب. أجبرته على الجلوس إلى جانب روسا وأمها على مقاعد الشرفة، واختفت مع خوسيفينا في داخل البيت.

انتظروا لبضعة دقائق أحس فرانثيسكو خلالها بالضيق. كانت بياتريس تدلي بتعليقات تافهة حول الأماكن التي زارتها في رحلتها، فيما المشرفات يضعن المقاعد مقابل نافذة المطبخ. جلس النزلاء متدثرين بالشالات والحرامات، لأن التقدم بالسن يجمد العظام إلى حد لا يمكن معه لليلة ربيعية ان تخفف من برودة الشيخوخة. أطفأوا مصابيح الحديقة، وطغت على الجو انغام سوناتا قديمة، ثم ازاحوا الستارة. وحار فرانثيسكو لبرهة متردداً بين الحياء الذي يدفعه الى الهرب وبين سحر هذا الاستعراض غير المألوف. ظهر أمام عينيه مشهد مغمور بالضوء، مثل بحيرة في الظلام. وقطعة الأثاث الوحيدة في المشهد الفسيح الخاوي كانت اريكة من البر وكار الأصفر إلى جانب مصباح ذي قاعدة وكُمّة من الرق، ينشر دائرة ذهبية من الضوء تبدو وسطها امرأة من الماضي، روح من القرن التاسع عشر لم تتبدل. لم يتعرف فرانثيسكو أول الأمر على خوسيفينا بيانتشي وظنها ايرين، لأن آثار الزمن كانت قد اختفت من ذلك الوجه. فالفتور، والإغراء، والانسجام كانت بادية في كل حركة من حركاتها. كانت ترتدي فستاناً فاخراً ذي كشاكش ومطرزاً بلون العاج، وكان ذلك الفستان باهتاً، مجعداً، لكنه ما يزال يحتفظ بروعته رغم رماد السنين والسفر الطويل في الحقائب والصناديق. وكان حفيف حريره الناعم يُسمع عن بعد. بدت الممثلة وهي جالسة كأنها تطفو بخفة حشرة طيارة، مسترخية، حسية، انوثية إلى أقصى الحدود. وقبل ان يتهالك فرانثيسكو نفسه من وقع المفاجأة، صمتت الموسقى وسمع صوت غادة الكاميليا دون سن محددة، ففقد مقاومته واستغرق في سحر ذلك العرض. كانت تصل إلى اذنيه مأساة المومس، والحسرة الطويلة التي لا يشوبها نشاز، مما ضاعف من شدة تأثيرها. كانت تصد الحبيب اللا مرئي باحدى يديها، وتتوسل اليه وتداعبه باليد الاخرى. وبدا المسنون غائبون وصامتون وكلهم يعيشون ذكرياتهم، وأحست المشرفات المذهولات بتلك المرأة الهشة والخفيفة التي يمكن لنفخة أن تحولها الى غبار، احسسن بصدورهن مفعمة بالتأثر. ولم يكن هناك من هو قادر على السهو عن ذلك السحر.

أحس فرانثيسكو بيد ايرين على كتفه، لكنه كان عاجزاً عن الالتفات، مسحوراً بالاستعراض حين انطلقت نوبة سعال حادة، كجزء من المشهد التمثيلي أو بسبب الشيخوخة، ووضعت حداً لكلمات العاشقة الخالدة. كانت عيناها تتقدان وتوشكان على البكاء. سيطر عليه الاسى، ولم يستطع التصفيق مع الآخرين، ثم نهض عن مقعده وسار نحو طرف الحديقة، إلى المكان الأكثر ظلمة، فتبعته الكلبة متقافزة بين قدميه. ومن هناك راقب حركة المسنين والمشرفات وهم يتناولون البونشو ويفتحون هداياهم بأصابع مترددة، فيما مرغريتا غاوتيير، وقد كبرت مئة سنة بشكل مفاجىء، تبحث عن حبيبها ارماندوا دوفال حاملة في احدى يديها مروحة من الريش، وفي اليد الأخرى قطعة من حلوى الكريمة. أشباح تنزلق بين المقاعد وتتسكع في الممرات المحفوفة بالازهار وبشذى الياسمين العابق، وببريق المصابيح الأصفر. فساهم كل ذلك في خلق احساس بالنعاس. وكان هواء الليل يبدو مترعاً بالنبوءات.

بحثت ايرين عن صديقها، وحين رأته اقتربت منه مبتسمة. ولاحظت حينئذ تعابير وجهه وأدركت ماهية الانفعالات التي تنتابه. أسندت جبهتها إلى صدر فرانثيسكو، فداعب شعرها المشعث بفمه.

ـ بماذا تفكر؟

كان يفكر بأبويه. فبعد بضع سنوات سيصبحان في سن نزلاء «مشيئة الرب» الذين انجبوا مثلهما أولاداً للدنيا وعملوا بلاكلل لتقديم العون لهم، دون أن يدور في خلدهم انهم سينهون آخر أيامهم وينتظرون الموت محاطين بعناية أيدٍ مأجورة. كان آل ليال يعيشون دوماً كما في قبيلة، متقاسمين البؤس والسعادة، والألم والأمل، مرتبطين بوشائج الدم والمسؤولية. وما زالت هناك عائلات كثيرة تعيش هكذا؛ وربما كان المسنون الذين شهدوا عرض خوسيفينا بيانتشي هذه الليلة لا يختلفون عن أبويه. ومع ذلك، فهاهم وحيدون. انهم الضحايا المنسية للريح التي شتتت شمل الناس في كل الجهات، المؤجلون من الشتات، ومن بقوا دون مكان خاص بهم، ودون موقع في الأزمنة الجديدة. ليس لهم أحفاد قريبون

يعتنـون بهم أويرونهم يكـبر ون، ولا أبنـاء يسـاعـدونهم في مهمة العيش، وليس لديهم حديقـة يزرعـون فيهـا بذوراً، ولا كنـاري يغني عنـد الغـروب. شغلهم الشـاغـل هو تفـادي الموت من خلال التفكير به على الدوام، من خلال احتضانه والخوف منه. أقسم فرانثيسكو انه لن يسمح بحدوث مثل هذا لأبويه أبداً. وكرر الوعد بصوت عال صدر من شفتيه المختفيتين في شعر ايرين.

# القسم الثالث

# الوطن العذب

حين أسـافـر بعيـداً عن ارضنا ،
تحيا معي هناك في البعيد ، عناصر وطني الطولاني .

بابلو نيرودا

بعد زمن سيتساءل كل من ايرين وفرانثيسكو عن اللحظة التي انعطف فيها مسار حياتيهما بالتحديد، وسيشيران إلى يوم الاثنين المشؤوم، ذلك اليوم الذي دخلا فيه إلى منجم لوس ريسكوس المهجور. ولكن ربما كان الانعطاف قبل ذلك، في يوم الأحد الذي تعرفا فيه على ايفانخيليا رانكيليو، أو في مساء اليوم الذي عاهدا فيه ديغنا على البحث عن الفتاة المفقودة، أو ربما كانت دروبهما مخطوطة منذ الأزل ولم يستطيعا إلا اجتيازها.

ذهبا الى المنجم على الدراجة النارية - فهي أكثر كفاءة من السيارة في الأراضي الوعرة - وحملا معهما بعض ادوات الحفر، وترمس مليء بالقهوة الساخنة ومعدات التصوير، دون أن يذكرا لأحد الغرض من الرحلة لشعورهما المشترك بأنهما يقترفان حماقة بعملهما هذا. فقد علما كلاهما، مذ اتخذا قرار فتح المنجم، ان مجازفتهما قد تكلفهما حياتيهما.

درسا المخطط إلى ان حفظاه عن ظهر قلب وتأكدا من انهما يستطيعان الوصول إلى هدفهما دون أن يسألا أحداً أسئلة قد تثير الشكوك. لم يكن هناك أية أخطار في ذلك الريف ذي التلال الوديعة، ولكن لدى الدخول في دروب الجبال الوعرة، حيث تخيم الظلال قبل غياب الشمس بوقت طويل، تحول المشهد إلى مكان وعر وموحش، وصار الصدى يعيد اندفاع أفكارهما المتدافعة مع صرخة

الصقر النائية. وقدّر فرانثيسكو القلق انه ليس من المناسب اصطحاب صديقته في مغامرة يجهل أبعادها.

لكنها سخرت منه، وربما كانت محقة في قولها:

ـ أنت لن تأخذني معك إلى أي مكان، بل أنا التي ستأخذك معها.

كانت هناك لوحة متآكلة بالصدأ، لكنها ما تزال مقروءة، تقول إن المكان مسيج ومحروس، ومحظور الدخول اليه. وكانت بعض الاسلاك الشائكة تسد الطريق بصورة متوعدة، فراودت الشابين للحظة الرغبة في التذرع بهذه الحجة ليرجعا على اعقابهما، لكنهما استبعدا فكرة التهرب في الحال وبحثا عن ثغرة في شبكة الاسلاك ليُدخلا منها الدراجة النارية. لقد جاءت اللوحة الصدئة والاسلاك الشائكة لتؤكد هواجسهما بوجود شيء جدير بالاكتشاف. وكما خططا، فقد اكتنفهما الليل عند وصولهما إلى هدفهما، مما سيسهل من حركتهما. كان مدخل المنجم عبارة عن فجوة في الجبل تطل مثل فم أبكم يصرخ دون صوت. وكانت تلك الفجوة مسدودة بأحجار وتراب موطوء وبنوع من البناء. راودهما احساس بان أحداً لم يطأ هذا المكان منذ سنوات. فالعزلة تبدو وكأنها استقرت هناك لتبقى مقيمة الى الأبد، ماحية آثار الدروب وذكرى الحياة. خبأا الدراجة النارية تحت بعض النباتات الكثيفة، وجابا المكان بعد ذلك في جميع الاتجاهات ليتأكدا من عدم وجود حراسات. وبعثت نتيجة التفتيش الطمأنينة في نفسيهما، لأنهما لم يجدا اثراً بشرياً في المنطقة المحيطة، ولم يكن هناك سوى كوخ بائس صغير مهجور للريح والنباتات البرية، على بعد مئة متر من المنجم. وكانت الريح قد أطارت نصف سقفه، وانهار أحد جدرانه على الأرض، بينما غزت النباتات أرضه مغطية كل شيء بسجادة من العشب البري. بدت لهما هذه العزلة وهذا الهجران في مكان شديد القرب من لوس ريسكوس ومن الطريق العام أمراً مريباً.

همست ايرين:

ـ انني خائفة.

ـ وأنا كذلك.

نزعا غطاء الترمس وشربا رشفة كبيرة من القهوة، أراحت جسديهما وروحيهما. تمازحا بالقول ان كل هذا ليس إلا لعباً وحاول كل منهما أن ينقل إلى الآخر عدوى الاعتقاد بانه لا يمكن لأي ضرر ان يطالهما، هما المحميان بروح خيرة. كانت ليلة مقمرة، وسرعان ما اعتادا على العتمة، فتناولا المعول والمصباح اليدوي واتجها إلى الحفرة. لم يكن أي منهما قد رأى منجماً من الداخل من قبل، وكانا يتخيلانه مثل مغارة في الأرض تصل إلى أعماق سحيقة. وتذكر فرانثيسكو ان التقاليد تحظر وجود النساء في المناجم، لانهن يجلبن الكوارث تحت الأرضية، لكن ايرين سخرت من هذه الخرافة، وأصرت على مواصلة التقدم بأي شكل.

انقض فرانثيسكو على المدخل بمعوله. كانت خبرته قليلة في هذا النوع من الأعمال الشاقة، وكان لا يكاد يحسن استخدام المعول، فأدرك ان العمل سيستغرق أكثر مما توقعاه. لم تحاول صديقته مساعدته، بل جلست على صخرة، متدثرة بكنزتها الصوفية، لتحمي نفسها من الهواء الذي يندفع بقوة في ممرات الجبال الضيقة. كان أي صوت غريب يفزعها، وكانت تخشى وجود ضوارٍ، أو ما هو أسوأ من ذلك، وجود جنود يتر بصون في مكان قريب منهما. حاولا أول الأمر ألا يصدرا أية ضجة، لكنهما ما لبثا أن رضخا لما لا مفر منه، لأن ضربة المعدن على الصخر كانت تنتشر عبر الجبال القريبة، فيتلقفها الصدى ويكررها ألف مرة. ولو كانت هناك دوريات، كما يقول الاعلان، فليس أمامهما من مفر. وقبل مضي نصف ساعة كانت أصابع فرانثيسكو قد تشنجت وامتلأت راحتا يديه بالفقاقيع، ولكن مجهوده أدى إلى فتح ثغرة استطاعا انطلاقاً منها ان يزيحا المواد المفتتة. فساعدته ايرين وتمكنا من فتح فجوة واسعة تكفي للإنزلاق عبرها إلى الداخل.

أشار فرانثيسكو إلى الحفرة وقال مازحاً:

ـ السيدات أولاً.

وببلاغة اكبر من أي جواب، أعطته المصباح اليدوي وتراجعت خطوتين إلى الوراء. أدخل الشاب رأسه وذراعيه في الحفرة منيراً أعماقها بالمصباح،

فصفعت انفه هبة هواء منتن. كان على وشك التراجع، لكنه فكر بانه لم يصل إلى هنا ليتخلى عن المهمة قبل أن يبدأ بها. أضاءت حزمة الضوء بقعة في الظلام ليظهر رواق ضيق، لم يكن يشبه في شيء تصوارته عن الناجم: كان المكان عبارة عن حجرة محفورة في قلب الجبل الصلد، ينطلق منها نفقان ضيقان، تردمهما الانقاض. وكانت ما تزال موجودة هناك السقالات الخشبية التي كانت تحول دون انهيار المنجم حين كان المعدن يُستخرج منه، لكن مرور الزمن جعلها تتآكل وتهترىء لدرجة أن بعضها كان ما يزال قائماً في مكانه بمعجزة، وكان مجرد النفخ عليها كافياً لتقويض توازنها الهش. وفجأة اصطدم جسم سريع بذراعه ومرق على بعد سنتمترات قليلة من وجهه، فأطلق صرخة قوية، كانت تعبيراً عن المفاجأة اكثر منها تعبيراً عن الخوف، وافلت المصباح من يده. سمعته ايرين وهي في الخارج، فأمسكت به من ساقيه وراحت تشده، لاعتقادها بان شيئاً فظيعاً قد حدث.

صاحت وروحها معلقة في فمها:

- ماذا جرى؟

لا شيء. انه فأر فقط.

- هلم بنا من هنا! هذا المكان لا يعجبني في شيء...

- انتظري، سألقي نظرة في الداخل.

دخل فرانثيسكو من الفتحة منزلقاً بحذر ليتفادى الحجارة البارزة واختفى وقد ابتلعه فم الجبل. رأت ايرين الحفرة السوداء تغيب رفيقها فأحست بالأسى، رغم ان العقل كان يقول لها ان الأخطار ليست في داخل المنجم، وانها خارجه. فإذا ما فوجئا وهما هناك فقد يتلقيان رصاصة في العنق وقبراً مجهولاً هناك بالذات.

فالناس يموتون لأسباب أتفه بكثير من هذا السبب. تذكرت حكايات الأشباح التي كانت ترويها لها روسا في طفولتها: العفريت المقيم في المرايا لترويع المزهوات بانفسهن؛ والغول حامل الكيس الممتلىء بفتيات مخطوفات؛ والكلاب ذات الحراشف التمساحية في ظهرها وأظلاف التيوس في قوائمها؛ والرجال ذوو الرأسين

الــذين يترصـدون في الـزوايـا لاختطـاف الفتيـات اللواتي ينمن وأيـديهن تحت الغطاء. حكايات قاسية كانت تسبب لها الكوابيس، لكن انبهارها بها كان كبيراً لدرجـة انهـا لم تكن تستطيـع رفض سماعها، بل كانت تطلب من روسا ان تقصها عليهـا وهي ترتجف خوفـاً، وتـرغب في صم اذنيهـا واغـماض عينيها كيلا تسمعها وتتعجـل في الـوقت ذاتـه التقصي عن أدق التفـاصيل: إذا ما كان العفريت يظهر عارياً، وإذا كانت للغول رائحة كريهة، وإذا كانت الكلاب خاطفة النساء تتحول إلى حيـوانـات اخرى مخيفة، وإذا كان الرجال ذوو الرأسين قادرين على الدخول إلى المخـادع المحميـة بوجـود صورة للسيـدة العـذراء فيها. وأمام الحفرة، عادت ايرين لتعاني ـ في تلك الليلة من ذلك المزيج من الخوف واللذة الذي كانت تشعر به منـذ زمن بعيـد، حين كانت مربيتهـا تخيفها بحكاياتها الخرافية. واخيراً قررت اللحـاق بفـرانثيسكـو ودخلت من خلال الفتحة بيسر، لكونها نحيلة ورشيقة. ولم تحتـج سوى لبضـع ثوان كي تعتـاد على العتمـة. بدت لها الـرائحة غير محتملة، وأحست كأنهـا تستنشق سماً زعـافـاً. نزعت شال الغجرية الذي كان مربوطاً على خصرها وغطت به نصف وجهها.

جاب الرفيقان المغارة واكتشفا وجود ممرين فيها. الممر الذي إلى اليمين كان يبـدو وكأنـه مسـدود بالانقـاض والـتراب فقط، فيما كان الممر الآخر مغلقاً بجدار مبني. اختارا اكثرهما سهولة وبدآ بازاحة الحجارة وجرف التراب عن النفق الأول. وفيـما هما يبعـدان الأنقـاض، كانت رائحـة العفونة تشتّد مما جعلهما يضطران إلى الاكثار من اخراج رأسيهما إلى الخارج عبر فتحة المدخل ليستنشقا نفساً من الهواء النقي الذي كان يأتيهما نظيفاً وصحياً مثل دفقة ماء بارد.

وحين أحست ايرين باتقاد كفيها المخدشين، سألته قائلة:

ـ عم نبحث بالتحديد؟

فرد عليها فرانثيسكو:

ـ لست أدري. وواصـل العمـل صامتـاً، لأن ذبذبات صوتيهما كانت تؤثر على الدعائم المتعفنة.

استولى عليهما الخوف من المخاطرة. كانا يتطلعان من فوق كتفيهما إلى الفراغ المظلم وراءهما، ويتصوران ان ثمة عيوناً تراقبهما، وظلالاً تتحرك وراء ظهريهما، وهمسات تأتي من الأعماق. كانا يسمعان أنين الأخشاب القديمة ويشعران بالقوارض التي تركض بين أقدامهما. وكان الهواء كثيفاً ومثقلاً يكتم الأنفاس.

أمسكت ايرين بصخرة وحركتها بكل ما اوتيت من قوة لتزيحها من مكانها. جاهدت قليلاً، واستطاعت انتزاعها، فتدحرجت عند قدميها، وظهرت وراءها فتحة معتمة إلى جانب ضوء المصباح اليدوي. ودون ان تفكر مدت يدها لتتلمس ما في الداخل، وأطلقت في اللحظة ذاتها صرخة رهيبة من أعماقها زعزعت القبة، واصطدمت بالجدران في صدى أصم وغريب لم تتعرف فيه على صوتها. التصقت بفرانثيسكو الذي حماها بحشرها إلى جوار الجدار، بينما كانت احدى الدعائم تفلت من السقف وتهوي بصخب. بقيا متعانقين، وعيناهما مغمضتان، وهما لا يكادان يقويان على التنفس لزمن سرمدي. وحين ساد الصمت في آخر الأمر وهدأ الغبار الذي اثاره الانهيار، تمكنا من استعادة المصباح اليدوي وتأكدا من ان المخرج ما يزال سالكاً، وجه فرانثيسكو، ودون أن يفلت ايرين، الضوء نحو المكان الذي حركت فيه الصخرة، فظهرت هناك اللقية الأولى في هذه المغامرة المرعبة. كانت توجد يد بشرية، أو بكلمة أدق: بقايا يد بشرية.

قاد الفتاة إلى خارج المنجم وشدها إلى صدره، مجبراً اياها على استنشاق أنفاس طويلة من هواء الليل النقي. وحين أحس أنها قد استكانت قليلاً، احضر الترمس وقدم لها قليلاً من القهوة. كانت مذهولة، عاجزة عن النطق، وغير قادرة، لارتعاشها، على امساك الفنجان بين أصابعها. ساعدها على تناول الشراب كما يساعدون المرضى، وداعب شعرها، ثم حاول طمأنتها بان بين لها انهما وجدا ما كان يبحثان عنه، ولا شك في أن الجثة هي جثة ايفانخيلينا رانكيليو. وانه على الرغم من حضور الموت، إلا ان ذلك لا ينطوي على أي تهديد، لأنها مجرد جثة. ومع ان ايرين لم تستوعب شيئاً من تلك الكلمات، لأن

انفعالها لم يمكنها من ان تعرف انها كلمات من لغتها، إلا ان ايقاع الصوت منحها بعض المواساة. وبعد مرور وقت طويل، وحين هدأ اضطرابها، قرر فرانثيسكو اتمام عمله.

ـ انتظريني هنا. سأرجع إلى المنجم لبضع لحظات. اتستطيعين البقاء وحدك؟

هزت الشابة رأسها موافقة وهي صامتة، وثنت ساقيها ثم غرست رأسها بين ركبتيها مثل طفل، محاولة ألا تفكر، وألا تسمع، وألا ترى، بل وألا تتنفس أيضاً، غارقة في أعظم كآبة، فيما رجع هو إلى المدفن حاملاً معه آلة التصوير ومغطياً وجهه بمنديل.

رفع فرانثيسكو الاحجار وأزاح التراب إلى ان كشف عن جسد ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث كله. تعرف عليها من لون شعرها الاشقر. كان نصف جسدها ملفوفاً بعباءة، وكانت حافية القدمين وترتدي شيئاً شبيهاً بتنورة تحتانية أو بقميص نوم. كانت في حالة فظيعة من التحلل، تتعفن في الدهن الذائب الذي تتغذى به الديدان، وتتخمر في تفسخها، مما اضطره إلى بذل مجهود هائل للتحكم في تقززه ومواصلة التقدم. لم يكن بالرجل الذي يفقد السيطرة على نفسه بسهولة، فقد مارس تدريبه المهني على الجثث، وكان قادراً على التحكم بمعدته، لكنه لم يجد نفسه حتى ذلك اليوم أمام مثل هذا المشهد، حيث اجتمعت قذارة المكان، ورائحة العفونة النفاذة والخوف المتراكم في داخله لتوهن من عزيمته. كان عاجزاً عن التنفس، فالتقط عدة صور بأسرع ما استطاع، ودون ان يهتم بضبط الكادر أو المسافة، لأن فقاعة غثيان كانت تعبر حنجرته مع كل ومضة نور تضيء المشهد. عجل بالانتهاء بأسرع ما يمكنه وخرج هارباً من ذلك المدفن.

ما أن أصبح في الهواء الطلق حتى أفلت الكاميرا والمصباح وانهار على ركبتيه فوق الأرض ورأسه متدل، محاولاً الاسترخاء والسيطرة على تشنجات معدته. كانت الرائحة ملتصقة بجلده مثل طاعون ومحفورة في حدقتيه صورة ايفانخيلينا المطهوة في رعبها الأخير. فكان على ايرين ان تساعده على النهوض.

ـ ما الذي علينا عمله الآن؟

فقرر وصوته لا يكاد يخرج بسبب المخلب المتقد الذي يضغط على صدره:
- لنسد مدخل المنجم، وبعد ذلك سنرى.

جمعا الحجارة نفسها ووضعاها فوق الفتحة. كانا يعملان بسرعة وعصبية وتهور، وكأنهما باغلاقهما الفتحة سيمحوان ما تحتويه وسيعودان في الزمان الى اللحظة التي كانا ما يزالان فيها جاهلين بالحقيقة، وسيحتفظان ببراءتهما في الجانب المشرق من الواقع، بعيداً عن ذلك الاكتشاف. أمسك فرانثيسكو بيد صديقته وقادها إلى الكوخ الخرب، الملجأ الوحيد المرئي في الجبل.



كانت ليلة هادئة. وعلى الضوء البكر كان المنظر يتكشف، وتختفي رؤوس الجبال وأشجار اليوكاليبتوس المغمورة بالظل. كان الكوخ ينتصب فوق الجبل ولا يكاد يبدو للنظر في الظلمة المخلخلة، منبثقاً من الأرض وكأنه ثمرة طبيعية من ثمارها. وبالمقارنة مع المنجم، بدا الكوخ من الداخل للشابين مريحاً كعش. توسدا العشب في أحد الأركان وراحا يتأملان السماء ذات النجوم التي يلمع في قبتها اللانهائية قمر حليبي. وضعت ايرين رأسها على كتف فرانثيسكو وبكت مفرجة عن كل غمها. فطوقها بذراعه وبقيا على هذه الحال لوقت طويل، ربما امتد الى ساعات، باحثين في السكينة والصمت عن مُسكِّن لما اكتشفاه، وعن قوى لاحتمال ما عليهما احتماله. استراحا معاً منصتين إلى حفيف اوراق الشجيرات التي يحركها النسيم، وإلى اصوات طيور الليل القريبة، وإلى مرور الأرانب البرية الرشيق فوق العشب.

وشيئاً فشيئاً أخذت تنحل العقدة التي كانت تضغط على روح فرانثيسكو. فانتبه إلى جمال السماء، ونعومة الأرض، ورائحة الريف النفاذة، واحتكاك ايرين بجسده. فوعى أبعاد جسدها ووزن رأسها على ذراعه، وانحناءة اليتها المستندة على اليته، وخصل شعرها التي تداعب رقبته، ونعومة بلوزتها الحريرية التي تضاهي نعومة بشرتها. تذكر يوم تعرف عليها؛ حين فتنته ابتسامتها، فأحبها منذ ذلك الحين، ولم تكن جميع الحماقات التي أوصلته إلى هذه المغارة إلا ذريعة ليصل

اخيراً إلى هذه اللحظة الثمينة التي تصبح فيها ملكاً خالصاً له؛ قريبة منه، مخذولة ومستسلمة. أحس بالشهوة مثل موجة قاهرة ومتسلطة. توقف الهواء في صدره وانفلت قلبه في خفق مجنون. نسي خطيبها العنيد، وبياتريس الكانترا، ومصيره المجهول وجميع العوائق الاخرى التي تفصل بينهما. ستكون ايرين له لأن ذلك مكتوب منذ بدء تكوين الدنيا.

لاحظت التبدل الذي طرأ على تنفسه، فرفعت وجهها ونظرت اليه. وعلى ضوء القمر الخافت لمح كل منهما الحب في عيني الآخر. وأحاط قرب ايرين الدافىء فرانثيسكو بدثار من الحنان، فاغمض عينيه وجذبها باحثاً عن شفتيها، وفتحهما في قبلة مطلقة مشحونة بالوعود، وبصفوة كل الآمال. قبلة طويلة، ورطبة، ودافئة تتحدى الموت. قبلة مداعبة، ولهيب، وتنهيدة، واجهاشة حب. ذرع فمها، ورشف ريقها، واستنشق أنفاسها، مستعداً لاطالة تلك اللحظة حتى نهاية حياته، يهزه اعصار حواسه، واثقاً من انه لم يحي حتى الآن إلا من أجل هذه الليلة العجيبة التي سيغوص فيها وإلى الأبد في أعمق أعماق هذه المرأة. ايرين يا عسلاً وظلاً، ايرين يا ورق الأرز، يا حبة دراقن، يا زبداً، ياالاستدارة اذنيك، يا لرائحة عنقك، يا لحمامتي كفيك، ايرين، يا لهذا الحب.. لهذه العاطفة التي تصهرنا معاً في محرقة واحدة، أحلم بك مستيقظة، أشتهيك نائمة، يا حياتي، يا امرأتي، يا ايـريـني. لم يدر كم من الكلمات قال لها ولا ما همست به اليـه في تلك التمتمـة المتواصلة.. في ذلك النبع المتدفق من الكلمات إلى اذنيه، ذلك النهر من تأوهات واختناقات من يمارسا الحب عن حب.

وفي ومضة اتزان أدرك ان عليه عدم الاستسلام لدوافع التمرغ واياها على الأرض أو انتزاع ملابسها بعنف وتمزيقها في حمى تسرعه. خشي ان يكون الليل قصيراً، بل والحياة كلها كذلك، بحيث لا تكفي لاستنزاف هذا الاعصار الذي في اعماقه. وببطء، وبشيء من الاضطراب، لأن يديه كانتا ترتعشان، فتح ازرار بلوزتها واحداً واحداً وكشف عن فجوتي ابطيها الدافئتين، وعن انحناءة كتفيها، وعن نهديها الصغيرين وحلمتيهما، فوجدهما كما تخيلهما حين كان يحس باحتكاكهما

في ظهره وهما يركبان الدراجة النارية، أوحين كان يراها منحنية على طاولة الاخراج، أو عندما ضمها بين ذراعيه في تلك القبلة التي لا تُنسى. وعشش في كفيه عصفوراً سنونو دافئان و لدا على مقاس راحتيه، فارتعشت لتلك الملامسة بشرة الفتاة المصبوغة بزرقة قمرية. رفعها من خصرها، فانتصبت واقفة فيما هو جاث أمامها، وراح يبحث عن الدفء المختبىء بين نهديها، وعن شذى الخشب واللوز والقرفة؛ حل أربطة صندلها فظهرت قدماها اللتان كقدمي طفلة، وداعبهما متعرفاً عليهما، لأنه كان قد حلم بهما كقدمين بريئتين وخفيفتين. شدّ سحاب بنطالها وانزله كاشفاً عن درب بطنها الصقيل، وظل سرتها، وخط ظهرها الطويل الذي ذرعه بأصابع ملتهبة، وفخذيها المتينين المكسوين بزغب ذهبي. رآها عارية أمام اللانهاية، فخط دروبها بشفتيه، حفر انفاقها، صعد تلال جسدها، وجال في وديانه راسماً بذلك الخرائط اللازمة لجغرافيته. جثت هي أيضاً، وحين حركت رأسها رقصت خصلات الشعر القاتمة على كتفيها، مختلطة مع لون الليل. عندما خلع فرانثيسكو ملابسه بدوا وكأنهما الرجل الأول والمرأة الأولى قبل الخطيئة الازلية. لم يكن هناك من متسع لآخرين، فبشاعة العالم والنهاية الوشيكة كانت بعيدة بعداً شاسعاً عنهما، ولم يكن هناك سوى نور هذا اللقاء.

لم تكن ايرين قد عرفت حباً كهذا، وكانت تجهل ذلك النوع من الاستسلام، بلا حواجز وبلا مخاوف أو تحفظات، ولا تذكر أنها أحست بمثل هذه اللذة، ومثل هذا التواصل العميق والمتبادل. كانت تكتشف مذهولة الشكل الجديد والمفاجىء لجسد صديقها، ودفئه، وطعمه، ورائحته، فترتاده مستكشفة كل ما فيه شبراً شبراً، وتزرعه بمداعبات ابتدعتها لتوها. لم تكن قد استمتعت من قبل بمثل هذه السعادة في حفلة الحواس. خذني، امتلكني، احتضني، لاني آخذك أنا أيضاً، امتلكك، احتضنك. أخفت وجهها في صدره مستنشقة دفء جلده، لكنه أبعدها برفق ليتأملها. فعكست مرآة عينيها السوداء البراقة صورته وقد أحالها الحب المتبادل أكثر تألقاً. وخطوة بعد خطوة راحا يمارسان طقساً أزلياً. احتضنته فغاب غارقاً في أكثر جنائنها خصوصية، واحتفظ كل منهما بايقاع الآخر في

تقدمهما نحو النهاية نفسها. ابتسم فرانثيسكو بسعادة تامة لأنه وجد المرأة التي طالما لاحقها في مخيلته مذ كان مراهقاً، وبحث عنها في كل جسد عرفه على امتداد سنوات عديدة: انها الصديقة، الاخت، الحبيبة، الرفيقة. وفي سكينة الليل، أقام فيها طويلاً وبلا تسرع، متوقفاً عند عتبة كل متعة، محيياً كل لذة، متخذاً وضعاً من الاستسلام التام. وبعد مرور وقت طويل، حين أحس بارتعاش جسدها مثل آلة حساسة وحين خرجت من فمها آهة عميقة لتغذي آهته، انفجر خزان هائل في بطنه وهزته قوة هذا السيل، وأغرقت ايرين في أمواه سعيدة.

بقيا ملتصقين في راحة هادئة، يكتشفان الحب في أبعاده المتسعة، يتنفسان وينبض قلباهما في ايقاع متوافق، إلى ان هيج الاتصال الحميم رغبته ثانية. أحست به ينمو فيها من جديد وبحثت عن شفتيه في قبلات لا نهائية. كانت السماء شاهداً عليهما، فيما حصى الأرض يخدشهما، ويغطيهما الغبار والأوراق الجافة التي تفتت في فوضى الحب. كانت تدفعهما رغبة جارفة، وعاطفة لا تخمد. تبادلا المداعبات تحت القمر إلى ان نفدت روحاهما في تنهدات وعرق، واخيراً، ماتا متعانقين، وشفاههما متحدة ، يحلمان الحلم نفسه. لقد بدأا طريقاً لارجعة فيه.

استيقظا مع أول أنوار الصباح وزقزقة عصافير الدوري، مبهورين بلقاء الجسدين وانسجام الروح. لكنهما تذكرا عندئذ الجثة في المنجم واستردا الاحساس بالواقع. وبخيلاء الحب الذي تقاسماه، ارتديا ملابسهما وهما يرتجفان ويلفهما الذهول. ثم ركبا الدراجة النارية وانطلقا في الطريق نحو بيت آل رانكيليو.



كانت المرأة منحنية فوق طشت الغسيل، تدعك الملابس بفرشاة قاسية. كانت قدماها العريضتان مستقرتين بثبات فوق قطعة من الخشب كي لا تخوض في الوحل، ويداها الثقيلتان تعملان بهمة، تدعكان وتعصران ثم تضعان الاسمال في سطل، حيث تتراكم تلك الملابس لتنظف من الصابون في مياه الساقية الجارية

فيما بعد. كانت المرأة وحيدة، لأن أولادها يذهبون في مثل هذا الوقت إلى المدرسة. وكانت بشائر الصيف قد بدأت بالظهور من خلال الفواكه شبه الناضجة، وتشكيلة الأزهار ذات الألوان الصاخبة، والقيلولات الخانقة والفراشات البيضاء التي تطير في كل اتجاه مثل مناديل يحملها النسيم. وكانت أسراب العصافير تغزو الحقول ليتحد تغريدها بطنين النحل والناموس المتواصل. لم تكن ديغنا تشعر بشيء من هذا وذراعاها غائصان في طشت الغسيل، غير عابئة إلا بعملها المرهق. لكن ضجة الدراجة النارية وكورال الكلاب لفتا انتباهها فرفعت عينيها، ورأت الصحفية ورفيقها الذي لا يفارقها، صاحب آلة التصوير، يتقدمان في الفناء متجاهلين النباح. مسحت يديها بالمريلة وخرجت للقائهما دون ان تبتسم، لأنها أحست بالانباء السيئة حتى قبل ان تنظر في عينيهما. احتضنتها ايرين بيلتران في عناق خجول، هي الطريقة الوحيدة التي خطرت لها لتقديم العزاء. ففهمت الأم في الحال. لم تكن ثمة دموع في عينيها المعتادتين على كل تلك الأحزان المتنوعة أطبقت فمها بحركة مغمومة وأفلتت من صدرها تنهيدة مبحوحة لم تستطع كبحها، فسعلت لتخفي هذا الضعف وأزاحت خصلة شعر عن جبهتها، ثم أشارت للشابين كي يتبعاها إلى داخل البيت. جلسوا ثلاثتهم حول الطاولة، وخيم عليهم الصمت لبضع دقائق، إلى ان جمعت ايرين الكلمات اللازمة لتقول مدمدمة:

ـ أظن اننا قد وجدناها..

وروت لها ما رآياه في المنجم دون ان تشير إلى التفاصيل المرعبة، ومفسحة المجال للشك بان ما وجداه قد يكون رفات شخص آخر، لكن ديغنا أبعدت هذا الأمل، لأنها تنتظر منذ مدة ظهور الأدلة على موت ابنتها. كانت تعرف انها قد ماتت بسبب الاحساس بالحداد الذي استقر في قلبها منذ الليلة التي اعتقلوا فيها الفتاة وللمعلومات التي تراكمت خلال سنوات الدكتاتورية.

قالت:

ـ انهم لا يعيدون أبداً من يعتقلونهم.

فرد فرانثيسكو:

ـ هذا الأمر لا علاقة له بالسياسة يا سيدتي، انها جريمة مبتذلة.

ـ الأمر سيان. لقد قتلها الملازم راميريث وهو سيد القانون هنا، فما الذي أستطيع عمله أنا؟

ايرين وفرانثيسكو كانا يشكان بالضابط أيضاً، وكانا يفكران بانه اعتقل ايفانخيلينا ليجعلها تدفع بطريقة ما ثمن الاهانة التي وجهتها اليه أمام عيون كل ذلك العدد من الشهود. ربما يكون قد فكر باحتجازها ليومين فقط، لكنه لم يأخذ بالحسبان ضعف بنية سجينته، وتجاوزت يده الحد في تعذيبها فماتت. وحين رأى ما فعله قرر اخفاء جسدها في المنجم وتزوير سجل المناوبة ليحمي نفسه من أي تحقيق. لكن هذا كله لم يكن سوى تكهنات. وكان هناك طريق طويل لا بد من السير فيه للوصول إلى أعماق هذا السر. وفيما الشابان يغتسلان في الساقية، أعدت لهما ديغنا الفطور، موارية حزنها بالانهماك في أعمال البيت الروتينية من اشعال النار، وغلي الماء، وترتيب الأطباق والفناجين. لأنها كانت تشعر بخجل شديد من ظهور انفعالاتها.

على رائحة الخبز الطازج، أدرك فرانثيسكو وايرين كم هما جائعان، فهما لم يتذوقا طعاماً منذ اليوم السابق. أكلا ببطء، واثناء ذلك كانا يتبادلان النظرات وكأن كلاً منهما يود التعرف على الآخر، ويبتسمان متذكرين الحفلة التي عاشاها للتو، ويلمس كل منهما يد الآخر في وعد مشترك. ورغم المأساة التي تحيط بهما، فقد كانا ينعمان بسلام أناني، وكأنهما قد جمعا فتات حياتيهما المبعثر وتمكنا أخيراً من رؤية مصيريهما. ويخيل اليهما انهما بمنأى عن أي شر، في كنف سحر هذا الحب الجديد.

قالت ايرين مقترحة:

ـ يجب إخبار براديليو كي لا يواصل البحث عن أخته.

فقرر فرانثيسكو:

ـ أنا سأصعد الجبل. انتظرني هنا لتستريحي قليلاً ولتبقي إلى جانب السيدة ديغنا.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، قبّل صديقته وانطلق على الدراجة النارية. كان ما يزال يذكر الطريق، فوصل دون صعوبة إلى المكان الذي تركوا فيه الجوادين حين ذهبا مع خاثينتو في المرة الأولى. وهناك خبأ الدراجة بين الأشجار وبدأ الصعود على الاقدام. كان واثقاً من قدرته على التوجه للعثور على المخبأ دون كثير من الدوران، لكنه ما لبث أن أدرك ان الأمر لن يكون سهلاً، لأن المشهد كان قد تبدل خلال هذه الأيام. فحرارة الصيف التي لوحت سفوح الجبال، أحرقت الخضرة ولم تبق إلا على الأرض العطشى. فغلب الشحوب على الألوان وفقدت رونقها الذي كانت عليه. لم يتعرف فرانثيسكو على نقاط العلام التي ثبتها في ذاكرته، وترك نفسه تنقاد بالغريزة. توقف في منتصف الطريق مكتئباً، وموقناً من انه ضل الطريق، فقد خيل اليه أنه يمر ويعود للمرور من المكان ذاته. ولولا انه كان يمضي صاعداً، لأقسم انه يدور في حلقة. كان منهوكاً بفعل التوتر الذي تراكم في الأيام الأخيرة وبتأثير الليلة الماضية في المنجم. فهو يبتعد عادة ما امكنه ذلك عن اختبار أعصابه في أعمال متهورة. ولأن عمله السري يقتضي الدخول في الأخطار والمجازفة، إلا أنه كان يفضل وضع خطط دقيقة والتقيد بها. فالمفاجآت لم تكن تروقه. لكنه شعر بعدم جدوى المخططات الآن، لأن حياته كلها قد دخلت في متاهة من الفوضى. كان معتاداً على الاحساس بالعنف معلقاً في الهواء مثل غاز غير مرئي، تكفيه شرارة واحدة لينفجر في حريق لا ينطفيء، لكنه لم يكن ليفكر به، مثله في ذلك مثل آخرين كثيرين يعيشون ظروفاً مشابهة لظروفه. كان يحاول تنظيم حياته ضمن حد ادنى من الطبيعية. لكنه أدرك، هنا في وحشة الجبال، انه قد اجتاز حداً لا مرئياً ودخل في منطقة جديدة ومرعبة.

ما أن حلت الظهيرة حتى أصبح الحر كانه الحمم البركانية. لم تكن هناك من خضرة حانية يجد في كنفها الحماية. فاستغل وجود نتوء صخري، وجلس ليستريح في ظله قليلاً، ساعياً لاستعادة ايقاع قلبه. اللعنة، من الأفضل لي أن أرجع قبل أن أسقط فاقداً قواي هنا. مسح العرق عن جبهته وواصل الصعود

ببطء متزايد ووقفات أكثر. وأخيراً رأى مسيلاً ينحدر عكراً بين الصخور، فتنهد براحة لأنه تأكد من أن خيط الماء سيقوده إلى مخبأ براديليو رانكيليو. بلل عنقه ورأسه وهو يحس باتقاد الشمس في جلده، ثم تسلق الأمتار الأخيرة، فوجد منبع المسيل، وبحث عن الكهف بين الشجيرات، منادياً على براديليو بأعلى صوته، فلم يجبه أحد. كان المكان جافاً، الأرض مشققة والشجيرات مغطاة بغبار يلون المشهد بأسره بلون الفخار العتيق. رفع أحد الأغصان، فبدت فتحة المغارة، ولم يكن بحاجة للدخول اليها كي يعرف انها مقفرة. تجول في الجوار دون أن يعثر على آثار الهارب وافترض أنه قد غادر المكان منذ عدة أيام، لأنه لم يجد هناك بقايا طعام أو أية علامات على الأرض التي كنستها الرياح. عثر في الكهف على علب مأكولات فارغة وعدد من روايات رعاة البقر أوراقها صفراء ومهترئة، وكانت تلك هي الآثار الوحيدة التي تشير إلى أن أحداً قد مر من المكان. كان شقيق ايفانخيلينا قد نظم كل شيء بدقة، كما هو شأن من اعتاد على النظام العسكري. تفحص فرانثيسكو هذه الأشياء البائسة بحثاً عن علامة أو رسالة. فلم يجد هناك ما يشير إلى وقوع أعمال عنف، واستنتج من ذلك ان الجنود لم يعثروا عليه؛ وانه تمكن دون ريب من الذهاب قبل ان يصلوا اليه. ربما يكون قد نزل إلى الوادي وحاول الابتعاد عن المنطقة أو انه غامر باجتياز سلسلة الجبال في محاولة للوصول إلى الحدود.

جلس فرانثيسكو ليال في المغارة وراح يتصفح الكتب.. انها مطبوعات جيب شعبية، ذات رسوم قبيحة، مشتراة من دكاكين بيع الكتب المستعملة أو من أكشاك الصحف. ابتسم وهو يستعرض غذاء براديليو رانكيليو الثقافي: رجل السهوب المتوحد، هوبالونغ كاسيدي، وأبطال آخرون من الغرب الاميركي، أولئك المدافعون الخرافيون عن العدالة، وحماة البائسين في مواجهة الاشرار. تذكر حديثهما خلال اللقاء الفائت، واعتزاز ذلك الرجل بسلاحه الذي يعلقه في حزامه. فالمسدس والاحزمة والحذاء التي كان يستخدمها هي مثل تلك التي يستخدمها أبطال قصصه، انها العناصر السحرية التي يمكنها أن تحوّل شخصاً

تافهـاً إلى سيـد يتحكم بالحياة والموت، وتمنحه مكانة في الدنيا. انها أشياء شديدة الأهميـة بالنسبـة لك يا براديليـو، وحين سلبوك إياها، لم يُمَكِّنك من الاستمرار في الحيـاة إلا براءتـك الحقـة وأملك باستعـادة تلك الأشيـاء. اقنعوك بانك صاحب سلطـة، وطـرقـوا رأسـك بصخب مكـبرات الصوت في الثكنة، ثم أمروك باسم الـوطن، وبهـذا أعطـوك جرعتك من الذنب كي لا تستطيع رفع يدك وتبقى مكبلاً إلى الأبد بسلاسل الدم يا رانكيليو البائس.



تذكـر فرانثيسكـو وهو جالس في المغارة تلك الانفعالات التي سيطرت عليه حين حمل سلاحـاً للمـرة الـوحيـدة في حيـاتـه. كان قد تجاوز فترة المراهقـة دون اضطـرابـات تذكـر، فاهتمامه بالمطالعة كان أقوى من اهتمامه بالنضال السياسي، وذلك كرد فعل على المطبعة السرية وخطابات ابيه التحريرية اللاهبة. ومع ذلك، فقد جندته جماعة متطرفة، جذبته إلى صفوفها بحلم الثورة، وكان يومها قد أنهى دراسته الثانوية. لقد رجع بذاكرته إلى تلك المرحلة مرات ومرات ليسأل نفسه عن سحر العنف، وعن ذلك الدوار الذي لا يُقاوم نحو الحرب والموت. فقد كان عمره ستـة عشـر عامـاً حين مضي مع مجمـوعـة من رجـال العصـابات المستجدين إلى الجنوب، ليتدربوا هناك على انتفاضة غامضة وعلى مسيرة عظمى نحو مكان ما. كانـوا سبعـة فتيـان أو ثمانية - يحتاجون لمربية اكثر من حاجتهم لبندقية - هم الذين يشكلون تلك القوة الهزيلة، يقودهم زعيم اكبر منهم بثلاث سنوات، هو العارف الوحيد بقوانين اللعبة. لم يكن دافع فرانثيسكو إلى الالتحاق بهم هو نشر نظريات «ماو» في اميركا اللاتينية، لأنه لم يكن قد كلف نفسه عناء قراءتها، لكن دافعه كان رغبة بسيطة وساذجة في المغامرة. كان يود الابتعاد عن وصاية ابويه. وفي سعيه إلى اثبات انه قد صار رجلاً، غادر بيته في احدى الليالي دون ان يقول وداعاً، ودون أن يحمل معه سوى سكين كشاف، وزوج جوارب صوفية ودفتراً ليكتب فيه أشعاراً.

بحثت عنه اسرته حتى وصل بها الأمر إلى اللجوء للشرطة، وحين عرفوا طريقه لم يجدوا عزاء لمصيبة كهذه. أطبق البر وفسور ليال فمه وغرق في الكآبة، جريح الروح لجحود هذا الابن الذي مضى دون أن يقدم تفسيراً لذهابه. ولبست أمه مسوح عذراء لورديس، مطالبة المساء برد قرة عينها اليها. ولا شك في ان ذلك كان تضحية عظيمة بالنسبة لها، هي الحريصة على مظهرها والمتابعة لتطور الازياء كي ترفع طرف تنورتها أو تخفضه باضافة بعض الثنايا أو نزعها منه. أما زوجها، الذي تأهب أول الأمر لوضع تجربته التربوية موضع التطبيق وانتظار عودة ابنه العفوية دون ان يفقد هدوءه، ما لبث ان فقد صبره حين رأى زوجته بالعباءة البيضاء وحزام لورديس السماوي. وفي اندفاعه اللاواعي، نزع عنها تلك الملابس ممزقاً إياها، ومطلقاً الشتائم ضد البربرية ومهدداً بترك البيت، والبلاد، بل وترك أميركا كلها إذا ما عادت لارتداء هذه القباحة والظهور بها. بعد ذلك استنهض حماسته، ونفض الغباء عن طبعه المندفع، وانطلق بحثاً عن ابنه الضائع. ذرع دروب البغال لأيام وأيام، متفحصاً كل ظل اجتازه في طريقه، وكان يراكم الغضب أثناء ترحاله من ضيعة إلى ضيعة، ومن جبل إلى جبل، ويضع الخطط لضرب الفتى للمرة الأولى في حياته. واخيراً أخبره أحدهم ان طلقات نارية تُسمع في الغابة بين حين وآخر، وان بعض الشبان الذين تغطيهم القذارة يخرجون من هناك أحياناً ليتسولوا الطعام وليسرقوا الدجاج، ولكن أحداً لم يكن ليفكر في الحقيقة انهم الحلقة الأولى من مشروع ثوري للقارة بأسرها، وانما مجرد طائفة دينية هرطوقة متأثرة بديانات الهند، مثل طوائف اخرى شوهدت في بعض الانحاء.

وكانت هذه المعلومات كافية كي يصل البر وفسور ليال إلى معسكر رجال العصابات. حين رآهم متسربلين بالاسمال، متسخين ومسترسلي الشعور، يأكلون الفاصولياء المعلبة والسردين القديم، ويتدربون على بندقية من الحرب العالمية الأولى، تملأ جلودهم لسعات الزنابير وحشرات الجبل الاخرى، انزاح عنه كل الغضب فجأة وطغى عليه احساس بالشفقة موجود دائماً في اعماقه. ان انضباطه السياسي كان يدفعه إلى اعتبار العنف والارهاب خطأ استراتيجياً

فادحاً، وخصوصاً في بلد يمكن الوصول فيه إلى التغيير الاجتماعي عبر سبل اخرى. كان على قناعة من ان الجماعات الصغيرة المسلحة لا تتمتع بأدنى حظ من النجاح، وان هؤلاء الشبان لن يتوصلوا إلا إلى تمكين الجيش من التدخل لذبحهم. كان يقول انه لابد للثورة من المجيء من خلال شعب واع، يدرك حقوقه وقوته، فيمسك بزمام حريته وينطلق في مسيرته، وليس من خلال ستة صبيان برجوازيين يلعبون لعبة الحرب.

كان فرانثيسكو يجلس القرفصاء إلى جوار موقد صغير يغلي عليه ماء، حين رأى ظهور وجه غريب بين الأشجار. كان وجه رجل عجوز يرتدي بلدة قاتمة وربطة عنق، يغطيه الغبار والشوك، وله ذقن لم تُحلق منذ ثلاثة أيام وشعر مشعث ومعفر، يحمل حقيبة سوداء في احدى يديه وغصناً جافاً يتوكأ عليه في اليد الأخرى. نهض الفتى واقفاً من المفاجأة، وحذا حذوه رفاقه الذين حوله. وحينئذ فِقط تعرف على القادم. كان يذكر والده كرجل قصير مهيب، ذي عينين عاطفيتين وصوت خطيب، ولكن ليس بأي حال من الأحوال مثل هذا الكائن المحطم والكئيب الذي يتقدم وهو يعرج، بظهره المنحني، وحذائه المعفر بالغبار.

واستطاع فرانثيسكو ان يهتف، قبل ان تخنق صوته اجهاشة:

ـ بابا!

أفلت البروفسور ليال عكازه الخشنة وحقيبته الصغيرة، وفتح ذراعيه. قفز ابنه من فوق الموقد راكضاً أمام رفاقه المذهولين، والتحم بابيه متبيناً اثناء ذلك انه لم يعد قادراً على الاختباء في كنف صدره، لأنه صار أطول من ابيه بمقدار نصف الرأس وأمتن منه بنية بكثير.

ـ أمك في انتظارك.

ـ هاأنذا قادم.

وبينما الصبي يجمع أشياءه، انتهز البروفسور الفرصة ليوجه خطبة للآخرين، متعللاً بأنهم إذا كانوا يريدون القيام بثورة فعليهم التصرف وفق بعض القواعد، وليس بهذا الاسلوب الارتجالي.

فقال أحدهم :

ـنحن لا نرتجل . . اننا بكينيون .

فرد الروفسور ليال بحزم :

ـ انتم مجانين . ما كان صالحاً للصينيين لن ينفع هنا .

بعد ذلك بزمن طويل ، سينطلق هؤلاء الفتيان في الجبال والغابات ، مطلقين الرصاص والشعارات الآسيوية في قرى نسيها التاريخ الاميركي . لكن البروفسور ليال لم يكن ليتصور كل ذلك يوم أخذ ابنه من المعسكر، وحين هز أولئك الفتيان أكتافهم وهم يرونهما يبتعدان .

أثناء رحلة العودة في القطار، بقي الأب صامتاً يتأمل فرانثيسكو، وحين وصلا إلى المحطة أفضى له بكل ما في قلبه بكلمات قليلة :

ـ انتظر ألا يتكرر هذا . لأني في المرة القادمة سأضربك ضربة الحزام مقابل كل دمعة من دموع أمك . أترى هذا عدلاً؟

ـ أجل يا بابا .

كان فرانثيسكو راضياً في أعماقه عن عودته إلى البيت . وبعد مرور زمن قصير ، حين شفي تماماً من اغراء حرب العصابات ، غرق في النصوص السيكولوجية مفتوناً بلعبة الأوهام تلك، وبالأفكار المتضمنة في أفكار اخرى والمتضمنة بدورها في غيرها ، وذلك في تحدّ لانهائي . واستغرقته الآداب أيضاً فشغف بأعمال الكتّاب الاميركيين اللاتينيين ، ونبهه ذلك إلى أنه يعيش في بلد كأنه رسم ملون ، أوبقعة على الخريطة ، محاطة بقارة فسيحة وعجيبة ، حيث التقدم يصل متأخراً بضعة قرون : أرض ، أعاصير ، وبراكين ، وأنهار عريضة كالبحار، وغابات كثيفة لا يخترقها ضوء الشمس ، وأرض مغطاة بالدبال تدب فوقها حيوانات خرافية ، وتعيش عليها كائنات بشرية لم تتغير منذ نشوء العالم ، وجغرافية مضطربة يولد المرء فيها وعلى جبهته نجمة ، علامة الدهشة ؛ منطقة مسحورة ذات جبال رهيبة حيث يصبح الهواء رقيقاً مثل حجاب ، وصحارى لا نهائية ، وغابات وارفة ، ووديان بلا قرار . هناك تندمج جميع أجناس البشر في بوتقة

العنف: هنود معممون بالريش، ورحالة من جمهوريات نائية، وزنوج جوالون، وصينيون يدخلون تهريباً في صناديق التفاح، وأتراك مختلطون، وفتيات نار، ورهبان، وأنبياء، وطغاة، جميعهم جنباً إلى جنب، الأحياء وأشباح أولئك الذين وطئوا على امتداد القرون هذه الأرض المباركة بشتى الآلام. وفي كل مكان منها هناك رجال ونساء اميركيون، يكابدون في حقول القصب، ويرتجفون من الحمى في مناجم القصدير والفضة، ويهيمون تحت المياه لاصطياد محار اللؤلؤ، ويبقون على قيد الحياة في المعتقلات رغم كل شيء.

وبحثاً عن أنماط معيشية اخرى، قرر فرانثيسكو أن يتابع دراسته في الخارج، فأقلق ذلك والديه بعض الشيء، لكنهما وافقا على تمويله، وكانا من الرقة بحيث صمتا ولم يوجها التنبيهات المعتادة حول الشرور التي تترصد الشبان حين يرحلون بمفردهم. أمضى بضع سنوات في الخارج، حصل في نهايتها على درجة دكتوراه ومعرفة معقولة للغة الانكليزية. ولكي يغطي نفقاته، كان يجلو الأطباق في أحد المطاعم ويصور حفلات ضئيلة الأهمية في أحياء المهاجرين.

كان وطنه يمور في تلك الفترة بغليان سياسي، وفي السنة التي رجع فيها فاز بالانتخابات مرشح اشتراكي. ورغم التكهنات المتشائمة والمؤامرات للوقوف في وجه هذا المرشح، إلا أنه جلس على كرسي الرؤساء أمام ذهول السفارة الاميركية.

لم يكن فرانثيسكو قد رأى أباه في مثل تلك الحالة من البهجة.

- أرأيت يا بني؟ لم تكن هناك من حاجة لبندقيتك.

فيقول فرانثيسكو ساخراً:

- ولكنك فوضوي أيها العجوز، وحزبك ليس ممثلاً في الحكومة.

- هذه صغائر! المهم ان الشعب هو من يملك السلطة الآن، ولن يستطيعوا انتزاعها منه أبداً.

لقد كان يحلق في الوهم كعادته. ويوم وقع الانقلاب العسكري ظن انها جماعة متمردة لن تلبث القوات المسلحة الموالية للدستور والجمهورية ان تسيطر

عليهـا. وبقي ينتظـر ذلـك لعدة سنوات فيما بعد. كان يقارع الدكتاتورية بوسائل غربية. ففي أوج القمع، وحين أعدوا حتى الملاعب الرياضية والمدارس لاعتقال آلاف السجناء السياسيين، طبع البر وفسور ليال بعض المنشورات في مطبخ بيته، وصعـد إلى الطـابق الأخـير من مبنى الـبر يد وألقى بها إلى الشارع. كانت تهب ريـاح مواتيـة، فحـالف مهمته النجاح، إذ حط عدد من تلك المنشورات في وزارة الـدفـاع. كان نص المنشـور يتضمن بعض الأفكـار التي بدت له مطـابقة للخطة التاريخية التي تعيشها البلاد:

**ان تربيـة العسكـريين، من الجندي العادي وحتى أعلى المراتب، تحولهم بالضرورة إلى أعداء للمجتمع المدني وللشعب. حتى ان زيهم، بكل تلك الزينة المضحكـة التي تميـز الـوحـدات والرتب، وكل تلك الحماقات الصبيانية التي تحتل قسـماً مهـماً من وجـودهم، تجعلهم يبـدون كالمهرجين، لولا التهديد الدائم الذي يشكلونـه، وهـذا كله يفصلهم عن المجتمـع. ان هذه الزينة، والطقوس الكثيرة التي تدور حيـاتهم وسطهـا دون هدف آخـر سوى الاستعداد للمذبحة والدمار، هي مذلـة بالنسبـة لرجـال لم يفقـدوا الاحسـاس بالكـرامة الانسانية. ان الطاعة العميـاء هي ميـزتهم الأولى، وفي خضـوعهم للانضبـاط المستبـد، ينتهـون إلى الاحسـاس بالـرعب من كل من يتحـرك بحرية. انهم يريدون ان يفرضوا بالقوة الانضباط الغاشم، والنظام الاخرق الذي يشكلون هم أنفسهم ضحاياه.**

**ليس هناك من سبيل إلى حب الخدمة العسكرية إلا بمعاداة الشعب.**

**● باكونين**

لو ان الـروفسـور ليـال أمعن التفكير، أو بحث عن رأى من هو اكثر خبرة، لأدرك انـه نص طويـل جداً بالنسبة لمنشور سيلقى في الهواء، لأن أحداً لن يتمكن من قراءة نصفـه إلا ويكـون قد اعتُقل. لكن احترامه لأبي الفوضوية كان شديداً لدرجـة انـه استغـرق كل ذهنـه دون ان يبقي شيئـاً لخططـه. ما ان انقضت اربع وعشـرين ساعـة حتى علم أولاده وزوجتـه بالأمـر، وذلـك حين نشرت الصحف

والاذاعة والتلفزيون بلاغاً عسكرياً، **فقطعه** من الجريدة ليحتفظ به في ألبومه الخاص.

**بلاغ رقم /١٩/**

**١ ـ نحذر المواطنين من ان القوات المسلحة لن تتساهل بشأن المظاهرات العامة مهما كان نوعها.**

**٢ ـ على المواطن باكونين، الذي وقع منشوراً ينال فيه من شرف القوات المسلحة المقدس، المثول طوعاً في وزارة الدفاع قبل الساعة ١٦,٣٠ من هذا اليوم.**

**٣ ـ ان عدم حضوره يعني انه قد وضع نفسه تحت طائلة تدابير مجلس القادة العامين، وعرض نفسه للنتائج التي يمكن تصورها.**

في ذلك اليوم بالذات قرر الاخوة ليال الثلاثة نقل آلة الطباعة من المطبخ ليحولوا دون وقوع أبيهم في شراك مثاليته العاطفية. وحاولوا منذ ذلك الحين عدم تعريضه لأي نوع من القلق. فلم يطلعه أحد منهم على نشاطاته في المعارضة، لكنهم لم يستطيعوا منع البر وفسور ليال حين اعتقل خوسيه مع عدد من رهبان وراهبات المطرانية، من الجلوس في ساحة السلاح وهو يرفع لافتة كتب عليها: **انهم يعذبون ابني في هذه اللحظة**. ولولا وصول خابيير وفرانثيسكو في الوقت المناسب ليقوداه من ذراعيه بعيداً عن ذلك المكان، لبلل ملابسه بالبنزين وأشعل النار في نفسه مثل بوذي أمام عيون من اجتمعوا حوله مشفقين.

انضم فرانثيسكو إلى مجموعة منظمة تعمل على تهريب الملاحقين عبر احدى المناطق الحدودية وادخال عناصر من المعارضة عبر منطقة اخرى. وكان يؤمن المال اللازم لمساعدة الناجين المتوارين عن الأنظار ولشراء الطعام والادوية، ويجمع المعلومات لارسالها إلى الخارج مخبأة في نعال رهبان أو في شعور دمى. وأنجز بعض المهمات شبه المستحيلة: فقد صور جزءاً من الأرشيف السري للشرطة السياسية وسجل على ميكروفيلم صوراً للهويات الشخصية للقائمين على عمليات التعذيب، مفكراً بان هذه المعلومات قد تكون ذات نفع في أحد

الأيام لاحقاق العدالة. ولم يطلع على هذا السر أحد سوى خوسيه، الذي لم يكن يرغب في سماع الأسماء أو الأماكن أو غيرها من التفاصيل، لأنه كان قد تأكد من صعوبة الصمت تحت بعض أصناف التعذيب.

ولأنهما كانا يشاركان في مهمات متماثلة، فقد فكر فرانثيسكو باخيه وهو في مغارة براديليو رانكيليو، وندم لأنه لم يطلب منه المساعدة. فإذا كان الهارب قد ولج المنطقة الصامتة من الجبال، فلن يجد له من أثر، وإذا كان قد نزل إلى الوادي لينفذ ثأره واعتقل هناك، فسيكون من المستحيل مدُّ يد المساعدة إليه.

نفض فرانثيسكو التعب، وبلل ثيابه بالماء ليستمتع بالرطوبة وبدأ بالنزول وقيظ القيلولة يثقل رأسه، ويغشي عينيه أحياناً بنقاط ملونة تتراقص أمام حدقتيه.

واخيراً وصل إلى المكان الذي ترك فيه الدراجة النارية، وهناك وجد ايرين في انتظاره. فصديقته التي فقدت الصبر وهي تنتظره في بيت آل رانكيليو، أوقفت أول عربة خضار عابرة وطلبت ممن فيها ان يحملوها معهم. تعانقا بشوق، وقادته إلى ظل الأشجار حيث سوت الأرض مبعدة الحصى، وساعدته على الاستلقاء. وفيما هو يحاول الراحة والسيطرة على ارتعاش ساقيه، مسحت العرق عن وجهه، ثم قطعت شمامة أهدتها إياها ديغنا واعطته ليأكل منها، منتزعة القطع بأسنانها لتضعها في فمه مرفقة بقبلة. كانت الفاكهة دافئة وشديدة الحلاوة، لكنه أحس أن كل لقمة منها هي بمثابة دواء عجيب، قادر على الغاء اثر الاجهاد وعلى مكافحة الخمود. وحين لم يبق من الشمامة سوى قشورها المقضومة، بللت ايرين المنديل من جدول ماء ونظفا به ديديهما ووجهيهما. وتحت شمس الساعة الثالثة اللاهبة، جددا العهود التي همسا بها في الليلة السابقة، وتبادلا المداعبات المجربة التي تعلماها حديثاً.

ورغم سعادة هذا الحب الذي لم يكد يبدأ، فإن ايرين لم تكن تستطيع إبعاد ذكرى المنجم من ذاكرتها. فتساءلت:

ـ كيف عرف براديليو بمكان جثة اخته؟

الحقيقة ان فرانثيسكو لم يكن قد فكر بذلك، ولم يكن يرى ان تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة للتفكير بأمر كهذا. كان يشعر بالارهاق، وكانت رغبته الوحيدة هي النوم قليلاً ليتخلص من الدوار، لكنها لم تتح له الوقت لذلك. كانت تجلس مقاطعة ساقيها مثل فقير هندي، وتتكلم بسرعة، قافزة من فكرة الى اخرى، كما هي عادتها. وكانت ترى انه في هذه النقطة بالذات يكمن مفتاح بعض الأسرار الاساسية. وفيما صديقها يستجمع قواه ويحاول تصفية ذهنه، كانت هي تبحر في الموضوع موضحة الشكوك وباحثة عن اجابات، إلى أن استخلصت بشكل مؤكد ان براديليو رانكيليو يعرف منجم لوس ريسكوس لأنه كان يتردد عليه مع الملازم خوان دي ديوس رامير يث. لابد انهما استخدماه ليخفيا فيه شيئاً، لأن الشرطي كان يعرف انه مكان آمن وقد افترض ان رئيسه سيعود إلى استخدامه عند الحاجة.

قال فرانثيسكو وفي عينيه نظرة من فوجىء وهو يسير نائماً:

ـ لست أفهم شيئاً.

ـ الأمر في غاية البساطة. فلنذهب إلى المنجم ونفتح النفق الثاني. فقد نجد هناك مفاجأة.

سيتذكر فرانثيسكو هذه اللحظة فيما بعد مبتسماً، إذ بينما دائرة الرعب تطبق من حولها، فإن شعوره الغالب كان معانقة ايرين، ناسياً الموتى الذين بدأوا ينبثقون من تحت الأرض مثل شجيرات برية، والخوف من الاعتقال أو الاغتيال. كان ذهنه مشغولاً تماماً بالرغبة الجامحة في ممارسة الحب. وبدلاً من تلمس الطريق في المتاهة التي يتقدمان فيها، كان يحاول البحث عن مكان مريح ليلعب معها. وكان اندفاعه لضمها بين ذراعيه، واحتضانها، وشمها، والاحساس بها تحت جلده، وامتلاكها على مرأى من الاشجار أقوى من الارهاق والحر والعطش، كان يريد ان يفعل كل ذلك هناك بالذات، إلى جانب الطريق، تحت أنظار من يصادف مروره الآن. ولحسن الحظ أن أفكار ايرين كانت أكثر صفاء، فقالت له حين حاول احتضانها فوق العشب: أنت محموم. ثم شدته من ملابسه لتقوده إلى

الدراجة النارية وأقنعته بالانطلاق، ممتطية الدراجة خلفه ومحتضنة خاصرته، هامسة بأوامر جازمة وبكلمات غرامية في اذنه، إلى ان خففت اهتزازات الدراجة وضوء الشمس المبهر من اندفاع عواطفه واعادت اليه السكينة، فواصلا طريقهما إلى منجم لوس ريسكوس.



كان الوقت ليلاً حين وصلت ايرين مع فرانثيسكو إلى بيت آل ليال. وكانت هيلدا قدانتهت لفورها من اعدادعجة البطاطا فيما كانت رائحة القهوة تعطر المطبخ. لقد أشرقت هذه الحجرة الفسيحة للمرة الأولى، وظهرت أبعادها الحقيقية بعد اخراج آلة الطباعة منها، فاتيح للجميع تقدير سحرها: الاثاث الخشبي القديم المغطى بقطع من الرخام، والثلاجة المعمرة والطاولة الموضوعة في الوسط والتي تستخدم لألف غرض ويجتمع أفراد الأسرة حولها. كان هذا المطبخ يشكل المكان الأكثر دفئاً وحناناً في الدنيا خلال فصل الشتاء، ففيه، وإلى جانب آلة الخياطة والمذياع والتلفزيون، يجدون ضوء ودفء مدفأة الكيروسين والفرن والمكواة. ولم يكن فرانثيسكو يجد مكاناً أفضل من تلك الحجرة، فأجمل ذكريات طفولته حدثت اثناء لعبه ودراسته واحاديثه الهاتفية الطويلة مع خطيبةٍ ذات جدائل مدرسية في هذه الحجرة، فيما امه التي كانت ما تزال شابة وفاتنة في ذلك الحين، تقوم بأعمالها مدندنة بأغنيات من وطنها الاسباني البعيد. كان الجويعبق دوماً برائحة الاعشاب الطازجة وبهارات تتبيل الطعام والمقالي. وتختلط رائحة أغصان اكليل الجبل، وأوراق الغار، وفصوص الثوم، ورؤوس البصل، والفانيليا، واليانسون والشوكولاته المستخدمة في صنع الحلوى والبسكويت.

في تلك الليلة، كانت هيلدا تصفي قليلاً من قهوة ممتازة أهدتها إياها ايرين بيلتران. ووجدت ان هذه المناسبة تستدعي اخراج الفناجين الخزفية الصغيرة التي تحتفظ بها في الصوان، والتي يختلف كل منها عن الآخر وتبدو لرقتها وكأنها

تنهيدات. كانت رائحة القهوة هي أول ما تلقاه الشابان عند فتح الباب، وقادتهما إلى قلب البيت.

أحس فرانثيسكو لدى دخولهما انه محاط بدفء الجو، الدفء الذي كان يشعر به في طفولته، حين كان صبياً نحيلاً وضعيفاً، وضحية الألعاب الخشنة مع أولاد أكثر منه قوة وقسوة. كانت قد اجريت له جراحة وهو حديث الولادة بسبب تشوه خلقيّ ففي احدى ساقيه، وقد رعته امه التي كانت دعامة طفولته في ظل تنورتها، وأرضعته لفترة أطول بكثير من فترة الرضاعة المعتادة، وحملته على ظهرها أو بين ذراعيها أو على وركها وكأنه جزء من جسدها، إلى أن شفيت عظامه تماماً وصار قادراً على الاعتماد على نفسه. كان يأتي من المدرسة وهو يجر جراب لوازمه، متهيئاً للقاء أمه في المطبخ، حيث تنتظره بابتسامتها الهادئة المرحبة وقد أعدت له وجبة طعامه. لقد تركت هذه الذكرى أثراً خالداً في روحه على مدى الحياة، وكلما احتاج لاستذكار الطفولة، كان يعيد في ذاكرته بناء أدق تفاصيل هذه الحجرة، رمز الحضور الكليّ للحب الامومي. ولقد أحس في تلك الليلة بالاحاسيس ذاتها حين رآها تحرك العجة في المقلاة وتدندن بصوت خافت. وكان أبوه عاكفاً على دفاتره يصحح اختبارات التلاميذ، تحت ضوء مصباح السقف.

أفزع منظر القادمين الزوجين ليال. فقد كان الشابان شاحبين، ثيابهما مجعدة ومتسخة، وتطل من عينيهما تعابير غريبة.

سألهما البر وفسور:

ـ ماذا أصابكما؟

فرد فرانثيسكو:

ـ وجدنا مدفناً سرياً. توجد فيه جثث كثيرة.

ـ كونيو! ـ صاح أبوه، متلفظاً لأول مرة في حياته بكلمة نابية أمام زوجته.

رفعت هيلدا منديل المطبخ إلى فمها، وفتحت عينيها الزرقاوين المستديرتين برعب، متجاوزة بذاءة زوجها. وكان الشيء الوحيد الذي استطاعت ان تتمتم به:

ـ أيتها العذراء المقدسة!

قالت ايرين:

ـ أظن انهم من ضحايا الشرطة.

ـ هل هم من المفقودين؟

وقال فرانثيسكو:

ـ هذا ممكن. ـ ثم أضاف وهو يُخرج بضعة أفلام من حقيبته ويضعها فوق الطاولة: ـ لقد التقطت بعض الصور. .

رسمت هيلدا اشارة الصليب بحركة آلية. وانهارت ايرين فوق أحد المقاعد وقد نفدت قدرتها على الصمود، فيما كان البر وفسور ليالي يتمشى بخطوات واسعة دون ان يجد الكلمات المناسبة في قاموسه الواسع والغني. كان ميالاً إلى الفصاحة، لكن وقع ذلك النبأ أفقده القدرة على النطق.

روى فرانثيسكو وايرين ما جرى. فقد وصلا إلى منجم لوس ريسكوس عند الأصيل، منهكين وجائعين، ولكنهما كانا على استعداد للتحري بدقة، ومتشبثين بأمل العودة إلى حياتهما الطبيعية وتبادل الحب بطمأنينة بعد حل هذا اللغز. لم تكن تبدو على المكان أية علامات شؤم في وضح النهار، لكن ذكرى ايفانخيلينا اجبرتهما على التقدم بحذر. أراد فرانثيسكو الدخول وحيداً، لكن ايرين قررت التغلب على ترددها ومساعدته في فتح النفق الثاني لينتهيا ويخرجا من هناك بأسرع ما يمكن. ازاحا الانقاض والأحجار عن المدخل بسهولة، وشقا المنديل إلى قطعتين، ربطاهما إلى وجهيهما ليتقيا رائحة العفونة القوية ودخلا الرواق الأول. لم يحتاجا إلى اضاءة المصباح اليدوي، فالشمس كانت تنفذ من الفتحة مضيئة جسد ايفانخيلينا رانكيليو، فغطاه فرانثيسكو بالعباءة ليحجبه عن عيني صديقته.

اضطرت ايرين إلى الاستناد إلى الجدار كي تحتفظ بتوازنها، لأن ساقيها انهارتا. حاولت التفكير بحديقة بيتها حين تتفتح فيها أزهار اللاتنسيني فوق قبر الوليد الذي سقط من كوة النور، أو بالثمار المكدسة في سلال ضخمة أيام السوق.

رجاها فرانثيسكو أن تخرج، ولكنها تمكنت من السيطرة على معدتها وتناولت قطعة حديد عن الأرض، وانهالت بها على طبقة الاسمنت الرقيقة التي تسد مدخل النفق. وشاركها فرانثيسكو في هذه المهمة مستخدماً المعول. لا بد أن مزيج مواد البناء قد أعدته أيد غير خبيرة، لأنه كان يتفتت قطعاً صغيرة أمام أدنى الجهود. وانتشرت في الجو، اضافة لرائحة النتانة، سحابة كثيفة من غبار الاسمنت، لكنهما لم يتراجعا، ليقينهما الذي كان يترسخ مع كل ضربة يهويان بها في انهما سيجدان شيئاً في انتظارهما وراء هذا الحاجز. سيجدان حقيقة مخبأة منذ زمن طويل. وبعد عشر دقائق من الحفر وجدا قطعاً قماشية وبعض العظام. كانت هناك اضلاع مغطاة بقميص أبيض وصدرية زرقاء. وفيما الغبار يهدأ، أشعلا المصباح اليدوي ليتفحصا هذه العظام ويتأكدا من انها عظام بشرية. وكان يكفي ان يحفرا قليلاً بين الانقاض لتتدحرج حينئذ عند أقدامهما جمجمة ما تزال عالقة في جبهتها خصلة شعر. لم تستطع ايرين احتمال المزيد، فخرجت من المنجم متعثرة، فيما واصل فرانثيسكو الحفر دون تفكير، وكأنه آلة صامتة. بدأت تظهر بقايا اخرى، فأدرك أنه في مدفن مليء بالجثث المدفونة منذ سنوات، كما يبدو من حالتها. كانت الاجزاء البشرية تظهر من تحت التراب مختلطة بالملابس المهترئة الملطخة ببقع من مادة زيتية قاتمة. التقط فرانثيسكو قبل أن ينصرف بعض الصور بكل هدوء ودقة، وكأنه في حلم، لأنه كان قد اجتاز حدود الذهول، وصار الأمر يبدو له طبيعياً على غرابته، واكتشف نوعاً من المنطق في ذلك الوضع، كما لو ان العنف كان ينتظره، دوماً. ورأى ان هؤلاء الموتى الذين برزوا من تحت التراب بأيديهم المعروقة وجباههم المثقوبة بالرصاص، كانوا ينتظرونه منذ وقت بعيد، ويناودونه دون توقف، لكنه لم يسمعهم حتى ذلك اليوم. وفاجأ نفسه وهو يتكلم بصوت عال ليوضح لهم سبب تأخره باحساس من تخلف عن موعد. نادته ايرين من الخارج، لتعيده إلى الواقع، فخرج من المنجم وهو يجرجر روحه.

تعاونا على سد مدخل المنجم محاولين جعله يبدو كما وجداه. واستراحا لبضعة دقائق استنشقا خلالها الهواء النظيف ملء رئتيهما، فيما كل منهما يشدّ على

يد الآخر ويسمع نبضات قلبه المنفلتة المكابح. وذكرهما تنفسهما المضطرب وارتعاش جسديهما بانهما ما يزالان على قيد الحياة على الأقل. اختفت الشمس خلف الجبال واصطبغت السماء بلون البترول، فركبا الدراجة النارية واتجها صوب المدينة.

تساءل البروفسور ليال عندما انتهيا من القصة:

ـ ماذا سنفعل الآن؟

تجادلوا طويلاً حول الطريقة المثلى لكشف القضية، مستبعدين فكرة اللجوء إلى القانون، لأن ذلك سيكون كمن يضع عنقه في انشوطة. فقد افترضوا أن براديليو رانكيليو كان يعرف أن اخته في المنجم لكونه استخدم هو نفسه هذا المكان لإخفاء جرائم أخرى، وانذار السلطات قد يعني اختفاء ايرين فرانثيسكو كذلك خلال بضع ساعات، وتغطية منجم لوس ريسكوس ببضعة رفوش جديدة من التراب. فالعدالة ليست إلا مصطلحاً منسياً من اللغة التي لم تعد تستخدم، لأن لهذا المصطلح هيئة توحي بالتمرد، مثله مثل كلمة حرية. كان العسكريون ينعمون بعفو من العقاب عن كل ما يقترفونه، وكان ذلك يشكل عائقاً أمام الحكومة ذاتها، فلكل فرع من القوات المسلحة جهازه الامني الخاص، اضافة إلى الشرطة السياسية التي تحولت إلى السلطة العليا في الدولة، وكانت بمنأى عن أية رقابة. إن الغيرة المهنية لمن يتولون هذه الأجهزة كانت تؤدي إلى وقوع أخطاء مؤسفة وإلى انعدام الفعالية. فقد يحدث ان تتنازع جماعتان أو ثلاث جماعات امنية على أحد المعتقلين، وكل جماعة منهم تريد استجوابه لاسباب متناقضة، أو انهم يخطئون بالعملاء المزدوجين وتنتهي الجماعة إلى تصفية أفرادها.

تنهدت هيلدا:

ـ رباه! كيف خطر لكما الدخول إلى ذلك المنجم؟

ورد البروفسور:

ـ ما فعلتماه هو عين الصواب. ويجب البحث الآن عن طريقة تخرجان بها من هذه المشكلة.

فاقترحت ايرين وهي تفكر بمجلات المعارضة القليلة التي ما زالت متداولة :

ـ الشيء الوحيد الذي يخطر لي هو أن نُعلم الصحافة بالأمر.

وقرر فرانثيسكو:

ـ سأذهب غداً ومعي الصور.

فأكد لهما البر وفسور ليال :

ـ لن تستطيعا المضي بعيداً. سيقتلونكما عند أول ناحية.

ومع ذلك، كانوا جميعهم متفقين على ان الفكرة ليست بالجنونية. فالحل الأفضل هو في اعلان الخبر، واطلاقه ليجوب العالم ويهز الضمائر ويزعزع ركائز الوطن ذاتها. عندئذ ذكرتهم هيلدا، بغريزتها الخفية، ان الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي ما زالت تقف على قدميها، في حين حُلّت جميع المنظمات الاخرى وكُنست بالقمع. وبمساعدة الكنيسة هناك فرصة حيال المستحيل، وبالامكان كشف أمر المنجم دون المخاطرة بفقدان الحياة. فاتفقوا حينئذ على وضع هذا السر بين يدي الكردينال.

تمكن فرانثيسكو من العثور على سيارة اجرة توصل ايرين إلى بيتها قبل موعد حظر التجول، لأنه لم تعد لدى الفتاة قوة تمكنها من تثبيت نفسها على مقعد الدراجة النارية الخلفي. ونام في ساعة متأخرة بعد ان انهي تحميض الأفلام. نام نوماً قلقاً، وكان يتقلب في فراشه بيأس، وهو يرى في الظلال وجه ايفانخيلينا محاطاً بعظام صفراء تدق مثل الجلاجل. فصرخ في أحلامه واستيقظ ليجد هيلدا إلى جواره :

لقد أعددت لك زهر الزيزفون، اشربه.

ـ أظن انني بحاجة لشيء أقوى. .

فأمرته مبتسمة :

ـ اصمت وأطع، فلهذا لك أم.

جلس فرانثيسكو في السرير، ثم نفخ على الشراب، وبدأ يتناوله برشفات بطيئة، فيما كانت أمه تتأمله دون مواربة.

ـ لماذا تنظرين إليّ هكذا يا أماه؟

ـ لم تخبرني بكل ما حدث يوم أمس. فأنت وايرين مارستما الحب، أليس صحيحاً؟

ـ يا لطبعك! أتريدين التدخل في كل شيء؟

ـ لي الحق بمعرفة ذلك.

فضحك فرانثيسكو:

ـ لقد أصبحت كبيراً على تقديم الحسابات.

ـ انتبه، أريد أن انبهك إلى أن هذه الشابة هي فتاة محترمة، وانتظر أن تكون نواياك طيبة تجاهها وإلا فانني سأختلف معك كثيراً، هل تفهمني؟ والآن، تناول شراب الزيزفون، وإذا كان ضميرك نقياً فستنام بهدوء ـ قالت هيلدا ذلك وهي ترتب غطاء سريره لتخرج.

رآها فرانثيسكو تغادر الغرفة، بعد ان تركت الباب موارباً لتستطيع سماعه إذا ما ناداها، فأحس بالحنان الذي كان يشعر به في طفولته، حين كانت هذه المرأة تجلس في فراشه لتداعبه بيد حانية إلى أن ينام. لقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الحين، لكنها ما زالت تعامله بالعناية البالغة نفسها، متجاهلة أنه كثيراً ما يضطر إلى حلاقة ذقنه مرتين في اليوم الواحد، ومتناسية درجة الدكتوراة في الطب النفسي التي يحملها، وكونه قادراً على رفعها بيد واحدة. كان يسخر منها، ولكنه لم يكن يفعل شيئاً لتغيير عادتها باغداق الحنان المفرط عليه. كان يشعر انه يملك امتيازاً ويحرص على التمتع به طالما هو متاح له. فعلاقتهما التي بدأت منذ لحظة الحَبَل وتمتنت من خلال تعرف كل منهما على مساوىء الآخر وحسناته، كانت هبة ثمينة يحرصان على إطالة أمدها إلى ما وراء موت أي منهما. نام فرانثيسكو بقية تلك الليلة نوماً عميقاً وحين استيقظ لم يتذكر شيئاً من أحلامه. استحم طويلاً

تحت دوش الماء الساخن، ثم تناول الفطور مع بقايا القهوة المستوردة وخرج بعد أن وضع الصور في حقيبته متوجهاً إلى الحي الشعبي الذي يعيش فيه اخوه.

كان خوسيه ليال يعمل سباكاً. وحين لا يكون لديه ما يفعله بموقد اللحام أو بالمفتاح الانكليزي، فانه يشغل وقته في مهمات ونشاطات متنوعة لصالح جماعة البؤساء الذين اختار العيش بينهم، وذلك انسجاماً مع ميله الذي لا شفاء منه لمد يد العون إلى الآخرين. كان يعيش في حي واسع ومكتظ لا يظهر للناظر من الطريق العام، لأنه محاط بأسوار ويصف من أشجار الحور المشرئبة نحو السماء بأغصانها الجرداء، إذ لا يمكن حتى للنباتات أن تنمو سليمة في هذا القطاع. ووراء تلك الستارة الكتيمة توجد شوارع يملؤها الغبار والتراب في الصيف، والوحل والمطر في الشتاء، وبيوت مشادة بمواد مستخرجة من النفايات والقمامة؛ وملابس منشورة، وعراكات كلاب. وهناك يجتمع الرجال العاطلون عن العمل على النواصي لتمضية الوقت، فيما الأطفال يلعبون بخردة الحديد، والنساء ينهمكن في مقاومة تردي جمالهن. عالم من الندرة والفاقة، حيث العزاء الوحيد المضمون هو التكاتف. فلا أحد يموت هناك جوعاً، لأنه ما أن يصل المرء إلى حافة اليأس، حتى تمتد اليه يد صديقة، هذا ما كان يقوله خوسيه ليال ليوضح حقيقة القدور المشتركة التي يلقي فيها كل واحد من الجيران ماهو قادر على تقديمه لحساء الجميع. والاقرباء يعيشون هناك ملتحمين بالاسرة، لأنهم منفردين سيكونون أفقر من الفقراء ولن يجدوا سقفاً يأويهم. وفي مطاعم الأطفال، تتولى الكنيسة تقديم جزء من الطعام اليومي للصغار، والراهب الذي كان معتاداً على رؤية كل هذا منذ سنوات طويلة، لم تتصلب مشاعره أمام صف الأطفال المستحمين ومسرحي الشعور الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى ذلك المطعم المكشوف، حيث صحون الالمنيوم تنتظر فوق طاولات طويلة، فيما اخوتهم الكبار، ممن لا ينالهم الاحسان، يتجولون حول المكان عساهم يظفرون بشيء من البقايا. كانت هناك امرأتان تقومان بطهي الطعام الذي يجمعه الرهبان بالتوسل وبالتهديدات الروحية. وإضافة إلى تقديمهما الطعام، كانتا تتوليان مراقبة

الأطفال كي يأكل كل منهم حصته، لأن كثيرين منهم كانوا يخبئون الطعام والخبز ليأخذوه إلى بيوتهم، حيث بقية أفراد أسرهم لا يملكون شيئاً يأكلونه، اللهم إلا بعض الخضار التي يجمعونها من حاويات القمامة في السوق أو قطعة عظم غليت مراراً وتكراراً لتمنح الحساء شيئاً من النكهة.

كان خوسيه يعيش في كوخ خشبي شبيه بأكواخ كثيرة هناك، لكنه أكثر اتساعاً منها لأنه يستخدمه لتقديم الخدمات ولحل ما تعانيه رعيته التعيسة من مشكلات دنيوية وروحية. وكان فرانثيسكو يتردد على الحي برفقة محام وطبيب ليساعدوا الأهالي في نزاعاتهم القضائية وأمراضهم وقنوطهم، شاعرين أن مساعدتهم تلك ليست ذات جدوى في معظم الأحيان، لأنه لم يكن هناك من حلّ لاكداس المآسي التي يواجهونها.

وجد فرانثيسكو أخاه يستعد للخروج، كان يرتدي ملابس العمال ويحمل حقيبة العدّة الثقيلة. وبعد التأكد من انهما وحيدان، فتح فرانثيسكو حقيبته. وفيما كان الراهب يتأمل الصور، ويزداد شحوباً لحظة بعد اخرى، راح فرانثيسكو يروي له القصة، بادئاً من ايفانخيلينا رانكيليو ونوبات القداسة التي كانت تصيبها، وكان أخوه يعرف بعض المعلومات حولها مذ ساعدهم في البحث عنها في مستودع الجثث، ووصولاً إلى اللحظة التي تدحرجت فيها على قدميه البقايا البشرية التي يحمل صورها في يده. ولم يغفل شيئاً باستثناء اسم ايرين بيلتران ليتركها بعيدة عن النتائج التي قد يؤدي اليها هذا الأمر.

استمع خوسيه ليال حتى النهاية واحتفظ بعد ذلك بالصمت لوقت طويل، ونظره مثبت بالأرض، في وقفة تأمل. وأدرك أخوه أنه يحاول السيطرة على أعصابه. ففي شبابه، كان أي شكل من أشكال التعسف أو الظلم أو الشر يبعث فيه شحنة كهربائية ويجعل الغضب يعميه. لكن السنوات التي أمضاها كقس وتصلب طبعه منحاه القدرة للسيطرة على هذه الهيجانات عبر منهج تدريبي على الخشوع، فبدأ يتقبل الدنيا على أنها انجاز غير مكتمل، يختبر الرب فيه صلاح

الارواح. واخيراً رفع رأسه، وكان وجهه قد استعاد هدوءه كما استرد صوته نبرته الصافية، فقال:

ـ سأكلم الكردينال في الأمر.

★★★

قال الكردينال:

ـ فليوفقنا الرب في هذه المعركة التي سنخوضها.

وأضاف خوسيه ليال:

ـ عسى أن يكون كذلك.

أمسك النائب الرسولي الصور بأطراف أصابعه ثانية، متأملاً الأسمال المتسخة، والمحاجر التي بلا عيون، والايدي المقيدة. ان من لا يعرف الكردينال سيفاجأ برؤيته. ففي الاحتفالات العامة، وعلى شاشات التلفزيون، وحين يقود القداس في الكتدرائية بمسوحه المطرزة بالذهب والفضة مع بطانته من المساعدين، يبدو رقيقاً وانيقاً. لكنه كان في الواقع رجلاً وضيع النشأة. متيناً، وخشناً، له يدا فلاح ثقيلتان، قليل الكلام ولكلامه حين يتحدث نبرة خشنة على الدوام، وذلك بسبب الخجل وليس بدافع العجرفة. وكان طبعه الصامت يظهر بوضوح في حضرة النساء وفي اللقاءات الاجتماعية. أما عند ممارسة عمله فلم يكن يظهر عليه ذلك. كان له أصدقاء معدودون، لأن التجربة علمته ان للتحفظ في منصب كمنصبه فضائل لا يستهان بها. والقلة الذين استطاعوا الوصول إلى إقامة علاقة وثيقة معه يؤكدون ان له طبعاً بشوشاً، مثل طباع الريفيين. فهو ينحدر من أسرة ريفية كبيرة العدد، ويحتفظ من بيت والديه بذكرى وجبات الغذاء السخية، والمائدة التي كان يجلس اليها اثنا عشر أخاً، والنبيذ المعتق الذي يُعبأ في زجاجات في البهو بعد حفظه لسنوات طويلة في القبو. وبقي له من تلك الحياة حبه لحساء الخضار اللذيذ، ولحلوى الذرة، ومرق الدجاج، والأسماك المطبوخة، وقبل كل ذلك حبه للحلويات البيتية. والراهبات اللواتي يتولين شؤون منزله كن يسعين

لنسخ وصفات المأكولات التي كانت تعدها أمه ويبعثن إلى غرفة الطعام بالأطباق التي كان يأكلها في طفولته. ومع ان خوسيه ليال لا يمكنه ان يفاخر بكسب صداقة الكردينال، إلا انه كان يعرفه من خلال عمله في مقر المطرانية، حيث كانا يلتقيان باستمرار، تجمعهما الرغبة المشتركة في ايصال التضامن الانساني إلى حيث يبدو ان الحب الرباني غائب. كان يشعر كلما رآه بالحيرة التي أحس بها في اللقاء الأول، فهو يحتفظ له في ذهنه بصورة رجل وجيه، مختلف عن هذا العجوز الذي يبدو أشبه بقروي منه بأمير للكنيسة. وكان يكن له احتراماً شديداً، لكنه يلتزم جانب الحذر في ابداء هذا الشعور، لأن الكردينال لا يحتمل أي نوع من أنواع التملق. وقبل ان تتمكن البلاد بأسرها من تقدير شخصيته الحقيقية واحترامه، كانت لدى خوسيه ليال أدلة على شجاعته وحسن ادارته ودهائه، وهي الخصال التي اظهرها فيما بعد في مقارعته للدكتاتورية. ولم تستطع حملة العداء، ولازج الرهبان والراهبات في المعتقلات، ولا تحذيرات روما أن تحرفه عن أهدافه. فقد ألقى زعيم الكنيسة على كاهله مسؤولية الدفاع عن ضحايا النظام الجديد، واضعاً مؤسسته المهيبة في خدمة المطاردين. فإذا ما اشتدت المخاطر، غير من استراتيجيته مستنداً إلى ألفي سنة من الدهاء ومن معرفة السلطة. وبهذا كان يحول دون مواجهة مفتوحة بين ممثلي يسوع وممثلي الجنرال. كان يبدو في بعض الأحيان وكأنه يتراجع، لكنه سرعان ما يبين ان ذلك لم يكن سوى مناورة سياسية طارئة. لم يكن لينحرف ولو قليلاً عن مهمته في رعاية الأرامل والأيتام، وفي مساعدة المعتقلين، واحصاء القتلى واللجوء إلى الشفقة حين تعز العدالة. لهذه الأسباب ولأسباب اخرى كثيرة، رأى فيه خوسيه الأمل الوحيد للكشف عن سر لوس ريسكوس.

كانا حينئذ في مكتب الكردينال. وفوق طاولة الخشب القديمة الثقيلة كانت الصور المغمورة بالضوء الداخل عبر الزجاج. وكان بامكان الزائر وهو في مقعده أن يرى من خلال النافذة سماء الربيع الصافية وقمم أشجار الشارع المعمرة. كانت الحجرة مؤثثة باثاث قاتم وبخزائن للكتب. ولم يكن على الجدران سوى صليب مصنوع من سلك شائك، أهداه إياه سجناء أحد معسكرات الاعتقال. وكان

العاملون قد قدموا الشاي في فناجين كبيرة من الخزف الأبيض، فوق طاولة ذات عجلات، وقدموا معه رقائق من الحلوى والمربى الذي يعده دير الآباء الكرمليين. رشف خوسيه ليال آخر ما تبقى من الشاي وتناول الصور ليضعها في حقيبة أدوات السباكة. وضغط الكردينال على جرس، فحضر سكرتيره في الحال.

- أرجو ان ترتب لي موعداً اليوم مع هؤلاء الأشخاص المذكورين في القائمة.

قال الكردينال وهو يمد اليه ورقة سجل عليها بخطه الدقيق مجموعة من الأسماء. فأخذها السكرتير، والتفت الكردينال إلى خوسيه قائلاً:

- كيف علمت بهذه القصة أيها الأب ليال؟

فابتسم خوسيه مبدياً عدم رغبته في الكشف عن ذلك، وقال:

- لقد اخبرت نيافتك. انه من اسرار الاعتراف.

- إذا ما قررت الشرطة استجوابك فلن تقتنع بهذه الاجابة.

- سأحتمل المخاطرة.

- أتمنى ألا يكون ذلك ضرورياً. أعلم أنك اعتقلت مرتين من قبل، أليس كذلك؟

- أجل يا صاحب النيافة.

- عليك ألا تلفت الانظار إلى تحركاتك. وأنا أفضل عدم ذهابك حالياً إلى هذا المنجم.

فرد خوسيه متورداً:

- اني مهتم بهذا الأمر جداً وأرغب في الوصول به إلى نهايته، ان كنت تسمح لي يا صاحب النيافة.

تأمله الشيخ متفحصاً لبضع ثوان، ومتقصياً أعمق دوافعه. لقد عمل معه منذ سنوات، وهو يعتبره أحد العناصر الشجاعة في المطرانية، حيث يتطلب العمل اناساً أشداء وذوي قلوب سمحة مثل هذا الرجل الذي يرتدي ملابس العمال ويضع فوق ركبتيه حقيبة مليئة بأدلة على الشر. لكن نظرة الكردينال اقنعته ان

ذلك الرجل لا يتصرف مدفوعاً بالفضول أو التفاخر، وانما بحماسة الوصول إلى الحقيقة.

ـ كن حذراً أيها الأب ليال، ليس من أجل نفسك وحسب، بل من أجل مكانة الكنيسة أيضاً. لسنا راغبين في خوض حرب مع الحكومة، هل تفهمني؟

ـ تماماً يا صاحب النيافة.

ـ تعال هذا المساء إلى الاجتماع الذي دعوت اليه. وإذا سمح الله، فستفتح هذا المنجم غداً.

نهض الكردينال عن كرسيه ورافق الزائر حتى الباب، كان يمشي متمهلاً وقد أسند احدى يديه إلى ذراع هذا الرجل المتين الذي اختار مثله المهمة الصعبة: حب الآخرين فوق حب الذات.

ـ ليكن الله معك. . ـ قال العجوز مودعا، وضغط على يد خوسيه بهمة، قبل أن يقوم هذا بتقبيل خاتمه.

عند الغروب اجتمعت في مكتب الكردينال مجموعة من الشخصيات المنتقاة. ولم تمر الحادثة دون ان تنتبه اليها عيون رجال الشرطة السياسية وجماعات أمن الدولة الذين أعلموا الجنرال شخصياً بالأمر، لكنهم لم يتجرأوعلى منع الاجتماع نظراً للتعليمات المشددة بتفادي النزاعات مع الكنيسة. اللعنة، فهؤلاء الرهبان اللعينون يزجون أنفسهم في أمور لم يطلب أحد منهم التدخل فيها، لماذا لا يلتفتون إلى الشؤون الروحية ويتركون شؤون الحكم لنا؟ ولكن دعوهم. . لا نريد مشكلة اخرى ـ قال الجنرال غاضباً ـ وتقصوا في أية شياطين يتداولون لنستطيع استخدام المرهم قبل أن يحدث الجرح، وقبل أن يبدأ هؤلاء الأشقياء باطلاق الرسائل الرعوية في الكنائس ليخوزقوا الوطن ولا يبقى أمامنا حينئذ سوى تلقينهم درساً، رغم انني لا أجد في ذلك أية مسرة، فأنا كاثوليكي، رسولي، ورومي محافظ، ولا أفكر في الحرب ضد الرب.

لم يعرفوا مادار من حديث في تلك الليلة، رغم أجهزة التنصت المشتراة من أرض توراتية، والقادرة على التقاط حتى أنفاس وتنهدات العاشقين الذين

يمارسون الحب في فنادق بعيدة؛ ورغم مراقبة هواتف الجميع لسماع أدنى همسة في المعتقل الفسيح الذي يشكله التراب الوطني؛ ورغم العملاء المبثوثين حتى في بيت الكردينال ذاته والمتنكرين بملابس مبيدي الصراصير أو صبيان المتاجر أو الجنائنيين، بل وأولئك العرجان والعميان ومرضى الصرع الذي يقبعون عند الباب طالبين الصدقات والمباركات لدى مرور ذي المسوح. بذلت جماعات الأمن جهودها، ولكنها لم تتحقق إلا من أن هؤلاء الواردة اسماؤهم في هذه القائمة قد اجتمعوا لعدة ساعات وراء أبواب موصدة ياسيدي الجنرال، ثم خرجوا من المكتب ليدخلوا إلى صالة الطعام، حيث قُدم لهم حساء القواقع البحرية، ولحم عجل مشوي مع البطاطا والبقدونس، وكانت الحلوى عبارة عن. . تكلم في المهم أيها الكولونيل. لا تقدم لي وصفات مطبخ، بل أخبرني بما تبادلوه من حديث! ليست لدينا أدنى فكرة عما قالوه يا سيدي الجنرال، ولكن إذا شئت فيمكننا استجواب السكرتير. لا تكن أحمق أيها الكولونيل.

عند منتصف الليل صافح المدعوون بعضهم بعضاً عند باب منزل الكردينال، وذلك أمام عيون رجال الشرطة الذين انتشروا في الشارع بشكل مكشوف. وعلم جميع المشاركين أن حياتهم قد أصبحت في خطر منذ هذه اللحظة، لكن أياً منهم لم يتردد، فهم معتادون على السير فوق شفير الهاوية، منذ بدأوا العمل لصالح الكنيسة منذ سنوات. وباستثناء خوسيه ليال، كانوا جميعهم من العلمانيين، بل ان بعضهم كان بعيداً عن الايمان ولم يعرف اتصالاً بالدين إلا اثر الانقلاب العسكري، حين اجتمعوا على الالتزام بالمقاومة في الظل. وحين بقي الكردينال وحيداً، أطفأ الانوار ومضى إلى غرفته. كان قد صرف سكرتيره وجميع عناصر الخدمة في وقت مبكر، لأنه لا يرغب في جعلهم يسهرون مثله. كانت السنوات قد قلصت من وقت نومه، وصار يفضل النوم متأخراً، ويقضي سهراته في مكتبه مكرساً اياها للعمل. جال في ارجاء البيت ليتأكد من ان جميع الابواب موصدة، فمنذ انفجار القنبلة الأخيرة في حديقته صار يتخذ بعض الاحتياطات. ورفض باصرار العرض الذي قدمه الجنرال لوضع

طاقم حراسة شخصية كما أنه لم يقبل طلب مجموعة من الشبان الكاثوليكيين المتطوعين الذين عرضوا أنفسهم للسهر على أمنه. كان موقناً من أنه سيعيش حتى ساعته المعلومة دون أن يتأخر عنها لحظة واحدة أو يتقدم. ثم أن ممثلي الكنيسة، كما كان يقول، لا يمكنهم ان يتجولوا في سيارات مصفحة أو بقمصان مضادة للرصاص مثلما يفعل السياسيين وزعماء المافيا والطغاة. وإذا ما نجحت أية محاولة للتعرض لحياته، فسرعان ما سيحتل كاهن آخر مكانه ليواصل عمله. وكان هذا يمنحه طمأنينة عظمى.

دخل حجرة نومه، وأغلق الباب الخشبي الثقيل، ثم خلع ملابسه وارتدى ثوب النوم. وفي هذه اللحظة أحس بالتعب وبثقل المسؤولية التي يتولاها، ولكنه لم يسمح لأية شكوك أن تسيطر عليه. جثا في كرسي الركوع، وأغرق وجهه في راحتيه وتكلم إلى الرب مثلما يفعل في كل لحظة من لحظات حياته، واثقاً من أن كلماته مسموعة ومن أنه سيتلقى الرد على استفساراته. فالرب لم يتخل عنه أبداً. قد يتأخر خالقه أحياناً في اسماعه صوته أو قد يتجلى له عبر سبل مواربة، ولكنه لا يسكت سكوتاً تاماً أبداً. غرق في الصلوات لوقت طويل إلى أن أحس بقدميه تتجمدان وبثقل السنوات يرهق كاهله. وتذكر أنه لم يعد في سن تمكنه من مطالبة عظامه بمثل هذه الجهود، فاستلقى في السرير مطلقاً تنهيدة رضى، لأن الرب قد وافق على قراره.



أشرق يوم الأربعاء مشمساً وكأنه يوم صيفي. ووصلت اللجنة إلى لوس ريسكوس في ثلاث سيارات، يقودها المطران المساعد، ويدلها على الطريق خوسيه ليال الذي رسم خريطة تبين خط السير حسب تعليمات أخيه. كان الصحفيون وممثلو الهيئات الدولية والمحامون يخضعون عن بعد لمراقبة رجال الجنرال الذين اقتفوا آثارهم منذ الليلة السابقة.

أرادت ايرين الذهاب مع المجموعة باسم مجلتها، لكن فرانثيسكو منعها

من ذلك. فهما لا يستندان إلى أية حماية كما هو شأن بقية أفراد اللجنة الذين يؤمن لهم وضعهم نوعاً من الحماية. وإذا ما ظهرت علاقتهما في الكشف عن الجثث، فلن يكون لهما من أمل في الخروج أحياء، ويمكن لعلاقتهما ان تنكشف لأنهما كانا حاضرين يوم طوحت ايفانخيلينا بالملازم راميريث في الهواء، كما انهما شوهدا وهما يبحثان عن الفتاة المفقودة، إضافة إلى علاقتهما بأسرة رانكيليو.

توقفت السيارات قريباً من المنجم. وكان خوسيه ليال هو أول من انقض على الانقاض التي تغطي المدخل، مستخدماً ذراعية اللذين كذراعي دب ومستفيداً من ممارسته للأعمال الشاقة. وحذا الآخرون حذوه ليفتحوا بعد عدة دقائق ثغرة على مرأى من جماعات الأمن التي كانت تقف بعيداً، وتتصل بأجهزة اللاسلكي لتُخبر ان المشبوهين يخرقون حرمة المنجم المغلق رغم اعلانات التحذير الموجودة، ونحن ننتظر التعليمات يا سيدي الجنرال، حوّل. اكتفوا بالمراقبة كما أمرتكم ولا تفكروا بالتدخل.. لا تتدخلوا مهما حدث، حوّل.

كان المطران المساعد، الذي قرر أخذ زمام المبادرة، هو أول من دخل إلى المنجم، لم يكن رشيقاً، لكنه استطاع التلوي مثل نمس ليُدخل ساقيه ثم ينزلق ببقية جسده إلى الداخل. صفعته رائحة النتانة مثل ضربة هراوة، لكنه لم يطلق الصرخة التي شدت انفاس الآخرين إلا بعد أن اعتادت عيناه على العتمة ورأى بقايا ايفانخيلينا رانكيليو. ساعدوه على الخروج وأوقفوه على قدميه، ثم قادوه إلى ظل الأشجار ليستعيد انفاسه. وفي اثناء ذلك، صنع خوسيه ليال مشاعل من أوراق الجرائد الملفوفة، وأوعز للجميع بان يغطوا وجوههم بمناديل ثم قادهم واحداً بعد آخر إلى المدفن، حيث استطاع الجميع ان يروا جسد الصبية المتفسخ ومجموعة العظام المتصلة ببعضها بعضاً، والشعور والملابس المهترئة. كان يكفي تحريك الحجارة قليلاً لتتدحرج رؤوس أدمية جديدة. ولم يكن أي منهم قادراً على الكلام لدى خروجه، فقد كانوا يخرجون مرتعشين وشاحبين، ويحدقون ببعضهم بعضاً في محاولة لادراك حجم هذه اللقية. كان خوسيه ليال هو الوحيد الذي وجد

في نفسه الحماسة الكافية لاعادة اغلاق المنجم، مفكراً بالكلاب التي قد تشم رائحة العظام، أو بفاعلي هذه الجرائم الذين قد ينتبهون إلى المدخل المفتوح فيعلموا أن أمرهم قد انكشف، ويحاولون اخفاء الأدلة. لكن ما فعله كان بلا جدوى، فعلى بعد مئتي متر، وفي شاحنة مغلقة، كان رجال الشرطة يرصدون المكان بمناظير مستوردة من أوروبا وبأجهزة تعمل بالاشعة تحت الحمراء مجلوبة من ولايات الشمال، مما أتاح للكولونيل معرفة ما يحتويه المنجم في اللحظة التي عرف بها ذلك المطران المساعد؛ لكن تعليمات سيدي الجنرال واضحة: لا تدخلوا في مواجهة مع الرهبان، وانتظروا إلى ان يقوموا بالخطوة التالية لنرى أي خراء ينوون، والأمر كله في نهاية المطاف ليس إلا بضعة موتى مجهولي الهوية.

رجعت اللجنة إلى المدينة في وقت مبكر، وبعد أن أقسم جميع افرادها على عدم اطلاع أحد على الأمر، تفرقوا ليلتقوا في المساء، ويجتمعوا بالكردينال كي يقدموا له تقريراً عن مهمتهم.

بقي النور مضاء تلك الليلة في المطرانية حتى الفجر، أمام بلبلة المخبرين الذين تسلقوا أشجار الشارع حاملين اجهزتهم المستوردة من الشرق الأقصى ليتمكنوا من رؤية ما يدور وراء الجدران. ولكننا ما زلنا نجهل ما ينوونه يا سيدي الجنرال، لقد بدأ حظر التجول وهم ما زالوا يتحدثون ويشربون القهوة، إذا ما أصدرت لنا الأوامر فاننا سندخل، ونعتقل الجميع، ما قولك؟ لا تكونوا خصيان يا رجل!

تفرق الزائرون عند الفجر وودعهم رئيس المطرانية عند الباب. هو وحده كان ثابت الجنان لأن روحه مطمئنة ولا تعرف الخوف. نام قليلاً، وبعد تناول الفطور اتصل هاتفياً برئيس المحكمة العليا ليطلب منه استقبال ثلاثة مبعوثين من طرفه بأسرع ما يمكن، لأنهم يحملون اليه رسالة بالغة الأهمية. بعد ساعة من ذلك كان المغلف في يد القاضي، الذي تمنى عندئذ لو أنه كان في الجانب الآخر من الدنيا، بعيداً عن هذه القنبلة الزمنية التي ستنفجر دون ريب:

السيد رئيس المحكمة العليا .

تحية .

السيد الرئيس : منذ أيام أبلغ أحد الأشخاص كاهناً، تحت سر الاعتراف، أن لديه معلومات وأدلة على وجود عدة جثث في مكان حدده له . وقد نقل هذا الكاهن، بناء على موافقة من أخبره، المعلومات إلى السلطات الكنسية .

وبهدف التحقق من المعلومات، قامت يوم أمس لجنة مؤلفة من الموقعين أدناه، والسادة مدراء تحرير صحيفتي «اكونتيثير» و «سيهانا»، وموظفين من مكتب حقوق الانسان، ووصلنا إلى المكان الذي أشار اليه ناقل الخبر، وهو عبارة عن منجم قديم، مهجور حالياً، يقع على سفح الجبال القريبة من قرية لوس ريسكوس .

ولدى الوصول إلى المكان، وبعد ازاحة بعض الأنقاض التي تغطي فتحة المنجم، تأكد لنا وجود بقايا بشرية لعدد غير محدد من الأشخاص. وحين تحققنا من الواقعة أوقفنا تفتيشنا للمكان، لأن هدفنا كان التحقق من صحة الاخبارية فقط، ولأننا لا نستطيع التدخل اكثر من ذلك في مهمة هي من مهمات التحقيق القضائي .

ومع ذلك، فإننا نقدر ان مواصفات المكان وحالة الاشلاء التي تحققنا من وجودها، تجعل الاخبارية القائلة بوجود عدد مرتفع من الضحايا أمراً محتملاً .

ان حالة الذعر العام التي قد تثيرها هذه المعلومات، دفعتنا لأن نضعها مباشرة تحت تصرف أعلى سلطة قضائية في البلاد، كي تتخذ المحكمة الموقرة الاجراءات اللازمة لفتح تحقيق سريع وشامل .

مع فائق احترامنا للسيد الرئيس

اربانو اوربانيخو (المطران المساعد)

خيسوس بالدوبينوس (القاضي الاسقفي)

اولوخيو غارسيا دي لاروسا (محام)

كان القاضي يعرف الكردينال. فأدرك ان الأمر ليس مجرد مناورة منه، انما دليل على أنه مستعد لخوض معركة مواجهة. ولا بد في هذه الحالة أن جميع الأوراق الرابحة في يده، فهو من الدهاء بحيث لا يمكنه ان يضع له هذا الركام من العام بين يديه ويدعوه لتطبيق القانون، دون ان يكون واثقاً من النتائج. والأمر لا يحتاج لخبرة كبيرة لاستخلاص أن منفذي هذه الجرائم انما عملوا بحماية من نظام القمع القائم، ولذا فان الكنيسة تتدخل وهي لا تملك الثقة بالعدالة. مسح العرق عن جبهته وعنقه، وتناول أقراصاً لمقاومة الاختناق وتسرع نبض القلب، خائفاً أن تكون ساعة الحقيقة قد أزفت بعد سنوات من تصريفه لشؤون العدالة حسب تعليمات الجنرال، وبعد سنوات وسنوات من إخفائه الملفات وعرقلته لمهمة محامي المطرانية في متاهات البر وقراطية، وبعد سنوات وسنوات من فبركته القوانين بأثر رجعي على جرائم ابتدعت حديثاً. كان من الخير لي أن اعتزل العمل في الوقت المناسب، أن أتقاعد حين كان ما يزال بالامكان عمل ذلك مع الاحتفاظ بماء الوجه، أن أنصرف إلى زراعة زهوري بسلام وأنتقل إلى التاريخ دون احتمال هذا العبء من الشعور بالذنب والعار الذي لا يتركني أنام ويحاصرني في أية لحظة شرود طوال النهار، رغم أنني لم أفعل ما فعلت لمطامع شخصية، وانما لأخدم الوطن كما طلب مني الجنرال بعد أيام من توليه القيادة؛ لكن الوقت قد فات الآن، فهذا المنجم اللعين ينشق تحت قدميّ وكأنه قبري، وهؤلاء الموتى لن يصمتوا كما صمت كثيرون غيرهم ما دام الكردينال قد قرر التدخل. كان عليّ أن استقيل يوم الانقلاب العسكري، حين قصفوا قصر الرئاسة، وسجنوا الوزراء، وحلوا البرلمان، وحين كانت عيون العالم بأسره تنتظر ان يرفع أحد رأسه ويدافع عن الدستور؛ في ذلك اليوم بالذات كان عليّ أن أذهب إلى بيتي متذرعاً بانني رجل عجوز ومريض، هذا ما كان عليّ عمله بدل وضع نفسي تحت تصرف مجلس القادة العكسريين وبدء عمليات التطهير في محاكمي.

كان رد الفعل الأول لرئيس المحكمة العليا هو الاتصال بالكردينال وتقديمه

عرضاً للوصـول إلى اتفـاق معـه، لكنـه سرعان ما تبين أن الأمر قد تجاوز قدراته التفاوضية. فتناول الهاتف وأدار الرقم السري واتصل بالجنرال مباشرة.



أقـامـوا حول منجم لوس ريسكـوس دائـرة من الحـديـد والخـوذ والاحذية العسكـريـة، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انتقال الخبر من فم إلى فم، ومن بيت إلى بيت، ومن واد إلى واد، إلى أن انتشـر في كل مكـان وهـز أركـان الـوطن هزة عنيفـة. أبعـد الجنـود الفضـوليـين، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا تقدم الكردينال ومـوكبـه، كما فعلوا بالصحفيـين ومراقبي القوى العظمى الأجنبية الذين جذبتهم فضيحـة تلك المجـزرة. فمنذ الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة قام عناصر من ادارة التحريات، يرتدون أقنعة واقية وقفازات مطاطية، باخراج الأدلة الرهيبة بناء على تعليمات المحكمة العليا، التي تلقتها بدورها من الجنرال: افتحوا هذا المنجم اللعين وأخرجوّا منه كومة الموتى وأكدوا للرأي العام اننا سنعاقب الجناة، وفيما بعد سنرى، فذاكرة الناس ضعيفة. جلؤ وا في شاحنة ومعهم اكياس بلاستيكية صفراء وكبيرة وطاقم عمال بناء لازاحة الأنقاض. وسجلوا كل شيء بنظام دقيق ومتطابق: جسـد بشـري لانثى في حالة تحلل مغطى بحزام قاتم اللون، حذاء، بقايا شعر، عظـام طرف سفـلي، عظم لوح كتف، عظم عضـد، فقـرات، جذع مع طرفيـه العلويـين، سروال، جمجمتـين، احداهما كاملة والاخرى دون فك سفلي، اسنان اصطناعية مع اطار معدني، مزيد من الفقرات، بقايا أضلاع، جذع مغطى بمزق من ملابس، قمصان وجوارب متنوعة الألوان، عظم حرقفي وعدد آخر من العظام المتفرقة. كل ذلـك ملأ ثمانية وثلاثين كيساً خُتمت أصولاً، وأُحصيت ونقلت إلى الشاحنة. واضطروا إلى نقلها على عدة دفعات إلى المعهد الطبي. وقد أحصى مفـوض التفتيش أربـع عشـرة جثـة، استنـاداً إلى الرؤ وس التي وُجدت، لكنه لم يستبعد فظاعة العثور على أجساد اخرى مختفية تحت طبقات الزمن والتراب إذا ما

جرى الحفر بعناية أكبر. وأطلق أحدهم وقتئذ تلك السخرية الرهيبة القائلة انهم إذا حفروا أكثر قليلاً فسيجدون هياكل من عظام الغزاة الاسبان، ومومياءات ملوك الانكا ومستحاثات كرماغنون، لكن أحداً لم يبتسم لأن الكآبة كانت تخيم على الجميع.

كان النـاس قد بدأوا بالتـوافد منذ الصباح الباكر، مقتربين إلى الحد الذي رسمتـه البنـادق، ووقفـوا وراء الجنود يراقبون. كان أول القادمين هم آرامل وأيتام المنطقـة، وكـان كل منهم يضـع شريطـة سوداء على ذراعه الأيسر كاشارة حداد. وفيـما بعـد جاء الآخـرون، جميـع فلاحي منطقـة لوس ريسكـوس تقـريباً. وعند منتصف النهـار وصلت حافـلات من الاحياء الهامشية في العاصمة. كانت الكآبة تطفـو في الجـو مثل نذير عاصفة، موقفة طيران العصافير. انتظروا ساعات طويلة تحت شمس زرقـاء ضاربـة إلى الســواد تصبـغ بلونهـا أشيـاء العـالم وألـوانه، فيما الأكياس البلاستيكية تمتلىء بالعظام. ومن بعيد، كانوا يحاولون التعرف على فردة حذاء، أو قميص، أو خصلة شعر. وكان أقوياء النظر ينقلون ما يرونه للآخرين: ظهـرت الآن جمجمـة اخـرى عليهـا خصـل من شعـر شائب، قد تكـون جمجمة الصـديق فلوريس، أتـذكرونه؟ لقد ختموا الآن كيساً آخر، لكنهم لم ينتهوا بعد، انهم يُخرجـون المـزيـد، يقـال انهم سينقلون الـرفـات إلى مستـودع الجثث وهناك يمكننـا رؤيتهـا عن قرب. وكم سيكلفنـا هذا؟ لا أعرف، ولكن لا بد لنا من دفع شيء. أيقبضون كذلك من أجل التعرف على قتلاهم؟ لا، لا يا رجل، لا بد أن يكون ذلك مجاناً..

انقضى وقت الأصيـل كله والنـاس يتـوافـدون إلى ان شكلوا حشداً كبيراً فوق الرابية، وكانوا يسمعون صوت الرفوش والمعاول وهي تقلب التراب، ويرون ذهـاب الشـاحنـة الـرسمية وإيابها، وحركة رجال الشرطة، والموظفين والمحامين، وتذمرات الصحفيين الذين لم يُسمح لهم بالاقتراب. وحين غابت الشمس ارتفع كورال أصـوات ينشـد صلاة جنـائـزيـة. وكـان هناك من نصب خيمة مرتجلة من بعض البطانيات، مبدياً بذلك استعداده للبقاء إلى وقت غير محدد، لكن الحراس

عاجلوه بأعقاب بنادقهم قبل أن يحذو آخرون حذوه. كان ذلك قبل قليل من ظهور الكردينال، الذي اجتاز حاجز الجنود في سيارة المطرانية غير مكترث بالاشارات التي تدعوه للتوقف، ثم نزل من السيارة وسار بخطوات واسعة ليتوقف أمام الشاحنة، حيث راح يحصي الأكياس بعينين لا تتسامحان، فيما مفوض التفتيش يرتجل التفسيرات. حين انطلقت الشحنة الأخيرة من الأكياس البلاستيكية الصفراء وأمر رجال الشرطة الناس باخلاء المنطقة، كان الظلام قد خيم، وبدأت الجموع تنسحب تحت جنح الليل وبعضهم يروي مأساته للبعض الآخر، مثبتاً بذلك أن جميع النكبات متماثلة.

في اليوم التالي ازدحم جميع القادمين من كل أرجاء البلاد على أمل التعرف على موتاهم، لكنهم منعوا تقدمهم بانتظار صدور أوامر جديدة، كما أشار الجنرال. لأن الجثث شيء، وعرضها أمام بصر الجميع كما في معرض شيء آخر تماماً، ما الذي يتصوره هؤلاء الأنذال، أهيلوا التراب على هذه المسألة أيها الكولونيل قبل أن أفقد صبري.

ـ وماذا سنقول للرأي العام، وللدبلوماسيين والصحافة يا سيدي الجنرال؟

ـ ما قلناه دوماً أيها الكولونيل. ففي الحرب لا يمكن تبديل الاستراتيجية. علينا أن نتعلم من الأباطرة الرومان..

في شارع المطرانية جلس مئات الاشخاص حاملين في أيديهم صور مفقوديهم، ومدمدمين دون توقف: أين هم؟ فيما مجموعة من الرهبان العمال والراهبات ذوات السراويل يشاركون في الكتدرائية بدعم مطالب الجميع. وفي يوم الأحد قُرئت في جميع الكنائس الرسالة الاسقفية التي حررها الكردينال، وتجرأ الناس للمرة الأولى منذ زمن طويل ومظلم من الالتفات نحو من هم إلى جوارهم ليبكوا معاً. وصاروا يتنادون ليتداولوا في كل حالة من حالات الضحايا الكثيرة إلى أن نسوا عددها. ونظموا موكباً دينياً للصلاة على القتلى، وقبل ان تتمكن السلطات من استيعاب ما حدث، كان حشد متدفق يتقدم في الشوارع حاملاً الرايات واللافتات المطالبة بالحرية والخبز والعدالة. بدأ الموكب بصفوف بشرية

مهلهلة كانت تخرج من الأحياء الهامشية، وراحت تتجمع شيئاً فشيئاً وتتعاظم، إلى أن التفت في كتلة متراصة راحت تنشد بأعلى صوت الأناشيد الدينية والشعارات السياسية المكتومة منذ سنوات عديدة والتي بدا أن الناس قد نسيتها إلى الأبد. ثم تجمع الشعب في الكنائس والمقابر، وهي الأماكن الوحيدة التي لم يدخلها رجال الشرطة بمعداتهم الحربية حتى ذلك الحين.

ـ ماذا نفعل بهم يا سيدي الجنرال؟

ورد عليه من أعماق الملجأ:

ـ كالعادة أيها الكولونيل.

في أثناء ذلك كان التلفزيون يقدم برامجه المعتادة من موسيقى خفيفة، ومسابقات، ومسلسلات وأفلام حب وضحك. والصحف تقدم نتائج مباريات الكرة، ونشرة الأخبار تعرض الزعيم الأعلى للأمة وهو يقص شريط مركز مصرفي جديد. لكن أخبار اللقية في المنجم وصور الجثث كانت تجوب العالم بأسره عبر أجهزة التيليتيب بعد عدة أيام. واستولت وكالات الأنباء عليها وأعادتها إلى بلد المنشأ، حيث صار من المستحيل كتم الفضيحة لوقت أطول، رغم الرقابة ورغم التفسيرات الخيالية التي قدمتها السلطات. ورأى الجميع المذيع المزهو وهو يقرأ الرواية الرسمية: انهم ارهابيون أعدمهم زملاؤهم؛ ولكن أحداً لم يشك في أنهم معتقلون سياسيون مقتولون. وجرى التداول في القضية المرعبة بين أكداس الخضار والفواكه في الأسواق، وبين التلاميذ ومعلميهم في المدارس، وبين عمال المعامل، بل وفي صالونات البرجوازية المغلقة، حيث فوجىء بعضهم باكتشاف ان هنالك شيئاً يسير على غير ما يرام في البلاد. والتمتمة الخائفة التي دارت خلال سنوات عديدة متخفية وراء الأبواب والنوافذ الموصدة، خرجت مدوية إلى الشارع للمرة الأولى، وظهرت هذه الحسرة المتعاظمة إلى النور بألف حالة جديدة، لتهز جميع الضمائر. ان أشد المتبلدين هم وحدهم الذين استطاعوا تجاهل هذه الظواهر مرة اخرى ومواصلة حياتهم بهدوء. وكانت بياتريس الكانترا واحدة من هؤلاء.

★★★

في يوم الاثنين، وعند موعد الغداء، وجدت بياتريس ابنتها تقرأ الصحيفة في المطبخ ولاحظت ان طفحاً يغطي ذراعيها.

ـ أنت مصابة بالجرب!

ـ إنها حساسية يا أماه.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ فرانثيسكو قال لي.

ـ المصورون صاروا يشخصون الأمراض الآن! أين سننتهي؟

لم تجب ايرين بشيء، وأمعنت أمها النظر في الطفح عن قرب لتتأكد حقاً من انه يبدو غير معدٍ، وان هذا الفتى قد يكون على حق، إذ انها لم تكن سوى بثور من تلك التي يسببها الربيع. وحين اطمأنت، تناولت بعض الصحف لتتصفحها، فاصطدمت عيناها بالعنوان الكبير الذي يتصدر الصفحة الأولى: «مفقودون! ها! ها! ها!»، شربت عصير البرتقال مذهولة، لأن ذلك كان يشكل صدمة حتى لمن هم مثلها. ومع ذلك، فقد سئمت من سماع حكاية لوس ريسكوس في كل مكان، وانتهزت الفرصة لتتحدث في الأمر مع روسا وابنتها: فمثل هذه الأحداث هي أمور منطقية في حرب كالحرب التي شنها العسكريون الوطنيون ضد السرطان الماركسي، وفي جميع الحروب تقع خسائر، ومن الأفضل نسيان الماضي وبناء المستقبل.. شطب كل شيء وفتح صفحة جديدة.. عدم التحدث مجدداً عن المختفين، واعتبارهم موتى وحلّ المسائل القانونية نهائياً.

فسألتها ايرين وهي تحك بيديها الاثنتين:

ـ ولماذا لا تفعلين ذلك فيما يتعلق بأبي؟

تجاهلت بياتريس السخرية. وراحت تقرأ المقال بصوت عال: «المهم الآن هو التقدم في طريق التنمية ومحاولة لأم الجراح وتجاوز الضغائن. ولتحقيق ذلك لن يفيد البحث عن الجثث في شيء. فبفضل العمليات التي قامت بها القوات

المسلحة، اتيحت برمجة المرحلة الجديدة التي تعيشها الأمة. وقد اقتضت فترة الطوارىء التي تم اجتيازها بسعادة، منح صلاحيات واسعة للسلطة القائمة، بحيث تتمكن من العمل في عدة مستويات بكل الحزم اللازم لفرض النظام واقرار التعايش الأهلي.

وأضافت بياتريس:

ـ انني موافقة تماماً. ما هو الغرض من تحديد هوية تلك الأجساد التي وجدت في المنجم والبحث عن مذنبين؟ لقد حدث ذلك منذ عدة سنوات. انهم موتى معتقون.

وهاهم الناس ينعمون أخيراً بالرفاهية، ويستطيعون شراء ما يرغبون، وليس كما كان الحال في السابق، حين كان عليهم الانتظار في الدور حتى من أجل شراء فروج بائس. أما الآن فيمكن طلب كل شيء بسهولة عن طريق الخدمة المنزلية، وقد انتهت حالة الهيجان الاشتراكي التي تسببت في الماضي بأفدح الأخطار. على الشعب أن يعمل اكثر ويتكلم أقل في السياسة، مثلما قال الكولونيل اسبينوسا في عبارة ملهمة، وكررت العبارة من ذاكرتها: «اننا نناضل معاً من أجل هذا البلد الجميل، ذي الشمس الجميلة، والأشياء الجميلة والحرية الجميلة».

هزت روسا كتفيها وهي منحنية تجلو الأطباق، وأحست ايرين بازدياد الحكة في جسدها كله.

ـ لاتحكّي، فستتلفين بشرتك، وحين يأتي غوستافو ستبدين وكأنك مصابة بالجذام.

ـ لقد جاء غوستافو ليلاً يا أماه.

ـ آه! ولماذا لم تخبريني بذلك؟ متى ستتزوجان؟

فردت ايرين:

ـ لن نتزوج مطلقاً.

توقفت يد بياتريس التي تحمل الفنجان في وسط المسافة بين الطبق

وشفتيهـا. كانت تعـرف ابنتهـا بما يكفي لتدرك حين تكون قراراتها نهائية ولا عودة عنهـا. فبريق عينيهـا ونـبرة صوتهـا أعلمتهـا ان سبب هذه السعـادة ليس مسألـة عاطفية، وانما هي قضية من نوع آخر.

فاستعرضت أحداث الأيام الأخيرة واستنتجت ان ثمة شيئاً غير عادي قد حدث في حياة ايرين. فقد تبدل نظام حياتها، وصارت تغيب خلال النهار وترجع منهكـة من التعب والسيـارة مغطـاة بالغبار، وقد هجرت تنانيرها الغجرية واساور الخـرز التي كأسـاور ساحـرة لتلبس ملابس مثـل ملابس الصبيان، وصارت تأكل قليلاً وتستيقظ في الليل صارخة، ولكن بياتريس كانت بعيدة رغم ذلك عن ربط هذه الاشارات بمنجم لوس ريسكوس. أرادت التقصي اكثر، لكن الفتاة انتهت من تنـاول قهـوتها وهي واقفة، وانصرفت قائلة انها ستجري تحقيقاً صحفياً خارج المدينة ولن ترجع حتى المغيب.

هتفت بياتريس بعد خروج ابنتها:

- المصور هو السبب، انني متأكدة!

فردت روسا:

- حيث يميل القلب، تسير القدم.

- لقـد اشتـر يت لها جهـاز عرس فاخـر، وهـاهي ذي تخرج عليّ الآن بهذه البـدعـة. بعـد كل هذه السنـوات من الحب مع غوستـافـو تأتي لتختلف معـه في اللحظة الأخيرة.

- رب ضارة نافعة يا سيدتي.

فخرجت بياتريس صافقة الباب وهي تقول:

- ما عدت أحتمل يا روسا!

لم تقـل روسـا شيئـاً مما رأتـه في الليلة السابقة، حين رجع الكابتن بعد عدة شهور من الغياب واستقبلته الصغيرة ايرين كما لو كان غريباً عنها. كانت تكفيني رؤ ية وجهها لأنسى أمر فستان الزفاف وكل الخطط التي وضعتها لتر بية أطفال شقر وذوي عيون زرق في أيام شيخوختي. الانسان يطلب والرب يمنح. وإذا ما قدمت

امـرأة خدهـا كي لا يقبلهـا خطيبهـا من شفتيهـا ، فسيلاحظ حتى الأعمى انها لا تشعـر نحـوه بالحب؛ وإذا قادتـه إلى الصالون ، وجلست في أبعد مكان ممكن عنه وراحت تنظر اليه بصمت ، فذلك لأنها تفكر بان تقول له دون مواربة ذلك الكلام الذي سمعه الكابتن : إنني آسفة جداً ، لكنني لن أتزوج منك لأني أحب شخصاً آخر؛ هذا ما قالته له ، ولم يجب بشيء . يا للمسكين ، لقد أثار شفقتي . احمر وجهه بشدة ، وارتعشت ذقنه مثل طفل سينفجر بالبكاء ، فأنا رأيته من فرجة الباب الذي بقي موارباً ، ولم أفعل ذلك بدافع الفضول ، لينجني الرب منه ، وانما لأن لي الحق في معـرفـة مشـاكـل صغيرتي ، وإذا لم أفعل فكيف سأتمكن من مساعدتها؟ فأنا لم أربهـا وأحبهـا كل هذا الحب الـذي يفـوق حب أمها عبثاً ، لقد انقبض قلبي حين رأيت هذا الفتى جالسـاً على طرف الأريكـة ومعـه العلب الملفوفة بورق الهدايا ، دون ان يدري أين يذهب بكل هذا الحب الذي جمعه لايرين طوال سنين ؛ يبدو لي أنـه شاب جيـد ، انـه طويـل وأنيق مثل أسير ، وحسن الهندام كما هي عادته دوماً ، وصلب مثـل عصـا مكنسـة ؛ انـه جنتلمان حقيقي ، لكن مظهـره المتأنق لم يفده في شيء ، لأن الصغـيرة لا تنتبـه إلى هذه الأمـور ، وخصـوصـاً الآن بعـد أن أحبت المصور؛ فالحبّار الذي ينام لا بد أن يحمله التيار . ما كان على غوستافو أن يذهب ويـتركهـا وحيـدة طوال هذه الشهـور . أنا لا أفهم شبان هذه الأيام ، ففي زماني لم تكن هنـاك حريـات كثـيرة ، وكـل شيء كان يسير كما يجب : المرأة تقبع في بيتها . والخطيبـات ينتظـرن العـريس وهن يطـرزن الشراشف ، ولا يمضين ليركبن على المقعد الخلفي لدراجة رجل آخر؛ كان على الكابتن أن يحتاط لهذا الأمر بدلاً من سفـره مطمئنـاً ، فقـد رأيت هذه النتيجـة منـذ البـدء ، وقلت له : البعـد يسبب النسيـان ؛ لكن أحـداً لم يهتم بي ، ونظروا إلي بشفقة ، كما لو كنت معتوهة ، ولكن ليس لدى قدر شعرة واحدة من الجنون ، والشيطان يعرف الكثير لأنه عجوز وليس لأنه شيطان . أظن أن غوستافو كان يعرف أنه لم يعد مرغوباً فيه ، ولم يكن هناك ما يفعله ، فهـذا الحب كان ميتـاً ومـدفـونـاً . كانت يداه تتعـرقـان عندما وضع علب هداياه فوق طاولة الصالة ، وسأل إن كان ذلك القرار نهائياً ، سمع الجواب ومضى

دون أن يلتفت إلى الوراء ودون أن يسأل عن اسم غريمه، وكأنه يعرف في أعماقه أنـه لا يمكن أن يكـون إلا فرانثيسكو ليال. إنني أحب شخصاً آخر، كان هذا هو كل ما قالته ايرين، ولا بد أنه كان كافياً، لأنه قطع أوصال خطوبة دامت لسنوات ما عدت أذكـر عددهـا. انني أحب شخصاً آخر، قالت صغيرتي، وشعت عيناها ببريق لم أره فيهما من قبل.



بعـد اسبـوع تراجع خبر لوس ريسكوس ليفسح المجال لغيره من الأخبار، فقـد كنستـه حمى تغـذيـة فضـول الجمهـور بمآس جديـد. وكـما تنبأ الجنرال، بدأ النسيـان يغيب الفضيحـة، ولم تعـد تحتل الصفحة الأولى في الجرائد، وانما اقتصر ظهـورهـا على بعض المجلات المعارضة محصورة التداول فقط. وحين رأت ايرين هذا الوضع، قررت البحث عن أدلة، وإضافة تفاصيل جديدة إلى القضية لتُبقي الاهتـمام مشـدوداً إليهـا على أمل ان يتغلب التذمر الشعبي على الخوف. أصبح هاجسهـا هو كشف النقـاب عن القتلة وتحـديـد أسـماء الضحايا. كانت تعلم أن خطـوة خاطئـة واحـدة أو تصـرف غير مدروس سيكون كافياً لإنهاء حياتها، لكنها كانت مصممـة على الحيلولـة دون السـماح لتعتيم الـرقـابة وتواطؤ القضاء بمحو الجـرائم. ورغم الـوعـد الذي قطعته لفرانثيسكو بالبقاء في الظل، إلا أنها أحست بالانقياد وراء اهوائها.

حين اتصلت ايـرين بالـرقيب فاوستينـو ريفـيرا لتـدعوه إلى الغداء بحجة اجـراء ريبـورتـاج حول حوادث الطـرق، كانت تدرك حجم المخـاطـرة، ولذلك ذهبت دون أن تخبر أحـداً، يراودهـا شعـور بانها تقوم بخطوة متهورة، ولكن لا بد منها. وأظهر لها صمت الرقيب الطويل وهو يرد عليها في الهاتف أنه يشك في أن ما طلبتـه ليس إلا ذريعـة للوصـول إلى موضـوعات أخرى، لكن قتلى المنجم كانوا يشكلون بالنسبة اليه أيضاً كابوساً يرغب في اطلاع أحد عليه.

اتفقا على اللقاء بعد كوادرتين عن ساحة القرية، في الاستراحة التي التقيا

فيهـا من قبـل. كانت رائحـة الفحم واللحم المشوي تنتشر في الشوارع المجاورة، وكـان الـرقيب ينتظـر عنـد الباب بملابسه المدنية، محتمياً تحت الشرفة القرميدية. وجـدت ايـرين صعـوبـة في التعـرف عليـه، بينما تذكرها هو بدقة وقام بأول إشارة تحيــة. كان يفـاخـر دومـاً بأنـه رجـل قوي المـلاحظـة، معتـاد على التقـاط أدق التفـاصيـل، وهي صفـة لا بد منها في مهنته البوليسية. لاحظ الفروق التي طرأت على مظهر الشابة وتساءل أين هي أساورها الفاضحة، وتنانيرها ذات الكشاكش ومكياجها الدراماتيكي الذي يظلل عينيها اللتين صدمتاه يوم تعرف عليها. فالمرأة التي وجـدهـا أمـامـه بشعـرهـا المـربـوط في ضفـيرة، وبنطالها القطني، وحقيبتها الضخمـة المتـدلية من كتفها كانت لا تكاد تشبه الصورة التي يحتفظ بها في مخيلته. جلسا إلى طاولة متوارية في طرف الفناء، تحت ظلال شجيرات أزهار الثالوث الوارفة.

وأثنـاء تنـاول الحسـاء الـذي لم تذقـه إيـرين بيلتران، ذكـر الـرقيب بعض الاحصـائيـات حول ضحـايـا حوادث المرور في هذه المنطقة، دون أن يتوقف عن مراقبـة مضيفتـه بطـرف عينـه. لاحـظ تململهـا، لكنـه لم يفسح لها المجال لحرف الحـديث بالاتجـاه المـرغوب إلى أن يتأكد من نواياها. وعندما أحضروا لهما خنزيراً صغيراً أحاله الشواء ذهبياً، فوق فرشة من البطاطا المحمرة، وفي فمه جزرة وعلى أذنيه عدد من عروق البقدونس، تذكرت ايرين ذلك الخنزير الذي ذُبح في بيت آل رانكيليـو، فصعـدت موجـة من الغثيان إلى حلقها. كانت تقلبات معدتها تقلقها منـذ اليـوم الـذي دخلت فيـه إلى المنجم، فما تكـاد تضع شيئاً في فمها حتى ترى صورة الجسـد المتفسـخ، وتتـذكـر رائحـة النتـانـة التي لا تُنسى، فترتعش برعب كالـرعب الـذي أحست به في تلك الليلة. حمدت في سرهـا لحظـة الصمت التي سادت، وحـاولت أن تصـرف نظـرهـا عن أسنـان ضيفهـا الكبيرة وشاربه الملوث بالدهن الدافىء.

وقالت أخيراً وهي تبحث عن طريقة مباشرة للدخول في الموضوع:

ـ أظن أنك على علم بأمر موتى منجم لوس ريسكوس.

ـ أجل يا آنسة.

ـ يقولون أن ايفانخيلينا رانكيليو بينهم.

سكب الرجل كأساً آخر من النبيذ، وألقى إلى فمه بقطعة اخرى من الخنوص. وأحست ايرين بانها تسيطر على الموقف، فلو كان فاوستينو ريفيرا لا ينوي التكلم، لما وافق على هذا اللقاء. وكونه موجوداً معها هو دليل كاف على استعداده للتعاون. أتاحت له الوقت ليبتلع بعض اللقم ثم بدأت باستخدام بعض خدعها الصحفية وغنجها الطبيعي، لاجباره على اطلاق العنان للسانه.

ـ لا بد من خوزقة مثيري الشغب، والمعذرة لهذه الكلمة يا آنسة. ومثل هذه المهمة تقع على عاتقنا وانجازها شرف كبير لنا. فالمدنيون يتمردون تحت أية ذريعة، ولا بد لنا من الشك بهم وضربهم بيد قوية، كما يقول ملازمي راميريث. ولكن هذا لا يعني القتل دون قانون، لأن الأمر سيصبح في مثل هذه الحالة مجرد مجزرة.

ـ أو لم يكن كذلك يا حضرة الرقيب؟

لا. لم يكن موافقاً على ذلك، لأنها افتراءات يروجها خونة الوطن واساءات يبتدعها السوفييت لتشويه سمعة حكومة سيدي الجنرال. والاهتمام بمثل هذه الشائعات أمر لا يطاق؛ فوجود بضع جثث في قاع منجم لا يعني أن جميع من يرتدون الزي العسكري هم قتلة؛ انه لا ينكر وجود بعض المتطرفين، ولكن ليس من العدل تحميل الجميع المسؤولية. ثم ان بعض القسوة خير من عودة القوات المسلحة إلى ثكناتها، وترك البلد في يد السياسيين.

ـ أتعلمين ما الذي سيحدث لو سقط سيدي الجنرال، لا قدّر الله؟ سينهض الماركسيون ويذبحون جميع الجنود مع نسائهم وأطفالهم. انهم يعرفوننا. وسيقتلوننا جميعاً. هذا هو جزاء قيامنا بواجبنا.

كانت ايرين تستمع اليه صامتة، لكن صبرها ما لبث أن نفد بعد قليل وقررت محاصرته نهائياً:

ـ اسمع أيها الرقيب ودعك من اللف والدوران. لماذا لا تقول لي ما يجول في ذهنك؟

حينئذ، وكما لو أن الرجل كان ينتظر هذه الاشارة، تخلى عن مقاومته وأعاد عليها ما كان قد رواه لبراديليو رانكيليو حول مصير اخته، وأطلعها على شكوكه التي لم يبح بها لأحد من قبل. رجع بذاكرته إلى فجر ذلك اليوم المُنهِك، حين عاد الملازم خوان دي ديوس رامير يث إلى الموقع بعد أن حمل المعتقلة. في ذلك اليوم كانت ذخيرة مسدسه ناقصة طلقة. وكان لابد من ابلاغ عريف الحرس عن أي اطلاق للنار باسلحة الخدمة. لتثبيت ذلك في سجل خاص بالاسلحة. وأوضح لها الرقيب أنه خلال الشهور الأولى التي تلت التحرك العسكري، سادت الفوضى في السجلات، لأنه كان من المستحيل حساب الذخائر التي تطلقها جميع الرشاشات والبنادق والمسدسات في الموقع، ولكن حين هدأت الأمور، عادوا إلى الروتين السابق. ولهذا قال الملازم عندما أراد تقديم تفسير لاطلاقه الرصاصة، إنه قتل كلباً مسعوراً. كما سجل في سجل الحراسة أنه تم اطلاق سراح الفتاة في الساعة السابعة صباحاً، وانها ذهبت بمشيئتها.

ثم أضاف الرقيب وفمه ممتلىء بالطعام:
- وهذا ليس صحيحاً يا آنسة، كما هو مثبت في دفتر الملاحظات هذا.
ومد لها مفكرة جيب صغيرة مهترئة الغلاف، وقال:
- انظري، كل شيء موجود هنا. وموجود فيها كذلك اننا سنلتقي اليوم، وسجلت أيضاً حديثنا الذي تبادلناه منذ اسبوعين، أتذكرين؟ أنا لا أنسى شيئاً، وكل شيء يمكن قراءته هنا.

حين أمسكت ايرين المفكرة أحست بها ثقيلة كالصخر. فتأملتها مذعورة، وأدركت بوضوح خطورة ما تحتويه. كانت على وشك أن تتوسل اليه ليتلفها، لكنها أقصت هذه الفكرة عن ذهنها، جاهدة للتصرف بشكل طبيعي. فقد راودتها في الأيام الأخيرة بكثرة تلك الهواجس التي تدفعها للشك في اتزان تفكيرها.

روى لها الرقيب كيف وقّع الملازم على ما صرح به وكيف أمر العريف اغناسيو برافو بان يحذو حذوه. وكيف انه لم يذكر شيئاً عن حمله لايفانخيلينا

رانكيليو خلال الليل، كما أن رجاله لم يسألوه عن ذلك، لأنهم يعرفون جيداً سوء نواياه ولا يريدون الانتهاء إلى الزنزانة الانفرادية مثل براديليو.

وقال الرقيب:

ـ لقد كان رانكيليو شاباً طيباً.

ـ كان؟

ـ يقولون انه مات.

كتمت ايرين بيلتران صرخة يأس. فمثل هذا الخبر يحبط مخططاتها. لأنها كانت تأمل في خطوتها التالية أن تعثر على براديليو رانكيليو وتقنعه بالمثول أمام المحاكم. فربما كان هو الشاهد الوحيد على ما جرى في لوس ريسكوس، المستعد للشهادة ضد الملازم وكشف النقاب عن الاغتيالات، لأنه يمكن لرغبته في الانتقام لاخته أن تتغلب على خوفه من العواقب. وأعاد الرقيب رواية ما اشيع عن أن براديليو قد وقع في جرف في الجبل، رغم انه، ولشرف الحقيقة، غير واثق من ذلك، لأن أحداً لم يرجثته. حين بدأ ريفيرا بتناول زجاجة النبيذ الثانية، كان قد تخلى عن جميع أشكال الحذر وبدأ في البوح بجميع شكوكه. صحيح أن الوطن أولاً، ولكن هذه القضية ليست لعبة، ولا بد للعدالة من أن تكون أولاً، هذا ما أقوله أنا، رغم أنهم يهددونني، ورغم اني سأفقد عملي وينتهي بي الأمر إلى حراثة الأرض مثل اخوتي. انني مصمم على الوصول إلى النهاية، سأذهب إلى المحكمة، وسأقسم على العَلَم والكتاب المقدس، وسأروي الحقيقة للصحافة. لهذا دونت كل شيء في مفكرتي: اليوم، والساعة، وجميع التفاصيل الاخرى. لقد كنت أخبئها تحت قميصي دوماً، فأنا أحب أن أشعر بملامستها لصدري، حتى انني أنام وأنا أحملها معي، لأنهم حاولوا سرقتها في أحد الأيام. هذه الملاحظات تساوي ذهباً يا آنسة، انها الأدلة التي حاول آخرون محوها، ولكن كما قلت لك: أنا لا أنس مطلقاً. سأعرضها على القاضي إذا اقتضى الأمر، لأن براديليو وايفانخيلينا يستحقان العدالة، فهما من أقربائي.

كان بامكان الرقيب أن يتصور ما حدث ليلة اختفاء ايفانخيلينا وكأنه يراه في

شريط سينمائي. قاد الملازم راميريث السيارة على الطريق وهو يصفر، فهو يصفر دائماً حين يكون عصبياً؛ وكان يفكر بالطريق رغم معرفته الجيدة بالمنطقة وعلمه بانه لن يجد أية سيارة في مثل هذا الوقت. انه سائق حذر. وقدر انه بعد أربع دقائق أو خمس دقائق من اجتيازه بوابة الموقع وتلويحه مودعاً للعريف اغناسيو برافو، الذي كان يحرس الباب، وصل إلى الطريق العام، واتجه شمالاً. وبعد بضعة كيلومترات انحرف عبر الطريق المؤدي إلى المنجم.. طريق سيء، غير معبد ومليء بالحفر، لهذا السبب كانت السيارة ملوثة لدى عودته والاطارات ملطخة بالوحل. وافترض ان الضابط قد اختار مكاناً معيناً قريباً جداً من المنجم ليتوقف فيه. ولم يطفىء أنوار السيارة لأنه كان بحاجة إلى استخدام يديه الاثنتين، ولن يتيح له ذلك استعمال المصباح اليدوي. بعد ذلك ذهب إلى القسم الخلفي من الشاحنة، فنزع الغطاء ورأى الفتاة. لا بد انه ابتسم تلك الابتسامة المعوجة التي يعرفها مرؤوسوه ويخشونها. أزاح شعر ايفانخيلينا عن وجهها واستطاع رؤية تقاطيع الوجه، والعنق، والكتفين، ونهدي الفتاة التي في سن تلميذات المدارس. وبدت له جميلة رغم الكدمات والجروح، مثل جميع الصبايا تحت النجوم. وأحس بدفء معروف بين ساقيه، واضطرب تنفسه، فضحك بمكر وهو يهمس لنفسه: يالي من بهيمة.

ـ اعذريني لصراحتي يا آنسة.

قال فاوستينو ريفيرا ذلك، قاطعاً روايته، وكان يمص ما تبقى من عظام الغذاء.

لمس الملازم خوان دي ديوس راميريث صدر الفتاة وربما تأكد حينئذ من انها ما زالت تتنفس. هذا أفضل كثيراً بالنسبة له، وأسوأ كثيراً بالنسبة لها. كان يبدو على الرقيب وكأنه يرى بعينيه ملازمه حين نزع مسدسه ووضعه فوق صندوق العدة إلى جانب المصباح اليدوي، ثم فك حزامه الجلدي وازرار بنطاله وألقى بنفسه فوق الفتاة بعنف لا طائل منه، لأنه لم يواجه أية مقاومة. اخترقها على عجل، ساحقاً جسدها فوق أرضية الشاحنة المعدنية، وعاصراً الصغيرة الضائعة

تحت ثقل وزنه البالغ ثمانين كيلوغراماً، وثقل احزمته وبدلته العسكرية، وجزمته الثقيلة. كان يخمشها، ويعضها ليسترد بذلك كبرياء رجولته التي انتزعتها منه في يوم الأحد ذاك وسط فناء بيتها. وشعر الرقيب ريفيرا بالغثيان وهو يفكر بذلك، لأن له ابنة في مثل عمر ايفانخيلينا. لا بد انه استراح فوق المعتقلة بعد ان انتهى منها، وبقي كذلك إلى أن لاحظ أنها لا تقوم بأية حركة، ولا تشكو، وعيناها مسمرتان بالسماء، مذهولتان لميتتها هذه. حينئذ أعاد ترتيب ملابسه، وأمسكها من قدميها وسحبها إلى الأرض ثم بحث عن المصباح اليدوي والمسدس، ووجه حزمة الضوء نحو الرأس، وقرّب فوهة المسدس، وبعد أن نزع مسمار الأمان، أطلق النار عن قرب، متذكراً صباح ذلك اليوم البعيد حين أطلق بحركة مماثلة رصاصة الرحمة على قتيله الأول. فتح مدخل المنجم بالرفش والمعول، وحمل الجثة ملفوفة بالعباءة، وأدخلها كيفما اتفق ساحباً إياها حتى النفق الذي إلى اليمين، وغطاها بالانقاض والاحجار ثم خرج من هناك. وقبل ان ينصرف، أعاد اغلاق مدخل المنجم، وحرك التراب بقدمه ليغطي البقعة القاتمة وفتات المادة اللينة التي نثرتها الطلقة على الأرض، ثم فتش المكان بدقة إلى ان وجد غلاف الرصاصة، فخبأها في جيب سترته ليقدمها إلى رقابة الذخائر، انسجاماً مع الأنظمة. ولا بد أنه ابتدع في تلك اللحظة حكاية الكلب المسعور. طوى قطعة المشمع، ووضعها في مؤخرة الشاحنة، وجمع بقية الأدوات، ووضع المسدس في قرابه وألقى نظرة اخيرة فيما حوله ليتأكد من أنه لم تبق أية آثار للعملية. ثم صعد إلى السيارة وتقدم نحو الطريق المؤدي إلى الثكنة وهو يصفر.

ختم الرقيب ريفيرا كلامه قائلاً:

- وكما قلت لك يا آنسة، فهو يصفر كلما كان عصبياً. وأعترف باني لا أملك أدلة على ما قلته لك، ولكنني أقسم بأمي الطاهرة، لتسترح روحها بسلام، ان الامور حدثت بهذا الشكل تقريباً.

- ومن هم الموتى الأخرون الذين كانوا في المنجم؟ من قتلهم؟

ـ لست أدري. اسألي فلاحي المنطقة، فقد اختفى كثيرون في هذه الانحاء. اذهبي إلى حيث يقيم آل فلوريس.

ـ ألأنت واثق من انك ستجرؤ على اعادة ما قلته لي في محكمة؟

ـ أجل. واثق تمام الثقة. فتحليل الرصاصة وتشريح رفات ايفانخيلينا سيثبتان انني على حق.

دفعت ايرين الحساب، ثم وضعت آلة التسجيل في حقيبتها خفية، وودعت ضيفها. حين صافحت يده أحست ثانية بذلك القلق الغامض الذي ساورها حين أمسكت المفكرة. ولم تستطع النظر في عينيه.

لم يتمكن الرقيب فاوستينو ريفيرا من تقديم شهادته أمام القاضي، لأن شاحنة بيضاء صدمته في تلك الليلة بالذات، فقتلته في الحال ولاذت بالفرار. وكان شاهد العيان الوحيد هو العريف اغناسيو برافو الذي أكد ان كل شيء حدث بسرعة شديدة لم يستطع التحقق من لوحة السيارة ولا من السائق. ولكن لم يُعثر للمفكرة على أثر.



بحثت ايرين عن بيت آل فلوريس. كان بيتاً من الأخشاب وألواح التوتياء، مثل غيره من بيوت تلك المنطقة. ويشكل البيت جزءاً من ضيعة فلاحين فقراء استفادوا من بضعة هكتارات من الأرض اثناء الاصلاح الزراعي، لكنها انتزعت منهم فيما بعد، فلم يبق لهم سوى بساتينهم العائلية الصغيرة. الطريق الطويل الذي يقطع الوادي ويصل الأراضي ببعضها بعضاً، شقه الفلاحون بعملهم الجماعي، وساهم في نقل أحجاره حتى الشيوخ والأطفال. وعبر ذلك الطريق جاءت السيارات العسكرية بالجنود لينتهكوا حرمة البيوت بيتاً بيتاً، وليصفوا الرجال في صف طويل، ويختاروا واحداً من بين كل خمسة رجال دون تعيين ليعدموهم كعبرة للآخرين، ثم ليطلقوا النار على البهائم، ويحرقوا الحقول ثم ينصرفوا مخلفين هناك الدماء والدمار. كانت الولادات الجديدة نادرة في هذا

المكان، لأن بيوتاً كثيرة كانت بلا رجال منذ عدة سنوات. فكان يُحتفل بالولادات القليلة ببهجة، وتطلق عليهم أسماء الموتى، كي لا ينساهم أحد.

ظنت ايرين لدى وصولها أن البيت مهجور، وهذا ما كان يوحي به مظهره المتوحد والكئيب. قرعت الباب لبعض الوقت دون أن تسمع حتى ولو نباح كلب. وكادت أن تدير ظهرها لتنصرف، حين ظهرت من بين الأشجار امرأة ترتدي ثياباً قاتمة، ولا تكاد تكون مرئية في المشهد وأخبرتها ان السيدة فلوريس وابنتها في السوق، حيث تبيعان الخضار.

على بعد بضع خطوات من ساحة لوس ريسكوس، كان السوق ينفجر بالصخب والألوان. بحثت ايرين بين أكداس فواكه الموسم من دراقن وشمام وبطيخ، واجتازت متاهات الخضار الطازجة، واكوام البطاطا والذرة الطرية، والطاولات المترعة بالمهاميز والأعنة، وبالاسرجة وقبعات القش، وصفوف الفخار الأحمر والأسود، وأقفاص الدجاج والأرانب، وسط فوضى المناداة والمساومة. ووراء كل ذلك كانت تقوم محلات بيع اللحوم، والاسماك، والقواقع البحرية، وجميع أنواع الأجبان، وسط خليط من الروائح والطعوم. جابت السوق في جميع اتجاهاته على مهل متلذذة بالتفرج، وباستنشاق روائح الأرض والبحر، متوقفة لتتذوق حبة من بواكير العنب، أو ثمرة فريز ناضجة، أو محاراً حياً في قوقعته اللؤلؤية، أو فطيرة رقائق أعدتها يدا بائعها. وفكرت وهي مفتونة بهذه الأشياء انه لا يمكن لأمور مرعبة أن تحدث في عالم تُزهر فيه وفرة كهذه. ولكنها التقت حينئذ بايفانخيلينا فلوريس وتذكرت سبب وجودها في ذلك المكان.

كان الشبه شديداً بين الفتاة وديغنا رانكيليو، لدرجة ان ايرين أحست بالالفة نحوها في الحال، وكأنها تعرفها من قبل. كانت مثل أمها وجميع اخوتها، ذات شعر ناعم وأسود، وبشرة بيضاء وعينين سوداوين وواسعتين، قصيرة الساقين، متينة الصدر، نشيطة ومعافاة، تتحرك بحيوية وتتكلم بدقة وبساطة، مشددة على كلماتها بحركات من يديها. كانت تختلف عن أمها، ديغنا رانكيليو، بطبعها البشوش وشجاعتها في الاعراب عن رأيها دون خوف. وكانت تبدو أكبر

سناً، واكثر نضجاً وتطوراً من ايفانخيلينا الأخرى، التي احتلت مكانها نتيجة خطأ وماتت بدلاً منها. ولم يجعلها الألم الذي تراكم في سنوات عمرها الخمس عشرة تذعن وتنقاد، بل منحها العزيمة والاندفاع. وكان وجهها ذو التقاطيع الخشنة يشرق ويتألق حين تبتسم. كانت رقيقة وحنوناً في معاملتها لأمها التي تبنتها، فهي تتصرف معها باحساس الحماية، وتبدو كأنها ترغب في إبعادها عن احزان جديدة. وكانتا تعملان معاً في تصريف شؤون محل صغير تبيعان فيه منتجات بستانهما.

روت ايفانخيلينا قصتها وهي جالسة على صندوق من قش القصب. لقد تعرضت اسرتها لعقوبة أقسى مما تعرضت له الأسر الاخرى، وجاءتهم الشرطة بعد التمهيد الأول. وقد تأكد لمن بقي حياً من أفراد العائلة خلال السنوات التالية أنه لا جدوى من البحث عمن أخذوهم، وأدركوا مدى خطورة الاتيان على ذكرهم. لكن روح الصبية كانت جامحة. فحين علمت بأمر اكتشاف الجثث في منجم لوس ريسكوس، راودها الأمل بالحصول على خبر عن أبيها واخوتها بالتبني، ولهذا السبب استقبلت الصحافية المجهولة وأبدت استعدادها للحديث معها. أما أمها فقد انتحت جانباً واعتصمت بالصمت وهي تراقب ايرين بريبة.

قالت الشابة موضحة:

ـ آل فلوريس ليسوا أهلي، لكنهم ربوني، ولهذا أحبهم كما لو كانوا أهلي.

كانت قادرة على تحديد تاريخ بدء التعاسة في حياتها. ففي أحد أيام تشرين الأول، قبل خمس سنوات، جاءت سيارة جيب تابعة للشرطة عبر الطريق المؤدي إلى الضيعة وتوقفت أمام البيت. كان ذلك لاعتقال انطونيو فلوريس، وكان على براديليو رانكيليوا أن يقوم بهذه المهمة. طرق الباب متورداً من الخجل، لأن القدر ربطه بهذه العائلة بأواصر تصل في متانتها إلى رابطة الدم. فأوضح باحترام أن الأمر لا يتعدى استجواباً روتينياً، وسمح للمعتقل بان يتدثر بكنزة صوفية وقاده دون ان يمسه إلى السيارة. حينئذ رأت السيدة فلوريس وأولادها صاحب كرم «لوس اروموس» جالساً إلى جانب السائق واستغربوا الأمر، فهم لم يتورطوا في أية مشاكل معه، حتى ولا أثناء مرحلة الاصلاح الزراعي العاصفة،

ولهذا لم يفهموا سبب وشايته. بعد أن أخذوا إنطونيو فلوريس، توافد الجيران لمواساة الأسرة وامتلأ البيت بالناس. فكان هناك عدد كبير من الشهود حين ظهرت بعد نصف ساعة من ذلك شاحنة ممتلئة بالحراس المسلحين. نزلوا من الشاحنة بمناورة قتالية وهم يطلقون صرخات الهجوم ليعتقلوا الأخوة الأربعة الكبار. جروهم إلى السيارة بعد الضرب والركل وإشراف الأخوة على فقدان الوعي، ولم يبق من اثرهم إلا سحابة غبار خلفتها الشاحنة على الطريق. وقف من شهدوا الواقعة مذهولين أمام تلك الوحشية، لأنه لم يكن لأي من الأخوة سوابق سياسية، وكانت جريمتهم الوحيدة هي انضمامهم إلى النقابة. بل ان واحداً منهم لم يكن يعيش في المنطقة، وانما كان يشتغل كعامل بناء في العاصمة وجاء في ذلك اليوم لزيارة أبويه. وفكر الفلاحون بان اعتقالهم لا يمكن أن يكون إلا نتيجة خطأ ما، وراحوا ينتظرون اعادتهم. كان الجميع قادرين على تحديد هوية رجال الحرس الذين تولوا اعتقالهم، وكانوا يعرفونهم بأسمائهم. فقد ولدوا في المنطقة وتعلموا معهم في المدرسة ذاتها. وبما أن براديليو رانكيليوا لم يأت مع أفراد المجموعة الثانية، فقد تصوروا انهم تركوه في الثكنة لحراسة انطونيو فلوريس. وذهبوا اليه فيما بعد ليستفسروا منه عن بعض الأمور، خارج أوقات الخدمة، لكنهم لم يحصلوا على شيء، لأنه كان مستحيلاً الحصول على كلمة واحدة من ابن رانكيليو الكبير.

وقالت ايفانخيلينا فلوريس:

ـ كانت حياتنا هادئة حتى ذلك الحين. كنا جماعة محبة للعمل ولم يكن ينقصنا شيء. كان والدي يملك حصاناً ويدخر المال لشراء جرار. لكن السلطة القت بثقلها علينا وتبدل كل شيء.

ـ النكبة تسري مع الدماء في العروق ـ دمدمت السيدة فلوريس وهي تفكر بذلك المنجم اللعين الذي ربما كان فيه ستة من أفراد اسرتها.

بحثوا عنهم. وقاموا طوال شهور بالحج الاضطراري الذي يقوم به كل من يقتفون أثر ذويهم المفقودين. ذهبوا من مكان إلى آخر يسألون دون جدوى، ولم

يتلقوا سوى النصيحة بالكف عن البحث واعتبارهم ميتين وتوقيع تصريح قانوني، وبهـذا يصبح لهم الحق في تلقي اعـانـة الايتـام والأرامـل. وكانوا يقولون لها: قد تجدين زوجاً آخر يا سيدتي، فأنت ما زلت حسنة المظهر. كانت الاجراءات طويلة ومرهقـة ومكلفـة. فاستنفدت كل مدخراتهم واضطرتهم إلى الاستدانة. وكانت الأوراق تضيـع في مكـاتب العـاصمـة، فيضمحـل أملهم مع مرور الـوقت مثـل تلاشي أثر قديم. واضطر من بقي حياً من الابناء إلى هجر المدرسة والبحث عن عمـل في المزارع المجـاورة، لكنهم لم يمنحوهم العمل لكونهم مشبوهين. فحزموا ممتلكـاتهم البـائسـة ومضـوا في دروب مختلفة بحثاً عن أماكن اخرى حيث لا أحد يعـرف شيئاً عن سوء طالعهم. تشتت شمـل الأسـرة ولم يبق مع السيدة فلوريس بعـد سنـوات إلا طفلة مستبـدلـة. كان عمر ايفانخيلينا عشر سنوات حين اعتقلوا أبـاهـا واخـوتها بالتبني. وكلما أغمضت عينيها كانت تعود لرؤ ية تلك اللحظة التي جروهم بها وهم ينـزفـون. تسـاقط شعرها، ونحلت، وصارت تسير وهي نائمة، وتبـدو وكأنهـا تطفـو في البـلاهـة وهي مستيقظـة، مما جعلها محط سخرية الأطفال الأخـرين في المـدرسـة. وفكرت السيدة فلوريس بابعادها عن البيت الذي يغص بالذكريات الكريهة، فأرسلتها إلى بيت أحد أخوالها في قرية اخرى، كان يعمل في تجارة حطب وفحم ناجحـة، ويمكنـه أن يؤمن لها حيـاة أفضل، لكن الصغيرة لم تحتمل افتقاد الحب وساءت حالتها. فأعادوها لتبقى في بيتها، ولم يستطع أي شيء مواسـاتهـا لزمن طويل. ولكنها حين أتمت الثانية عشرة من عمرها وجاءها الحيض لأول مرة، ازاحت الحزن نهائياً، ونضجت فجأة لتستيقظ في صباح أحد الأيام وقد غدت امرأة كاملة. وكانت هي التي فكرت ببيع الحصان واقامة كشك لبيع الخضار في سوق لوس ريسكـوس، وهي التي قررت كذلـك وقف ارسال الطعام والملابس والنقود بواسطة العسكريين إلى ذويها المفقودين، لعدم توفر اية أدلة تشير إلى انهم ما زالوا على قيد الحياة. صارت الشابة تعمل عشر ساعات كل يوم في بيع الخضار والفـواكـه ونقلهـا، وخـلال الساعات الست الأخرى المتبقية قبل أن تهوي منهوكة على السـريـر، كانت تدرس في الـدفـاتـر التي تعـدهـا لها معلمة المدرسة كخدمة

خاصة. لم تعد تبكي، وبدأت تتحدث عن أبيها واخوتها بصيغة الماضي، لتجعل أمها تعتاد شيئاً فشيئاً على فكرة انها لن تراهم ابداً.

عندما فتحوا المنجم كانت تقف بين الجموع، وراء الجنود، واضعة على ذراعها شريطة سوداء. ورأت من بعيد الاكياس الصفراء الكبيرة، وأمعنت النظر عليها تلمح علامة ما. وقد حدثها أحدهم عن استحالة تحديد هوية البقايا دون دراسة الأسنان وكل قطعة من العظام أو الملابس التي وجدت، لكنها كانت واثقة من أن قلبها سيدلها عليهم إذا ما رأتهم عن قرب.

وطلبت من ايرين:

ـ أتستطيعين أخذي إلى حيث يحتفظون بهم الآن؟

ـ سأعمل ما أقدر عليه، لكن الأمر صعب.

ـ لماذا لا يعيدون إلينا موتانا؟ لا نريد سوى قبر يستريحون فيه مطمئنين، ونضع لهم الزهور عليه، ونصلي من أجلهم، ونزورهم في يوم جميع الموتى..

سألتها ايرين:

ـ أتعرفين من اعتقل أباك واخوتك؟

فردت ايفانخيلينا فلوريس دون تردد:

ـ الملازم خوان دي ديوس راميريث وتسعة من رجاله.



بعد ثلاثين ساعة من مقتل الرقيب فاوستينو ريفيرا، تعرضت ايرين إلى اطلاق النار عليها عند مدخل المجلة. كانت خارجة من عملها في وقت متأخر، حين دار محرك سيارة كانت تقف على الرصيف المقابل وانطلقت بسرعة لتمر إلى جانبها مثل ريح مشؤومة وتنطلق منها زخة رصاص من مسدس رشاش قبل أن تضيع في زحمة السير. أحست ايرين بصدمة قوية في مركز حياتها ولم تدر ما الذي حدث. انهارت دون أن تصدر عنها صرخة واحدة، وتمكنت في لحظة صحو من لمس الدم الذي كان يسيل مشكلاً بركة فيها حولها، ثم غرقت في السبات.

لم ينتبه البواب وبعض الشهود كذلك لما حدث. فقد سمعوا صوت الرصاص ولم يستطيعوا تحديده، معتقدين أنه صادر عن انفجار محرك أو عن مرور طائرة، ولكنهم هرعوا لمساعدتها حين رأوها تهوي. وبعد عشر دقائق كانت ايرين في سيارة اسعاف تطلق صفيراً مدوياً وانواراً متقطعة. وكانت في بطنها عدة ثقوب تفلت منها حياتها.

علم فرانثيسكو ليال بالحادث مصادفة بعد ساعتين، حين اتصل ببيتها ليدعوها إلى العشاء، لأن عدة أيام كانت قد انقضت دون ان يلتقيا منفردين وكان الشوق إليها يخنقه. فأعلمته روسا بالخبر وهي تبكي. كانت تلك هي أطول ليلة في حياته. فقد امضاها جالساً إلى جانب بياتريس على مقعد في ممر المستشفى، مقابل باب جناح العناية المشددة، حيث كانت حبيبته تهيم تائهة في غيبوبة الاحتضار. وبعد عدة ساعات في غرفة العمليات، لم يكن هناك من يظن انها ستعيش. فكانت تنتظر الموت وهي موصولة بعدد من الانابيب والاسلاك.

كان الجراحون قد شقوا بطنها وفتشوا أحشاءها ليكتشفوا بعد كل غرزة ثقباً جديداً بحاجة لأن يرقعوه. غذوها بليترات من الدم والمصل، وعاجلوها بالمضادات الحيوية ثم صالبوها فوق السرير وبرفقتها كل تلك الانابيب، وابقوها غارقة في ضباب الغيبوبة كي تحتمل آلامها. واستطاع فرانثيسكو رؤيتها لبضع لحظات بتواطؤ من الطبيب المناوب الذي رق لحاله. كانت عارية، شفافة، تطفو في انوار الصالة القوية البيضاء، وإلى جانبها جهاز تنفس متصل بالرغامى، وأسلاك تصل بينها وبين جهاز لتخطيط القلب لا تبعث حركته التي لا تكاد تكون ملحوظة أي أمل في النفس. وكانت في اوردتها عدة ابر متصلة بأنابيب، بينما كان لونها شاحباً مثل لون شراشف السرير، وحول عينيها هالتان بنفسجيتان، وعلى بطنها كتلة متماسكة من الضمادات، تبرز من بينها انابيب النضح البطنية. توقفت صرخة بكماء في صدر فرانثيسكو وبقيت عالقة هناك لوقت طويل.

حين رأت بياتريس الكانترا فرانثيسكو، بادرته متهمة:

- انها جريمتك! فمنذ ظهرت في حياة ابنتي بدأت المشاكل!

كانت محطمة، وفاقدة السيطرة على نفسها. فأحس فرانثيسكو بالعطف عليها، لأنه كان يراها لأول مرة دون تصنع، ومتقدة، وانسانية، متألمة، وقريبة منه. انهارت السيدة على مقعد في الممر وبكت إلى ان استنفدت دموعها.

لم تستطع ادراك ماحدث. كانت ترغب في اقناع نفسها بانه عمل اجرامي عادي، كما أكدت الشرطة، لأنها لم تحتمل فكرة أن تكون ابنتها مطاردة لأسباب سياسية. ولم تكن لديها اية فكرة عن مشاركتها في العثور على لقية الجثث في المنجم، ولم تكن تريد تصورها متورطة في قضايا شائكة مع السلطة. ذهب فرانثيسكو بحثاً عن فنجاني شاي وجلسا معاً لتناولهما صامتين، يجمعهما الاحساس المشترك بالانهيار.

كانت بياتريس قد شاركت خلال الحكم السابق، مثل كثيرات غيرها، بالخروج إلى الشارع وهي تدق الطناجر الفارغة علامة الاستنكار. وتعاطفت مع الانقلاب العسكري لأنه بدا لها أفضل ألف مرة من نظام اشتراكي، وحين قصفوا قصر الرئاسة القديم من الجو، فتحت زجاجة شمبانيا لتحتفل بالحدث. كانت تتقد بحمى الوطنية، لكن حماسها لم يصل بها إلى حد التبرع بمجوهراتها لصندوق اعادة الاعمار الوطني، لأنها خافت ان ترى تلك المجوهرات تزين صدور نساء الكولونيلات، كما كانت تشيع ألسنة السوء. وتأقلمت مع النظام الجديد وكأنها ولدت فيه، وتعلمت ألا تأتي على ذكر ما يستحسن عدم معرفته. وبدا لها الجهل أمراً لا بد منه من أجل راحة البال. وفي تلك الليلة المشؤومة في المشفى، كان فرانثيسكو على وشك ان يحدثها عن ايفانخيلينا رانكيليو، وعن موتى لوس ريسكوس، وعن مئات الضحايا، وعن ابنتها، لكنه رثى لحالها. لم يشأ استغلال هذه اللحظة التي كانت ترتعش فيها انفعالاً ليدمر الاسس التي كانت تستند إليها حتى ذلك الحين. اكتفى بالسؤال عن ايرين، عن سنوات طفولتها ومراهقتها، راضياً بالنوادر الصغيرة، وطالباً تفاصيل دقيقة بفضول المحبين تجاه كل ما يتعلق بالمحبوب. تحدثا عن الماضي فمضت ساعات وسط النجوى والدموع.

في ليلة العذاب تلك أوشكت ايرين على الموت مرتين، وكانت اعادتها إلى

عالم الأحياء أشبه بالمعجزة. وفيما الأطباء منهمكون من حولها في تنشيط قلبها بصدمات كهربائية، أحس فرانثيسكو ليال أن عقله يضيع منه، وانه يرجع إلى أقدم العصور، إلى الكهف، والظلام، والجهل، والرعب. رأى قوى شريرة تشد ايرين نحو الظلال، وفكر بيأس ان السحر، والحظ، وتدخل قدرة الهية هي وحدها القادرة على منع الموت. رغب في الصلاة، لكن ذاكرته لم تسعفه في استحضار الكلمات التي تعلمها من أمه في الطفولة. وحاول في بلبلته ان ينقذها بقوة حبه، فعزّم الهلاك بذكرى سعادته، وواجه ظلام الاحتضار بنور لقائهما. ابتهل من أجل وقوع معجزة، من أجل أن تنتقل عافيته ودماؤه وروحه اليها لتساعدها على الحياة. كرر اسمها ألف مرة متوسلاً اليها ألا تستسلم وان تواصل الصراع، حدثها سراً من مقعده في الممر، وبكى دون مداراة وأحس بانفاسه مثقلة بقرون من الانتظار، ومن البحث عنها، واشتهائها وحبها، متذكراً نمش جلدها، وبراءة قدميها، ودخان حدقتيها، وشذى ملابسها، وحرير بشرتها، وخط خصرها، وزجاج ضحكتها والطمأنينة التي تستسلم بها لذراعيه بعد النشوة. وبقي يتمتم بين اسنانه ويتألم دون عزاء إلى أن تفتحت اضواء الفجر، واستيقظ المشفى، وسُمعت ضجة الأبواب وهي تنوس، والمصاعد، ووقع الأحذية، وصوت الأدوات فوق الصواني المعدنية، وصوت قلبه الجامح؛ حينئذ أحس بيد بياتريس الكانترا تلمس يده، فتذكر حضورها. تأمل كل منهما الآخر وكانا مرهقين تماماً. لقد أمضيا كل هذه الساعات في ظروف متماثلة. كان وجهها مضطرباً، لا أثر فيه لمساحيق المكياج، بينما بدت فيه خطوط عمليات التجميل الدقيقة. وكانت عيناها منتفختين، وشعرها لزجاً من العرق، وبلوزتها مجعدة.

سألته:

ـ هل تحبها يا بني؟

فرد فرانثيسكو:

ـ كثيراً.

حينئذ تعانقا. لقد اكتشفا أخيراً لغة مشتركة تجمع بينهما.

انقضت ثلاثة أيام وايرين على تخوم الموت. بعد تلك الأيام أفاقت من غيبوبتها لتتوسل بعينيها كي يتركوها تناضل بوسائلها الخاصة أو تموت بكرامة، فأبعدوا عنها جهاز التنفس الاصطناعي، وبدأ الهواء ينتظم شيئاً فشيئاً في رئتيها وايقاع الدم في عروقها، فنقلوها عندئذ إلى غرفة خاصة حيث استطاع فرانثيسكو ليال البقاء إلى جانبها. كانت الفتاة غارقة في غيبوبة المخدرات، تائهة في ضباب كوابيسها، لكنها كانت تدرك حضوره، وحين كان يبتعد عنها تناديه بصوت ضعيف وواهن كصوت طفل وليد.

في مساء ذلك اليوم حضر غوستافو مورانتي إلى المشفى. فقد علم بالأمر عندما قرأ نشرة الوقائع البوليسية، وكان الخبر قد نُشر فيها متأخراً، بين مجموعة من الأحداث الدموية الأخرى، ونُسب إلى مجرمين عاديين. لم يتشبث أحد بهذه الرواية للحادث إلا بياتريس الكانترا التي رأت كذلك في انتهاك حرمة بيتها تصرفاً شاذاً من الشرطة. أما الكابتن فلم تراوده الشكوك في الأمر. لقد حصل على تصريح بالسفر من موقع الحامية التي كان مفروزاً اليها، ليزور خطيبته القديمة.

حضر بالملابس المدنية، تنفيذاً لتوصية من القيادة العليا، التي لم تكن ترغب في ظهور العسكريين بزيهم الرسمي في الشوارع للحيلولة دون اعطاء انطباع بان البلد محتل. طرق باب الغرفة ففتح له فرانثيسكو الذي فوجىء برؤيته. تفحص كل منهما الآخر بعينيه، متقصياً نوايا الآخر، إلى أن جعلتهما تنهيدة أطلقتها المريضة يهرعان إلى جانبها. كانت ايرين مشلولة فوق السرير المرتفع، مثل أميرة منحوتة من مرمر أبيض فوق ضريحها. كان شريط شعرها الحي وحده هو الذي يشع بالضوء. وكانت ذراعاها موشومين بآثار الابر والمجسات، وكانت تتنفس بصعوبة وهي مغمضة العينين وتلمح ظلالاً قاتمة من خلال رموشها. أحس غوستافو مورانتي بشحنة رعب تجتاح جسده وتتركه يرتعش حين رأى هذه المرأة، التي أحب حيويتها، وقد تحولت إلى جسد بائس ذاو يكاد يتبخَّر في هواء الحجرة اللاوقعي.

دمدم متسائلاً:

ـ أيمكن أن تعيش؟

منـذ عدة أيـام وفـرانثيسكو ليال يراقبها إلى أن عتاد على ادراك أدق علائم التحسن، كان يحصي أنفاسها واغفاءاتها، ويراقب حركاتها الواهنة. وكان سعيداً لأنها صارت تتنفس دون مساعدة جهاز، وأصبح بامكانها تحريك أطراف أصابعها في حركـة خفيفـة، لكنـه أدرك أن هذا المنظـر بالنسبة للكابتن ـ الذي لم يرها وهي تحتضر ـ هو ضربة قاسية. نسي تماماً أن الآخر هو ضابط في الجيش، ولم ير فيه إلا رجلاً يتألم من أجل المرأة التي يحبها هو أيضاً.

طلب منه مورانتي وهو يحني رأسه بقلق:

ـ أريد أن أعرف ما حدث.

وروى له فرانثيسكـو ليـال كل شيء، دون ان يخفي مشـاركتـه في اكتشاف الجثث، آمـلاً أن ينتصـر حب ايـرين على الـولاء للزي العسكـري. ففي يوم الحادث بالذات أقتحم عدد من الرجال المسلحين بيت الشابة وقلبوا كل ما وجدوه في طريقهم، ابتـداء من الفـراش الـذي نزعـوا أحشاءه بالسكاكين، وحتى علب مستحضـرات التجميـل وأواني المطبـخ التي أفرغت محتوياتها على الأرض. أخذوا آلـة تسجيلهـا، ودفـاتـر ملاحظاتها، ومفكرتها وسجل العناوين. وقبل ان يخرجوا أطلقوا رصاصة مجانية على «كليو»، وخلفوا الكلبة تحتضر وسط بركة من الدماء. لم تكن بيـاتـريس في البيت، لأنهـا كانت تسهر في ذلك الوقت في ممر المشفى حيث ابنتها تحتضر. حاولت روسا ايقافهم، لكنها تلقت ضربة بعقب بندقية في صدرها أفقدتها الصوت والنفس إلى أن ذهبوا، حينئذ حملت الكلبة في مريلتها واحتضنتها كي لا تموت وحيـدة. ألقى أولئـك الـرجـال نظـرة سريعـة على «مشيئـة الرب»، زارعـين الـرعب بين النـزلاء والمشـرفـات، لكنهم انسحبـوا سريعاً حين أدركوا ان هؤلاء المسنـين المـذعـورين يعيشون على هامش الحياة، وهم بالتالي على هامش السياسة أيضاً. وفي صباح اليوم التالي اقتحموا مكاتب المجلة وفتشوا كل ما وجدوه في مكتب ايـرين بيلتران، بما في ذلـك شريط آلتها الكاتبة القديم وورق الكربون

المستعمل. وروى فرانثيسكو للكاتبن كذلك عن ايفانخيلينا رانكيليو، وعن موت الرقيب ريفيرا المريب، وعن اختفاء براديليو وآل فلوريس، وعن المذابح المقترفة ضد الفلاحين، وعن الملازم خوان دي ديوس رامير يث، وكل ما خطر على باله، واضعاً الحيطة جانباً بعد ان حملها كجلد آخر له طوال عدة سنوات. أفرغ الغضب المتراكم خلال كل هذه الفترة من الصمت وأظهر له الوجه الآخر للحكومة ـ الوجه الذي لم يكن الضابط يراه لكونه خارج الحصار ـ دون أن ينسى ذكر من قاسوا التعذيب، والموتى، والفقراء الوقورين والاثرياء الذين يتقاسمون الوطن وكأنه صفقة اخرى من صفقاتهم، فيما الكابتن، الشاحب والصامت، يستمع إلى ما لم يكن يتصور يوماً ان يقال بحضوره.

كانت كلمات فرانثيسكو تصطدم في ذهن مورانتي بكلمات اخرى تعلمها في دوراته الحربية. ووجد نفسه للمرة الأولى أمام ضحايا النظام، وليس بين من يمارسون السلطة المطلقة. وصار عليه ان يعاني من ذلك النظام في اكثر مواجعه ايلاماً، في هذه الصبية المعبودة، المشلولة بين شراشف السرير، والتي تهز صورتها روحه مثل ناقوس يُقرع للموت. لم يتخل عن حبها ولو لحظة واحدة في حياته، ولم يحبها يوماً مثلما أحبها في تلك اللحظة، وهو يفقدها. تذكر السنوات التي كبرا فيها معاً، ومخططاتهما للزواج، ولجعلها سعيدة. وبصمت راح يقول لها كل ذلك الكلام الذي لم تسنح له الفرصة لقوله من قبل. أنبها لعدم ثقتها به، لماذا لم تخبريني؟ لو انها أخبرته لكان ساعدها وفتح بيديه ذلك القبر اللعين، لا ليرافقها وحسب، بل ومن أجل شرف القوات المسلحة أيضاً. فلا يمكن لهذه الجرائم أن تمر دون عقاب، لأن المجتمع سيذهب حينئذ إلى الشيطان، ولن يكون ثمة معنى لحمل السلاح من أجل اسقاط الحكومة السابقة واتهامها باللا شرعية، إذا كانوا هم أنفسهم يمارسون السلطة بعيداً عن كل القوانين والأخلاق. ان المسؤولين عن مثل هذه الأعمال غير المنضبطة هم بعض الضباط الذين لا بد من معاقبتهم، لكن طهارة المؤسسة العسكرية لم تتلوث يا ايرين، ففي صفوفنا رجال كثيرون مثلي، مستعدون للنضال في سبيل الحقيقة، ولازاحة الأنقاض واظهار كل القمامة وتقديم

حياتهم من أجل الوطن إذا اقتضى الأمر. لقد خنتني يا حبيبتي، وربما لم تحبيني يوماً مثلما أحببتك، ولهذا السبب تركتني دون اتاحة الفرصة لي كي أثبت لك انني لست شريكاً في هذه الهمجية، وأن يديَّ نظيفتان، وانني عملت دوماً بحسن نية. أنت تعرفينني؛ فقد كنت في القطب الجنوبي أثناء الانقلاب، وعملي هو أجهزة الكومبيوتر، ولوحات المفاتيح والأزرار، وملفات الارشيف السرية، والاستراتيجية. وأنا لم أطلق النار من سلاحي إلا في التدريب على الرماية. كنت أعتقد أن البلاد بحاجة إلى نقلة سياسية، بحاجة إلى النظام والانضباط للتغلب على البؤس. كيف كان بمقدوري أن أتصور أن الشعب يكرهنا؟ لقد قلت لك مرات ومرات يا ايرين ان هذه العملية قاسية، لكننا سنتجاوز الأزمة. مع انني لم أعد واثقاً تمام الثقة من ذلك، وربما ان الوقت قد حان للعودة إلى الثكنات واعادة الديمقراطية. أين كنت أنا كي لا أرى الحقيقة؟ كيف لم تخبريني من قبل؟ لم تكن هنالك حاجة لتلقيك رشة من الرصاص لكي أصحو وأفتح عيني، ما كان عليك أن تذهبي وتتركي لي هذا الحب الهائل والحياة لأعيش بدونك. كنت تبحثين عن الحقيقة منذ طفولتك، ولهذا احبك كل هذا الحب، ولهذا بالذات انت تموتين هنا الآن صامتة.

بقي الكابتن يتأمل ايرين لوقت طويل، حتى تلاشى الضوء الذي كان يدخل من النافذة وغرقت الغرفة ببطء في العتمة، فضاعت حدود الأشياء وتحولت الشابة إلى بقعة خفيفة فوق السرير. نظر إليها مورانتي نظرة الوداع، واثقاً من أنه لم يحب أحداً كما أحبها، ومستجمعاً قواه للمهمة التي سيواجهها. انحنى ليقبل شفتيها المشققتين، كابحاً نفسه مستنشقاً رائحة الدواء التي تفوح من جلدها، متخيلاً شكل جسدها، وماسحاً على شعرها المتمرد. وحين خرج عريس المنية كانت عيناه جافتين، ونظرته قاسية، وقلبه ثابت العزم. سيحبها إلى الأبد ولن يعود إلى رؤيتها مطلقاً.

وكان كل ما قاله:

ـ لا تتركوها وحيدة، لأنهم سيأتون للإجهاز عليها. أنا لا أستطيع حمايتها. يجب اخراجها من هنا واخفاؤ ها.

فرد فرانثيسكو:

ـ حسن

ثم شدّ كل منهما على يد الآخر طويلاً وبحزم.

★ ★ ★

كانت ايرين تتحسن ببطء شديد، حتى بدا أنها لن تشفى بشكل كامل أبداً، وكانت تعاني آلاما فظيعة. وصار فرانثيسكو هو راعي جسدها، يرعاه باهتمام مثل اهتمامه به قبل منحه اللذة. لم يكن يبتعد عنها خلال النهار، وكان يستلقي في الليل على اريكة إلى جوار سريرها. كان من عادته أن ينام نوماً هادئاً وثقيلاً، لكنه شحذ سمعه في تلك الأيام مثل حيوان متوفز. فكان يستيقظ مذعوراً ما أن يسمع تبدلاً في تنفسها، أو حركة أو أنة ضعيفة.

توقفوا عن تغذيتها بواسطة الوريد في ذلك الأسبوع، وتناولت طبقاً من الحساء، أطعمها إياه فرانثيسكو بالملعقة وبطول أناة. فابتسمت حين لمحت جزعه كما لم تبتسم منذ زمن، فكانت تلك الابتسامة كابتسامتها اللعوب التي اسرته منذ اللحظة التي تعرف عليها. خرج قافزاً في ممرات المشفى وقد أطارت السعادة عقله، وانطلق إلى الشارع، فاجتازه وسط السيارات، وترك نفسه يهوي على عشب الساحة. لقد حطم حاجز الانفعالات الحبيسة الذي ارتفع خلال أيام طويلة، وراح يضحك ويبكي دون ان يداري تأثره أمام أنظار المربيات المذهولات والمتقاعدين الذين كانوا يتمشون تحت الشمس في ذلك الحين. جاءت أمه لتبحث عنه هناك ولتشاركه سعادته. كانت هيلدا تقضي ساعات طويلة وهي تحوك الصوف صامتة إلى جانب المريضة لتعوّد نفسها شيئاً فشيئاً على أن ابنها الاصغر سيمضي كذلك، لأن الحياة لن تبقى على حالها بالنسبة اليه وبالنسبة للمرأة التي أحبها. أما البروفسور ليال، فقد حمل كونشيرتاته إلى ايرين ليملأ لها الغرفة

بالموسيقى ويعيد اليها الرغبة في الحياة. كان يزورها كل يوم ويجلس ليروي لها قصصاً سعيدة، دون أن يأتي على ذكر الحرب الاسبانية، أو ما رآه في معسكرات الاعتقال، أو قسوة المنفى وغيرها من الأمور المحزنة. وكان حنانه عليها يصل إلى حد احتمال بياتريس الكانترا دون أن يفقد طيب المزاج.

بعد فترة قصيرة تمكنت ايرين من المشي بضع خطوات، مستندة إلى فرانثيسكو. كان شحوب وجهها يشير إلى درجة اعتلالها، لكنها طلبت أن يقلصوا من كمية المسكنات التي يعطونها إياها، لأنها كانت تريد استعادة وضوح الذهن والاهتمام بشؤون الدنيا.

توصل فرانثيسكو إلى معرفة ايرين كما يعرف نفسه. ففي ليالي الأرق الطويلة تلك، روى كل منهما حياته للآخر. لم يبق لديهما ذكرى من الماضي، أو حلم من الحاضر، أو خطة للمستقبل إلا وتقاسماها. تبادلاً تسليم اسرارهما، وتجاوزا حدود الجسد ليسلم كل منهما روحه إلى الآخر. كان يغسل جسدها باسفنجة، ويدعكه بالكولونيا، ويسرح شعرها ليبسط التجاعيد المتمردة، وكان يحركها ليستبدل شراشف السرير، ويطعمها، ويعرف أدنى احتياجاتها المستعجلة. وكان يتلقف كل ايماءة، وكل نظرة ليقوم بما يجب عليه أن يفعله وكأنه يفعله لنفسه. لم يلحظ عليها يوماً أي أثر للحياء، فقد كانت بحاجة اليه كحاجتها للهواء والضوء، فتطلبه وترى أن وجوده إلى جانبها في الليل والنهار أمر طبيعي. وإذا ما خرج من الغرفة كانت تسمّر عينيها على الباب بانتظار عودته. وإذا ما اشتد عليها الألم بحثت عن يده وهمست باسمه طالبة المساعدة. شرّعا جميع أبوابهما، فولّد ذلك بينهما رابطة لا سبيل إلى فصّمها، ساعدتهما على تجاوز الخوف المقيم في حياتيهما من الواقع الرهيب.

ما أن سُمح بزيارة ايرين، حتى بدأ اصدقاؤها في المجلة بالتوافد. جاءت العرافة مرتدية عباءة مسرحية، وحاملة معها هدية هي عبارة عن علبة سرية وغريبة، ونصحت قائلة:

ـ دلكوها بهذا المرهم من رأسها حتى قدميها، انه علاج محقق للوهن.

ولم يفد في شيء قولهم لها ان سبب هذا الانهاك هو طلقات مدفع رشاش. وأصرت على تحميل البروج المسؤولية: العقرب يجذب الموت. ولم يفد كذلك تذكيرها بان ايرين ليست من مواليد هذا البرج.

صار يتردد على المشفى صحفيون، ومخرجون، ورسامون، وملكات جمال. كما جاءت عاملة التنظيف في مبنى المجلة حاملة معها للمريضة عدداً من عبوات الشاي الصغيرة وكيس سكر. لم تكن قد دخلت إلى مشفى خاص من قبل، فكانت تعتقد انه لا بد من المشاركة في تقديم بعض الأغذية، وظنت أن المرضى يعانون الجوع، كما هو الحال في مشافي الفقراء العامة. ولكنها هتفت حين رأت الغرفة، والأزهار التي على الطاولة والتلفزيون:

ـ هنا يطيب الموت يا ايرين.

وتناوب مسنو «مشيئة الرب» على زيارتها برفقة المشرفات. فقد كان الاحساس بغياب الشابة في ملجأ العجزة مثل انقطاع طويل للنور. كان المسنون يضعفون وهم ينتظرون حلواها، ورسائلها، ومداعباتها. لقد علموا بنكبتها، لكن بعضهم نسيها في الحال، لأنهم كانوا عاجزين عن الاحتفاظ بالنكبات الجديدة في اذهانهم المدبرة. وكانت خوسيفينا بيانتشي هي الوحيدة التي أدركت ما حدث تماماً. وأصرت على الذهاب إلى المشفى كلما استطاعت، حاملة في كل مرة هدية لايرين: زهرة من الحديقة، أوشال قديم من صناديقها، أو بيت من الشعر تكتبه بخطها الانكليزي المنمق. كانت تظهر في المشفى طافية ومتسربلة بفساتين من التول الرقيق الباهت أو من الدانتيلا المعتقة، يفوح منها عطر الورد، نحيلة مثل شبح من عصر آخر. فيتوقف الأطباء والممرضات عن أعمالهم ليروها تمر وقد فاجأهم مظهرها.

في اليوم التالي لضرب ايرين بالرصاص، وقبل ان تنشر الصحافة الخبر، علم به ماريو من خلال قنوات سرية، فحضر في الحال لتقديم المساعدة. وكان أول من انتبه إلى أن المشفى مراقب. كانت هناك سيارة ذات زجاج قاتم ترابط ليلاً ونهاراً في الشارع، قريباً من مدخل البناء، وكان مخبرو الشرطة السياسية

يتجولون حول المكان متظاهرين بعدم المبالاة، رغم افتضاح أمرهم من القمصان الـريـاضيـة التي يرتدونها، وسترات الجلد المزيف المنتفخة بسبب وجود اسلحتهم تحتها. وعلى الرغم من وجودهم في الخارج، فقد نسب فرانثيسكو محاولة الاغتيال إلى المجموعات شبه العسكرية أو إلى الملازم راميريث بالذات، لأنه لو كان هناك أمـر رسمي بتصفيـة ايـرين، لدخلوا بكل بساطة ضاربين الأبواب بأقدامهم حتى يصلوا إلى غرفـة العمليـات ويجهـزوا عليها. أما هذه الحراسة المتخفية فتشير إلى انهم غير قادرين على العمـل بشكـل مكشـوف وانهم يفضلون انتظـار اللحظـة المنـاسبـة لانجاز عملهم. كان ماريو قد اكتسب خبرة في مثل هذه الشؤون خلال عمله السري، فراح يعد خطة لتهريب ايرين عندما يصبح بامكانها الوقوف على قدميها.

كانت بيـاتـريس الكـانـترا في ذلـك الحين تصر على أن المسدس الرشاش الذي كاد يودي بحياة ابنتها، كان موجهاً إلى أشخاص آخرين. وكانت تقول:

ـ تصرفات أوغاد. أرادوا قتل مجرم فأصابت الرصاصات ايرين.

قضت أيـامـاً وهي تتصـل بمعارفها لتقص عليهم روايتها للواقعة. لم تكن ترغب في الابقاء على أي شكوك حول ابنتها. وكانت تنقل اليهم اثناء ذلك أخبار زوجهـا الـذي استطـاع المخـبرون اخيراً، وبعد سنوات من البحث والعذاب أن يحددوا مكـانـه في هذا العـالم الفسيح. فاوسيبيـو بيلتران، الـذي سئم من البيت الكبير، ومن تعنيفات زوجته، ومن لحوم الأغنام وملاحقة دائنيه، خرج في مساء ذلك اليوم، وما ان مشى بضع خطوات حتى أدرك ان سنوات طويلة من الحياة ما زالت أمـامـه، وأن الـوقت لم يفت للبـدء من جديـد. ومنـدفعـاً وراء أهواء روحه المغـامـرة، سافـر إلى منطقـة الكـاريبي باسم مستعـار وقليل من المال في جيوبه، وبعقـل يغص بالأفكـار العظيمة. عاش كغجري لبعض القوت، ومر بأيام خشي فيها أن تلتهمه حمى النسيان. لكن حاسة الشم الدقيقة التي يتمتع بها تجاه الثروة حولته إلى رجل ثري عن طريق الآلة التي ابتكرها لجني محصول جوز الهند. فذلك الجهـاز العجيب، الـذي لم يكن يتمتـع بأدنى حد من العلميـة حين صممه، ا!؛

حماسة مليونير محلي. وخلال زمن قصير انتشرت آلات جني جوز الهند في المنطقة كلها، واستطاع بيلتران ان يبيح لنفسه ذلك الترف الماجن الذي كان معتاداً عليه والذي لا يمكن لغير الاثرياء الحصول عليه. كان سعيداً. واتخذ له عشيقة أصغر منه بثلاثين سنة، سمراء وذات مؤخرة عريضة، متأهبة دوماً للمتعة وللفرح.

ـ ما زال هذا التعيس زوجي شرعياً. سأنتزع منه حتى الهواء الذي يتنفسه، فلهذا السبب يوجد محامون جيدون ـ هذا ما كانت تؤكده بياتريس لصديقاتها وهي مهتمة بالطريقة التي ستقذف بها القفاز في وجه ذلك الخصم السافل، اكثر من اهتمامها بصحة ابنتها. كانت تشعر بالرضى لاثباتها أن اوسيبيو بيلتران هو رجل منحط، ولكنه ليس يسارياً بأي شكل من الأشكال كما حاولت بعض المفتريات أن يشعن.

لم تعلم بياتريس بأحداث البلاد لأنها لم تكن تقرأ في الصحف سوى الأخبار السارة. ولم تكن تعلم انه قد تم التعرف على هوية جثث منجم لوس ريسكوس بدراسة الاسنان وبعض العلامات الفارقة الاخرى، وان تلك البقايا هي لفلاحين من ابناء المنطقة، اعتقلهم الملازم راميريث بعد الانقلاب العسكري بقليل، اضافة إلى جثة ايفانخيلينا رانكيليو، التي كانت تُنسب اليها معجزات صغيرة. تجاهلت الضجة الشعبية التي هزت الأمة رغم الرقابة وانتشرت في جانبي العالم لتضع قضية المفقودين في ظل الدكتاتوريات الاميركية اللاتينية في المقام الأول من جديد. وكانت هي الوحيدة التي ظنت حين سمعت الطرق على الطناجر يدوي في عدة أحياء من المدينة، انهم يفعلون ذلك تأييداً لعمل العسكريين، كما في زمن الحكومة السابقة، وذلك لعجزها عن ادراك قدرة الشعب على استخدام المنهج ذاته ضد مبتدعيه. وحين سمعت أن فريقاً من الحقوقيين يساند عائلات الموتى في الدعوى ضد الملازم راميريث ورجاله بتهمة انتهاك حرمة البيوت، والاختطاف، وممارسة العقوبات اللاشرعية والاغتيال، أشارت إلى الكردينال على انه المسؤول عن هذه الفظاعة، وقالت انه لا بد للبابا من استبداله، لأن مجال عمل الكنيسة يجب أن يكون الروح وحدها، وليس الأحداث الدنيوية القذرة.

وعلقت السيدة وهي في المطبخ في ذلك الصباح قائلة :

ـ إنهم يتهمون هذا الملازم المسكين بالقتل يا روسا ، لكن أحداً لا يفكر بانه ساعدنا على التحرر من الشيوعية .

ـ من عمل شراً سيدفع الثمن عاجلًا أم آجلًا ـ ردت عليها روسا بتصميم وهي تتأمل أول أزهار اللاتنسيني .

★ ★ ★

قُدم الملازم خوان دي ديوس راميريث وعدد من رجال وحدته للقضاء . وعادت أخبار جرائم لوس ريسكوس تحتل صفحات الجرائد ، فللمرة الأولى منذ الانقلاب العسكري يمثل عناصر من القوات المسلحة أمام قاض . عمت طول البلاد وعرضها موجة من الشعور بالفرج ، وخيل للناس أن شرخاً قد أصاب المؤسسة المتماسكة التي تمارس السلطة ، وحلموا بنهاية الدكتاتورية . في أثناء ذلك كان الجنرال يضع بكل وقاحة حجر الأساس لنصب منقذي الوطن ، دون أن تظهر حقيقة نواياه التي يخفيها وراء نظارته السوداء . لم يكن يقبل الرد على أسئلة الصحفيين الحساسة ، ويكتفي بحركة ازدراء إذا ما ورد ذكر القضية بحضوره . خمس عشرة جثة في منجم لا تستدعي كل هذه الضجة . وحين ظهرت قضايا أخرى وكشفت مدافن جديدة ، وقبور جماعية في المقابر ، وأجداث على الدروب ، واكياس على شاطىء البحر قذفتها الأمواج ، ورماد ، وهياكل عظمية ، وأجزاء بشرية ، بل وأجساد أطفال أُطلقت رصاصة بين أعينهم لأنهم رضعوا من أثداء أمهاتهم العقائد الغريبة الهدامة التي تلحق الضرر بالسيادة الوطنية وبأعلى قيم العائلة ، وبحق الملكية والتقاليد ، هز الجنرال كتفيه بهدوء ، لأن الوطن أولاً ثم ليحاكمني التاريخ فيما بعد .

ـ وماذا سنفعل بالمشكلة التي أخذت تتسع يا سيدي الجنرال؟

ورد من حمام الساونا ، المشيد في الطابق الثالث تحت الأرض :

ـ كالعادة أيها الكولونيل .

نُشرت أقوال الملازم في المحكمة تحت عناوين كبيرة، وكانت ذات فائدة لايرين بيلتران، لأنها اعادت اليها فجأة الرغبة في الحياة والنضال.

أعلن رئيس موقع لوس ريسكوس أمام المحكمة أن صاحب مزرعة «لوس اروموس» اتهم عائلة فلوريس بعد الانقلاب العسكري بقليل بان أفرادها يشكلون خطراً على الأمن الوطني، لارتباطهم باحزاب اليسار. وقال انهم من نشطاء هذه الاحزاب ويخططون لمهاجمة الثكنة، لهذا بادرت إلى اعتقالهم يا صاحب السعادة. ألقيت القبض على خمسة من أفراد هذه الاسرة وعلى تسعة أشخاص آخرين في تهم متنوعة، ابتداء من اقتناء السلاح وحتى تعاطي الماريجوانا. وقد اعتمدت في ذلك على قائمة وجدتها بحوزة أنطونيو فلوريس. كما وجدت لديه خريطة للثكنة، وهذا دليل على سوء نواياه. استجوبناهم حسب الاجراءات المتبعة وحصلنا منهم على الاعترافات: تلقوا تدريبات ارهابية على يد عملاء خارجيين تسللوا إلى البلاد عبر الحدود البحرية، ولكنهم عجزوا عن تقديم التفاصيل، وبدت لي اعترافاتهم متناقضة، وأنت تعلم يا صاحب السعادة كيف هم هؤلاء الناس. انتهينا من التحقيق معهم بعد منتصف الليل، فأمرت عندئذ بنقلهم إلى الاستاد الرياضي في العاصمة، وكان يستخدم في ذلك الحين كمعسكر اعتقال. وفي اللحظة الأخيرة، طلب أحد المعتقلين مقابلتي، وعلمت منه ان المشبوهين قد تورطوا في جريمة اخفاء أسلحة في منجم مهجور. حملتهم في شاحنة وأخذتهم إلى المكان المشار اليه. وحين أصبح الطريق وعراً، نزلنا مع المشبوهين وهم مقيدو الأذرع وتحت حراسة مشددة، وواصلنا السير على الأقدام. ما ان تقدمنا قليلاً في الظلام حتى وقعنا ضحية هجوم مباغت بأسلحة نارية أطلقت علينا من عدة أماكن، فلم أجد مفراً من اصدار الأوامر إلى رجالي ليدافعوا عن أنفسهم. لا يمكنني أن أقدم تفاصيل كثيرة لأن الظلام كان دامساً، لكنني أؤكد لكم انه جرى تبادل اطلاق نار غزير لعدة دقائق. وبعد ذلك توقفت الرماية وتمكنت من اعادة تنظيم وحدتي. بدأنا البحث عن المعتقلين ونحن نظن انهم قد لاذوا بالفرار، لكننا وجدناهم على الأرض، وكانوا جميعهم ميتين، ومبعثرين هنا

وهنـاك . ولا أستطيـع أن أحدد إذا كانوا قد قتلوا برصاصنا أم برصاص المهاجمين . وبعـد أن فكـرت بالأمر، قررت أن أفعل ما وجدته صائباً، حتى لا أعرض رجالي وعـائـلاتهم لاعـمال انتقـاميـة . فأخفينـا الجثث في المنجم ثم أغلقنـا المـدخـل بالانقاض، بالحجارة والتراب، ولم نقم بأية أعمال بناء، لهذا لا أستطيع أن أقول شيئاً حول هذا الأمـر. وبعـد أن أغلقنا المنجم، أقسمنا جميعنا على كتمان السر. انني أعـترف بمسؤوليتي كقـائـد للمجموعة، ويجب أن أوضح انه لم تقع اصابات بين من هم تحت أمـرتي ، باستثنـاء بعض الخـدوش البسيطة من جراء زحفنا في أرض وعـرة . أمـرت بتفتيش المنطقـة المحيطة بحثاً عن المهاجمين، لكننا لم نعثر لهم على أثر، كما لم نجد أغلفة رصاصات فارغة . اعترف انني قد أسأت إلى الحقيقة حين ذكرت في تقريري ان المعتقلين ارسلوا إلى العاصمة، لكنني وكما قلت لكم لم أفعل ذلـك إلا لحمايـة رجـالي من انتقـام محتمـل . لقـد مات في تلك الليلة أربعـة عشر شخصـاً . وقـد فوجئت بورود ذكـر مواطنـة تدعى ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث، لأن المـذكـورة اعتقلت في ثكنة لوس ريسكوس لبضع ساعات، ثم اطلق سراحها كما هو مثبت في سجل المناوبة . وهذا هو كل ما يمكنني قوله لسعادتكم .

اثـارت هذه الـروايـة في المحكمـة ما اثارته لدى الرأي العام من ريبة وعدم تصـديق . ووجـد القـاضي انـه يستحيـل عليـه القبـول بها دون ان يتحـول إلى اضحوكة، فاعلن انه غير مؤهل للبت في المسألة، وأحال القضية إلى المحكمة العسكرية .

رأت ايـرين وهي على سريـر النقـاهة ان احتمالات معاقبة المذنبين تبتعد، فطلبت من فرانثيسكو ان يذهب في الحال إلى ملجأ «مشيئة الرب» . قالت له متوسلة :

ـ خذ هذه المـلاحظـة إلى خوسيفينا بيانتشي ، فهي تحتفظ لي بشيء مهم ، فإذا كان قد نجا من حملة المداهمة ستعطيك إياه .

لكنـه رفض تركهـا وحيـدة ، وأمـام أصـرارهـا أخبرها انها مراقبة . كان قد أخفى عنها الأمر حتى ذلك الحين كي لا يخيفها، ولكنه لاح انها على علم بذلك،

لأنـه لم يلمـح عليها أية امارات للمفاجأة. كانت ايرين قد هيأت نفسها لاستقبال الموت كاحتمال وشيك ويصعب تفاديه. لكن فرانثيسكو لم يذهب لزيارة العجوز إلا عندما جاء البر وفسور وهيلدا برفقة ممرضة ليحلا مكانه.

رحبت به روسا وهي تتحرك بصعوبة، لأن ثلاثة أضلاع في صدرها كانت قد تهشمت. وكـانت قد هزلت وبـدا عليها الارهاق. قادته عبر الحديقة وأشارت إلى الأرض المقلوبة حديثاً حيث دفنت كليو، قريباً من قبر الوليد الذي سقط من فتحة النور.

كانت خوسيفينا بيانتشي متكئة إلى الوسائد في حجرتها وهي ترتدي قيمص نوم واسـع الأكـمام، مشغـول على مغـزل تطريز، وتصنع دثاراً متقن الصنع على كتفيهـا، وشـريطاً في عنقها علقت فيه حلية ثلجية. وفي متناول يدها كانت توجد مرآة من الفضـة المـزخرفة وصينية مترعة بأوان مملوءة بمسحوق الأرز، وفراشٍ من وبـر السمـور، وكـريـمات من جميع الأنواع، ومروحة من ريش البجع، ودبابيس شعر من عظم السلاحف. لقد كانت تقوم برسم مكياجها، وهي مهمة حساسة تؤديها منـذ أكثـر من سبعـين عاماً، دون أن تهملها ولو ليوم واحد. كان وجهها يبدو على ضوء الصباح مثل قناع ياباني، رسمت فيه يد مترددة خط الفم الارجواني. وكانت رموشها ترتعش زرقاء، وخضراء، وفضية فوق الوجه المطلي بالمساحيق. لم تتعرف الممثلة العجوز على فرانثيسكو، فقد كانت غارقة في حلم بعيد، ربما وسط مسرح قبل رفع الستارة في ليلة افتتاح عرض جديد. ارتعشت حدقتاها تائهتين في الماضي وبـدأت روحهـا بالعـودة شيئـاً فشيئـاً الى الحـاضر. ابتسمت، فعاد الشباب الى ملامحها بظهور صفين من الأسنان الاصطناعية المنتظمة.

لقد تعلم فرانثيسكو خلال شهور صداقته مع ايرين التعرف على خصائص المسنين واكتشف ان الحنان هو المفتاح السري الوحيد للتواصل معهم، وان التعقل ما هو إلا متـاهـة يضيعـون فيهـا بسهـولـة. جلس على حافـة السـرير وداعب يد خوسيفينا بيانتشي. لم تكن هنالك من جدوى في استعجالها. تذكر الفترة الزاهية من حياتها، حين كانت صالات المسارح تغص بالمعجبين بها، وكانت حجرتها في

الكواليس تزدهي بباقات الزهور، حين كانت تجوب القارة في جولات صاخبة وتحتاج لخمسة حمالين ليحملوا أمتعتها وينزلوها من السفن والقطارات.

ـ ما الذي جرى يابني؟ أين النبيذ، والقبلات، والمرح؟ أين الرجال الذين أحبوني؟ وأين الجموع التي صفقت لي؟

ـ كل شيء هنا، في ذاكرتك ياخوسيفينا.

ـ انني عجوز، لكنني لست معتوهة. وأنا أدرك أنني وحيدة. رأت حقيبة آلة التصوير فأرادت أن تتخذ وضعاً لالتقاط صورة تبقى كذكرى منها حين تموت. تزينت بعقود ألماس زائفة، وشرائط مخملية، وطرحة ذات لون خبازي، وحملت مروحتها الريشية ورسمت على وجهها ابتسامة من عصر آخر. واتخذت وضعية للصورة، وبقيت مستعدة لذلك بضع لحظات، لكنها مالبث أن تعبت بسرعة، فأغمضت عينيها واتكأت ثانية وقد اضطرب تنفسها.

ـ متى سترجع ايرين؟

ـ لست أدري. لقد بعثت إليك بهذه الملاحظة. تقول انك تخبئين لها شيئاً.

تناولت العجوز الورقة بين أصابعها وشدتها الى صدرها دون أن تقرأها.

ـ أأنت زوج ايرين؟

فرد فرانثيسكو:

ـ لا، أنا حبيبها.

ـ لحسن الحظ! يمكنني أن أقول لك اذن ايرين مثل عصفور، لا جَلَد لها على الثبات.

ضحك فرانثيسكو:

ـ أنا لدي ما يكفي لي ولها.

وافقت على تسليمه ثلاثة أشرطة تسجيل كانت تخبئها في حقيبة رقص مطرزة بالخرز. لم تستطع ايرين أن تجد يوماً تبريراً لائتمانها الممثلة على تلك الاشرطة، وكان السبب الوحيد الذي دفعها الى عمل ذلك هو لفتة كرم نحو المرأة العجوز. لأنها لم تكن تعلم انهم سيحاولون قتلها وسيداهمون بيتها ومكتبها بحثاً

عن الاشـرطـة، ولكنهـا كانت تدرك قيمـة هذه الأشـرطـة بوضوح. ولقد أعطتها للعجوز لتجعلها تشارك في شيء لم يكن قد تحول إلى سر بعد، مانحة بذلك معنى جديداً لحياة الممثلة. كانت لفتة عفوية مثل تلك اللفتات الكثيرة التي تقدمها الى نزلاء «مشيئـة الـرب»، من الاحتفـال بأعياد ميلاد لا وجود لها، وتنظيم الألعاب، وابتـداع العـروض المسـرحيـة، إلى تقـديم الهـدايـا وكتـابة الرسائل باسم أقرباء وهميـين. لقـد زارت خوسيفينـا بيانتشي في احدى الليالي ووجدتها حزينة، تدمدم انهـا تفضـل المـوت، لأنهـا لا تملك الحب وليس هناك من هو بحاجة اليها. كانت صحتهـا قد تدهـورت خلال الشتـاء الاخير، وحين رأت نفسها هرمة ومستنزفة، صارت تعاني حالات من الانقباض، رغم انها لم تفقد الاتزان أو الذاكرة. وأرادت ايـرين أن تقـدم لها ما يحرف اهتـامها عن الوحدة ويشدها الى اهتمامات اخرى، ولهـذا أعطتهـا الاشرطة ونبهتها الى أهميتها وطلبت منها أن تخبئها. وقد فتنت هذه المهمة السيدة العجوز، فمسحت دموعها ووعدت بالبقاء حية ومعافاة لمساعدتها، وهي تظن أنها تصون سراً غرامياً. وهكذا، فإن الأمر الذي بدأ مجرد لعبة، انتهى الى اداء فائـدة عظيمـة. فلم تنجُ الأشرطة من فضول بياتريس الكانترا وحسب، بل ومن التفتيش البوليسي كذلك.

قالت خوسيفينا بيانتشي لفرانثيسكو:

ـ قل لايرين أن تأتي. لقد وعدتْ أن تساعدني في ساعة موتي.

ـ لم تحن هذه الساعة بعد. أمامك عمر طويل تعيشينه، فأنت مازلت معافاة وقوية.

ـ اسمـع أيهـا الشـاب، لقد عشت حياتي كسيدة وأريد أن أموت كسيدة. أشعر أنني متعبة، وأريد ايرين.

ـ لا تستطيع المجيء الآن.

ـ السيء في الشيخـوخـة أن أحـداً لا يحترمنـا. يعـاملوننـا كما لو كنا أطفالاً لجوجـين. لقـد عشت حيـاتي على طريقتي وكـما أشتهي، دون أن ينقصني أي شيء، فلماذا تمنع عني ميتة نظيفة؟

قبل فرانثيسكو يديها بحنان واحترام. ولدى خروجه رأى النزلاء في الحديقة تحت مراقبة المشرفات، مقعدين متوحدين في كراسيهم ذات العجلات، ومتدثرين بشالاتهم الصوفية وممتلكاتهم البائسة، صمّاً، وشبه عميان، محنطين، أشباه أحياء يعيشون بعيداً عن الحاضر والواقع. كان الكولونيل، بميدالياته الصفيحية المتدلية على صدره يحيي كعادته العلم الوطني الخفاق الذي لا يظهر إلا لعينيه. وكانت أفقر أرملة في المملكة تشد إلى حضنها علبة معدنية تضم بعض الكنوز البائسة. وكان المفلوج ينتظر البريد بحكم العادة، رغم ادراكه في أعماق نفسه ومنذ البداية ان ايرين هي التي تخترع له الردود لتسعده، فيما هو يتكلف تصديق أكاذيبها المشفقة حتى لا يغبنها. وحين توقفت عن المجيء إلى «مشيئة الرب»، لم يبق لديه ما يحلم به. وأوقف عجوز آخر فرانثيسكو عند الباب.

ـ اسمع أيها الشاب، حيث انهم يجدون قبوراً الآن، أتظن ان ابني وكنتي والصغير سيظهرون أيضاً؟

لم يعرف فرانثيسكو ليال بماذا يجيب، وخرج هارباً من عالم الأجداد المؤثر ذاك.



الاشرطة التي سجلتها ايرين بيلتران كانت تضم أحاديثها مع ديغنا وبراديليو رانكيليو، ومع الرقيب فاوستينو ريفيرا وايفانخيلينا فلوريس.

قالت لفرانثيسكو:

ـ خذها إلى الكردينال ليستخدمها في محاكمة الشرطيين.

ـ لكن صوتك فيها يا ايرين. إذا تعرفوا عليه فسيكون بمثابة الحكم عليك بالموت.

ـ سيقتلونني في كل الأحوال إذا استطاعوا. عليك أن تسلمها.

ـ عليّ أن أنقلك إلى مكان آمن قبل ذلك.

ـ استدع ماريو اذن، لأني سأخرج من هنا مساء هذا اليوم بالذات.

عند المساء جاء خبير المكياج حاملا حقيبته الشهيرة التي يستخدم محتوياتها في تغيير الشخصيات، فحبس نفسه معهما في غرفة المشفى، حيث قام بقص شعريهما وتغيير لونه، وتعديل قوس حواجبهما، واختبار نظارات مناسبة، ومكياج وشوارب وجميع حيل مهنته، إلى أن جعل منهما كائنين مختلفين. نظر كل من الشابين إلى الآخر مذهولاً، ولم يتعرفا على بعضهما بعضاً تحت هذه الأقنعة، وابتسما غير مصدقين. فبهذا المظهر الجديد سيترتب عليهما أن يتعلما كيف يحب أحدهما الآخر منذ البداية.

سألها ماريو:

- هل يمكنك السير يا ايرين؟

- لست أدري.

- عليك أن تفعلي ذلك دون مساعدة. هيا بنا يا صغيرتي، قفي على قدميك..

نزلت ايرين عن السرير متمهلة دون أن تقبل الاستناد إلى يد صديقها. نزع ماريو عنها قميص النوم، وأخمد صرخة كادت تفلت منه وهو يرى بطنها المغطى بالضمادات وبقع المطهر الحمراء التي على الصدر والفخذين. أخرج من حقيبته العجيبة حشوة من الاسفنج ليجعلها تظهر كحبلى، فثبتها بالكتفين وما بين الساقين، لأنها ما كانت لتحتمل ربطها حول خصرها. ثم ألبسها في الحال فستان حمل وردي اللون، وأنعلها صندلاً بلا كعب وودعها بقبلة متمنياً لها حظاً سعيداً.

خرجت ايرين من المشفى بعد ذلك بقليل برفقة فرانثيسكو دون ان يثيرا اهتمام العاملين الذين قدموا اليهما الخدمات خلال الوقت الفائت، ومرا أمام السيارة ذات الزجاج القاتم المتوقفة في الشارع، وسارا متمهلين حتى الناصية، وهناك صعدا إلى سيارة الحلاق.

قرر ماريو:

- ستختبأان في بيتي إلى أن تتمكنا من السفر.

قادهما إلى شقتـه، وفتـح البـاب الذي من برونز وزجاج، أبعد هرر الأنقرة من طريقهـما، وأمـر الكلب ان يستلقي في أحـد الأركان ثم انحنى مازحاً ليرحب بهما، لكنــه لم يتمكن من انهــاء حركـة الـترحيب تلك لأن ايـرين انهـارت على السجـادة دون نفس. حملهـا فرانثيسكـو بين ذراعيـه ولحق مضيفه إلى الغرفة التي خصصها لهما، حيث احتضن المريضة سرير عريض مغطى بشراشف قطنية فاخرة.

قال فرانثيسكو متأثراً:

ـ انك تجازف بحياتك من أجلنا.

فرد ماريو وهو يخرج:

ـ سأعد القهوة، فنحن جميعنا بحاجة اليها.

أمضت ايـرين عدة أيـام وهي تسـترد قواهـا في هذا الجـو النقي والهادىء، حيث كان فرانثيسكـو ومـاريـو يتنـاوبان العناية بها. حاول صاحب البيت تسليتها بالمطـالعـة الخفيفـة، وبألعـاب الـورق، وبرواية النوادر الكثيرة التي جمعها خلال حيـاتـه، وسرد لها حكايات صالون التجميل، وغرامياته، ورحلاته وعذاباته حين كان مجرد الابن الضـال لعـامـل منجم. وحـين لاحـظ أنها تحب الحيوانات، نقل الكلب الأسـود الضخم والقطـط إلى حجرتها، وكان يغير موضوع الحديث إذا ما سألت عن كليــو، لأنـه لم يكن راغبـاً في اطـلاعهـا على نهايتـه الحـزينـة. طهى لصديقته وجبات مرضى، وسهر على نومها وساعد فرانثيسكو في علاجها. أغلق نوافـذ شقتـه، وأسدل الستائر السميكة، واستبعد الجرائد وأطفأ التلفزيون كي لا تقلقهـا فوضى ما يحدث في الخـارج. فإذا ما عوت صفـارات عربات الشرطة، أو مرت طائرات الهليوكبتر وهي تئزّ مثل طيور خرافية، أو دوى في البعيد الطرق على الطناجر أو قعقعة البنادق الرشاشة، كان يرفع صوت الموسيقى كي لا تسمع شيئاً من ذلـك. وكـان يذيب المسكنـات في حسـائها ليجبرها على الراحة، ويمتنع في حضورها عن ذكر الأحداث التي كانت تزعزع أمن الدكتاتورية.

وكان ماريو هو الذي حمل إلى بياتريس الكانترا خبر مغادرة ابنتها المشفى.

كان ينوي ان يوضح لها ضرورة اخراجها من البلاد لانقاذ حياتها، لكنه لاحظ منذ العبارة الأولى عجزها عن احتمال الوضع. فقد كانت السيدة تسكن عالماً وهمياً حيث كل هذه النكبات ملغاة بمرسوم. ففضل أن يقول لها ان ايرين وفرانثيسكو قد سافرا لقضاء اجازة قصيرة، وهي رواية لا يمكن تصديقها، نظراً لحالة الفتاة الصحية، لكن الأم اقتنعت بها لأن أي ذريعة كانت مفيدة لها. تأملها ماريو دون شفقة وهو يتميز غيظاً أمام تلك المرأة الانانية اللامبالية، المختبئة وراء طلاوة من الشعائر والصيغ الجاهزة، في هذا الصالون المحكم الذي لا تصله همسات التبرم. تصورها منساقة فوق طوف مع شيوخها المسنين والمقعدين في بحر ساكن. فقد كانت بياتريس مثل اولئك الشيوخ، تعيش خارج الواقع، لأنها فقدت مكانها في هذا العالم. وكان يمكن لأمنها الواهن ان ينهار في لحظة واحدة، بهبة من اعصار الازمنة الجديدة الغاضب. كانت الصورة في ذهنها مغلفة بالحرير وجلود الغزلان، فخرج من عندها دون كلمة وداع.

كانت روسا واقفة في الخارج، تتنصت للحديث كعادتها من وراء الباب. فأشارت اليه ان يتبعها إلى المطبخ:

- ماذا جرى لصغيرتي؟ أين هي؟

- انها في خطر. علينا مساعدتها للخروج من هنا.

- إلى المنفى؟

- نعم.

- ليحفظها الله لي ويحميها! هل سأتمكن من رؤيتها يوماً؟

- حين تسقط هذه الدكتاتورية، ترجع ايرين.

فتوسلت روسا وهي تسلمه لفافة صغيرة:

- أعطها هذه، انه تراب من حديقتها، ليكون معها اينما ذهبت. وأرجوك أن تقول لها ان نبتة اللاتنسيني قد أزهرت...



رافق خوسيه ليـال ايفانخيلينا فلوريس للتعرف على رفات أبيها واخوتها. كانت ايـرين قد حدثتـه عنهـا وطلبت منه مساعدتها، لثقتها من أن الفتاة ستحتاج لمساعدته، وهذا ما فعله. كانوا قد أفرغوا محتويات الأكياس الصفراء على طاولتين خشبيتـين كبـيرتـين في فنـاء مديرية المباحث: ثياب مهترئة، قطع عظام، خصل شعـر، مفتـاح صدىء، مشـط. ذرعت ايفانخيلينا ذلك المعرض الرهيب ببطء، مشـيرة بصمت إلى كل شيء تعـرفت اليـه: هذه الكنـزة الـزرقـاء، هذا الحـذاء الممـزق، هذا الـرأس ذو الاسنـان القليلة. مرت ثلاث مرات أمام الطاولتين وهي تتأمـل بدقـة، إلى أن وجـدت شيئاً ما من كل واحد من موتاها وأثبتت ان الخمسة موجودون هناك، لا ينقص منهم أحد. ولم يش بالجهد الرهيب الذي كانت تبذله في كل خطوة سوى العرق الذي بلل بلوزتها. كان الراهب يمشي إلى جانبها دون ان يمسهـا، كما كان معهـا موظفـان من المحكمـة يسجـلان الملاحظات. واخيراً قرأت الفتـاة التصـريـح الـذي كتبـاه ووقعت عليـه بيـد ثابتـة وخرجت من هناك بخطـوات واسعـة، ورأس مرفـوع. حين أصبحت في الشارع، وبعد ان سمعت صوت اغـلاق البـاب وراءها، استعادت للحظات قصيرة مظهر الطفلة الريفية. فاحتضنها خوسيه ليال، وقال لها:

ـ ابك يا صغيرتي، فهذا يريحك.

فردت وهي تنفض الدموع بحركة من يدها وتواصل السير مسرعة:

ـ سأبكي فيما بعد يا أبتاه. لدي عمل كثير الآن.

بعـد يومـين من ذلـك استـدعيت للمثـول أمـام المحكمة العسكرية لتقدم شهـادتهـا حول القتلى المزعومين. جاءت بملابس العمل وهي تضع شريطاً أسود على ذراعهـا، وهـو نفس الشـريـط الـذي استخـدمتـه يوم فتحـوا منجم لوس ريسكـوس ورأت ان وقت الحـداد قد حان. كانت المحكمـة سرية، فلم يسمحوا لأمها ولا لخوسيه ليال ولا لمحامي المطرانية المكلف من الكردينال بمرافقتها، قادها جنـدي عبر ممر عريض يتردد وقـع الخطى فيـه بصـوت كصـوت الجـرس، حتى وصلت إلى قاعـة المحكمـة. كانت القـاعـة عبـارة عن صالـة فسيحـة شديـدة

الاضـاءة، وليس فيهـا من زينـة سوى علم وصـورة ملونـة للجنـرال وعلى صدره وشاح الرؤساء.

تقـدمت ايفـانخيلينا دون خوف إلى ان وقفت أمام منصة الضباط العالية. وتطلعت اليهم واحداً واحداً محدقة في عيونهم مباشرة ثم روت لهم بصوت واضح القصـة التي روتهـا لايـرين بيلتران من قبل، دون ان تتمكن تلميحات التخويف من اجبـارهـا على تعديل روايتها. أشارت دون تردد إلى الملازم خوان دي ديوس راميريث وإلى كل رجل شارك في اعتقال أفراد اسرتها، لأنها كانت تحمل صورهم مطبوعة في ذاكرتها بالنار خلال السنوات الماضية.

قال لها ضابط برتبة كولونيل:

- يمكنك ان تنصرفي الآن أيتها المواطنة. لكنك ستبقين تحت تصرف هذه المحكمة. لا تغادري المدينة.

قادهـا الجنـدي نفسـه إلى المخـرج. وكـان خوسيه ليال ينتظرها في الخارج فانطلقا يسيران معاً في الشارع. انتبه الكاهن إلى أن هناك سيارة تلاحقهما، ولأنه كان مستعداً لمثل هذا الاحتمال، فقد أمسك الفتاة من ذراعها وركض وهو يدفعها معه ويشدها ليختلط بالجموع. بحث عن ملجأ في أول كنيسة صادفها في طريقه واتصل من هناك بالكردينال.

أنقـذت ايفـانخيلينا فلوريس من مخالب القمع وأخرجت إلى خارج البلاد في ظلال الليـل. كانت لها مهمـة لا بد من انجـازها. وقد نسيت خلال السنوات التالية الريف الهادىء الذي ولدت فيه، لتجوب العالم مشهرة بما يتعرض له وطنها من مآس. مثلت أمـام جمعيـة الأمم المتحدة، وفي مؤتمرات صحفية، وفي ندوات تلفـزيـونية، ومؤتمرات، وجامعات، وفي كل مكان لتتكلم عن المفقودين ولتحول دون أن يمحو النسيان أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين ابتلعهم العنف.

حين تم التعـرف على جثث لوس ريسكـوس، التمس ذووهم استعـادتهم لدفنهم بشكل لائق، لكن طلبهم رفض خوفاً من البلبلة العامة، ولأن الحكومة لم تكن راغبة في مزيد من الفوضى، عندئذ دخل أقرباء هؤلاء الضحايا وغيرهم ممن

عُثر عليهم في قبور سرية اخرى، دخلوا إلى الكتدرائية واعتصموا أمام المذبح الكبير وأعلنوا اضراباً عن الطعام منذ تلك اللحظة وإلى ان يستجاب طلبهم. لقد تخلصوا من الخوف وخاطروا دون تردد بحياتهم، وهي الشيء الوحيد الذي تبقى لهم بعد ان خسروا كل شيء.

ـ ما الذي تعنيه هذه الفوضى أيها الكولونيل؟

ـ انهم يسألون عن مفقوديهم يا سيدي الجنرال.

ـ قل لهم انهم ليسرا أحياء ولا أموات.

ـ وماذا نفعل بالمضربين عن الطعام يا سيدي الجنرال؟

ـ كالعادة أيها الكولونيل، ولا تزعجني بالصغائر.

حاولت الشرطة اخراج المعتصمين من المعبد بخراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع، لكن الكردينال وقف أمام الباب مع أشخاص اخرين كانوا يشاركون في حملة التضامن، فيما مراقبو الصليب الأحمر، ولجنة حقوق الانسان والصحافة العالمية يلتقطون صوراً للمشهد. بعد ثلاثة أيام لم يعد ضبط الوضع ممكناً، واخترق صخب الشارع جدران الملجأ الرئاسي، فأمر الجنرال مكرها باعادة رفات الموتى. ولكن في اللحظة الأخيرة، وحين كانت عائلات الضحايا تنتظر حاملة آكاليل الزهور والشموع المضاءة، انحرفت سيارات المآتم عن الطريق بناء على أوامر عليا، ودخلت خفية من البوابة الخلفية للمقبرة وأفرغت الأكياس في قبر جماعي. أما جثة ايفانخيلينا رانكيليوسانتشيث، التي كانت ما تزال في مستودع الجثث لاجراء التشريح عليها، فقد سلمت إلى ابويها. حملاها إلى خورانية الأب تيريلو، حيث حصلت على ضريح متواضع. لكنه كان قبراً على أية حال، لم تنقصه الزهور الطازجة أبداً، لأن فلاحي المنطقة كانوا يؤمنون بمعجزاتها الصغيرة.

تحول منجم لوس ريسكوس إلى مكان للحج. وذهبت اليه أرتال لا نهائية من الناس في مهرجان شعبي يتقدمه خوسيه ليال. جاؤوا مشياً على الأقدام وهم يرتلون الصلوات ويرددون شعارات التمرد، ويحملون الصلبان، والمشاعل وصور

موتـاهم. فأقـام الجيش في اليـوم التـالي سيـاجاً عالياً من الأسلاك الشائكة وبوابة حديدية، لكن الاسلاك الشائكة والجنود الذين أقاموا مرابض لمدافعهم الرشاشة لم يستطيعـوا منـع تدفق المـواكب. حينئـذ استخـدمـوا المتفجـرات لمحـو المنجم من الأرض، محاولين بذلك محوه من التاريخ أيضاً.

سلم فرانثيسكو وخوسيه ليال تسجيلات ايرين إلى الكردينال. كانا يعلمان انهـا ستصـل إلى يد المحكمـة العسكـريـة، وسيتم التعـرف على صوت الفتـاة واعتقالها. ولهذا كان عليهما ان ينقلاها إلى مكان آمن بأسرع ما يمكن.

سألهما رئيس المطرانية:

ـ كم يوماً يلزمها لتهرب.

ـ اسبوع، إلى ان تتمكن من السير دون مساعدة.

اتفقـوا على ذلـك، وقام الكردينال بتسجيل عدة نسخ من الأشرطة، وبعد سبعـة أيـام وزع النسخ على الصحافة وسلم النسخة الأصلية إلى النائب العام. وحين أرادوا اتلاف الأدلة، كان الوقت قد فات، لأن المقابلات ظهرت منشورة في الصحف وراحت تجوب العـالم، مثيرة موجـة من الاستنكـار العـام. أصبح اسم الجنرال اضحـوكـة في الخـارج وصـار سفراؤه يقابلون بوابل من البندورة والبيض الفاسد كلما ظهروا في مكان عام. فلم تجد العدالة العسكرية، أمام هذه الضجة المتحدية، مفراً من ادانة الملازم خوان دي ديوس راميريث ومن شارك من رجاله في المذبحة بتهمة القتل، استناداً إلى شهاداتهم المتناقضة، وإلى الأدلة المخبرية التي حددت طريقـة القتـل كما جرى في الـواقـع، وإلى تسجيـلات ايـرين بيلتران. واستدعيت الصحفية للشهادة عدة مرات وبحثت عنها الشرطة السياسية، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليها.

لم يستمر الشعور بالرضى الذي أثاره الحكم إلا بضع ساعات، حيث اطلق سراح المـذنبـين بنـاء على مرسوم عفو صدر في اللحظة الأخيرة. فتُرجم الغضب الشعبي في مظـاهـرات صاخبة في الشوارع، لم تتمكن فرق الشرطة الصدامية ولا معـدات الجيش الحـربيـة من السيطـرة على النـاس الذين تدفقوا إلى الشوارع.

وأمام مشروع نصب «منقذي الوطن»، أفلت الشعب خنزيراً ضخماً مزيناً بشرائط ملونـة ووشـاحـاً ثلاثيـاً وعبـاءة مراسم وقبعة جنرال. ركض الحيوان مذعوراً وسط الحشود التي راحت تبصق عليه وتركله وتشتمه أمام عيون رجال الشرطة المغتاظين الذين استخدموا كل براعتهم لمحاصرة الخنزير وانتزاع الرموز المقدسة التي اهينت ثم انتهوا اخيراً إلى قتله بالرصاص وسط الصراخ والعصي ولعلعة الصفارات. ولم يبق من الحيـوان إلا جثتـه الضخمـة المهـانـة في بركـة من الدم الأسود تتمرغ فيها شعاراته وقبعته وعباءته كطاغية.

رُفّع الملازم راميريث إلى رتبة نقيب. وراح يتجول مطمئناً ومرتاح الضمير في كل مكـان، إلى ان علم أن ماردأ يلبس الاسمـال ويهيم على وجهـه في دروب الجنوب، جائعاً وزائغ العينين، يبحث عن قاتل اخته. لم يتلفت اليه أحد، وقالوا انـه معتـوه. لكن الضـابـط كان يعرف الثأر المسلط فوق رأسه، ففقد راحة النوم، وأدرك انه لن يجد السلام ما دام براديليو رانكيليو على قيد الحياة.

في حامية من حاميات الأقاليم، بعيداً عن العاصمة، كان غوستافو مورانتي يضـع مخططـاتـه موضـع التنفيذ. فحين حصل على كل الأدلة حول عدم شرعية النظـام، بدأ التحـرك سراً بين رفـاقه في السلاح. كان قد فقد أحلامه، واقتنع ان الـدكتـاتورية ليست بالمرحلة المؤقتة على طريق التطور، وانما هي المرحلة الأخيرة في طريق الظلم. لم يعـد قادراً على احتـمال آلـة القمع التي يخدمها بولاء وهو يفكر بمصـالـح الـوطن. فالرعب لم يؤد إلى فرض النظام كما لقنوه في دورات الضباط، بل زرع حقـداً لن تكـون حصيلتـه إلا مزيداً من العنف. ومنحته سنوات خدمته العسكـريـة معرفة عميقة بالمؤسسة، فقرر استخدامها للإطاحة بالجنرال. رأى ان هذه المهمـة تقـع على عاتق الضبـاط الشباب، وآمن انه ليس وحيداً في حمل هذه المشـاعـر، فالفشـل الاقتصادي، والتفاوت الاجتماعي الصارخ، ووحشية النظام وفسـاد ذوي الـرتب العـاليـة، تدفع عسكريين آخرين إلى التأمل والتفكير. كان موقنـاً بوجـود آخـرين مثله، راغبين في غسل صورة القوات المسلحة واخراجها من الهـوة التي حُشـرت فيهـا. لو ان رجـلاً آخـر، أقـل جرأة وحمـاسة، حمل مثل هذه

الأفكـار، فربـما كان سيتـوصـل إلى تحقيق أهـدافه، لكن مورانتي كان متسرعاً في استجـابتـه لدوافـع قلبـه، فاقـترف خطيئـة تحريض جهاز المخابرات، الذي كان يعـرف مفـاصله جيـداً، فاعتقـل وبقي على قيـد الحياة لمدة اثنتين وسبعين ساعة فقـط، لم يستطـع أمهـر الخـبراء خلالهـا اجباره على الكشف عن اسماء متورطين آخرين في حركة التمرد. فجردوه من رتبته العسكرية وأعدموه اعداماً رمزياً باطلاق الرصاص على ظهره عند الفجر، جزاء له. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات، تسـربت القصـة. وحـين علم فرانثيسكـو ليـال بما حدث، تذكـر عريس المنيـة باحترام. وقال معلقاً: إذا كان يوجد في القوات المسلحة رجال من هذا الطراز، فما زال هنـاك أمـل. ولن يتمكنـوا من السيطـرة على الانتفـاضـة دوماً، لأنها ستكبر وتتعاظم في الثكنات، إلى أن يعجز الرصاص عن سحقها. حينئذ سيلتحم الجنود بالناس في الشارع، ومن الألم والعنف الذي تجاوز الحدود، سينبعث وطن جديد.

فرد عليه البر وفسور ليال:

ـ أنت تحلم يا بني! فحتى لو وجـد عسكـريـون مثـل مورانتي هذا، إلا أن جوهـر القـوات المسلحـة لن يتبـدل فالعسكـريتـاريـة تسببت في شرور فظيعـة للإنسانية، ولا بد من الغائها.



اخـيراً أصبحت ايـرين بيلتران في حالة تسمح لها بالحركة. حصل خوسيه ليال على جوازي سفر مزيفين، لها ولفرانثيسكو، ألصقت عليهما صورة كل منهما بوجهـه الجـديد. لم يكن التعرف عليهما ممكناً. فقد صار شعرها قصيراً ومصبوغاً، وعلى وجههـا نظـارة تبـدل من لون حدقتيهـا. فيـما صار هو بشارب كث ونظارة. تأملا نفسيهما أول الأمر جاهدين في التعرف أحدهما على الآخر، لكنهما ما لبثا ان اعتـادا على هذا التنكـر ونسيا وجهيهما اللذين أحبا بعضهما بهما. وفاجأ فرانثيسكو نفسه وهو يحاول أن يتذكر لون شعر ايرين الذي طالما فتنه. لقد أزفت اللحظة التي

عليهما فيها مغادرة عالمهما المعروف والالتحاق بموجة المشردين الهائلة التي عرفها عصرهم: المبعدين، المهاجرين، المنفيين، اللاجئين.

عشية الرحيل، ذهب آل ليال لوداع الفارين. فحبس ماريو نفسه في المطبخ ليعد العشاء، دون ان يسمح لأحد بمساعدته. ثم زين المائدة بأزهار وفواكه، بعد ان وضع عليها أفضل شرشف لديه، مبدياً استعداده بذلك للتخفيف من وطأة المأساة التي تلف الجميع. اختار موسيقى هادئة، وأضاء شموعاً، وراح يبرد النبيذ، متصنعاً بهجة كان بعيداً جداً عن الاحساس بها. ومع ذلك، فقد كان مستحيلاً تفادي موضوع الفراق الوشيك والمخاطر التي تترصد الشابين ما ان يضعا أقدامهما خارج هذا المخبأ.

قالت هيلدا ليال:

ـ بعد ان تجتازا الحدود يا ابنيّ، اظن انه عليكما الذهاب إلى بيتنا في ترويل.

وذهل الجميع، لأنهم كانوا يظنون ان هذه الذكرى هي واحدة من الذكريات التي محاها فقدان الذاكرة من ذهنها.

لكنها لم تكن قد نسيت أي شيء. حدثتهم عن ظل جبل الباراثين الهائل وهو يبدو مبتوراً في الشفق مثل هذه الجبال التي يمتد عند سفحها الوطن الذي تبناها؛ وعن الكروم الجرداء الحزينة الملتوية في الشتاء وهي تجمع الرحيق لتتفجّر أعناباً في الصيف؛ عن تلك الطبيعة الجافة والوعرة المحاطة بالجبال، وعن البيت الذي هجرته يوماً لتلحق برجلها إلى الحرب، بيت مهيب وبدائي مبني من الأحجار والخشب والقرميد، ذي نوافذ ضيقة مزودة بقضبان حديدية، ومدخنة شاهقة فيها أطباق من الخزف مغروسة في البناء وكأنها عيون تراقب عبر السنين.

كانت تذكر بدقة رائحة الحطب لدى اضرام النار في المساء، وشذى الياسمين والنعنع تحت النافذة، وبرودة ماء البئر، وصندوق البياضات، وحرامات الصوف على الأسرة. وساد بعد استحضارها لذكرياتها صمت طويل، بدا كما لو أن

روحها قد انتقلت خلاله إلى بيتها القديم. ثم قالت اخيراً، متجاوزة بكلماتها كل الزمن الذي انقضى وكل هذا البعد:

ـ البيت ما يزال ملكاً لنا. وهو ينتظركما.

فكر فرانثيسكو بأهواء القدر الذي أجبر والديه على هجر موطن ميلادهما والخروج إلى المنفى، ربما ليعيده اليه بعد سنوات طويلة للسبب ذاته. تخيل نفسه يفتح الباب بحركة مماثلة لحركة أمه حين أقفلته منذ نصف قرن، فأحس انه إنما كان يسير في حلقة طوال هذا الزمان. وأدرك أبوه ما يجول في ذهنه فتحدث عما عناه لهما هجر أرضهما والبحث عن آفاق اخرى؛ وكيف انهما احتاجا الشجاعة لمواجهة الآلام، والسقوط، واستنهاض قوى الروح من أجل الوقوف مرة وألف مرة، والاعتياد على العيش بين الغرباء. لقد صمدوا ثابتين وراسخين اينما حلوا، حتى ولو كان ذلك للبقاء اسبوعاً واحداً أو شهراً، لأنه لا شيء يستنزف الصلابة الداخلية مثل احساس المرء بانه عابر.

ـ ليكن الحاضر وحده معكما. لا تضيعا جهودكما في البكاء على الأمس أو الحلم بالغد. فالحنين يستنزف ويُفني، انه خواء المنفيين. عليكما ان تستقرا وكأنكما ستبقيان إلى الأبد، ولا بد لكما من الاحساس بالاستقرار.

هكذا انهى البروفسور ليال حديثه، فتذكر ابنه انه قد سمع الكلمات ذاتها من فم الممثلة العجوز.

قاد البروفسور فرانثيسكو جانباً. كان متأثراً، فعانقه وهو يرتعش وعيناه حزينتان. ثم أخرج من جيبه شيئاً صغيراً وقدمه اليه بارتباك: كانت تلك هي المسطرة الحسابية، الكنز الوحيد الذي يرمز إلى ألم هذا الفراق وصعوبته. وقال بصوت أجش:

ـ انها مجرد تذكار يا بني. لا نفع فيها لحساب الحياة.

لقد كان يحس ذلك فعلاً. فبعد مشوار حياته الطويل، أدرك عدم جدوى الحسابات. إذ لم يخطر بباله يوماً أن يجد نفسه متعباً وحزيناً فيما أحد أبنائه في القبر، وآخر في المنفى، وأحفاده بعيدون عنه في قرية منسية، وخوسيه، الوحيد

القريب منه، تهدده الشرطة السياسية. تذكر فرانثيسكو شيوخ «مشيئة الرب» فانحنى ليقبل جبهته، متمنياً بقوة ان يتمكن من ثني اهواء القدر كي لا يموت ابواه وحيدين.

حين لاحظ ماريو انهيار المعنويات، قرر تقديم العشاء. فوقفوا حول المائدة، عيونهم مخضلة وأيديهم متشجنة، ورفعوا الكؤوس معاً حين قال البروفسور ليال:

ـ نخب ايرين وفرانثيسكو. وليرافقكما الحظ يا ابنيّ.

وأضافت هيلدا دون أن تنظر اليهما، حتى لا يظهر حزنها:

ـ وأنا أضيف: نخب ازدياد حبكما يوماً بعد يوم.

حاولوا جاهدين للحظات الظهور بمظهر المحتفلين، فأطروا على الأطعمة اللذيذة وشكروا لطف هذا الصديق النبيل، لكن القنوط ما لبث ان خيم مثل ظل، واكتنفهم جميعاً. ولم يعد يُسمع في صالة الطعام سوى صوت الملاعق والزجاج.

كانت هيلدا تجلس إلى جوار ابنها الحبيب، تتأمله بعينيها، وترسم في ذاكرتها وإلى الأبد ملامح وجهه، وتعابير نظرته، والتجاعيد الخفيفة حول عينيه، وشكل يديه الطويلتين والصلبتين. كانت تمسك الشوكة والسكين بين أصابعها، لكن طبقها ما يزال على حاله. كانت صلبة في ألمها، وقادرة على كبح دموعها، لكنها لم تستطع اخفاء كآبتها. أحاط فرانثيسكو كتفي أمه بذراعه وقبل صدغها وهو متأثر مثلها. فهمست هيلدا في اذنه:

ـ إذا أصابك مكروه يا بني فلن أقدر على الاحتمال.

ـ لن يحدث أي مكروه يا أماه، اطمئني.

ـ ومتى سنلتقي ثانية؟

ـ قريباً، إنني واثق. وحتى ذلك الحين سنكون معاً بأرواحنا. مثلما كنا على الدوام..

انتهى العشاء بهدوء. وانتقلوا للجلوس في الصالة حيث راحوا ينظرون إلى

بعضهم بعضاً، ويبتسمون دون سعادة، إلى أن اقترب موعد حظر التجول مشيراً إلى لحظة الوداع. قادهما فرانثيسكو حتى الباب. كان الشارع في تلك الساعة مقفراً وساكناً، والأبواب موصدة، وليس هناك من نور يشع من النوافذ المجاورة، فكانت أصواتهم وخطاهم تثير صدى أصمّ يتردد مثل نذير شؤم في هذا الجو المقفر. كان على الوالدين ان يسرعا ليصلا إلى بيتهما في الوقت المناسب. تبادلوا العناق للمرة الأخيرة وهم متوترون وصامتون. اتحد الأب وابنه في عناق طويل وقوي، مليء بوعود وتنبيهات بكماء. ثم أحس فرانثيسكو بأمه بين ذراعيه، كانت ضئيلة وهشة، وجهها الذهبي ضائع في صدره، ففاض الدمع حينئذ، وأمسكت يداها النحيلتان بقماش سترته، وتشبثت به مثل طفل يائس، فأبعدها خوسيه واجبرها على الدوران والسير دون النظر إلى الخلف. رأى فرانثيسكو شبحي والديه المترددين والمحطمين والمنكمشين يبتعدان في الشارع المقفر. فيما بدا له شبح اخيه متماسكاً وصلباً، شبح رجل يعرف المخاطر التي تتهدده ويرضى بمصيره. وحين اختفوا عند المنعطف، انطلق من صدره نحيب وداع وفاضت إلى عينيه كل الدموع التي حبسها طوال تلك الليلة الرهيبة. انهار عند عتبة الباب ووجهه بين كفيه، تهزه أعمق مشاعر الحزن. وهناك وجدته ايرين، وجلست إلى جانبه صامتة.



لم يهتم فرانثيسكو ليال يوماً في احصاء عدد التعساء الذين مدّ إليهم يد المساعدة خلال تلك السنوات. لقد عمل أول الأمر منفرداً، لكن مجموعة من الأصدقاء راحت تتشكل من حوله شيئاً فشيئاً، تجمعهم الحماسة لمساعدة المطاردين، وتأمين اللجوء السياسي لهم عندما يكون ذلك ممكناً أو حملهم حتى الحدود عبر دروب مختلفة. كان يرى ذلك في البداية على انه مجرد عمل انساني وحتمي إلى حد ما، لكنه تحول مع مرور الوقت إلى نوع من الهوى. كان يتفادى المخاطر بمشاعر مضطربة، هي مزيج من الغضب والسعادة الضارية، وكان يشعر

بدوار المقامرين، وبتحفز القدر الدائم، لكنه لم يفقد خصائصه كرجل متيقظ حتى في اكثر لحظات تهوره، لعلمه انه سيدفع حياته ثمناً لأي سهو. كان يخطط أعماله حتى أدق تفاصيلها ويحاول تنفيذها دون مفاجآت، مما أتاح له أن يعيش على شفير الهاوية لزمن أو لآخر. لم تكن تراود الشرطة السياسية أية شكوك حول منظمته. وكثيراً ما كان ماريو وشقيقه خوسيه يعملان معه. وفي المرتين اللتين اعتقلوا فيهما الراهب، كانوا يستجوبونه حول نشاطاته في المطرانية وفي حيه وحسب، حيث كانت مطالبته بالعدالة وشجاعته في مواجهة السلطة واضحة تماماً. أما الحلاق، فكان يتمتع بمظهر مناسب. لأن زوجات الكولونيلات كن يترددن إلى صالونه، وكثيراً ما كانت تحمله سيارة مصفحة لتنقله إلى القصر القائم تحت الأرض، حيث تنتظره السيدة الأولى في ملجئها السعيد والمزخرف. فيوجهها في اختيار ملابسها ومجوهراتها، ويبتدع لها تسريحات جديدة يُبرز فيها سمو السلطة، ويبين لها رأيه في التحف الرومانية والمرمر الفرعوني وثريات الكريستال المصقول المجلوبة من الخارج لتزيين منزلها. وكانت شخصيات النظام البارزة تتردد على حفلات الاستقبال التي يقيمها ماريو، كما كانت تدور وراء البارابان الهندي الذي يقسم محل اثرياته، مفاوضات مع شبان ذوي مظهر حسن من أجل المتع المحرمة. وكانت الشرطة السياسية تنفذ الأوامر بحماية عملياته التهريبية، وتجارته، وادارته لرذائل سرية، دون ان تتصور أن المتأنق ذا الحظوة يستغفلها أمام أنفها.

كان فرانثيسكو قد قاد مجموعته في مهمات صعبة، لكنه لم يتصور انه سيعهد اليهم يوماً بانقاذ حياته وحياة ايرين.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً عندما وصلت شاحنة صغيرة محملة بنباتات غريبة وأشجار قزمة من أجل شرفات ماريو. نزل منها ثلاثة عمال يرتدون الافرهولات، والقبعات الواقية وأقنعة الحماية من المبيدات، فحملوا النباتات الاستوائية، وأزهار الكاميليا المتفتحة، وشجيرات البرتقال الصينية، ثم وصلوا الخراطيم بخزان مبيد الحشرات وراحوا يعقمون النباتات وقد غطوا وجوههم

بالأقنعة الواقية. وفيما وقف أحدهم ليراقب الممر، نزع الآخران ملابس عملهما بناء على اشارة من ماريو، وارتداها كل من ايرين وفرانثيسكو وغطيا وجهيهما بالأقنعة، ثم نزلا متمهلين ليلتحقا بالسائق وينطلقا دون أن يخطر لأحد أن يوجه نظرة ثانية اليهما. أمضيا بعض الوقت في التجول في المدينة، والتنقل من سيارة أجرة إلى اخرى، إلى ان التقيا عند ناصية أحد الشوارع بجدة عجوز ذات مظهر صريح البراءة، فسلمتهما مفاتيح سيارة صغيرة ووثائقها.

قال فرانثيسكو لايرين وهو يجلس وراء عجلة القيادة:

ـ كل شيء على ما يرام حتى الآن. كيف تشعرين؟

فردت ايرين الشاحبة، التي بدت وكأنها ستتحول إلى ضباب:

ـ على أحسن حال.

غادرا المدينة عبر الطريق الجنوبي. وكانت خطتهما تقتضي الوصول إلى ممر بين الجبال لاجتياز الحدود قبل ان يطبق حصار القمع عليهما. فاسم ايرين بيلتران وأوصافها كانت في حوزة السلطات على طول التراب الوطني وعرضه، وكانا يدركان انهما لن ينجوا من الدكتاتوريات المجاورة، لأن تلك الأنظمة كانت تتبادل المعلومات، والمعتقلين، والجثث. وكان يزيد في تلك المقايضات بعض الموتى لدى هذا الجانب وبطاقات هوية لدى الجانب الآخر، مما يسبب البلبلة عند التعرف على الضحايا، وكان يحدث ان يُعتقل شخص في هذا البلد ثم تظهر جثته مقتولاً في بلد آخر وباسم غريب، أويتلقى الأهل جثة مجهول ليدفنوها على انها جثة ابنهم. ورغم وجود من سيساعدهما في الجانب الآخر من الحدود، إلا أن فرانثيسكو كان يعلم انه لا بد له من سرعة التحرك للوصول إلى أية ديمقراطية في القارة أو إلى هدفه الأخير، إلى الوطن الأم، كما صار الفارون من أميركا يسمون اسبانيا.

قطعا الطريق على مرحلتين، لأن ايرين كانت ما تزال متعبة وغير قادرة على احتمال ساعات طويلة من الجلوس ثابتة. كانت تعاني الدوار والألم. يا حبيبتي المسكينة، لقد نحلت كثيراً في الأسابيع الأخيرة، وفقد نمش وجهك بريقه الذهبي تحت الشمس، لكنك جميلة مثلما كنت دوماً، رغم انهم قصوا شعرك

الملكي الطـويـل. لست أدري كيف أساعدك، أود لو ألقي آلامك ومخاوفك على كاهـلي، اللعنـة على الحـظ الـذي يقـودنا متعثرين والخوف مسلط على أفكارنا. كيف يمكن لي أن أعيدك يا ايرين إلى أزمنة الانعتاق، حين كنا نتنزه مع كليو في الجبل، حيث كنا نجلس تحت الأشجار لنتأمل المدينة تحت أقدامنا، ونشرب النبيذ على قمـة الـدنيـا شاعـرين أننـا أحرار ومخلدون؛ لم أكن أتصور في ذلك الحين اني سأقودك اليوم عبر هذا الطريق الطويل من الكوابيس، أقودك وأنا متيقظ الحواس، منتبـه إلى كل صوت، متر صـد ومـرتاب. مذ كادت تلك الرصاصات الرهيبة ان تشطـرك شطـرين، لم أجـد الـراحـة في النـوم ولا في اليقظة. عليّ أن أكون قوياً يا ايرين، أن أكون هائلاً وغير قابل للهزيمة كي لا يستطيع أي شيء الحاق الضرر بك، ولأحميـك من الألم والعنف. حين أراكِ على هذه الحـال، يضنيك الارهاق، مستندة إلى المقعد، مستسلمة لاهتزازات السيارة، وعيناك مغمضتان، أحس ان جزعـاً رهيبـاً يجثم على صدري، أخـاف أن أفقـدك، وأرغب في البقاء معك إلى الأبد وحمايتك من كل سوء، والسهر على نومك، ومنحك أياماً سعيدة..

توقفـا عنـد الغـروب في فنـدق ريفي صغـير. وقـد تأثر صاحبه لمنظر الفتاة الضعيفـة. وخطـواتها المترددة، وتلك الغيبوبة التي نفذت حتى عظامها، فرافقها حتى الغـرفـة وأصـر على تقـديم بعض الطعـام اليهـا. نزع فرانثيسكـو ملابس ايـرين، وسـوى الضـمادات الخفيفـة التي كانت تضعهـا للوقـايـة وساعدها على الاستلقـاء. أحضـروا لها حساء وكأس نبيذ دافىء ممزوج بالسكر والقرفة، لكنها لم تستطـع مجرد النظـر إلى الطعـام، فقد كانت مرهقة تماماً. استلقى فرانثيسكو إلى جوارهـا، فلفت ذراعيهـا حول جسـده، وألقت برأسهـا على كتفـه، ثم تنهـدت وغرقت للحال في النوم. لم يتحرك فرانثيسكو، وابتسم في الظلام سعيداً، كعادته كلما وجد انهما معاً. فتلك المرافقة الحميمة التي يعيشانها منذ عدة أسابيع كانت ما تزال تبـدو له كالمعجـزة. كان يعرف هذه المرأة حتى أعمق أسرارها، ولم يكن يرى سراً في عينيها الدخانيتين اللتين تتحولان إلى عينين ضاريتين في اللذة وتتخضلان سعيـدتـين حينـما تقـوم بجردة لغرامياتها. لقد جاب جسدها مرات ومرات إلى أن

أصبح قادراً على رسمها من الذاكرة، وواثقاً من انه سيتذكر حتى انتهاء حياته هذه الجغرافية الرقيقة المتماسكة؛ لكنه كلما امتلكها بين ذراعيه، طغت عليه الانفعالات الخانقة التي أحسها في لقائهما الأول.

استيقظت ايرين في اليوم التالي وهي تفيض حيوية وحماسة كما لو انها أمضت الليل في المرح، لكن طيب نواياها لم يكن كافياً لاخفاء لون الشمع الذي يصبغ بشرتها وهالات المرض التي تحيط بعينيها. قدم لها فرانثيسكو فطوراً غنياً، عساها تسترد شيئا من قواها، لكنها لم تكد تتذوق الطعام. كانت تنظر من النافذة وترى أن الربيع قد انتهى. فبعد زمن طويل قضته في أرض الموت، اكتسبت الحياة بالنسبة لها قيمة اخرى. كانت تشعر وهي مفتونة بتبدلات الدنيا، وتبدي امتنانها للأشياء الصغيرة التي يأتي بها كل يوم.

ركبا السيارة في وقت مبكر جداً، فأمامهما ساعات من السفر. اجتازا قرية ثملة بالضوء، ومرا أمام عربات الخضار، وبائعي المأكولات الخفيفة، والدراجات، والحافلات التي تغص بالركاب حتى ظهرها. دوت نواقيس الكنيسة، وتقدمت امرأتان عجوزان متشحتان بالسواد في الشارع. ومر رتل من التلاميذ مع معلمتهم باتجاه الساحة وهم يغنون: أيها الحصان الأبيض، خذني من هنا، احملني إلى وطني. إلى حيث ولدت. وكانت تنتشر في الجو رائحة خبز طازج وصوت جوقة من الزيزان والزرازير. كل شيء كان يبدو نظيفاً ومرتباً وهادئاً، والناس منهمكون في أعمالهم اليومية في جو من الأمان. ارتابا للحظة في سلامة عقليهما. ربما هما ضحية دوار أو وهم فظيع، وليس هناك من خطر يتهددهما. تساءلا إذا ما كانا يهربان من ظلالهما، ولكنهما لمسا حينئذ وثائقهما المزيفة التي تحرق جيوبهما، ورأيا وجهيهما المختلفين وتذكرا قضية المنجم. لا، ليسا مخبولين. وإنما الزمن هو الذي اختل.

سارا في هذه الدروب الأزلية لساعات، إلى أن فقدا القدرة على رؤية المشهد، وصار كل شيء يبدو لهما متشابهاً في آخر النهار. أحسا وكأنهما يسبحان في الفضاء. ولم يقطع رحلتهما سوى حواجز الشرطة التي في الطريق. وكلما قدما

وثـائقهـما أحسـا بالخـوف يسري في جسديهما مثل صدمة كهربائية تتركهما متعرقين وذاويـين. كان الحـراس يتصفحـون صورتيهـما وهم ساهـون ويشير ون اليهـما بمواصلة المسير. لكنهم أجبر وهما على النزول في احدى النقاط، وأوقفوهما لعشر دقائق كي يردا على أسئلة محددة، وفتشوا جميع أنحاء السيارة. وحين كانت ايرين على وشـك الصـراخ، واثقة من انهم قد اكتشفوا أمرهما أخيراً، سمح لهما الرقيب بمواصلة السير، وأوصاهما قائلاً:

- كونا على حذر، ففي هذه المنطقة يوجد ارهابيون.

لم يستطيعا التكلم لبعض الوقت، لأنهما لم يشعرا بالخطر قريباً منهما ومؤكداً كما شعر ا به حينئذ.

واستنتجت ايرين وهي مذهولة:

- الرعب أقوى من الحب والحقد.



تجاوزا ابتـداء من تلك اللحظـة الخوف بالسخرية منه، وتبادلا المزاح ليوفرا على نفسيهما مخاوف لا طائل من ورائها. وأدرك فرانثيسكو أن هذه هي نقطة الحياء الـوحيـدة لدى ايـرين. فقـد كانت تجهل جميع أشكال الحياء والخجل، وتستسلم لانفعالاتها بصفاء وبحرية مطلقة. انما كان يوجد في أعماقها حصن حياء متطرف. فهي تتورد أمام ذلك الضعف الذي تراه غير محتمل في الآخرين وغير مسموح به لها. لقـد كان الخـوف المكشـوف يملؤ ها بالحرج، فتحاول اخفاءه حتى عن عيني فرانثيسكـو. وكـان يقبـع في روحهـا خوف عميق ومطلق، لا يشبـه في شيء ذلك الخوف الأولي الـذي غالبـاً ما كانت تداريـه بالضحك. لم تكن تتصنع الشجاعة أمام حالات الذعر البسيطة، مثل ذبح خنزير أو سماع صرير باب في بيت مسكون بالأشبـاح، ومـع ذلك، فقد كانت تشعر بالخجل من هذا الشعور الجديد الملتصق بجلدهـا، والـذي اقتحم اعـماقها، وصار يدفعها إلى الصراخ وهي نائمة، وإلى الارتعاش وهي مستيقظة. كان وقع الكوابيس عليها قوياً في بعض الاحيان حتى

لا تعـود تعـرف ان كانـت تعيش حالمـة أم أنهـا تعيش. وفي تلك اللحظـات العابرة التي تطل فيها من عتبة حيائها، من عتبة خجلها، كان فرانثيسكو يزداد حبا لها.

غادرا اخيراً الطريق العام ودخلا في طريق الجبال، إلى أن وصلا إلى محطة استراحة، كان المنتجع مشهوراً في زمن مضى بمياهه التي تصنع المعجزات، لكن صناعة الأدوية الحديثة أغرقته في النسيان. كان البناء ما يزال يحتفظ بذكرى ماض مزدهـر، حين كان يستضيف في أوائـل القرن العائلات الراقية والأجانب القادمين من بعيـد بحثـاً عن الشفاء. لم يقوض الاهمال صالاته الفسيحة ذات الدرابزينات والافـاريـز، ولا اثـاثـه القـديم، ولا ثريـاتـه الـبر ونـزيـة وستـائـره ذات الهداب والشـراشيب. اعطـوهما حجرة فيها سرير ضخم وخزانة وطاولة وكرسيين عاديين. كانت الكهرباء تنقطع في ساعة معينة، فيتوجب على النزلاء حينئذ التجول على ضوء الشمـوع. وعنـد غيـاب الشمس، تنخفض درجة الحرارة بشكل مفاجىء، كما يحدث عادة في مثل هذه المناطق شاهقة الارتفاع، فيضرمون عندئذ في مداقىء الحطب جذوع أشجار شذية. وتدخل من النوافذ رائحة لاذعة من الأوراق الجافة التي تُحرق في الفناء. كان نزلاء الفندق، باستثنائهما، وباستثناء العاملين فيه، هم مرضى يعانون أمراضاً متنوعة أو متقاعدون يعالجون أنفسهم بالسلوى. كل شيء كان يسـير ببـطء ونعـومـة هنـاك، ابتـداء من خطوات النزلاء في الممرات، وحتى الصـوت الـرتيب المنبعث من مضخـات تضـخ الماء والوحل العلاجي في أحواض ضخمـة من المـرمـر والحـديـد. وفي أثنـاء النهـار، كان رتل من الآملين في الشفاء يتسلقـون حافـة هوة يتصـاعـد منها البخار، مستندين إلى عكاكيزهم، ومتدثرين بمـلاءات شاحبـة وكأنهم أرواح قديمة. وفي الأعلى، عند حافة البركان، حيث تتدفق ينابيع الماء الساخن وأعمدة كثيفة من البخار الكبريتي، يجلس المرضى وقد حجبهم الضبـاب. وعنـد الظهيرة، كانوا يقرعون ناقوساً في الفندق، فيتردد دويه المنادي في أرجاء الجبل، وفي الوهاد والكهوف الخفية. انه اشارة استدعاء مرضى الـرومـاتيزم والتهاب المفاصل، والمقروحين، والموسوسين، والمصابين بالحساسية،

والمسنين الذين لا شفاء لهم. فوجبات الطعام تقدم في ساعات محددة في صالة فسيحة تصدح فيها تيارات الهواء وتصلها روائح المطبخ.

ـ الأمر السيء الوحيد هو اننا لسنا في شهر العسل ـ قالت ايرين المفتونة بالمكان وهي تخشى ظهور دليلهما بسرعة، ليقودهما عبر الحدود.

تعانقا فوق الفراش الذي وفره لهما الحظ بعد الرحلة المضنية، وفقدا في الحال احساسهما بالزمن. وعندما أيقظتهما أول أنوار الفجر المشع، لاحظ فرانثيسكو باطمئنان ان حالة ايرين أفضل بكثير مما كانت عليه في اليوم السابق. بل انها أعلنت انها تشعر بجوع مثل جوع بحار. ارتديا ملابسهما بعد ان مارسا الحب وخرجا لاستنشاق هواء الجبال. كانت حركة النزلاء الذاهبين إلى الحمامات الحارّة تبدأ منذ الصباح الباكر. وفيما كان الآخرون يحاولون الاستشفاء، انهمك الشابان في ملء الساعات المتاحة لهما بالحب وبالقبلات المختلسة والوعود الأبدية. أحبا بعضهما وهما يسيران على ممرات البركان الوعرة، وأحبا بعضهما وهما جالسان على دبال الغابة الشذي، وأحبا بعضهما هامسين وسط البخار الحلزوني الأصفر المنطلق من الينابيع الكبريتية، إلى ان حضر عند انتصاف النهار رجل جبلي ينتعل حذاء بدائياً من الجلد، وعباءة سوداء وقبعة بلا حواف، ويقود ثلاث دواب ويحمل خبراً سيئاً:

ـ لقد وجدوا طريقكما. عليكما بالرحيل اليوم بالذات.

ـ بمن أمسكوا؟ سأل فرانثيسكو وهو خائف على اخيه، وعلى ماريو، وعلى كل اصدقائه الآخرين.

ـ لم يمسكوا أحداً. صاحب الفندق الذي قضيتم عنده الليلة الفائتة ارتاب بأمركم ووشى بكم.

ـ اتستطيعين ركوب الحصان يا ايرين؟

فابتسمت:

ـ أجل.

لف فرانثيسكو خصر صديقته بمشد متين، لتتحمل الاهتزازات فوق ظهر

الـدابـة. وحملوا امتعتهـا وانطلقـوا سائـرين وراء بعضهم في سيل يكاد يكون غير مرئـي، يؤدي إلـى درب منـسي بين نقطـتي حدود، كان فيـما مضـى طريـقـاً للمهـربـين. حين اختفت آثـار الطريق تماماً، وقد ابتلعتهما هذه الطبيعة الجامحة، استرشـد الـدليـل بعلامات محفورة على جذوع الأشجار. لم تكن تلك هي المرة الأولى ـ ولن تكون الأخيرة ـ التي يستخدم فيها هذا الطريق مطموس المعالم لانقاذ المـلاحقـين. ساروا دون توقف لساعات. ولم يلتقوا خلال الطريق بكائن بشري؛ فقـد كانـوا يجوسـون في عزلة بشرية، بـاردة وبلا ضفاف، في متاهة من الخضرة لا يمشي فيها سواهم. وسرعان ما وصلوا إلى حيث بقع الثلج الضخمة المتبقية من فصل الشتـاء. نفذوا إلى الغيوم الواطئة، وأحاط بهم زبد لا يمكن الامساك به، محا من حولهم آثـار الحيـاة. وعنـدمـا خرجـوا من بين الغيوم ظهرت سلسلة الجبال فجأة أمام عيونهم وهي تتلوى إلى اللانهاية بقممها البنفسجية، وبراكينها المعممة بالبيـاض، بوديـانهـا وانكساراتها، وبكتلها الثلجية التي تذوب في الصيف. وبين الحين والآخر كانوا يلمحون صليباً مغروساً في مكان قضى فيه نحبه أحد المسافرين الـذين تصـرعهم الـوحشـة، فيرسم الـدليـل الجبـلي شارة الصليب بخشـوع، ليستنهض هممهما.

كان الـدليـل يمضي في المقدمة، ووراءه ايرين، فيما يقفل فرانثيسكو الرتل دون أن يرفـع نظـره عن حبيبتـه، متأهباً لأي بادرة ارهاق أو ألم، ولكن الفتاة لم تُبدِ علائم التعب. كانت تسلم نفسهـا لخطى البغلة الثـابتـة، وعينـاهـا هائمتـان في الطبيعـة العجيبـة المحيطـة بها، وروحهـا تدمع. انها تودع بلدها. كانت تضع في صدرها، تحت ملابسها، لفافة التراب الصغيرة التي بعثتها اليها روسا لتزرع فيها نبتة لا تنسيني في الجانب الآخر من البحر. كانت تفكر بحجم خسارتها: لن تعود إلى السير في شوارع طفولتها، ولا إلى سماع نبرة لغتها الهجينة العذبة؛ ولن ترى جبـالهـا عنـد الغـروب، ولن يهدل لها خريـر أنهـارهـا، ولن تشم شذى الحبق في مطبخهـا ولا رائحـة المطـر الـذي يتبخر على سطح بيتها. لن تفقد روسا، وأمها، وأصدقاءها، وعملها وماضيها فقط، بل ستفقد وطنها أيضاً. بكت:

ـ بلدي . . . . بلدي . . .

فأسرع فرانثيسكو على بهيمته ليسير الى جانبها ويمسك بيدها .

عندما خيم الظلام ، قرروا ان يعسكروا لقضاء الليل ، لأنه لا يمكن التقدم دون ضوء في متاهة الجبال تلك ، ذات المنحدرات الجرداء ، والوهاد الرهيبة والوديان التي بلا قرار . لم يتجرأوا على اشعال نار ، خشية وجود دوريات رصد قرب الحدود . وتقاسم الدليل معهما اللحم المملح والقاسي ، وقطعة الخبز اليابسة والخمر الذي كان يحمله في خُرْجه . تدثروا جيداً بالعباءات الثقيلة وقبعوا بين البهائم محتضنين بعضهم بعضاً وكأنهم ثلاثة اخوة ، لكن البرد نفذ رغم ذلك إلى عظامهم وأرواحهم . وأمضوا الليل يرتجفون تحت سماء كئيبة ، رمادية ، سوداء الثلج ، يحيط بهم حفيف خفيف وصفير ناعم ، تطلقه أفواه الغابة اللانهائية .

اخيراً طلع الفجر وتقدم الصبح مثل زهرة نار ، مجبراً العتمة على التراجع ببطء . أشرقت الشمس وتبدى جمال المشهد الثقيل أمام أعينهم مثل عالم حديث النشوء . نهضوا واقفين ، ونفضوا الأوراق الجافة عن أغطيتهم ، وحركوا أعضاءهم الخدرة وشربوا ما تبقى من الخمر ليستردوا الحياة .

قال لهما الدليل وهو يشير إلى نقطة بعيدة :

ـ الحدود هناك .

فقرر فرانثيسكو:

ـ فلنفترق هنا اذن . ثمة من ينتظرنا في الجانب الآخر .

ـ عليكما مواصلة الطريق مشياً على الأقدام . اتبعوا العلامات المحفورة على الأشجار ولن تضلا ، فالطريق آمن . حظاً سعيداً أيها الرفاق . .

عانقاه مودعين . ورجع الدليل على أعقابه مع البهائم ، فيما واصل الشابان طريقهما باتجاه الخط الوهمي الذي يفصل هذه السلسلة الهائلة من الجبال والبراكين . أحسا بالضآلة ، والوحدة ، والهشاشة . . بحاران وحيدان في بحر من القمم والغيوم ، في الصمت القمري ؛ لكنهما أحسا كذلك أن حبهما قد اكتسب بعداً جديداً وانه سيكون حصنهما الوحيد في المنفى .

وعلى ضوء الفجـر الـذهبي، توقفا لينظرا إلى أرض وطنهما للمرة الأخيرة.
فهمست ايرين:
- هل سنعود؟
ورد فرانثيسكو:
- سنعود.
وسترسم هذه الكلمة مصيرهما خلال السنوات التالية: سنعود، سنعود..

تدور الروايه في دولة من دول أمريكا اللاتينية، وتبنيها على واقعة حقيقية حصلت في بلدة لونكين، حيث تم اكتشاف مدفن سري في منجم مهجور، أخفى فيه رجال الدرك جثث خمسة عشر فلاحا من أهالي المنطقة. تنسج إيزابيل قصة حب خلف تلك الظلال القاتمة، لتمدنا بالأمل، وتؤكد على المشاعر الإنسانية الراقية التي لا يزلزلها ظلم، ولا تمحو وجودها تعقيدات الواقع.